

نيكوس كازانتزاكي

زوربا

رواية

دار الآداب

زوربا

نيكوس كازنتزاكي

زوربا

رواية

ترجمة جورج طرابيشي

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الثالثة
كانون الثاني ١٩٧٨

نيكوس كازنتزاكي

نيكوس كازنتزاكي وجه من أشهر وجوه الأدب اليوناني المعاصر ٠ وهو ، بالاضافة الى كونه شاعراً ذا الهام ملحمي ، وروح شمولية ، قد عبَّر عن نفسه بقوة مماثلة في المأساة ، والرواية ، والدراسة الفلسفية ٠ لقد نهل مادته من الاساطير القديمة أو من الفولكلور الحالي لبلاده ، فبنى عملا يونانياً نموذجياً ، استقبل ، بالرغم من طابعه القومي ، بحماسة في البلدان الشمالية والانجلوساكسونية وسائر بلدان العالم ٠

ولد نيكوس كازنتزاكي عام ١٨٨٥ في كاندي بجزيرة كريت ٠ ودرس الحقوق في جامعة آثينا ، وتوجّه الى باريس حيث تابع دروس برغسون الذي أصبح من تلاميذه الأوائل ٠ ثم عاد الى اليونان وبدأ بنشر أعماله الشعرية والفلسفية الاولى ٠ وقد قطع انتاجه ليقوم بسلسلة من الرحلات الوثائقية وزار انجلترا ، واسبانيا ، وروسيا ، ومصر ، والصين ، واليابان ، الخ ٠ وقد ظهرت انطباعاته عن هذه الرحلات في اليونانية وهي تعتبر تحفا ادبية في نوعها٠

في عام ١٩٤٦ ، دخل الحياة السياسية اليونانية ٠ وعين رئيساً للمجلس الاعلى للحزب الاشتراكي ، ثم وزيراً ، لكنه استقال ليستأنف نشاطه الادبي في حرية ٠

في عام ١٩٤٧ ، ذهب الى فرنسا حيث ادار فترة من الوقت مكتب ترجمة الكلاسيكيات الانسانية ، التابع لليونسكو ٠ ثم اقام في الآنتيب ٠ الى ان توفي عام ١٩٥٧ ٠

تضمُّ أعماله الكثيرة الهامة أنواعاً عدة ٠ فمنها الدراسات الفلسفية ، وعلى الأخص دراسته عن نيتشه وبرغسون ، ومآسٍ عدة اشهرها « ميليسا »

و « تيتيوس » ، ودواوين شعرية ، اهمها « الاوذيسة » وهي ملحمة من (٣٣٠٠٠) بيت تبدأ من حيث انتهت اوذيسة هوميروس ٠

ومن بين رواياته يجب ان نذكر : « الثعبان والزنبقة » و « النفوس المحطمة » و « المسيح الذي اعيد صلبه » و « التجربة الاخيرة » ، و « القبطان ميشيل » أو « الحرية أو الموت » و « باكس وبونوم » ٠ وقد كتب روايتين باللغة الفرنسية مباشرة : « تودار بارا » و « حديقة الصخور » ٠ ولا شك في ان اهم رواياته على الاطلاق هي الرواية التي بين يدي القارىء والتي ترجمت الى العديد من اللغات الحية ٠ وقد اخرج عدد من رواياته الى السينما ، كما رشح عدة مرات لنيل جائزة نوبل ٠

وأخيراً ، فان نيكوس كازنتزاكي قد ترجم عدداً من الكتب الهامة الى اليونانية الحديثة عن الفرنسية والاسبانية والانجليزية ، والايطالية ، والالمانية٠ وأهم ترجماته هي : الكوميديا الالهية لدانتي (شعرا) ، وفاوست لغوته (شعراً) ، وهكذا تكلم زرادشت لنيتشه ٠

- ١ -

التقيت به لأول مرة في ميناء «بيريه» • كنت أقصد المرفأ لأستقل المركب الى كريت • كان النهار على وشك الطلوع • والسماء تمطر • وثمة ريح جنوبية شديدة تهب ، ورذاذ الامواج يصـــل حتى المقهى الصغير • كانت الابواب الزجاجية مغلقة ، والجو عبقاً بالعفونة البشرية وبنقيع القويسة المغلي • كان الطقس بارداً في الخارج ، وزفير الانفاس يندي الزجاج • وكان ثمة اربعة أو خمسة من البحارة من الذين سهروا الليل بأكمله ، ملتفيـن في صداريهـــم القاتمة ، المصنوعة من وبر الماعز ، يحتسون القهوة او القويسة وينظرون الى البحر عبر الزجاج الكابي • وكانت الاسماك التي سببت لها الدوار ضربات البحر قد وجدت مخبأ في مياه الاعماق الهادئة ، حيث كانت تنتظر ان تعود السكينة الى السطح • وكان الصيادون المتجمعون في المقاهي ينتظرون بدورهم نهاية العاصفة وعودة الاسماك ، مطمئنة ، الى السطح لتعض الطعم • وكانت اسماك الموسى وشياطين البحر والورنك تعود من رحلاتها الليلية • والنهـــار يشرق •

وانفتح الباب الزجاجي ، ودلف منه عامل قصير ، دبغي اللون ، عاري الرأس ، عاري القدمين ، ملوث من رأسه الى اخمص قدميه •

وهتف نوتي مسن يرتدي ثوبا بلون الافق الازرق :

ـ مرحباً ! يا كوستاندي • كيف حالك ايها الشيخ ؟

وبصق كوستاندي • وأجاب بفظاظة :

ـ وكيف تريدني ان أكون ؟ صباح الخير ايها الحان ، مساء الخير ايها المنزل • صباح الخير ايها الحان ، مساء الخير ايها المنزل ! تلك هي حياتي •

بطالة دائمة !

وأخذ بعضهم يضحك ، بينما هز آخرون برؤوسهم وهم يجدفون ٠

وقال رجل له شارب ، درس الفلسفة على يد « القراقوز » :

ـ العالم سجن مؤبد ٠ نعم سجن مؤبد ، عليه اللعنة !

وغمر الزجاج القذر نور شاحب هادىء يتـأرجح بين الازرق والاخضر ، ودلف الى المقهى ، وتعلق بالايدي والانوف ، والجباه ، ثم قفز الى المدفأة واضاء الزجاجات ٠ ووهنت الانوار الكهربائية ، وقدم صاحب المقهى يده باسترخاء بعد تلك الليلة البيضاء ، واطفأ النور ٠ وسادت لحظة صمت ٠ وارتفعت جميع العيون ونظرت الى النهار الموحل في الخارج ٠ وسمعت الامواج وهي تتحطم هادرة ، وقرقرة بضع نارجيلات داخل المقهى ٠

وتنهد النوتي المسن :

ـ قل ! ما الذي يمكن ان يكون قد حدث للكابتن ليموني ؟ ليكن الله في عونه !

والقى نظرة غضبى على البحر ٠ ثم صرخ :

ـ يا للبحر اللعين ، صانع الارامل !

وعض على شاربه الرمادي ٠

كنت جالساً في احدى الزوايا ، والبرد يتأكلني ، وطلبت قدحاً ثانياً من القويسة ٠ كنت أرغب في النوم ، واغالب النعاس والتعب وكآبة الفجر ٠ وأرنو عبر الزجاج الندي الى المرفأ الذي أخذ يستيقظ ويزعق بصافرات البواخر ، وبصراخ سائقي العربات والملاحين ٠ ومـع ادامة النظر ، اطبقـت على قلبي ، بخيوطها المشدودة ، شبكة خفية حبكت من البحر والمطر والرحيل ٠

كانت عيناي عالقتين بمقدمة مركب كبير أسود ، وكان هيكله كله لا يزال غارقا في الليل ٠ كانت السماء تمطر ، بينما كنت ألمح خيوط المطر تربط السماء بالوحـل ٠

كنت انظر الى المركـب الاسود ، والظلال ، والمطر ، وتجسّدت كآبتي ٠ وعاودتني الذكريات ٠ وفي الجو الندي راح يتحدد وجه الصديق الحبيب من خلال المطر والتأسفات ٠ أكان ذلك في العام الماضي ؟ في دنيا أخرى ؟ البارحة ؟ متى نزلت الى هذا المرفـأ لأودّعه ؟ انني لا أزال اذكر المطر ايضـا ، والبرد ،

والفجر ٠ في تلك المرة ايضا كان قلبي مثقلا ٠

يا لمرارة الافتراق ببطء عن الاحباء ! من الافضل الانقطاع عنهم مرة واحدة ، والعودة الى الوحدة ، وهي جو طبيعي للانسان ٠ ومع ذلك ، في ذلك الفجر الممطر ، لم أكن لأستطيع الانفصال عن صديقي ٠ (فيما بعد ، فهمت لماذا ، بعد فوات الاوان مع الاسف) ٠ لقد صعدت معه الى المركب ، وجلست في مقصورته ، بين الحقائب المتناثرة ٠ كنت انظر اليه ملياً وبالحاح ، بينما كان انتباهه منصرفا الى مكان آخر ، وكأنني أود ، ان اسجل ملامحه ، الواحد تلو الآخر ، في ذاكرتي : عينيه المضيئتين بلون أزرق اخضر ، ووجهه المليء ، والتعبير النفاذ المترفع المرتسم عليه ، وفوق كل شيء ، يديه الارستقراطيتين بأصابعهما الطويلة النحيلة ٠

وفجأة ، باغت نظرتي الجشعة البطيئة المنسابة عليه ٠ فالتفت وعلى وجهه تلك السخرية التي يلجأ اليها عندما يريد أن يخفي انفعاله ٠ ونظر الي ٠ وفهم ٠ وسألني بابتسامة ساخرة ليخفي كآبتنا :

ـ الى متى ؟

ـ ماذا : الى متى ؟

ـ ٠٠٠ هل ستستمر في مضغ الورق والتلوث بالحبر ؟ تعالَ معي ، أيها المعلم العزيز ٠ هناك ، في القوقاز ، آلاف البشر من عِرْقنا في خطر ٠ هيا لانقاذهم ٠

وأخذ يضحك وكأنه يريد الهزء من مقصده النبيل ٠ وأضاف :

ـ من الممكن ألا نستطيع انقاذهم ٠ ولكننا سننقذ انفسنا بمحاولتنا انقاذ الآخرين ٠ أليس هذا ما تعظ به ، أيها المعلم ؟ « الطريقة الوحيدة لانقاذ نفسك هي ان تناضل لانقاذ الآخرين ٠٠٠ » ٠ اذن ، الى الامام ، أيها المعلم ، انت الذي تعظ جيدا جدا ٠ تعال !

ولم أجب بشيء ٠ يا أراضي الشرق المقدسة ، يا أم الآلهة ، أيتها الجبال العالية حيث تعالت صيحات بروميثيوس المستنكرة ٠ ان عرقنا المسمَّر مثله على هاتيك الصخور نفسها ، كان ينادي ٠ كان يواجه الخطر مرة أخرى ، وينادي أبناءه لنجدته ٠ وكنت انا أصغي اليه ، غير مبالٍ ، وكأن الألم لم يكن الا حلماً والحياة مأساة آسرة ، يثبت فيها من يسرع الى المسرح ويأخذ حصته من العمل ، غلاظته وسذاجته ٠

ونهض صديقي ، دون ان ينتظر جواباً ٠ لقد صفر المركب للمرة الثالثة ٠

ومد لي يده ، مخفيا مرة اخرى انفعاله تحت ستار السخرية ، قائلا :

ــ الى اللقاء أيها الفأر قارض الورق !

كان صوته يرتجف · كان يعرف انه لأمر يدعو الى الخجل ألا يستطيع السيطرة على قلبه · الدموع ، الكلمات الرقيقة ، الحركات المضطربة ، والعواطف المبتذلة ، كل ذلك كان يبدو له ضعفاً ولا يليق بالانسان · اننا لم نتبادل قط ، نحن اللذين كنا نحب بعضنا بعضاً كثيراً ، اية كلمة تودد · كنا نمثل ونتخادش كما تفعل الحيوانات · هو ، الانسان الرقيق ، الساخر ، الدمث · وانا ، البربري · هو ، الذي يسيطر على نفسه ، ويستنفذ بسهولة كل انفعالات روحه بابتسامة · وانا ، الجلف ، الذي ينفجر بضحكة خرقاء وحشية ·

وحاولت ، انا ايضاً ، ان أخفي اضطرابي تحت ستار كلمة قاسية ، الا انني شعرت بالخجل · لا ، ليس لأنني شعرت بالخجل ، ولكنني لم أستطع · وشددت على يده · وتشبثت بها ، ولم أتركها · ونظر اليّ ، دهشاً · ثم قال وقد ارتسم على شفتيه شبح ابتسامة :

ــ أمنفعل ؟

فأجبته بهدوء : نعم ·

ــ لماذا؟ ما الذي قررناه؟ ألم نتفق منذ عدة سنوات؟ ماذا يقول اليابانيون الذين تحبهم كثيراً ؟ « فودوشيم » !

سكينة ، اطمئنان ، وعلى الوجه قناع مبتسم لا يتحرك · اما ما يجري وراء القناع ، فهذا من شأننا ·

فأجبت من جديد : « نعم » وانا أحاول ألا احرج نفسي بالقاء جملة طويلة · لم أكن واثقاً انني أستطيع منع صوتي من الارتجاف ·

وتعالى صوت الجرس ، يطرد الزوار ، من مقصورة لأخرى · كان المطر يهطل بهدوء · وامتلأ الجو بكلمات الوداع الحزينة ، وبالايمان ، وبالقبلات الطويلة ، وبالتوصيات السريعة اللاهثة · كانت الأم تتهافت على ولدها ، والمرأة على زوجها ، والصديق على صديقه · وكأنهم يفترقون للأبد · وكأن هذا الفراق يذكرهم بالفراق الآخر ، « الفراق الكبير » · وتعالى الصوت العذب فجأة ، من المؤخرة الى المقدمة ، في الهواء الرطب ، كناقوس جنائزي · وارتعدت ·

ومال صديقي اليّ ، وقال بصوت منخفض :

ـ أصغِ ، أينذرك قلبك بشرّ ؟
فأجبت :
ـ نعم ٠
ـ أتؤمن بمثل هذه الترّهات ؟
فأجبت برباطة جأش :
ـ كلا ٠
ـ اذن ؟
لم يكن ثمة مجال لـ « اذن » ٠ انني لا اؤمن ، لكنني كنت خائفا ٠

ووضع صديقي يده اليسرى على ركبتي بلطف ، كما اعتاد أن يفعل في اللحظة الاكثر وداً من مناقشاتنا ٠ كنت أدفعه لاتخاذ قرار ما ، وكان يقاوم ، ويرفض ، ليستسلم في النهاية ، وعندئذ يلمس ركبتي وكأنه يريد ان يقول : « سأفعل ما تريد ، من أجل الصداقة ٠٠٠ » ٠

وطرفت جفونه مرتين أو ثلاثاً ٠ وحدق فيّ من جديد ٠ لقد فهم انني كنت حزيناً ، وتردد في استعمال اسلحتنا المفضلة : الضحك ، والابتسام ، والسخرية ٠٠٠ وقال :

ـ حسناً ٠ اعطني يدك ٠ اذا ما واجه احدنا خطر الموت ٠٠٠

وتوقف ، كأنه شعر بالخجل ٠ نحن اللذين كنا نسخر ، منذ سنوات ، من هذه « الغارات » الميتافيزيقية بالنباتيين ، والروحيين ، والمتصوفين ، ومحضري الارواح ٠٠٠

وسألته وأنا أحاول ان أحزر :
ـ اذن ؟
فأجاب بسرعة ليخرج من الجملة الخطرة التي وضع نفسه فيها :
ـ لنأخذ الامر على سبيل اللهو ٠ اذا ما واجه احدنا خطر الموت ، فليفكر بالآخر بالحاح كثير ، ليحذّره ، حيثما كان ٠٠٠ اتفقنا ؟

وحاول ان يضحك ، لكن شفتيه لم تتحركا ، وكأنهما قد جمدتا ٠ فقلت :
ـ اتفقنا ٠

واسرع صديقي يضيف ، وقد خشي أن يكون قد اظهر اضطرابه كثيراً :
ـ انني لا اؤمن مطلقاً ، بالتأكيد ، بمثل هذه الاتصالات الهوائية بين الارواح ٠٠٠
فتمتمت :

ـ هذا لا يهم · لكن · · ·
ـ حسناً · اذن ، فليكن · لنمثّل · اتفقنا ؟
فأجبت من جديد :
ـ اتفقنا ·

كانـت تلك آخر كلماتنا · وتصافحنا دون أن نفوه بشيء ، والتقـت اصابعنا ، بحرارة ، ثم افترقت فجأة ، وغادرته بخطا سريعة دون ان التفت ، وكأنني مطارد · وبدرت مني حركة لأدير رأسي وأرى صديقي للمرة الاخيرة ، لكنني تمالكت نفسي · وأمرتها : « لا تلتفت ! امشِ ! »

ان الروح الانسانية ، المتمرغة في الجسد ، لا تزال في الحالة الخام ، غير كاملة · انها عاجزة ، بما في ملكاتها من نقص في التطور ، عن التنبؤ بشكل واضح وأكيد · ولو كانت قادرة على ذلك ، لكان ذلك الفراق مختلفا جداً · كان الضوء ينبلج أكثر فأكثر · واختلط الصباحان · انني أرى الآن بشكل أوضح وجه صديقي الحبيب ، الذي بقي تحت المطر ، ساكناً ، حزيناً ، في جو المرفأ · وانفتح باب المقهى ، وهدر الموج ، ودخـل بحـار ، قصير ، منفرج الساقين ، له شاربان متدليان · وتعالت أصوات ، مرحة :

ـ مرحباً ايها الكابتن ليموني !

وانزويت ، محاولا تثبيت الرؤية من جديد · لكن وجه صديقي كان قد ذاب في المطر ·

كان الضوء يزداد ، وأخرج الكابتن مسبحته المكهربة وراح يمرّرها تحت ابهامه ، بقسوة وصمت · كنت اقاوم كي لا أرى ، كي لا اسمع وكي اتشبث اكثر فأكثر بالرؤية التي كانت تتلاشى · أن اعيش مرة أخرى ايضا ذلك الغضب الذي تملكني آنذاك ، غضباً يمازجه الخجل ، حين دعاني صديقي بـ « الفأر قارض الورق » ! وانني لأذكر منذ ذلك الحين ان كل قرفي مـن الوجود الذي كنت اعيشه قد تجسّد في هذه الكلمة · كيف تركت نفسي أتيه ، منذ زمن طويل ، انا الذي كان يحب الحياة كثيراً ، بين تلك الاكداس من الكتب والاوراق المسودة ! لقد ساعدني صديقي ، في يوم الفراق ذاك ، على الرؤية بوضوح · فاطمأننت · أما وقد أصبحـت الآن اعرف اسـم شقائي ، فلعلني سأستطيع ان أقهره بسهولة أكبر · ان شقائي لم يعد متفرقاً وغير متجسد ، لقد دخل في الكلمة ، لقد تجسّد وأصبح من السهل عليّ مقاومته ·

لقد تغلغلت هذه الكلمة فيّ بالتأكيد، دون ضجة، ورحت أبحث منذ ذلك

الحين عن ذريعة لأهجر الاوراق والقي بنفسي في العمل • لقد كان يقرفني ان تسكن بين اثاث بيتي تلك الحشرة القراضة البائسة • وها قد سنحت لي ، منذ شهر ، تلك الفرصة التي طالما تمنيتها • لقد استأجرت على أحد شطآن جزيرة كريت ، من جانب بحر ليبيا ، منجماً قديماً مهجوراً للينيت ، وسأذهب الآن لأعيش مع بشر بسطاء ، وعمال ، وفلاحين ، بعيداً عن جنس الفئران قارضة الورق • وهيأت لوازم الرحيل ، وانا بالغ الانفعال ، وكأن هذا السفر يخفي وراءه معنى من المعاني • لقد قررت أن أبدل طريقة حياتي • وقلت لنفسي : « حتى اليوم يا نفسُ ، لم تكوني لتريْ سوى الظل ، وكنت تكتفين به ، أما الآن فسأقودك الى الجسد » •

لقد اصبحت مستعداً أخيراً • وعشية رحيلي ، وبينما كنت افتش بين أوراقي ، وجدت مخطوطا لم ينته بعد • فأخذته ونظرت اليه ، بتردد • منذ سنتين ، في اعمق اعماق نفسي ، كانت ثمة رغبة كبيرة ترتعش : بوذا • كنت احس بها في كل لحظة في احشائي تتأكلني وتنضج • كانت تنمو ، وتتحرك ، ثم أخذت ترفسني في صدري لتخرج • والآن لم اعد اجرؤ على الالقاء بها • انني لا استطيع ذلك • لقد فات الاوان لمثل هذا الاجهاض الروحي •

وفجأة ، وبينما انا ممسك بالمخطوط بتردد ، ارتسمت ابتسامة صديقي في الهواء ، مليئة بالسخرية والحنان • فقلت وقد لسعت : « سآخذه ، سآخذه ، لا تبتسم ! » • ولففته بعناية ، كطفل في قماطه ، وحملته •

وتناهى الي صوت الكابتن ليموني ، وقوراً وجافاً • وأصغيت • كان يتحدث عن العفاريت التي تسلقت اثناء العاصفة صواري مركبه وراحت تلعقها •

كان يقول :

ــ انها لدنة ولزجة ، وعندما يلمسها الانسان يحسّ بالنار في يديه • ورفعت رأسي دفعة واحدة ، وطوال الليل كنت ألمع كشيطان • عند ذاك ، وكما قلت لكم ، دخل الماء الى مركبي • وتبللت شحنتي ، وثقلت ، ومال مرْكبي • لقد قضي علي • لكن الاله الرحيم اشفق عليّ وأرسل لي صاعقة طيبة ، حطمت مصاريع كوى المخزن وسقط الفحم • امتلأ البحر بالفحم ، وخف ثقل المركب ، وعند ذاك انتصب من جديد • وهكذا انقذت نفسي في هذه المرة أيضا •

أخرجت من جيبي كتاب دانتي الصغير ، « رفيق السفر » • واشعلت غليوني ، واسندت ظهري الى الجدار ، وجلست مرتاحاً • وترددت رغبتي

لحظة : من أين أنهل الاشعار ؟ من قار الجحيم المحرق ، من شعلة المطهر المبردة، أو اطير رأساً الى أعلى طابق للأمل البشري ؟ كان لي الخيار • وكنت امسك بكتاب دانتي الصغير ، واتذوق حريتي • ان الاشعار التي سأختارها في هذا الصباح الباكر ستعطي الايقاع ليومي كله •

وانحنيت على الرؤية الكثيفة لاتخذ قراراً ، لكن الوقت فاتني • ورفعت رأسي ، فجأة ، قلقاً • لست ادري كيف ، فقد شعرت ان ثقبين انفتحا في أعلى جمجمتي ، واستدرت فوراً ، ونظرت خلفي خلال الباب الزجاجي • وبسرعة البرق ، عبر نفسي الأمل المجنون برؤية صديقي ثانية • كنت على استعداد لتلقي المعجزة • لكن المعجزة لم تحدث • كان ثمة شخص مجهول ، يقارب الستين ، طويل القامة جداً ، نحيل ، جاحظ العينين ، قد الصق أنفه بالزجاج وراح ينظر الي ، وكان يمسك بصرة صغيرة مسطحة تحت ابطه •

ان ما أثارني فيه أكثر من أي شيء آخر ، هو عيناه ، الحزينتان ، القلقتان ، الهازئتان ، المتألقتان • أو هكذا بدتا لي على الاقل •

وما ان تصالبت انظارنا ــ وكأنه كان يتأكد من انني أنا الذي يبحث عنه ــ حتى مدّ المجهول يده بحزم وفتح الباب • ومر بين الموائد بخطا سريعة ومرنة وتوقف امامي • ثم سألني :

ــ أمسافر ؟ الى اين اذن ؟

ــ الى كريت • لماذا ؟

ــ أتأخذني معك ؟

ونظرت اليه باهتمام • خدان اجوفان ، وفك قوي ، ووجنتان ناتئتان ، وشعر رمادي مجعد ، وعينان يقدح منهما الشرر •

ــ لماذا ؟ ماذا تريد ان افعل بك ؟

فهزّ كتفيه وقال باحتقار :

ــ لماذا ! لماذا ! ألا نستطيع ان نفعل شيئا دون لماذا ؟ من أجل لا شيء ، لمجرد اللذة ! حسناً ، خذني معك ، ولنقل ، كطباخ • انني احسن صنع الحساء بأنواعها !

ورحت اضحك • ان حركاته وكلماته القاطعة اعجبتني • والحساء أيضا • وقلت في نفسي : ليس ثمة ضرر من أخذ هذا المخلوع الساذج معي الى ذلك الشاطىء البعيد المنعزل • حساء ، واحاديث ••• يبدو عليه انه قد جاب البحار كثيراً • انه اشبه بالسندباد البحري ••• لقد اعجبني •

وقال لي وهو يهز رأسه الضخم :

ــ بماذا تفكر ؟ انك توازن بين الربح والخسارة ، انت ايضا ، اليس كذلك ؟ حوالي غرام واحد تقريباً ، أليس هذا صحيحاً ؟ هيا ، قرّر ، وتشجع !

كان العملاق الكبير يقف فوقي ، وتعبت من رفع رأسي اليه لأكلمه ٠ فأغلقت كتاب دانتي ٠ وقلت :

ــ اجلس ٠ أتشرب قدحاً من القويسة ؟

فجلس ، ووضع بحذر صرّته على المقعد المجاور ، وقال باحتقار :

ــ قويسة ؟ كأس روم ، ايها السيد !

واحتسى كأس الروم بجرعات صغيرة ، وهو يحتفظ به في فمه طويلا ليتلذذ به ، ثم يتركه ينساب ببطء ليدفىء احشاءه ٠

وقلت في نفسي : « شهواني ، خبير ماهر ٠٠٠ » ٠ وسألته :

ــ ما مهنتك ؟

ــ كل المهن : بالرجل ، واليد ، والرأس ، كل شيء ٠ ولا ينقصني الا ان اختـار ٠

ــ أين كنت تعمل ، في المدة الاخيرة ؟

ــ في منجم ٠ انني عامل خبير في المناجم ، لو تعرف ٠ وخبير في المعادن، أعرف كيف أجد العروق ، وأشق الانفاق ، وأهبط الى الآبار ، ولا أخاف ٠ كنت أعمل جيداً ، اذ كنت رئيسا للعمال ، ولم يكن ثمة شيء أشكو منه ٠ مساء السبت الماضي ، شربت ، لم أسكر ، بل كنت بين بين ، وذهبت الى صاحب العمل الذي جاء في ذلك اليوم للتفتيش وضربته ٠٠٠

ــ ضربته ؟ لماذا ؟ ما الذي فعله لك ؟

ــ لي ؟ لا شيء ! لا شيء مطلقاً ، أؤكد لك ذلك ! كانت المرة الأولى التي أراه فيها ٠ بل لقد وزع علينا سجائر ٠٠ المسكين ٠

ــ اذن ؟

ــ أواه ! انك تكثر من هذه الاسئلة ! لقد خطر لي ذلـك هـكذا ، أيها الشيخ ! أتعرف قصة زوجة الطحان ، حسناً ! هل كان قفـا زوجة الطحـان يعرف الاملاء ؟ ان قفا زوجة الطحان هو العقل البشري ٠

لقد قرأت كثيراً من التعاريف للعقـل البشري ٠ وبدا لي هذا التعريف أكثرها غرابة وأعجبني ٠ ونظرت الى رفيقي الجديد باهتمـام شديـد ٠ كان وجهه مليئاً بالغضون ، تعباً ، وكأن العواصف والأمطار قد تأكلته ٠ ثمة وجه آخر أوحى لي بالانطباع نفسه ، بعد عدة سنوات ، وبدا لي كأنه من الخشب

المنحوت المتألم : انه وجه بانائيت استراتي (١) ·

ــ وماذا لديك في صرتك ؟ مؤونة ؟ ثياب ؟ أدوات ؟

فهز رفيقي كتفيه وضحك قائلا :

ــ كل شيء فيك يبدو لي منطقياً ، مع احترامي لك ·

وداعب الصرة بأصابعه الطويلة القاسية وأضاف :

ــ كلا ، انه سانتوري (٢) ·

ــ سانتوري ؟ أتعزف على السانتوري ؟

ــ عندما أكون مفلساً ، أجول في الخمارات ، وأنا اعزف على السانتوري · انني انشد اغاني ماسيدونية قديمة ، ثم اجمع النقود في هذه القبعة ، وتمتلىء بالقروش الكبيرة ·

ــ مـا اسمك ؟

ــ الكسيس زوربا · ويدعونني ايضاً « مجرفة الفرن » من بـاب المزاح بسبب طـولي وجمجمتي المسطحة كالكعـكة · الا انهم أحرار في ان يقـولوا ما يشاؤون · ويدعونني ايضاً « تمضية الوقت » لأنني كنت أبيع ، في يـوم من الأيام ، بزر اليقطين المحمص · ويدعونني ايضاً « ميلديو » اذ يبدو انني أسبب الأضرار حيثما ذهبت · ولي ايضاً ألقاب اخرى ، ولكنني سأخبرك بها في مرة قادمة ···

ــ وكيف تعلمت العزف على السانتوري ؟

ــ كنت في العشرين · عندما سمعت لأول مرة عزفا على السانتوري ، وذلك في احد أعياد قريتنا ، هناك ، عند سفح الاولمب · وانبهرت أنفـاسي · ولم آكل شيئاً ، خلال ثلاثة ايام · وعندما سألني والدي ذات مساء : « ما بك ؟ » أجبت : « أريد ان اتعلم عزف السانتوري » !

ــ الا تخجل ؟ أأنت غجري ؟ أتريد أن تصبح عازفاً ؟

ــ نعم أريد ان أتعلم عزف السـانتوري ! · كنت أملك بضعة قروش ادخرتها كي أتزوج عندمـا يحين الوقت · كنت لا ازال غلاماً بعد ، طـائشاً أشعر بالحرارة في دمي ، واريد الزواج ، انا الملعون المسكين ! وهكذا دفعت كل ما أملك واشتريت سانتوري · هـا هو · وهربت به ، واتيت سالونيك وذهبت لرؤية شخص تركي ، يدعى رتسب افندي ، وهو استاذ ماهر في عزف

---

١ ــ كاتب يوناني معاصر · من رواياته المشهورة « كيرا كيرالينا » · « المترجم »

٢ ــ آلة موسيقية وترية · « المترجم »

السانتوري . وألقيت بنفسي على قدميه . وعندما سألني : « ماذا تريد ، ايها الرومي الصغير ؟ » أجبت : ـ اريد تعلم العزف على السانتوري . ـ حسناً ، فلماذا تلقي بنفسك اذن على قدمي ؟ ـ لأنني لا أملك قرشاً واحداً ادفعه لك ! ـ اذن أ الى هذا الحد أنت مهووس بالسانتوري ؟ ـ نعم . ـ حسناً ، ابق اذن ، يا صغيري ، فأنا لست محتاجاً لأن تدفع لي ! » .

وبقيت سنة عنده ادرس ، ولا بد انه قد مات الآن . واذا كان الله يسمح بدخول الكلاب الى فردوسه ، فمن الممكن ان يفتح الباب لرتسب افندي . ومنذ ان تعلمت العزف على السانتوري ، انقلبت الى رجل آخر . فعندما تسودّ الدنيا في عينيّ ، او عندما افلس ، اعزف السانتوري فتتحسن حالي . وقد يحدثونني عندما اعزف ، لكنني لا اسمع ، وحتى اذا سمعت ، فانني لا استطيع الحديث . لقد حاولت كثيراً ، لكن عبثاً ، انني لا استطيع !

ـ لكن لماذا ، يا زوربا ؟

ـ آه ! الهوس !

وانفتح الباب . ودخل هدير البحر مرة اخرى الى المقهى ، وكانت أرجلنا وايدينا قد تجمدت من البرد . وازددت انزواء في ركني وتلففت بمعطفي ، وأحسست بلذة كبيرة . وقلت في نفسي : « الى اين اذهب ؟ انني مرتاح هنا . ليت هذه الدقيقة تدوم سنوات » .

ونظرت الى الشخص الغريب الذي امامي . كانت عيناه تحدقان فيّ ، عينان صغيرتان مستديرتان ، سوداوان ، وفي بياضهما أوعية شعرية حمر . كنت احس بهما تنفذان فيّ ، وتنقبان في داخلي دونما شبع ، وقلت :

ـ اذن ؟ ثم ماذا ؟

فهز زوربا من جديد كتفيه البارزة عظامهما ، وقال :

ـ دعك من هذا . أتقدم لي سيجارة ؟

وقدمتها له . واخرج من صدريته حجر صوان ، وفتيلة ، واشعلها ، واغلق عينيه نصف اغلاقة ، مسروراً .

ـ هل تزوجت ؟

فقال مغيظاً :

ـ انني رجل . انني رجل ، اي أعمى . انا ايضاً وقعت في الفخ ، وعلى رأسي اولا ، كجميع الناس . فتزوجت . وسرت في المنحدر السيء . واصبحت رب أسرة . وبنيت بيتاً . وصار لي اطفال . وازعاجات . ولكن ليتقدس السانتوري !

– كنت تعزف في بيتك لطرد الهموم ، أليس كذلك ؟

– آه ! يا صديقي ! من الواضح انك لا تعزف على اية آلة ! ما الذي تقوله لي ؟ في البيت ، المتاعب ، والمرأة ، والأطفال · ماذا سنأكل ؟ ما الذي سنرتديه ؟ ما الذي سنصير اليه ؟ يا للجحيم ! كلا ، كلا ، يجب ان تكون متفرغاً لعزف السانتوري ، يجب ان تكون صافياً · فاذا ما قالت لي امرأتي كلمة زائدة ، فكيف تريد ان يكون لي قلب لعزف السانتوري ؟ واذا كان الاطفال جائعين ينوحون ، فحاول اذن ان تعزف · كي تعزف السانتوري ، لا بد ان يكون رأسك عند السانتوري ، لا في مكان آخر ، أفهمت ؟

وفهمت ان زوربا هذا هو الرجل الذي ابحث عنه منذ مدة طويلة دون ان اجده · قلب حي ، فم واسع نهم ، روح خام كبيرة ·

ان معنى كلمات الفن ، والحب ، والجمال ، والطهارة ، والهوى – راح هذا العامل يوضحها لي بكلمات انسانية كأبسط ما تكون ·

· ونظرت الى يديه اللتين تعرفان كيف تمسكان بالمعول والسانتوري – يدان جاسئتان ، مشققتان ، مشوهتان وعصبيتان · وبحذر وحنان ، وكأنهما تخلعان ثياب امرأة ، فتحتا الصرة واخرجتا منها سانتوري عتيقا صقلته السنون ، مع مجموعة من الأوتار ، مبطناً بالنحاس والعاج ، له طرة من الحرير الأحمر · وراحت الأصابع الطويلة تداعبه كله ، ببطء وبانفعال ، وكأنها تداعب امرأة · ثم غلفتاه من جديد كأنهما تغطيان جسداً حبيباً خشية البرد · وتمتم وهو يضعه بحذر على المقعد :

– هي ذي آلتي !

كان البحارة يقرعون كؤوسهم ويقهقهون · وربت العجوز برفق ومودّة على ظهر الكابتن ليموني ·

– انك خائف ، أليس كذلك ايها الكابتن ليموني ، قل الحقيقة ! الله يعلم كم من الشموع قدوعدت بها القديس نيقولا !

وقطب الكابتن حاجبيه الكثيفين :

– اقسم لكم بالبحر ايها الرفاق ، انني عندما واجهني الموت ، لم افكر بالعذراء القديسة ولا بالقديس نيقولا ! بل التفتّ الى ناحية سالامين ، وفكرت بامرأتي وصرخت : « آه ! يا كاترينا الطيبة ، ليتني كنت في فراشك ! » ·

وانفجر البحارة مرة اخرى ضاحكين وضحك الكابتن ليموني ايضاً · وقال :

– يا للانسان من حيوان غريب ! كان ملاك الموت فوق رأسه مع سيفه ،

لكن روحه كانت هناك ، هناك بالضبط وليس في مكان آخر ! تباً له ! ليأخذه الشيطان ، ذلك الخنزير !

وضرب بيديه صارخاً :

ـ ايها المعلم ، اسقِ الرفاق !

كان زوربا يصغي ، واذناه الكبيرتان ممدودتان • واستدار ، ونظر الى البحارة ، ثم الي ، وسأل :

ـ اين هناك ؟ ما الذي يقوله هذا الشخص ؟

ولكنه فجأة فهم وقفز ، وقال باعجاب :

ـ مرحى ! ايها الصديق ! ان هؤلاء البحارة يعرفون السر • ولعل ذلك لأنهم يناضلون ضد الموت صبحاً ومساء •

وحرك في الهواء يده الكبيرة ، وقال :

ـ حسناً ! تلك قصة أخرى • لنعد الى قصتنا : أأذهب أم ابقى ؟ قرّر •

فقلت ، وانا أمسك نفسي كي لا القي بها بين ذراعيه :

ـ زوربا ••• زوربا ، اتفقنا ؟ ستأتي معي • عندي لينيت في كريت ، وستراقب العمال • وعند المساء سنتمدد كلانا على الرمل ـ ليس لي في العالم شيء : لا امرأة ، ولا اطفال ، ولا كلب ـ ونأكل ونشرب معاً • ثم ، ستعزف على السانتوري •••

ـ ••• اذا كنت مستعداً له ، فسوف تسمع ، شرط أن تكون مستعداً له حقاً • أن أعمل لك ، فلك ذلك • فأنا رجلك • لكن السانتوري شيء آخر • انه حيوان وحشي ، وهو بحاجة الى الحرية • اذا كنت مستعداً له فانني سأعزف ، بل سأغني • وسأرقص ، كل انواع الرقص ، لكنني اقول لك بصراحة : يجب ان أكون مهيأ • ان الحسابات الطيبة تخلق الاصدقاء الطيبين • فاذا اجبرتني ، انتهى آلامر • يجب ان تعلم : انني ، بخصوص هذه الاشياء ، انسان •

ـ انسان ؟ ماذا تعني ؟

ـ ما الغرابة ؟ اعني حراً !

فناديت :

ـ ايها المعلم ، كأساً اخرى من الروم !

فهتف زوربا :

ـ كأسين من الروم ! ستشرب كأساً ، أنت ايضاً ، وسنقرع كأسينا •

القويسة والروم ، هذان لا يتفقان . سنشرب قدحاً من الروم ، انت ايضاً ، لندعم اتفاقنا .

وقرعنا الكأسين الصغيرتين . في هذه المرة ، كان النهار قـد اشرق وراح المركب يصفر . وأشار لي النـوتي الذي حمـل حقـائبي الى المركب . فقلت وأنا انهض .

ـ ليكن الله معنا . هيا !

ـ ... والشيطان !

أتم زوربا جملتي بهدوء . ثم انحنى ، ووضع السانتوري تحت ذراعه ، وفتح الباب وخرج قبلي .

- ٢ -

البحر ، والعذوبة الخريفية ، والجزر المغرقة بالنور ، والحجاب الشفاف من المطر الصغير الناعم الذي يغطي عري اليونان الأبدي • وقلت في نفسي : ما أسعد الانسان الذي أتيح له ، قبل أن يموت ، أن يمخر عبر بحر ايجه •

عديدة" هي أفراح هذا العالم ـ النساء ، والفواكه ، والأفكار • أما أن تشق عباب هذا البحر ، في فصل خريفي حنون ، وانت تتمتم باسم كل جزيرة ، فأنا لا اعتقد ان ثمة فرحاً كهذا يغرق قلب الانسان في الفردوس • وعلى كل ، فليس ثمة مكان آخر يمكن ان ينتقل فيه الانسان ، بهدوء وسهولة ، من الحقيقة الى الحلم ، كهذا المكان • وتضاءلت الحدود ، وانطلقت صواري اقدم المراكب اغصاناً وعناقيد • وكأن المعجزة هنا ، في اليونان ، هي زهرة الحاجة التي لا بد منها •

كان المطر قد انقطع عند الظهر ، ومزقت الشمس الغيوم ، وظهرت ناعمة ، عذبة ، لم يمض وقت طويل على اغتسالها ، وداعبت بأشعتها المياه والأراضي الحبيبة • كنت أقف في مقدمة السفينة ، وانتشي ، حتى أعماق الأفق ، بالمعجزة •

كان على المركب يونانيون ، خبثاء كالشيطان ، ذوو عيون كاسرة ، وعقول تساوم طويلا على البضائع التافهة ، وثرثرة في السياسة والمخاصمات ، وبيانو غير متناسق الالحان ، ونساء شريفات وخبيثات • وكان يسود ذلك جو من البؤس القروي • ان الرغبة لتتملكك في أن تأخذ المركب من طرفيه ، وتغرقه في البحر ، وتهزه بعناية كي تسقط عنه جميع تلك الحيوانات التي تلوثه ـ من رجال ، وفئران وفسافس ـ ثم تعو"مه من جديد ، مغسولا ، طرياً ، فارغاً •

ولكن الشفقة تملكتني اثناء ذلك • شفقة بوذية ، باردة كاستنتاج قياسي

ميتافيزيقي • شفقة لا على البشر فحسب ، بل على العالم أجمع ، العالم الذي يناضل ، ويصرخ ، ويبكي ، ويـأمل ولا يرى ان كل شيء ان هو الا محـاولة لاظهار الاشباح من العدم • شفقة على اليونان ، وعلى المركب ، وعلى البحر ، وعليّ ، وعلى منجم الليغنيت ، وعلى مخطوط « بوذا » ، على كل تلك المركبّات الباطلة من الظل والنور التي تثير فجأة الجو الصافي وتلوثه •

كنت انظر الى زوربا ، وهو منهك ، شاحب ، وقد جلس على لفافة من الحبال في مقدمة المركب • كان يستنشق ليمونة ، ويمد أذنه الضخمة ويصغي الى الركاب وهم يختصمون ، الواحد مع الملك ، والآخر مع « فينيزيلوس » • وكان يهز برأسه الضخم ويبصق • وتمتم باحتقار :

ـ أقمار قديمة ! ألا يخجلون !

ـ وماذا تعني بأقمار قديمة ، يا زوربا ؟

ـ كل ذلك : ملوك وديموقراطيات ونواب • يا للمراءاة !

ان الاحداث المعاصرة لم تكن سوى أمور قديمة في روح زوربا ، مـا دام هو نفسه قد تجاوزها • ولا شك في ان البرق ، والمراكب البخارية ، وسكك الحديد ، والاخلاق السائدة ، والوطن ، والـدين ، كانت تبـدو ، في عقله ، كبنادق عتيقة صدئة • لقد كانت روحه تتقدم بأسرع مما يتقدم العالم •

كانت الحبال تصر على الصواري ، والشطآن ترقص ، وأصبحت النساء اشد صفرة مـن الليمـون • لقـد القين بأسلحتهن : الحمرة ، والمشـدات ، ودبابيس الشعر ، والامشاط ، وشحبت شفاههن ، وازرقت اظافرهن • كان ريش الغربـان العجـوز يتسـاقط ، والريش المستعار يتهـاوى : الشرائط والجفون ، ومشدات الصدور ـ وعند رؤيتهن على وشك التقيؤ ، يحس الانسان بالاشمئزاز وبشفقة كبيرة •

واصفر زوربا بدوره ، ثم اخضر ، وكبت عيناه المتألقتان • ولم يعد الى نظره تألقه الا عند المساء • ومد ذراعه وأراني درفيلين كانا يقفزان ، وينافسان المركب على سرعته • واضاف بمرح :

ـ درافيل !

ولاحظت للمرة الأولى ان ابهام يده اليسرى كانت مقطوعة الى منتصفها تقريباً • وارتعدت ، وقد تملكني نوع من الاستياء •

وصرخت :

ـ ما الذي حدث لاصبعك ، يا زوربا ؟

فأجاب ، وقد استاء من انني لم اتمتع كثيراً برؤية الدرفيلين :

ـ لا شيء !

فألححت قائلا :

ـ أهي آلة قد سحقتها ؟

ـ ما دخل آلتك في الموضوع ؟ لقد قطعتها بنفسي ٠

ـ بنفسك ؟ لماذا ؟

فقال وهو يهز كتفيه :

ـ انت لا تستطيع ان تفهم ، ايها الرئيس ! لقد قلت لك انني عملت في جميع المهن ٠ وذات مرة ، اشتغلت فخاراً ٠ ولقد احببت هذه المهنة ، كالمجنون٠ أتعرف ماذا يعني ان تأخذ كمية من الطين وتفعل منها ما تريد ؟ فررر ! تسيِّر الدولاب ويدور الطين كالممسوس بينما تقف انت فوقه وتقول : سأصنع جرة ، سأصنع صحفة ، سأصنع قنديلا وكل ما اريد ، مهما كان ! هذا ما يجعلك انساناً : الحرية !

لقد نسي البحر ، ولم يعد يعض على الليمونة ، وعادت عيناه صافيتين ٠ فسألته :

ـ حسناً ؟ واصبعك ؟

ـ كانت تزعجني على الدولاب ٠ وتأتي لتقف وسط كل شيء ، وتفسد عليّ خططي ٠ لذلك امسكت ذات يوم بالفأس ٠٠٠

ـ ألم تتوجع ؟

ـ كيف ، لم اتوجع ؟ انني لست أرومة شجرة ، انني انسان ، لقد اوجعتني ٠ ولكنها كانت تزعجني ، قلت لك فقطعتها ٠

غربت الشمس ، وهدأ البحر قليلا ، وانقشعت الغيوم ٠ ولمعت نجمة المساء ٠ ونظرت الى البحر ، ونظرت الى السمار ، ورحت افكر ٠٠٠ ان نحب هكذا ، ونأخذ الفأس ، ونقطع ، ونتألم ٠٠٠ لكنني أخفيت انفعالي ٠ وقلت وانا ابتسم :

ـ انها لطريقة سيئة ، يا زوربا ! انها تذكرني بقصة ترويها « الاسطورة الذهبية » ٠ ذات يوم ، رأى ناسك امرأة فأوقعت في نفسه الاضطراب ٠ فتناول عندئذ فأساً ٠٠٠

فقاطعني زوربا وقد حزر ما سأقول :

ـ يا للأحمق ! يقطع ذلك ! يا للأبله ! لكن ذلك المسكين ، ليس عقبة مطلقاً ٠

فقلت ملحاً :

ــ كيف ! بل انه عقبة كبيرة ٠

ــ امام ماذا ؟

ــ امام دخولك الى ملكوت السماوات ٠

فنظر اليّ زوربا مواربة ساخراً وقال :

ــ لكن ذلك هو بالضبط مفتاح الفردوس !

ورفع رأسه ، ونظر اليّ ملياً وكأنه اراد ان يتبين فكرتي من وراء ذلك : الحياة المستقبلة ، وملكوت السماوات ، والنساء والكهنة ٠ لكنه لم يستطع ، على ما يبدو ، ان يحزر شيئا كبيراً ٠ وهز بحذر رأسه الضخم الرمادي ٠ وقال :

ــ ان الخصيان لا يدخلون السماء !

ثم صمت ٠

وذهبت لأتمدد في مقصورتي ، وأخذت كتاباً ، كان بوذا لا يزال يتحكم في افكاري ٠ وقرأت « حوار بوذا والراعي » الذي كان يملأني ، في السنوات الاخيرة ، بالسلام والأمن ٠

« الراعي ــ لقد هيأت طعامي ، وحلبت نعجاتي ، ووضعت المزلاج على باب كوخي ، واشعلت ناري ٠ وأنت تستطعين ان تمطري قدر ما تشائين ، ايتها السماء !

بوذا ــ انني لا احتاج مطلقاً الى الطعام او اللبن ٠ الرياح في كوخي ، وناري قد انطفأت ٠ وانت تستطعين ان تمطري قدر ما تشائين ، ايتها السماء !

الراعي ــ عندي جواميس ، وعندي ابقار ، وعندي مروج آبائي وثور قوي يحضن بقراتي ٠ وأنت ، تستطعين ان تمطري قدر ما تشائين ، ايتها السماء !

بوذا ــ ليس عندي ثيران ولا ابقار ٠ وليس لي مروج ٠ ليس عندي شيء ٠ ولست اخشى شيئا ٠ وانت ، تستطعين ان تمطري قدر ما تشائين ، ايتها السماء !

الراعي ــ عندي راعية مطيعة ومخلصة ٠ انها امرأتي منذ سنوات ، وانا سعيد باللهو معها ليلا ٠ وانت ، تستطعين ان تمطري قدر ما تشائين ، ايتها السماء !

بوذا ــ لي روح مطيعة وحرة ٠ منذ سنين وانا ادربها واعلمها اللعب معي ٠ وانت تستطعين ان تمطري قدر ما تشائين ، ايتها السماء ! » ٠

كان هذان الصوتان لا يزالان يتكلمان ، عندما أخذني النعاس · وهبّت الريح من جديد ، وراحت الامواج تتكسر على النافذة الزجـاجية السميكة · كنت اعوم كدخان بين النـوم واليقظة · وانفجرت عـاصفة عنيفة ، وإظلمت المروج ، وابتلعت الأمواج الجواميس والأبقار والثور القوي · وحملت الريـح سقف الكوخ ، وانطفأت النار وصرخت المرأة وتهاوت ميتة في الوحل ، وبـدأ الراعي مرثيته : كان يصرخ ، ولم اكن اسمع ما يقوله ، لكنه كان يصرخ ، بينما رحت انا ازداد غرقاً في النوم ، وانساب فيه كسمكة في البحر ·

عندما استيقظت ، عند مطلع النهار ، كانت الجزيرة الكبيرة الرئيسية تمتد على يميننا ، مزهوة وحشية · والجبال الورديـة الشاحبة تبتسم وراء الضباب تحت شمس الخريف · وحولنا كان البحر الازرق القاتم ثائراً هائجاً ·

كان زوربا ، وقد تلفح بغطاء داكن ، ينظر دونما شبع الى كريت ، ونظره يطير من الجبل الى السهل ، ثم يمتد على طول الشاطىء ، ويتفحصه ، وكأن جميع هذه الاراضي وهذه البحار مألوفة بالنسـبة له وكأنه تمتع باستعراضها مرة ثانية في فكره ·

اقتربت ولمست كتفه ، وقلت :

ــ لا شك انها ليست المرة الأولى التي تأتي فيها الى كريت ، يازوربا ! انك تنظر اليها كصديقة قديمة ·

وتثاءب زوربـا وكـأنه ضجر · وشعرت بـأنه ليس مستعداً للدخول في محادثة ·

وابتسمت ·

ــ أيضجرك ان تتكلم ، زوربا ؟

فأجاب :

ــ ليس هذا ما يضجرني ، ايها الرئيس ، لكنني أتألم من فعل ذلك ·

ــ تتألم ؟ لماذا ؟

ولم يجب فوراً · ومن جديد أجال نظره على طول الشاطىء · كان قد نام على الجسر ، وشعره الرمادي المجعد يقطر بالندى · وكانت الشمس الطالعـة تضيء الغضون العميقة في خديه وذقنه ورقبته ·

واخيراً ، تحركت شفتاه المتدليتان وكأنهما شفتا تيس :

ــ انني اتألم عند الصباح من فتح فمي · ألم كثير ، اعذرني ·

وصمت وثبّت من جديد عينيه الصغيرتين المستديرتين على كريت ·

وقرع جرس الافطار · وراحت وجوه كدرة ، مخضرة الاصفرار ، تبرز من

المقصورات · وكانت ثمة نساء ، شُعث الشعور ، يجررن اذيالهن ، مترنحات ، من مائدة لأخرى · وكانت تفوح منهن رائحة القيء والكولونيا ، ونظرتهن مضطربة ، وجلة وبلهاء ·

وكان زوربا يحسو قهوته بتلذذ ، وهو جالس امامي · ويغمس الخبز المطلي بالزبدة والعسل ويأكله · وتألق وجهه شيئا فشيئا ، واطمأن ، ولان فمه · كنت اتأمله خلسة بينما كان يخرج من أسر نعاسه وعيناه تزدادان توقداً ·

وأشعل لفافة ، واستنشق انفاساً منها بلذة ، واطلق منخراه المليئان بالشعر غيوم الدخان الازرق · وثنى ساقه اليمنى تحته ، وجلس الاربعاء · لقد اصبح من السهل الآن عليه الحديث · وبدأ الكلام :

ـ أهي المرة الاولى التي آتي فيها الى كريت ؟ ··· (واغلق عينيه نصف اغلاقة ونظر بعيداً ، عبر النافذة ، الى جبل « ايدا » الذي كان يمتد وراءنا) كلا ليست المرة الاولى · لقد كنت في عام ١٨٩٦ رجلا حقاً · كان شاربي وشعري بلونهما الحقيقيين ، اسودين كالغراب · كنت في عنفوان الصبا ، وكنت ، عندما اسكر ، التهم اولا المقبلات ثم الطعام · لكن في تلك الفترة بالضبط أراد الشيطان ان تنشب ثورة في كريت ·

« في ذلك الوقت ، كنت بائعاً جوالا في ماسيدونيا · كنت اذهب من قرية لقرية ، وأبيع الخردوات ، وبدلا من النقود ، كنت اطلب جبناً ، وصوفاً ، وزبدة ، وأرانب وذرة ، ثم ابيع كل ذلك وأربح ربحاً مضاعفا · وكنت ، في اية قرية حللت ليلا ، اعرف المنزل الذي اختاره للمبيت فيه · ففي كل القرى ، أرملة رؤوم · اقدم لها مكب خيطان او مشطاً ، او منديلا اسود بسبب المرحوم ، وأنام معها · ولم يكن ذلك باهظ الثمن ! ان الحياة الطيبة ليست باهظة الثمن ايها الرئيس · لكن ، كما قلت لك ، ها هي كريت قد عادت الى حمل السلاح · وقلت في نفسي : « تباً لك من حياة عاهرة ! ان كريت هذه لن تتركنا ابداً في سلام » · ووضعت جانباً المكبات والامشاط ، واخذت بندقية ، وانضممت الى سائر الثوار ، وسرنا نحو كريت · »

وصمت زوربا · اننا نسير الآن في خليج ، مستدير ، رملي ، هادىء · وكانت الامواج تنبسط فيه ، دون ان تتكسر ، وتترك فقط زبداً خفيفا على طول الشاطىء · وكانت الغيوم قد انقشعت ، والشمس تتألق ، وكريت القاسية تبتسم مطمئنة ·

والتفت زوربا ، ورماني بابتسامة ساخرة :

ـ انك تتصور ، ايها الرئيس ، انني سأقدم لك كشفاً عن الرؤوس التركية التي قطعتها وعن الآذان التركية التي وضعتها في الكحول ··· فتلك هي العادة في كريت ··· انني لن أقول شيئا من ذلك ! لقد سئمت ، وانا إشعر الآن بالخجل · ما هذه الثورة ؟ انني اقول لنفسي الآن وقد رجح عقلي بعض الشيء ، ما هذه الثورة ؟ نلقي بأنفسنا على انسان لم يفعل لنا شيئاً ، ونعضه ، ونجدع انفه ، ونقطع اذنيه ، ونبقر بطنه ، وكل ذلك ونحن نطلب له العون من الله · وبمعنى آخر ، اننا نطلب منه ، هو ايضاً ، ان يجدع انوفاً وآذاناً ويبقر بطوناً · لكن دمي ، في ذلك الوقت ، كما ترى ، كان يغلي · وما كان باستطاعتي تفحص المسألة · فللتفكير بشكل عادل وشريف ، لا بد للانسان من ان يكون هادئا ، مسناً ، لا اسنان له · عندما يصبح الانسان بلا اسنان ، يسهل عليه ان يقول : « من العار ان تعضوا ايها الرفاق ! » · لكن عندما تكون له اسنانه الاثنتان والثلاثون ··· ان الانسان لحيوان مفترس عندما يكون شاباً ، نعم ، ايها الرئيس ، حيوان مفترس يأكل البشر !·

وهز برأسه ·

ـ انه يأكل خرافاً ايضاً ، ودجاجات ، وخنازير ، لكن اذا لم يأكل لحم انسان ، فانه لا يشبع ·

وأضاف ، وهو يسحق لفافته في صحن فنجان قهوته :

ـ كلا ، انه لا يشبع · ما رأيك انت ، ايها العلامة ؟

لكن بدون ان ينتظر جواباً ، قال وهو يحدق فيّ :

ـ ما الذي يمكن ان تقوله ، انت ··· ان سيادتك ، كما افهم ، لم يجع قط ، ولم يقتل قط ، ولم يسرق قط ، ولم ينم مع نساء الآخرين قط · ما الذي يمكن ان تعرفه عن العالم اذن ؟ (وتمتم باحتقار واضح :)

ـ عقل بريء ، وجسد لم يعرف الشمس ···

واحسست انا بالخجل من يديّ الدقيقتين ، ومن وجهي الشاحب وحياتي التي لم تلطخ بالدم والوحل · وقال زوربا ، وهو يمر بيده الثقيلة على المائدة وكأنه يمسح باسفنجة :

ـ ليكن ! ليكن ! ومع ذلك فأنا اريد ان اسألك شيئاً · لا بد انك قلبت مجموعة من الكتب ، فلعلك تعرف ···

ـ هيا ، ماذا يا زوربا ؟

ـ هذا غريب ، ايها الرئيس ··· هذا غريب جداً ، انه يبلبلني · فتلك

النذالات ، وتلك السرقات ، وتلك المجازر التي ارتكبناها ، نحن الثوار ، جاءت بالأمير جورج الى كريت ٠ الحرية !

ونظر الي بعينين جاحظتين ، مذهولتين ، وتمتم :

ـ انه لسر ، سر كبير ! اذن ، فلا بد من الجرائم والنـذالات الكثيرة ، حتى تحل الحرية في هذا العالم ؟ ولو رحت اعدد لك كل ما ارتكبناه من قذارات واغتيالات ، لقفّ شعر رأسك ٠ لكن ماذا كانت نتيجة كل ذلك ؟ الحرية ! ان الله بدلا من ان يرسل الصواعق علينا لحرقنا ، اعطانا الحريـــة ! انني لا افهم شيئا !

ونظر الي كأنه يستنجد ٠ من الواضح ان هذه المشكلة قد عذبته كثيراً ، وانه لا يستطيع الوصول الى نتيجة ٠ وسألني بقلق :

ـ أتفهم ، انت ، ايها الرئيس ؟

ماذا أفهم ؟ ماذا اقول له ؟ فاما أن يكون ما ندعوه الهاً غير موجود ، واما ان يكون ما ندعوه جرائم ودناءات ضرورياً للنضال ولتحرير العالم ٠٠٠

وحاولت ان أجد تعبيراً أبسط بالنسبة لزوربا :

ـ كيف تنبت الزهرة وتنمو في السماد الحيواني والأقـذار ؟ افترض يا زوربا ان السماد والاقذار هي الانسان ، وان الزهرة هي الحرية ؟

فقال زوربا وهو يضرب بقبضته على المائدة :

ـ لكن البذرة ؟ كي تنبت الزهرة ، فلا بد من بذرة ٠ فمن الذي وضـع بذرة كهذه في احشائنا القذرة ؟ ولماذا لا تنتج هذه البذرة ازهـاراً في الطيبة والشرف ؟ ولماذا تحتاج الى الدم والاقذار ؟

فهززت رأسي ، وقلت :

ـ لست ادري ٠

ـ من يدري ؟

ـ لا احد ٠

فصرخ زوربا يائساً ، وهو يرمي ما حوله بنظرات متوحشة :

ـ لكن ماذا تريد ان افعل اذن بالمراكب والآلات والقبات الأنيقة ؟

وتحرك مسافران او ثلاثة ممن اتعبهم البحر ، كانوا يشربون قهوتهم على المائدة المجاورة ٠ لقد شموا رائحة خصام ، وارهفوا آذانهم ٠ وأثـار ذلـــك اشمئزاز زوربا ، فقال بصوت خافت :

ـ دعنا من هذا ٠ فعندما افكر فيه ، أود تحطيم كل ما تقع عليه يدي ، من كرسي ، او مصباح ، او رأسي ، بضربه على الجدار ٠ ثم ما الذي استفيده من

ذلك ؟ ليأخذني الشيطان ! انني اما ان ادفع ثمن الأباريق المهشمة ، أو اذهب الى الصيدلي فيعصب رأسي • واذا كان الله موجوداً ، فهذا اسوأ : لقد قضي علينا ! اذ لا بد انه يرقبني من اعلى السماء ويتضور الماً •

وهز فجأة يده وكأنه يريد طرد ذبابة مزعجة • وقال بملل :

ـ اخيراً ! ان ما اريد ان اقوله لك هو هذا : عندما جاء المركب الملكي بهياً بزيناته وبدأ اطلاق المدافع ووضع الأمير قدمه في كريت ••• هل رأيت شعباً يصبح مجنوناً بأجمعه لأنه استعاد حريته ؟ كلا ؟ اذن يا رئيسي المسكين ، لقد ولدت اعمى ، واعمى ستموت • انا ، حتى ولو عشت الف سنة ، وحتى لو لم يبق مني سوى لقمة من اللحم الحي ، فاني لن انسى مطلقاً ذلك اليوم الذي رأيته • لو كان كل انسان يستطيع ان يختار فردوسه في السماء ، حسب ذوقه ـ وهذا ما يجب ان يكون لأن هذا ما اقصده بالفردوس ـ فانني سأقول للآله الرحيم : « ايها السيد ، ليكن فردوسي جزيرة كريت وقد ازدانت بالآس والاعلام ، ولتستمر قروناً تلك الدقيقة التي وضع فيها الامير جورج قدمه على ارض كريت • هذا يكفيني » •

وصمت زوربا من جديد • ورفع شاربه وملأ قدحاً بالماء البارد وجرعه دفعة واحدة •

ـ ما الذي جرى في كريت ، يا زوربا ؟ هاتِ !

فأجاب زوربا بعصبية :

ـ لن اجهد نفسي في تكلف العبارات • لقد قلت لك ، يا صديقي ، ان هذا العالم سر وان الانسان ليس سوى وحش كبير •

« وحش كبير واله كبير • كان احد أولئك الثوار الانذال ، ويدعى يورغا ، يبكي ، وكان قد نزل معي من ماسيدونيا ، وهو أشبه بربطة محزومة بالحبال ، خنزير نجس ، فقلت له : « لماذا تبكي أيها الملعون يورغا ؟ وكانت دموعي انا ايضاً تتدفق كالينبوع • لماذا تبكي ايها الخنزير ؟ » • لكنه سرعان ما ألقى بنفسه عليّ وراح يعانقني وهو ينوح كصبي صغير • ثم أخرج هذا الشحيح الكبير صرة نقوده ، وافرغ على ركبتيه قطع الذهب المسروقة من الأتراك ، وألقاها في الهواء بقبضة يده • أتفهم ، أيها الرئيس ، هذه هي الحرية ! » •

ونهضت وصعدت الى جسر المركب كي أتلقى صفعات ريح البحر العنيفة • وفكرت في نفسي : « هذه هي الحرية • ان تهوى شيئاً ما ، وأن تجمع قطع الذهب ، وفجأة ، تتغلب على هواك وتلقي بكنزك في الهواء • أن تتحرر من

هوى ، لتخضع لهوى آخر اكثر نبلا منـه · لكن أليس هـذا شكلا آخر مـن العبودية ؟ ان تكرّس نفسك لفكرة ، لعرقك ، الله ؟ ام ان السيد كلما ارتفـع مركزه تطاول حبل العبودية ؟ وقد يمكنه عندئذ أن يلعب ويلهو في حلبة أوسع ثم يموت دون ان يصادف الحبل · أهذا اذن ما نسميه بالحرية ؟ » ·

وعند نهاية بعد الظهر ، حاذينا شاطئنا الرملي · رمل أبيض ، مغربـل بدقة ، واشجار غار وردية لا تزال مزهرة ، وأشجار تين ، واشجار خرنوب ، وابعد قليلا ، الى اليمين ، تل صغير واطىء رمادي ، بدون أشجار ، يشبه وجه امرأة من الخلف · وتحت ذقنه ، وعلى رقبته ، تمر عروق من اللينيت الأسمر القاتم ·

كان ثمة ريـح خريفيـة تهبّ ، وغيوم ممزقـة تمر ببطء وتلين الأرض بتغليفها بالظلال · وكانت غيوم أخرى تصعد من السماء ، مهددة · والشمس تتحجب وتشرق ، ووجه الأرض يضيء ويظلم كوجه حي مضطرب ·

وتوقفت لحظة على الرمـل ، ونظرت · كـانت الوحـدة القدسية تمتد أمامي ، حزينة ، مغرية ، كالصحراء · وبرز الشعر البوذي من الأرض وتغلغل حتى أعماق كياني : « متى أنزوي اخيراً في الوحدة ، بمفردي ، دون رفـاق ، دون فرح او حزن ، لا يصحبني سوى اليقين المقدسي بـأن كل شيء ليس الا حلماً ؟ متى اعتزل فرحاً مع اسمالي ــ دون شهوات ــ في الجبل ؟ متى أختلي ، بعد ان أتبين ان جسدي ليس الا مرضاً وجريمة وشيخوخة وموتاً ، في الغابة ، حراً ، دون خوف ، مليئا بالفرح ؟ متى ؟ متى ؟ متى ؟ » ·

واقترب زوربا ، والسانتوري تحت ذراعه · فقلت لأخفي انفعالي :

ــ هوذا اللينيت ! ومددت ذراعي نحو التل الذي يشبه وجه امرأة ·

ولكن زوربا قطّب حاجبيه دون ان يلتفت ، وقال :

ــ فيما بعد ، فليس الآن وقت ذلك ، أيها الرئيس · يجب اولا ان تتوقف الأرض · انها ما تزال تتحرك ، وحق الجحيم ، انها تتحرك ، العاهرة ، مثـل جسر مركب · هيا بسرعة الى القرية ·

ثم مضى بخطى كبيرة ·

وأسرع صبيّان ، عاريا الأقدام ، جلدهما برونزي كالفلاحين ، وحملا الحقائب · وكـان رجل ضخم ، أزرق العينين ، مـن رجـال الجمرك ، يدخن النارجيلة في الكوخ الخشبي الـذي حُوّل لمكتب للجمرك · ورمقنا بطـرف عينه ، وألقى نظرة متناومة على الحقائب ، وتحرك قليلا فوق كرسيه وكأنـه

سينهض • لكن الشجاعة خانته • ورفع ببطء نربيش نارجيلته ، وقال بصوت مسترخٍ :

ـ أهلا وسهلا !

واقترب احد الفلاحين مني • وغمز بعينيه السوداوين كالزيتون ، وقال بسخرية :

ـ انه ليس كريتياً ! كسول !

ـ أليس الكريتيون كسالى ، أليسوا كذلك ؟

فأجاب الكريتي الصغير :

ـ انهم لكذلك ••• انهم لكذلك ••• ولكن بشكل آخر •••

ـ هل القرية بعيدة ؟

ـ الله أعلم ! على بعد طلقة بندقية ! انها وراء البساتين ، في الوادي • هي قرية جميلة ، ايها الرئيس ، بلد كثير الخيرات • فيها خرنوب ، ولوبياء ، وحمص ، وزيت ، وخمر • وهناك في الرمل ، ينبت الخيار ، والبطيخ الذي يبكر في النضج قبل أية منطقة أخرى في كريت • هواء افريقيا هو الذي ينضجها • واذا ما نمت في بستان ، فانك تسمعها تطقطق كرر ! كرر ! وتنمو أثناء الليل •

كان زوربا يغذ السير الى أمام مترنحاً بعض الشيء • وكان رأسه لا يزال يدور • فصرخت به :

ـ تشجّع ، يا زوربا ! لقد نجونا ، لا تخف !

كنا نسير بسرعة • كانت الأرض مشوبة بالرمل والاصداف • وبين الحين والحين تبرز شجرة أثل ، او تينة برية ، ابو باقة من الخيزران ، او نبات سكر الحوت المر • كان الجو ثقيلا • والغيوم تهبط وتدنو من الأرض ، والريح تهدأ •

ومررنا قرب شجرة تين كبيرة لها جذع مزدوج ، مخملي ، أخذت الشيخوخة تدب فيها • وتوقف احد الفلاحين • وأشار بحركة من ذقنه الى الشجرة العجوز • وقال :

ـ تينة الآنسة !

وفوجئت • ان لكل شجرة ، لكل صخرة ، في أرض كريت هذه ، قصتها المؤسية •

ـ تينة الآنسة ؟ لماذا تدعى هكذا ؟

ـ في ايام جدي ، وقعت ابنة احد الاعيان في غرام راعٍ شاب • لكن

والدها لم يرضَ ، فكانت الآنسة تبكي ، وتصرخ ، وتتضرع ، لكن الشيـخ لم يبدل موقفه ! وذات مساء اختفى الشابـان • وبحثوا عنهما ، يوماً ، واثنين وثلاثة ، واسبوعاً ، لكن عبثاً ! وفـاحت رائحة نتنة ، فتتبعوها ووجدوهمـا تحت هذه التينة ، متعانقين ، منتنين • أتفهم ؟ لقد وجدوهما بسبب النتانة •

وانفجر الصبي ضاحكاً • وسمعنا ضوضاء القرية • وأخذت كلاب تنبح ، ونساء يتصايحن ، والديكة تعلن تغيُّر الوقت • وفي الهواء كانت تنتشر رائحة تفل العنب الفائحة من القدور التي يقطر فيها العرق •

وصرخ الغلامان وهما ينطلقان :

ـ هي ذي القرية !

وما ان انعطفنا حول تل الرمل ، حتى ظهرت القرية الصغيرة ، متسلقة سفح الوادي • منازل منخفضة من التراب ، مبيضة بالكلس ، ملتصقة الواحد بجانب الآخر • وكانت نوافذها المفتوحة كبقـع سوداء تشبه جمـاجم مبيضة محصورة بين الحجارة •

ولحقت بزوربا • وقلت له بصوت منخفض :

ـ انتبه يا زوربا ، ليكن سلوكك كما يجب ، وقد أصبحنا الآن في القرية • يجب الا يشكوا في شيء ، زوربا ! لنظهر بمظهر رجال الاعمال الجديين : انا الرئيس وانت المشرف على العمال • اعلم ان الكريتيين لا يمزحـون • فما ان يقع نظرهم عليك ويجدوا فيك عيباً ، حتى يُلصقوا بك لقباً • وبعد ذلك لن نجد اية وسيلة للتملص منه ، وستجري ككلب عُلقت في ذنبه قدر •

وأخذ زوربا شاربه بجماع يده وغرق في التأمل ، واخيراً قال :

ـ اصغِ ، ايها الرئيس ، اذا كانت هناك أرملة في القرية ، فلست بحاجة للخوف ، أما اذا لم تكن هناك أرملة •••

وفي تلك اللحظة ، عند مدخل القرية ، ركضت متسولة ملفعة بالأسمال ، ممدودة اليد • كـانت شديـدة السمرة ، متسخة ، لها شـارب أسود كث • وضرخت بزوربا :

ـ ايها الرجل ، ايها الرجل ! هل لك روح ؟

وتوقف زوربا وأجاب بجدية :

ـ لي روح •

ـ اذن اعطني خمسة دريهمات !

فأخرج زوربا من جيبه حافظة بالية وقال :

ـ خذي !

وانفرجت شفتاه المريرتان عن ابتسامة · والتفت قائلا :

ـ الحياة هنا ليست غالية على ما ارى : الروح بخمسة دريهمات ·

وأسرعت كلاب القرية نحونا ، وانحنت النساء من فوق الأسطحة ، وراح الأولاد يقلدون خطواتنا وهم يصرخون · كان البعض ينبح ، وآخرون يبوقون كالسيارات ، وغيرهم يتقدموننا وهم ينظرون الينا بعيون كبيرة مبهوتة ·

ووصلنا الى ساحة القرية · كان فيها شجرتان ضخمتان من الحور الأبيض محاطتان بجذعين منحوتين بدون اتقان على شكل مقاعد ، ويواجههما مقهى تعلوه يافطة عديمة اللون « مقهى ومجزرة الاحتشام » ·

وسألني زوربا :

ـ لماذا تضحك ، ايها الرئيس ؟

لكن لم يتح لي الوقت للاجابة · اذ خرج من المقهى ـ المجزرة خمسة او ستة رجال طوال يرتدون قمصاناً زرقاً قاتمة لها حزام احمر ، وهتفوا :

ـ اهلا وسهلا · تفضلا لتناول كأس من العرق · انه لا يزال حاراً ، فقد قطر منذ لحظات ·

ولعق زوربا لسانه :

ـ ما رأيك ، أيها الرئيس ؟

والتفت اليّ وغمز بعينه :

ـ أنشرب قدحاً ؟

وشربنا قدحاً ، احرق أحشاءنا · وجاءنا صاحب المقهى ـ المجزرة ، وهو شيخ صلب العود ما يزال محتفظاً بصحته ونشاطه بمقعدين ·

وسألته أين نستطيع ان نقطن · فصرخ أحدهم :

ـ اذهبا الى السيدة هورتانس ·

فقلت مذهولا :

ـ فرنسية ؟

ـ لقد جاءت من الطرف الآخر من العالم · لقد عاشت ، وساحت قليلا في كل مكان ، وعندما شاخت جاءت الى هنا ، وفتحت نزلا ·

والقى طفل بهذه الجملة :

ـ اهي تبيع ايضاً سكاكر !

وصرخ آخر :

ـ انها تتزين بالطحين والصباغ ! ولها وشاح حول عنقها ··· وعندها ايضاً ببغاء ·

فسأل زوربا :
ـ ارملة ؟ أهي أرملة ؟
ولم يجب احد ·
وعاد الى السؤال ، واللعاب في فمه :
ـ ارملة ؟
وامسك صاحب المقهى بلحيته الرمادية الكثيفة وقال :
ـ كم في هذه اللحية من الشعر ، ايها الصديق ؟ كم ··· حسناً ، لقد ترملتْ بعدد هذا الشعر · أفهمت ؟
فأجاب زوربا وهو يلعق مشفريه :
ـ فهمت ·
ـ يمكنها أن تجعلك انت ايضاً أرمل ·
ـ خذ حذرك ، ايها الصديق !
هتف بذلك عجوز ، وقهقه الآخرون ·
وظهر صاحب المقهى من جديد وهو يحمل على صحفة خبز شعير ، وجبن ماعز ، وكمثرى · وصرخ :
ـ هيا ، دعوهما في سلام ! ليس لأية سيدة أهمية ! سوف يبيتان عندي ·
فقال العجوز :
ـ انا الذي سيأخذهما ، يا كوندومانوليو ! اذ ليس عندي أطفال ، وبيتي كبير ، وفيه متسع ·
فهتف صاحب المقهى وهو ينحني على اذن العجوز :
ـ عفواً ، ايها العم انانيوستي · لقد كنتُ السابق الى قول ذلك ·
فأجاب العجوز انانيوستي :
ـ ليس عليك الا أن تأخذ الآخر ، اما انا فسآخذ العجوز ·
فقال زوربا وقد تملكه الغيظ بسرعة :
ـ اي عجوز ؟
فقلت ، وانا اشير الى زوربا بألا يغضب :
ـ اننا لن نفترق · لن نفترق · وسنذهب الى السيدة هورتانس ··· اهلا وسهلا ! اهلا وسهلا !

وظهرت عند شجرتي الحور ، امرأة قصيرة القامة ، بدينة ، بهت لون شعرها ، واصبح لونها بلون الكتان ، وهي تتهادى على ساقيها ، ممدودة الذراعين · وكان ثمة خال ، تتدلى منه شعرات اشبه بوبر الخنزير ، يزين

ذقنها · وكانت تضع على رقبتها وشاحاً مخملياً احمر ، وخداها الذابلان مطليان بمسحوق بنفسجي · وثمة خصلة صغيرة لعوب تتأرجح على جبهتها ، فتجعلها شبيهة بسارة برنار في دور العجوز بمسرحية « النسر الصغير » (١)·

فأجبت وانا اتهيأ لتقبيل يدها ، وقد تملكتني بشاشة مفاجئة :

ـ سعيد لتعرفي اليك ، ايتها السيدة هورتانس ·

وبدت لي الحياة فجأة مثل حكاية ، مثل ملهاة لشكسبير ، ولنقل انها « العاصفة » · لقد نزلنا من السفينة ، كلنا بلل ، بعد حادثة الغرق الوهمية · كنا نستكشف الشواطىء الساحرة ونحيي سكان المكان بابهة · ان السيدة هورتانس هذه تبدو لي وكأنها ملكة الجزيرة ، نوع من عجول البحر ، اشقر ولماع ، قد سقط ، وهو على وشك الانتان ، معطراً وملتحياً بشارب فوق ذلك الشاطىء الرملي · ووراءها شعب « كاليبان » برؤوسه المتسخة الكثيرة ، الكثيفة بالشعر والمليئة بالروح المرحة ، ينظر اليها بكبرياء واحتقار ·

وكان زوربا ، الامير المتنكر ، يتأملها ، هو ايضاً ، جاحظ العينين ، وهي اشبه برفيقة قديمة ، بسفينة حربية قديمة حاربت في بحار بعيدة ، كانت تنتصر مرة وتهزم مرة ، فغارت كوى مدافعها ، وتحطمت صواريها ، وتمزقت اشرعتها ـ وهي الآن ، بعد ان تخددت بالشقوق التي تسدها بالمعجونات والمسحوقات ، قد انسحبت الى هذا الساحل وراحت تنتظر · انها ـ ولا شك ـ تنتظر زوربا ، القبطان ذا المئة ندب · وكنت مسروراً لرؤية هذين الممثلين يلتقيان اخيراً في هذا الديكور الكريتي ، الذي وُضع على المسرح ببساطة ، ودُهن بضربات كبيرة من الفرشاة ·

وقلت وانا انحني امام ممثلة الحب الكوميدية العجوز :

ـ سريران ، يا سيدتي هورتانس ! سريران بلا فسافس ···

فهتفت وهي ترميني بنظرة طويلة متحدية :

ـ بلا فسافس ، نعم ، بلا فسافس !

فصرخت افواه شعب « كاليبان » ساخرة :

ـ يوجد فسافس ! يوجد فسافس !

فقالت وهي تضرب الحجارة بقدمها القصيرة السمينة ، الملتفحة بجورب ضخم أزرق سماوي :

ـ لا يوجد فسافس ! لا يوجد فسافس !

---

١ ـ مأساة شعرية من ستة فصول لادمون روستان · « المترجم »

وكانت تحتذي خفين مشقوقين ، مزينين بعقدة صغيرة ظريفة من الحرير ٠

ـ هوْ ! هوْ ! ليأخذك الشيطان ، ايتها المغنية !

قهقه بذلك ايضاً شعب كاليبان ٠

لكن السيدة هورتانس ، كانت قد سارت ، وكلها وقار ، وشقت لنا الدرب ٠ وكانت رائحة المسحوقات والصابون الرخيص تفوح منها ٠

ومشى زوربا وراءها وهو يفترسها بعينيه وقال لي بصوت خافت :

ـ قل اذن ، وتحقق من هذا ، ايها الرئيس ٠ كيف تتبختر ، العاهرة : بلاف ! بلاف ! كتلك النعجات التي لها اليات مليئة بالدهن !

وسقطت قطرتان او ثلاث ضخام ، واظلمت السماء ٠ وشقت الجبل بروق زرق ٠ وراحت فتيات صغيرات ، متلفحات بأغطيتهن الصغيرة البيضاء المصنوعة من وبر الماعز ، يرجعن بسرعة من المرعى بعنزة العائلة وخروفها ٠ واشعلت النساء ، المقرفصات امام المدفأة ، نار المساء ٠

وعض زوربا بعصبية على شاربه دون ان يكف عن النظر الى ردف السيدة المدور ٠ وتمتم فجأة متنهداً :

ـ همْ ! ان هذه الحياة العاهرة لا تضن ابداً بالمفاجآت ٠

- ٣ -

كان فندق السيدة هورتانس الصغير يتألف من حجرات قديمة للحمام ، ملتصقة بعضها ببعض • والحجرة الأولى كانت الدكان • وفيها سكاكر ، وسجائر ، وفستق عبيد ، وفتائل للمصابيح ، وابجديات ، وشموع ، ولبان ، ثم أربع حجرات أخرى متتالية تشكل غرف النوم • وفي الخلف ، في الساحة ، كان هناك المطبخ ، والمغسلة ، والقن ، ومكو الارانب • وحولها ، شجيرات الخيزران الكثيفة واشجار التين البرية ، مغروسة في الرمل الناعم • وكان هذا كله يفوح برائحة البحر ، والروث ، والبول • لكن بين الفينة والفينة ، عندما تمر السيدة هورتانس ، تتبدل رائحة الجو ، وكأنهم افرغوا تحت انفك طست الحلاق •

وعندما هيء السريران ، استلقينا عليهما ولم نستيقظ الا عند الصباح • ولا اذكر انني حلمت ، لكنني كنت ، عندما استيقظت ، خفيفاً ونشيطاً وكأنني خارج من البحر •

كان اليوم يوم أحد ، وسيأتي العمال في الغد من القرى القريبة ليبدأوا العمل في المنجم • فعندي متسع من الوقت اذن لأقوم بجولة في هذا اليوم لأعرف على أي شواطىء القى بي القدر • عندما خرجت كان الفجر يكاد يلوح ، وتجاوزت البساتين ، وسرت على شاطىء البحر ، وتعرفت بسرعة الى الماء ، الى الأرض ، الى هواء المنطقة ، وقطفت نباتات برية ، وتعطرت راحتاي بالصعتر ، والقويسة ، والنعناع •

وصعدت الى تلة ، ونظرت • منظر اجرد ، من الغرانيت والصخور الكلسية الشديدة القسوة • اشجار خرنوب قاتمة ، واشجار زيتون لجينية ، واشجار تين وعنب • وفي التلاع المخفية ، بساتين من اشجار البرتقال والليمون والزعرور ، وعلى مقربة من الشاطىء ، المباقل • وفي الجنوب كان

البحر يهجم على كريت ويتأكلها ، البحر الذي لا يزال ثائراً ، هائلا ، قادماً من السواحل الافريقية ، هادراً . وعلى مسافة قريبة جداً ، جزيرة صغيرة منخفضة ، رملية ، لونها تحت الأشعة الاولى وردي عذري ·

كان هذا المنظر الكريتي يشبه ، على ما بدا لي ، نثراً جيداً : متقن الصنعة ، بسيطاً ، خالياً من التكلف ، قوياً ، جزلا · انه يعبر عما هو أساسي بأبسط الوسائل · انه لا يتبختر ، ويرفض استعمال اقل تصنع · انه يقول ما عليه ان يقوله بصرامة رجولية · لكننا نلمح السطور القاسية حساسية وليونة غير متوقعتين ، ففي التلاع المخفية ، كانت أشجار البرتقال والليمون تعبق ، ومن بعيد ينبع من البحر اللامتناهي ، شعر لا ينفد ··· وتمتمت :

ـ كريت ··· كريت ···

وكان قلبي يخفق ·

وانحدرت من فوق التل الصغير وسرت بمحاذاة الماء · وظهرت صبايا يثرثرن ، بمناديل بيض كالثلج وأحذية عالية صفر ، وتنورات مرفوعة ، وكن ذاهبات لسماع القداس في الدير الذي يشاهد هناك ، متألقاً بالبياض ، عند ساحل البحر ·

وتوقفت · وما ان شاهدنني ، حتى انطفأت ضحكاتهن · لقد انغلقت اوجههن ، عند رؤية رجل غريب · واتخذن موقف الدفاع من أعلى رؤسهن الى اخمص أقدامهن ، وتشبثت أصابعهن بعصبية بصداريهن المزررة بشدة · لقد ذعر دمهن · ان القراصنة ، على طول هذه السواحل الكريتية المتجهة نحو افريقيا ، كانوا يقومون ، خلال قرون كاملة ، بغزوات مفاجئة ، ويخطفون النعاج ، والنساء ، والأطفال ، ويربطونهم بأحزمتهم الزرقاء ، ويلقون بهم في قعر السفينة ، ويقلعون لبيعهم في الجزائر ، والاسكندرية ، وبيروت · ان البحر ، خلال قرون كاملة ، قد ضج بالبكاء ، على هذا الساحل المزدهر بالضفائر السود · ورحت انظر الى الصبايا وهن يقتربن ، مستوحشات ، ملتصقات بعضهن ببعض ، وكأنهن يردن تشكيل سد لا يمكن تخطيه · حركات اكيدة ، كان لا بد منها في القرون الماضية ، تعود اليوم للظهور دون سبب ، حسب ايقاع الضرورة التي اختفت ·

لكن عندما مرت الصبايا أمامي ابتعدت بهدوء وانا أبتسم · وسرعان ما اضاءت وجوههن ، وكأنهن أحسسن فجأة ان الخطر قد زال منذ قرون ، بعد ان استيقظن في عصر الأمن هذا ، وانفرج خط القتال المصنوع من الصفوف المتراصة ، وتمنين لي جميعاً بأصوات مرحة صافية صباح الخير · وفي اللحظة

نفسها ، ملأت أجراس الدير البعيد ، السعيدة ، المرحة ، الفضاء بتهللها .

كانت الشمس قد أصبحت مرتفعة ، والسماء صافية . وربضت بين الصخور ، مختبئاً كطير الزمج في حفرة ، وتأملت البحر . وكنت أحس بجسدي ممتلئاً قوة ، رطباً ، طيعاً . وتموج فكري وهو يتبع الأمواج وخضع هو ايضاً ، دون أية مقاومة ، لايقاع البحر .

وشيئاً فشيئاً ، امتلأ قلبي ، وراحت أصوات غامضة ، آمرة متضرعة ، تصعد في داخلي . كنت اعلم من الذي يدعو . فما ان ابقى بمفردي لحظة ،حتى يهدر في داخلي ، وقد اقلقته الاحساسات الفظة ، والمخاوف المجنونة ، والهذيان ، ويروح ينتظر مني الانقاذ .

وفتحت بسرعة كتاب دانتي « رفيق السفر » كي أطرد الشيطان الرهيب ، ولا استمع اليه . وقلبت صفحاته ، وانا اقرأ بيتاً من هنا ، ومقطوعة من هناك ، معيداً الى ذاكرتي النشيد كله ، ومن خلال هذه الصفحات الحارة كانت ارواح الملعونين تتصاعد معولة . والى الاعلى ، نفوس جريحة تحاول ان تتسلق جبلا وعراً عالياً . والى الأعلى ايضاً ، كانت أرواح السعداء تجول في مروج زمردية ، كالحباحب اللامعة . كنت أذهب واجيء من اعلى مبنى القدر الرهيب الى اسفله ، وأجول على مهل في الجحيم ، والمطهر ، والفردوس ، وكأنني في مسكني الخاص. كنت اتعذب ، او آمل ، او اتذوق السعادة ، تحملني الاشعار الرائعة أنى شاءت .

وفجأة أغلقت كتاب دانتي ونظرت على مد البصر . كان احد طيور الزمج ، مسنداً بطنه الى الموجة ، يصعد ، ويهبط معها ، متلذذاً ، بسعادة ، بغبطة اللامبالاة . وظهر صبي صغير اسمر بحذاء الماء ، عاري القدمين ، وهو يغني أغاني الحب . ولعله كان يفهم الألم الذي تعبر عنه ، لأن صوته أخذته بحة كصوت ديك صغير .

ان اشعار دانتي كانت تنشد ، خلال سنين ، وقرون ، على النحو نفسه في بلد الشاعر . وكما ان أغنية الحب تهيىء الصبيان والصبايا للحب ، كذلك كانت هذه الاشعار الفلورنسية تهيىء الايطاليين البالغين للنضال من أجل الخلاص . كانوا جميعاً ، من جيل الى جيل ، يتصلون بروح الشاعر ، محولين عبوديتهم الى حرية .

وسمعت ضحكاً خلف ظهري . وتدحرجت دفعة واحدة من الذرا الدانتية، والتفت ورأيت زوربا واقفاً ورائي ، وهو يضحك بكل وجهه . وهتف :

ـ ما هذه الحركات ، أيها الرئيس ؟ انني ابحث عنك منذ ساعات ، لكن

أين استطيع ان اكتشف مخبأك ؟

ولما رآني صامتاً ، بلا حراك ، صرخ :

ـ لقد مضى الظهر ، ونضجت الدجاجة ، انها ستذوب كلها ، المسكينة ! أتفهم ؟

ـ افهم ، لكنني غير جائع ·

ـ لست جائعاً ! قال ذلك زوربا وهو يضرب ساقيه · لكنك لم تأكل شيئاً منذ هذا الصباح · يجب ان تهتم بالجسد أيضاً ، أشفق عليه · أطعمه ، ايها الرئيس ، أطعمه ، فهو حمارنا الصغير ، كما ترى · فاذا لم تطعمه ، تركك في منتصف الطريق ·

انني احتقر ملاذ الجسد ، منذ سنوات ، ولو كان مناسباً ، لأكلت في الخفاء ، وكأنني ارتكب عملا مخجلا · ولكنني قلت كي لا يحتج زوربا :

ـ حسناً ، انني قادم ·

واتجهنا نحو القرية · لقد مضت الساعات بين الصخور كما تمضي ساعات الحب ، بأسرع من البرق · وكنت لا ازال احس بنفحة الشعر الفلورنسي المحرقة على وجهي · وسألني زوربا ببعض التردد :

ـ أكنت تفكر بالليينيت ؟

فأجبت ضاحكاً :

ـ وبأي شيء آخر تريدني ان افكر ؟ غداً ، سنبدأ العمل · فكان لا بد من ان اقوم بالحسابات ·

ورمقني زوربا بطرف عينه وصمت · وفهمت انه ما يزال يزنني ، ولا يعرف بعد أعليه ان يصدق ام لا · وسألني مرة أخرى ، بتقدم حذر :

ـ ونتيجة حساباتك ؟

ـ علينا ان نستخرج عشرة اطنان من الليينيت يومياً ، مدة ثلاثة أشهر ، لتغطية التكاليف ·

ونظر اليّ زوربا من جديد ، لكن بقلق هذه المرة · ثم قال بعد فترة ·

ـ ولماذا ، بحق الشيطان ، ذهبت الى شاطىء البحر لتقوم بالحسابات ؟ اعذرني أيها الرئيس ، اذا كنت اسألك ذلك ، لكنني لا افهم · انا ، عندما اعلق بالارقام ، اود لو احشر نفسي في جوف الأرض ، كي لا أرى شيئاً · اما اذا رفعت عيني ورأيت البحر ، أو شجرة ، أو امرأة ، ولو عجوزاً ، فقد قضي الأمر ! وراحت الحسابات وخنازير الارقام تفلت من مخي ، وكأنما نبتت لها اجنحة ···

وقلت كي اغيظه :

ـ لكنها غلطتك يا زوربا ! فأنت لست قادراً على تركيز افكارك .

ـ انا لست ادري ، ايها الرئيس . لكل حالة وضعها الخاص . هناك حالات لا يستطيع حتى سليمان الحكيم ... فمثلا ، كنت ماراً ، ذات يوم ، في قرية صغيرة . كان ثمة جد هرم في التسعين يغرس شجرة لوز . فقلت له : « ايه ، أيها الاب الصغير ، أتزرع شجرة لوز ؟ » . فالتفت الي وهو محني كما كان وقال : « انني اتصرف ، يابني ، وكأنني لن اموت ابداً » فأجبته : « وانا اتصرف وكأنني سأموت في كل لحظة » . من كان منا المحق ، ايها الرئيس ؟

ونظر الي بانتصار ، وقال :

ـ ها هنا انتظرك .

وصمت . كان ثمة ممران صاعدان وجريئان يمكن ان يؤديا الى القمة . أن نتصرف وكأن الموت غير موجود ، وأن نتصرف ونحن نفكر بالموت في كل لحظة ، لعل الأمر سواء . لكنني لم اكن اعرف في اللحظة التي سألني فيها زوربا . وقال هازئاً :

ـ اذن ؟ لا تغضب ، أيها الرئيس ، فلن تخرج بنتيجة . لنتكلم في أمر آخر . انني ، في هذه اللحظة ، افكر بالغداء ، بالدجاجة ، بالارز المرشوش بالقرفة ، ورأسي يدخن مثل الارز . لنأكل أولا ، ثم لنرَ . كل شيء في وقته . امامنا الآن الارز ، اذن يجب ان يتجه فكرنا الى الارز . وغداً ، سيكون امامنا اللينيت ، اذن فسيتجه فكرنا الى اللينيت . لا حلول وسطى ، أفهمت ؟

ودخلنا القرية . كانت النسوة جالسات على العتبة يثرثرن ، والشيوخ مستندين الى عصيهم ، صامتين . وتحت شجرة رمان حاملة ، جلست عجوز ضئيلة متغضنة ، تفلي حفيدها من القمل .

كان يقف ، امام المقهى ، شيخ مستقيم القامة ، قاسي الوجه منقبضه ، اقنى الانف ، تبدو عليه ملامح السادة الكبار . انه مافراندوني ، شريف القرية السابق الذي أجرنا منجم اللينيت . وقد مر البارحة عند السيدة هورتانس ليأخذها الى بيته . كان قد قال :

ـ انه لعار كبير علينا ان تظلا في فندق ، وكأنه ليس في القرية من يستطيع استقبالكما .

كان وقوراً ، وكلماته متزنة . رفضنا . فاستاء ، لكنه لم يلح . وقال وهو ذاهب :

ـ لقد فعلت واجبي ، لكما الحرية .

وبعد فترة أرسل لنا كرتين من الجبن ، وسلة رمان ، وجرة من الزبيب ، وتيناً ، ونصف دن من العرق ·

وقال الخادم وهو ينزل الحمل من فوق الحمار الصغير :

ـ تحية من قبل الكابتن مافراندوني ـ وهو يقول : قليل من الاشياء ، وكثير من القلب ·

وحيينا شريف القرية السابق بفيض من العبارات الودية ·

فقال وهو يضع يده على صدره :

ـ حياة طويلة لكما !

وصمت وتمتم زوربا :

ـ انه لا يحب التكلم كثيراً ، انه رجل قوي الشكيمة ·

وقلت :

ـ وصلف ، انه يعجبني ·

كنا قد وصلنا · كان منخرا زوربا يختلجان مرحاً · وما ان رأتنا السيدة هورتانس عند العتبة ، حتى أطلقت صرخة وهرعت الى المطبخ ·

ووضع زوربا المائدة في الباحة ، تحت الدالية العارية من اوراقها · وقطع شرائح كبيرة من الخبز ، وجاء بالخمر ، ووضع الصحاف وادوات المائدة · والتفت ونظر الي بخبث ، واشار الى المائدة : لقد وضع ثلاث صحاف مع ادواتها ! وهمس :

ـ أتفهم ، ايها الرئيس ؟

فأجبت :

ـ انني افهم ، انني افهم ، ايها الفاسق العجوز ·

قال وهو يلعق شفتيه :

ـ ان الدجاجات العجوز هي التي تصنع المرق الطيب · انا اعرف شيئاً عن ذلك ·

كان يهرع ، خفيفاً ، عيناه تقدحان شرراً ، ويدندن بأغاني حب قديمة ·

ـ انها الحياة ، ايها الرئيس ، الحياة الطيبة · وها انا الآن أتصرف وكأنني سأموت بعد دقيقة · وأسرع كي لا اموت قبل ان آكل الدجاجة ·

وهتفت السيدة هورتانس آمرة :

ـ الى المائدة !

ورفعت القدر ووضعتها امامنا · لكنها وقفت فاغرة الفم ، اذ رأت الصحاف الثلاث · ونظرت الى زوربا وقد اصبح لونها بلون القرمز ، والتمعت

عيناها الصغيرتان الحامضتان ، الزرقاوان • وقال لي زوربا بصوت منخفض :

ـ لقد دبّت النار في سراويلها •

ثم التفت الى السيدة بتهذيب كبير وقال :

ـ ياجنيّة المياه الجميلة ، لقر غرقنا وألقانا البحر في مملكتك : تنازلي وقاسمينا طعامنا ، يا فاتنتي !

وفتحت المغنية العجوز ذراعيها بكل مداهما ثم أطبقتهما وكأنها تريد ان تضمّنا كلينا ، وتمايلت بلطف ، ولامست زوربا ، ثـم لامستني ، وركضت ، هادلة ، الى غرفتها • وبعـد قليل ، عـادت الى الظهور ، مرتعشة ومتهادية ، مرتدية افضل ثيابها : ثوباً مخملـياً عتيقاً اخضر ، رثـاً مزيناً بشرائط صفر متباعدة • وكان نصف فستانها الأعلى مفتوحاً على مداه ، وقد شكّت عنـد صدرها وردة من نسيج متألق • وكانت تمسك بيدها بقفص الببغاء ، الـــذي علقته بالدالية •

وأجلسناها في الوسط ، زوربا الى يمينها ، وانا الى يسارها • وهجمنا ثلاثتنا على الغداء • ومضى وقت طويل لم نفه خلاله بكلمة • كان الحيوان في داخلنا يتغدى ، ويروي ظمأه ، والغذاء يتحول بسرعة الى دم ، والعالم يصبح اجمل ، والمرأة التي الى جانبنا تصغر في كل لحظة وتمحي غضونها • وكـان الببغاء المعلق تجاهنا ، بردائه الأخضر وصدريته الصفراء ، ينحني لينظر الينا ، فيبدو لنا تارة مثل رجل ساذج مسحور ، وطوراً مثـل روح المغنية العجـوز بثيابها الخضراء والصفراء • وفوق رؤوسنا امتلأت الدالية العارية فجأة بعناقيد كبيرة من العنب الأسود •

وادار زوربا عينيه ، وفتح ذراعيه على مداهما ، وكأنه يريد ان يعانـق العالم ، وهتف مذهولا :

ـ ما الذي يحدث ، ايها الرئيس ؟ ما ان نشرب قدحاً صغيراً من الخمر ، حتى يفقد العالم رشده • ومـع ذلك ، فما الحياة ، ايهـا الرئيس ! قل لي بدينك ، هذا الذي يتـــدلى فوق رؤوسنا ، أهـو عنب ، ام مـلائكة ، انني لا استطيع التمييز • ام ان هذا لا شيء مطلقاً ، ولا شيء موجود ، لا دجاجة ، ولا جنية ، ولا كريت ؟ قل ، ايها الرئيس ، قل والا جننت !

كان المرح قد تملك زوربا • لقد انتهى من الدجاجة وراح ينظر بنهم الى السيدة هورتانس • كانت عيناه تهاجمانها ، وتصعدان وتهبطان ، وتتغلغلان في صدرها المنتفخ وتجسانه وكأنهما يدان • وكانت عينا سيدتنا الطيبة تلمعان ايضاً ، انها تتذوق الخمر وقد جرعت عدداً لا بأس به من الكؤوس • واعادها

شيطان الخمر المعربد الى الأيام الماضية الطيبة · ونهضت ، وقد عادت اليهـا رقتها وبشاشتها وانطلاقها ، واغلقت الباب الخـارجي بالمزلاج كي لا يراهــا القرويون ــ « المتوحشون » كما تدعوهم ــ واشعلت لفافة وراح انفها الصغير الاقصى على الطريقة الفرنسية ينفث دوائر الدخان ·

ان جميع ابواب المرأة تتفتح ، في مثل هــذا الحين ، وينـام الحراس وتصبح للكلمة الطيبة الواحدة قوة الذهب او الحب · أشـعلت اذن غليوني ولفظت الكلمة الطيبة :

ــ ايتها السيدة هورتانس ، انـك تذكرينني بسـارة برنار ··· عندما كانت شابة · لم اكن اتوقع ان اجد في هذا المكان المتوحش مثل هذه الاناقة ، وهذه الكياسة ، وهذا الجمال · وهـذا الأنس · فـأي شكسبير ارسلك الى هنا ، بين المتوحشين ؟

فقالت وقد جحظت عيناها الصغيرتان المغرورقتان :

ــ شكسبير ؟ اي شكسبير ؟

وطارت نفسها ، بسرعة ، الى المسارح التي شاهدتها ، وجالت ، في لمح البصر ، في المقاهي الغنائية ، من باريس الى بيروت ومن هنـاك على طـول شواطىء آسيا الصغرى ، وفجأة تذكرت : كان ذلك في الاسكندرية ، في قاعة كبيرة عامرة بالثريات ، والمقاعدالمخملية ، والرجال والنساء ، والظهور العارية ، والعطور ، والازهار · وفجأة ارتفع الستار وظهر عبد مرعب ···

وقالت من جديد وقد اخذتها هزة الكبرياء لأنها تذكرت إخيراً :

ــ اي شكسبير ؟ أهو الذي يدعونه ايضاً عطيل ؟

ــ هو نفسه · اي شكسبير ألقى بك ، ايتها السيدة النبيلة ، فوق هذه الصخور المتوحشة ؟

ونظرت حولها · كانت الأبواب مغلقة ، والببغاء نائما ، والارانب تتبادل الحب ، وكنا وحيدين · واخذت تفتح لنا قلبها منفعلة ، كما يفتـح صندوق قديم مليء بالعطور ، والبطاقات الصفراء الناعمة ، وادوات الزينة النفيسة ···

كانت تتكلم اليونانية كيفما اتفق ، وتلحن في الكلمات ، وتختلط المقاطع· ومع ذلك كنا نفهمها تماماً ، واحياناً يصعب علينا كتمان ضحكتنا ، واحـياناً اخرى ــ وكنا قد شربنا أكثر من اللازم ــ نفيض بالدموع ···

ــ حسناً ، انا التي تحدثكما ، لم اكن مغنية في الكباريات ، كلا ! كنت فنانة مشهورة · كنت ارتدي فساتين حريرية مخرمة · لكن الحب ···

وتنهدت بعمق ، واشعلت لفافة اخرى من لفافة زوربا :

ـ كنت مغرمة بأميرال • كانت الثورة تجتاح كريت ، واساطيل الدول الكبرى قد ارست قلوعها في مرفأ سودا • وبعد عدة ايام ، ارسيت قلوعي انا ايضاً هناك ، آه يا للعظمة ! كان عليكما ان تشاهدا الاميرالية الأربعة : الانجليزي ، والفرنسي ، والايطالي ، والروسي ، كلهم متلفحون بالذهب ، بأحذية لامعة ، والريش على الرأس • مثل الديوك • ديوك كبيرة يزن الواحد منها بين الثمانين والمئة كيلو • ويا لتلك اللحى ! متجعدة حريرية ، سمراء ، شقراء ، رمادية ، كستنائية ، وما كان أطيب رائحتها ! كان لكل منهم عطره الخاص ، وبهذه الطريقة كنت اميزهم في الليل • كانت تفوح من انجلترا رائحة ماء الكولونيا ، ومن فرنسا البنفسج ، ومن روسيا المسك ، ومن ايطاليا ، آه ! ايطاليا كانت مشغوفة بالعنبر ! يا لتلك اللحى ، يا الهي ، يا لتلك اللحى !

« كنا نجتمع غالباً في سفينة القيادة ، ونتحدث عن الثورة • كانت جميع البزات مفكوكة العرى ، ولم اكن ارتدي سوى ثوب من الحرير يلتصق بجلدي ، لأنهم كانوا يغرقونه في الشمبانيا • كان ذلك في الصيف ، أتفهم • كنا نتحدث اذن عن الثورة ، احاديث جدية ، وكنت انا امسك بلحاهم واتضرع اليهم ألا يطلقوا مدافعهم على الكريتيين المساكين الأعزاء • كنا نراهم بالمنظار ، على صخرة ، قرب كارنيه ، ضئيلين ، ضئيلين ، مثل النمل ، وهم مرتدون زرقاء واحذية صفراء • وكانوا يصرخون ، ويصرخون ، وكان معهم علم ••• »•

وتحركت القصبات التي تشكل سياج الباحة • وتوقفت المناضلة العجوز ، مذعورة • ولمعت بين أوراق الأشجار عيون خبيثة • لقد شم اطفال القرية رائحة مرحنا وراحوا يرقبوننا •

وحاولت المغنية ان تنهض ، لكنها لم تتمكن : لقد أكلت كثيراً وشربت كثيراً ، فعادت الى الجلوس والعرق ينسال منها • وتناول زوربا حجراً ، فتفرق الأطفال وهم يصيحون •

وقال زوربا وهو يقرب مقعده قليلا :

ـ تابعي ، يا جميلتي ، تابعي ، يا كنزي !

ـ كنت أقول اذن للأميرال الايطالي ، الذي كنت اجد معه حرية اكبر ، كنت اقول له وانا أمسك لحيته : « كانافارو ـ هكذا كان اسمه ـ يا صغيري كانافارو ، لا تفعل بُمْ ! بمْ ! لا تفعل بم ! بم ! » •

« كم من المرات ، انا التي تحدثكما ، انقذت الكريتيين من الموت ! كم من المرات كانت المدافع مستعدة للاطلاق ، لكنني كنت أمسك بلحية الأميرال ولا اتركه يفعل بم ! بم ! لكن من الذي يعترف بجميلي ؟ بدلا من وسام •••»•

لقد كانت السيدة هورتانس غاضبة من نكران البشر للجميل • وضربت

المائدة بقبضتها الصغيرة اللدنــة المتغضنة · ومد زوربــا يده الى الركبتين المنفرجتين ، وامسكهما ، وقد تملكه انفعال متصنع وهتف :

ـ يا بوبولينتي (١) ، ارجوك ، لا تفعلي بم ! بم !

فقالت سيدتنا الطيبة وكأنها دجاجة تنادي افراخها :

ـ ارفع يديك ! ماذا تظنني ، ايها العجوز ؟

ورمقته بنظرة مرتخية ، وقال المحتال العجوز :

ـ يوجد اله رحيم ، لا تحزني يا بوبولينتي · نحن هنا ، يا عزيزتي ، لا تخافي !

ورفعت الجنية العجــوز الى الســماء عينيهــا الصغيرتين الزرقــاوين اللاذعتين ، ورأت ببغاءها نائما في قفصه ، اخضر اللون · وهدلت بحب :

ـ كانافارو ، يا صغيري كانافارو !

وفتح الببغاء عينيه ، عندما عرف صوتها ، وتشبث بقضبان القفص وراح يصرخ بصوت مبحوح لانسان يغرق :

ـ كانافارو ! كانافارو !

ـ حاضر ! هتف زوربا وهو يضع من جــديد يده على هــاتين الركبتين اللتين خدمتا كثيراً ، وكأنه يريد امتلاكهما ·

واستدارت المغنية العجوز فوق مقعدها ، وفتحت من جديد فمها الصغير المتغضن :

ـ لقد حاربت انا ايضاً ، صدراً لصدر ، ببسالة ··· لكن الايام السيئة جاءت · فقد تحررت كريت ، تلقت الاساطيل الامر بالعودة · « وانا ، مــا الذي سأصير اليه ، كنت اهتف بذلك وانــا امســك بــاللحى الأربــع · اين ستتركونني ؟ لقد اعتدت على العظمة ، اعتــدت على الشمبانيا والفراريــج المحمرة ، اعتدت على البحارة الصــغار الجميلين الــذي يحيونني بــالتحية العسكرية · ما الذي سأصير اليه ، أربع مرات أرملة ، يا سادتي القواد ؟ » ·

« أما هم ، فكانوا يضحكون · آه ! يــا للبشر ! واغرقوني بالجنيهــات الانجليزية ، والليرات الايطالية ، والروبلات والفرنكات · وضعت منهــا في جواربي ، في قميصي ، في حذائي · وفي المساء الاخير ، رحت أبكي وأصرخ ، فأشفق الاميرالية عليّ · فملأوا المغطس بالشمبانيا ، وغطسوني فيه ـ كنــا

---

١ ـ بوبولينا : بطلة حرب الاستقلال اليونانية (١٨٢١ ـ ١٨٢٨) حاربت في البحر ببسالة · « المترجم »

متآلفين جداً كما ترى ـ ثم شربوا كل الشمبانيا على شرفي ، فسكروا ٠ بعد ذلك أطفأوا آلأنوار ٠٠٠ » ٠

« عند الصباح ، شممت الروائح الأربع : البنفسج ، وماء الكولونيا ، والمسك والعنبر ٠ كنت امسك بالدول الأربع الكبرى ـ انجلترا وفرنسا وروسيا وايطاليا ـ كنت امسكها هنا ، على ركبتي ، وأجسُّها ، انظر هكذا !»٠

وحركت السيدة هورتانس ذراعيها الصغيرين النحيلين ، بعد ان باعدتهما ، من الأسفل الى الاعلى ، وكأنها تلاعب طفلا صغيراً على ركبتيها ٠

ـ هنا هكذا ! هكذا !

« وعندما طلع النهار بدأوا يطلقون المدافع ، انني لا أكذب ، اقسم لك بشرفي ، وجاء زورق ابيض فيه اثنا عشر جذافاً ، ليأخذني ويضعني على البر»٠

وأخذت منديلها الصغير وراحت تبكي ، بلا عزاء ٠ وهتف زوربا ملتهباً :

ـ يا بوبولينتي ، اغلقي عينيك ٠٠٠ اغلقي عينيك يا كنزي ٠ انني انا كانافارو !

ـ ارفع يديك ، قلت لك ! صرخت من جديد سيدتنا الطيبة وهي تتدلل ٠ انظر الى هذا الرأس ! أين هي الشارات الذهبية ، والقلنسوة ، واللحية المعطرة ؟ آه ! آه !

وشدت بلطف على يد زوربا وعادت الى البكاء ٠

وبرد الطقس ٠ وصمتنا لحظة ٠ كان البحر ، وراء القصب ، يتنهد ، باطمئنان وحنان ٠ وسكنت الريح ، وغابت الشمس ٠ ومر غرابان من غربان المساء فوقنا وصفرت اجنحتهما وكأنهما قطعة من حرير تمزق ، ولنقل قميص مغنية حريري ٠

وحل الغسق كغبار ذهبي واجتاح الباحة ٠والتهبت عقدة السيدة هورتانس المجنونة وتأرجحت في نسيم المساء ، وكأنها تريد ان تطير لتحرق الرؤوس المجاورة ٠ واكتسى بالذهب صدرها نصف العاري ، وركبتاها المتباعدتان اللتان هدلهما العمر ، وغضون عنقها ، وخفاها المتثنيان ٠

وارتعدت جنيتنا العجوز ٠ وراحت تنظر بعينيها الصغيرتين نصف المغلقتين المحمرتين بسبب الدموع والخمر ، تارة الي وتارة الى زوربا ، الذي ارتمى ، وقد جفت شفتاه ، على صدرها ٠ واشتد الظلام ٠ كانت تنظر الينا نظرة استفهام ، محاولة ان تميز أينا كانافارو ٠

وهمس زوربا بشغف وهو يلصق ركبته بركبتها :

ـ يا بوبولينتي ، لا يوجد اله ، ولا شيطان ، فلا تهتمي ٠ ارفعي رأسك

الصغير ، واسندي يدك الى خدك وغني لنا اغنية ٠ لتحي الحياة ، وليفطس الموت ! ٠٠٠

كان زوربا يشتعل اشتعالا ٠ وبينما كانت يده اليسرى تسوي شاربه ، كانت يده اليمنى تنساب فوق المغنية النشوى ٠ كان يتكلم ولهاثه متقطع ، وعيناه متعبتان ٠ ولا شك انه لم يكن يرى امامه تلك العجوز المحنطة المطلية بالمساحيق الكثيرة ، بل كل « الجنس الانثوي » ، كما اعتاد ان يسمي المرأة ٠ وراحت الفردية تختفي ، والوجه يمحي ٠ سواء كانت شابة أم هرمة ، جميلة أم قبيحة ، فهذه لم تعد سوى صور لا أهمية لها ٠ فوراء كل امرأة ينتصب وجه افروديت ، صارماً ، مليئاً بالاسرار ٠

كان ذاك هو الوجه الذي يراه زوربا ، واليه كان يتحدث ، واياه يشتهي ، ولم تكن السيدة هورتانس الا قناعاً مؤقتاً شفافاً يمزقه زوربا ليقبل الفم الخالد ٠

وعاد صوته المتضرع اللاهث يقول :

ــ ارفعي عنقك الثلجي ، يا كنزي ، ارفعي عنقك الثلجي ، وانطلقي في اغنيتك ٠

واسندت المغنية العجوز خدها على يدها النحيلة ، التي خددها الغسيل ، وارتخت نظرتها ٠ واطلقت صرخة نادبة ووحشية وبدأت اغنيتها المفضلة ، المكررة الف مرة ، وهي تنظر الى زوربا اذ كان اختيارها قد تم ــ بعينين منهزمتين ، نصف مطفأتين :

عند نهاية عمري ٠

لماذا التقيت بك ٠٠٠

وقفز زوربا ، وذهب ليأتي بالسانتوري ، وجلس على الأرض الاربعاء ، ونضا الغلاف عن آلته ، واسندها على ركبتيه ، ومد رجليه الضخمتين ، وصرخ:

ــ آي ! آي ! خذي سكينة واذبحيني ، يا بوبولينتي ٠

عندما بدأ الليل يرخي سدوله ، وتدحرجت في السماء نجمة المساء ، وارتفع صوت السانتوري ، مداهناً متلمقاً ، تمددت السيدة هورتانس ، وقد اكتظت بالدجاج والأرز واللوز المحمص والخمر ، بكل ثقلها على كتف زوربا وتنهدت ٠ وتدلكت قليلا بخاصرتيه البارزة عظامهما ، وتثاءبت وتنهدت من جديد ٠

وأشار زوربا اليّ ، وهمس بصوت منخفض :

ــ ان النار تشتعل في سراويلها ، أيها الرئيس ، اذهب !

- ٤ -

طلع النهار ، وفتحت عينيّ ، ورأيت أمامي زوربا ، جالساً مثني القدمين عند طرف سريره ، كان يدخن ، وهو غارق في تأمل عميق • وكانت عيناه الصغيرتان المستديرتان تحدقان بالنافذة التي صبغتها أشعة الفجر الأولى ببياضٍ حليبي • كانت عيناه منتفختين ، ورقبته العارية النحيلة ممتدة ، بطولها غير العادي ، كرقبة طائر صيد •

كنت قد انسحبت البارحة مبكراً ، وتركته وحده مع الجنية العجوز • وقلت له :

ـ انني ذاهب ، أ'له' جيداً ، يا زوربا • وتشجّع يا فتاي !

فأجاب زوربا :

ـ الى اللقاء ، أيها الرئيس • دعنا نسوي قضيتنا ، مساء الخير ، أيها الرئيس ، نم جيداً !

والظاهر ، أنهما قد سويا قضيتهما ، لأنه بدا لي في نومي انني سمعت هديلاً مكتوماً ، وهزات تقلقل الغرفة المجاورة في احدى اللحظات • ثم عدت الى النوم • وبعد زمن طويل على مضي نصف الليل ، دخل زوربا عاري القدمين وتمدد على سريره ، بهدوء كبير ، كي لا يوقظني •

والآن ، عند الفجر ، كان هناك ، عيناه ضائعتان بعيداً ، نحو النور ، ونظرته مطفأة • وكان ما يزال غارقاً في خدر خفيف ، وصدغاه لم يتحررا بعد من النعاس • واستسلم بهدوء وسلبية الى تيار من نور كثيف كالعسل • كان الكون يجري : الأراضي ، والمياه ، والأفكار ، والبشر ، نحو بحر بعيد ، وزوربا يجري معه ، دون مقاومة ، دون تساؤل ، وبحبور •

بدأت القرية تستيقظ ـ ضجيج خليط من أصوات الديكة ، والخنازير ،

والحمير ، والبشر • وأردت ان أقفز من الفراش ، وأصرخ : « أيْ زوربـــا ، لدينا اليوم عمل ! » لكنني كنت أحس انا نفسي بهناء كبير اذ أستسلم هكذا ، دون كلمات ، دون حركات ، لتسربات الفجر · القلقة ، الرائعة • في مثل هذه الدقائق السحرية ، تبدو الحياة كلها خفيفة كالزغب • وتتشكل الأرض وتتعدل بنفح الريح ، وكأنها غيمة متموجة ، رخوة •

كنت أنظر الى زوربا يدخن ، ورغبت في التدخين انـــا ايضاً ، فمددت ذراعي وأخذت غليوني • ونظرت اليه بانفعال • انه غليـــون انجليزي ضخم وثمين أهداني اياه صـــديقي ــ ذو العينين الرمـــاديتين الخضراوين واليـــدين الضامرتي الأصابع ــ في ظهر أحد الأيام ، منذ عدة سنوات ، في بلد أجنبي • كان سيسافر ، بعد ان انهى دراسته ، الى اليونان في مساء نفس اليوم • فقال لي : « دعك من السجائر ، انك تشعلها وتدخن نصفها ثم ترميها وكأنها بغي • هذا عار • تزوج الغليون ، فهو المرأة المخلصة • عندما تعود الى بيتك ، تجده هناك دوماً ، ينتظرك دون ان يتحرك • فتشعله ، وتتطلع الى الدخان وهـــو يصعد في الهواء ، وتتذكرني » •

كان الوقت ظهراً ، وكنا خارجين من احد متاحف برلين ، حيث ذهـب ليودع لوحته العزيزة « المحارب » لرامبراندت ، بخوذته البرونزية ، وخديـه الهزيلين ، ونظرته المتألمة العنيدة • وتمتم وهو ينظـر الى المحارب الحاقـــد واليـــائس :

« اذا ما قمت في حياتي بعمل جدير بانسان ، فسأكون مدينا به له » •

كنا في باحة المتحف ، مستندين الى عمود • وأمامنـــا كان تمثال مـــن البرونز : فارسة عارية تمتطي برشاقة لا توصف حصاناً متوحشـــاً • وحـط عصفور صغير رمادي ، من نوع الذعرة ، على رأس الفارسة لحظة ، ثم التفت نحونا ، وهز ذنبه هزات صغيرة عنيفة ، وصفر مرتين او ثلاثاً لحناً هازئاً وطار •

وارتعدت ونظرت الى صديقي ، وسألته :

ــ أسمعت العصفور ؟ لقد بدا عليه انه قال لنا شيئاً •

ابتسم صديقي وأجاب مستشهداً ببيت من أغانينا الشعبية :

ــ « انه عصفور ، دعه يغني ، انه عصفور ، دعه يتكلم ! » •

كيف تعود ، في هذه اللحظة ، عند طلوع النهار ، فوق هذا الســـاحل الكريتي ، كيف تعود هذه الذكرى الى ذاكرتي مع هذا البيت الحزين الـــذي يغرق نفسي بالمرارة ؟

وحشوت غليوني ببطء وأشعلته • لكل شيء معنى خفي في هذا العالم • هكذا قلت في نفسي • البشر ، والحيوانات ، والأشجار ، والنجوم ، كلهـــا

ليست الا خطوطاً هيروغليفية ، وسعيد هو الذي بدأ بحلها وادراك ما تعنيه ، لكن يا لتعاسته أيضاً ! انه لا يفهمها عندما يراها • فهو يعتقد انها بشر ، وحيوانات ، وأشجار ، ونجوم • ثم يكتشف ، بعد عدة سنوات ، بعد فوات الأوان ، معناها الحقيقي •

المحارب ذو الخوذة البرونزية ، وصديقي المستند الى العمود ، والنور الكثيف في ظهر ذلك اليوم ، وعصفور الذعرة وما قاله لنا وهو يصفر ، وبيت الأغنية الحزينة ، كل ذلك ، يمكن ان يكون له معنى خفي ، هكذا أفكر اليوم ، لكن ما هو ؟

وتتبعت بعيني الدخان الذي كان يلتف وينتشر في نور الشفق العاتم وينقشع ببطء • وكانت روحي تندمج بهذا الدخان ، وتتلاشى في دوائر زرق • ومضى زمن طويل وكنت أحس ، دون تدخل المنطق ، وبيقين لا يوصف، بأصل العالم وتفتحه وزواله • وكأنني قد غرقت من جديد في بوذا ، لكن هذه المرة بدون الكلمات الخادعة ، وألعاب الفكر البهلوانية والوقحة • ان هذا الدخان هو خلاصة تعاليمه ، وهذه الدوائر المتلاشية هي الحياة التي تؤدي ، بهدوء واطمئنان وسعادة ، الى النيرفانا الزرقاء • لم أن أفكر بشيء ، ولا أبحث عن شيء ، ولا أشك بشيء • كنت أعيش في اليقين •

وتنهدت بهدوء • وكأن هذه التنهدة أعادتني الى اللحظة الحاضرة ، فنظرت حولي ورأيت الكوخ الخشبي البائس ، ومرآة صغيرة معلقة على الحائط ، قد سقط عليها شعاع الشمس الأول ، فراحت تقدح بالشرر • وكان زوربا جالساً امامي ، فوق فراشه ، مديراً ظهره لي ، يدخن •

وفجأة هدر في نفسي يوم' أمس بكل احداثه المضحكة ــ المبكية • روائح البنفسج الفائحة ، البنفسج ، وماء الكولونيا ، والمسك والعنبر . وببغاء ، او كائن شبه انساني قد استحال الى ببغاء ، كان يضرب بجناحيه قضبان قفصه الحديدي وهو يدعو حبيباً قديماً ، وسفينة عجوز ، هي الوحيدة من أسطول كامل لا تزال على قيد الحياة ، تروي معارك بحرية قديمة •••

سمع زوربا تنهدتي ، فهز رأسه واستدار متمتماً :

ــ لقد اسأنا التصرف ، لقد اسأنا التصرف ، أيها الرئيس • لقد سخرت وكذلك أنا ، ورأتنا المسكينة ؟ ثم ذهبت ، دون ان تمهد لذلك ، وكأنها عجوز عمرها الف عام ، يا للعار ! ليس هذا بالادب ، أيها الرئيس ، ليس هكذا يجب ان يتصرف الرجل ، كلا ، اسمح لي ان اقول لك ذلك ! انها امرأة ، بعد كل

شيء ، أليس كذلك ؟ مخلوق ضعيف ، سريع البكاء · ولحسن الحظ بقيت أنا لأعزيها ·

فقلت ضاحكاً :

ـ لكن ماذا تقول يا زوربا ، أتعتقد جدياً ان جميع النساء ليس في رؤوسهن غير ذلك ؟

ـ نعم · ليس في رؤوسهن غير ذلك · صدقني ، ايها الرئيس · انا الذي رأيت وعاشرت من جميع الالوان ، وان لي ، كما يقولون ، بعض الخبـــرة · ليس للمرأة شيء آخر في رأسها ، انها مخلوق مريض ، اقول لـــك ، سريعة البكاء · فاذا لم تقل لها انك تحبها وانك تشتهيها ، تأخذ بالبكاء · قد تقول لك لا ، وقد لا تعجبها مطلقاً ، وقد تثير اشمئزازها ، لكن هذه قصة أخرى · ان من يرونها ، عليهم ان يشتهوها · هذا ما تريده ، المسكينة ، اذن فـــأنت تستطيع ان تسرّها !

« أنا ، كانت لي جدة ، وكانت في الثمانين · ان قصة هذه المرأة لرواية حقيقية · لكن حسناً ، ان هذه أيضاً قصة أخرى ··· كانت اذن في الثمانين تقريباً ، وامـام بيتنا كانت تقطن فتاة شـابة نضرة كالزهرة · كـانت تدعى كريستالو · وفي مساء كل سبت ، كنا ، نحن ، اغرار القرية ، نذهب لشرب قدح ، ونتنشي بالخمر · ونضع غصناً من الحبق خلف اذننا ، ويأخذ ابن عم لي قيثارة ونذهب للسيرينادا · يا للنار ! يا للهوى ! كنا نخـور كالجواميس · كنا نريدها جميعاً ، ومساء كل سبت كنا نذهب قطيعاً واحداً لتختار منه ·

« حسناً ! هل تصدقني ، ايها الرئيس ؟ انـــه لسر محير ، ان في المرأة جرحاً لا يلتئم أبداً · ان جميع الجراح تلتئم ، لكن هذا ، لا تصغ الى ما تقوله كتبك ، لا يلتئم أبداً · لماذا ، لأن المرأة قد بلغت الثمانين ؟ ان الجرح يبقـى دوماً مفتوحاً ·

« اذن ، كل سبت ، كانت العجوز تجر فراشها قرب النافذة ، وتأخـذ خفية مرآتها الصغيرة ، وتمشط الشعرات القليلات التي بقيت ، وتفرقها الى فرقين ، وتنظر حواليها بطرف خفي خشية ان يشاهدها أحد ، واذا ما اقترب انسان تنكمش على نفسـها بهـدوء كأنها قديسـة تدعي التقوى ، وتتظـاهر بالنوم · لكن كيف تنام ؟ انها تنتظر السيرينادا · في الثمانين ! أترى ، ايها الرئيس ، ان هذا يدفعني الى الرغبة في البكاء اليوم · لكنني في ذلك الوقت لم أكن الا طائشاً ، لا أفهم شيئاً ، وكان ذلك يثير سـخريتي · وذات يـــوم ، غضبت عليها · كانت تسيء معاملتي لأنني اجري وراء الفتيات ، فصارحتها مرة

بحقيقة أمرها : « لماذا تمسحين شفتيك بورق الجوز كل سبت ، وتمشطين شعرك ؟ لعلك تتصورين اننا نقوم بالسيرنادا من اجلك ؟ نحن ، انما نريد كريستالو ٠ اما انت ، فتفوح منك رائحة الجثث ! » ٠

« صدقني ، أيها الرئيس ! في ذلك اليوم ، عندما رأيت دمعتين كبيرتين تنسابان من عيني جدتي ، فهمت لأول مرة ما هي المرأة ٠ فقد تقوقعت في زاويتها ككلبة وراحت ذقنها ترتعد ٠ وصرخت وانا اقترب منها كي تسمعني جيداً : « كريستالو » ، « كريستالو ! » ٠ ان الشباب حيوان مفترس ، لا انساني ، لا يفهم ٠ ورفعت جدتي ذراعيها الضامرتين نحو السماء وهتفت : « ألعنك من اعماق قلبي » ٠ ومنذ ذلك اليوم ، أخذت تهبط المنحدر ، وتتلاشى، وبعد شهرين كانت على وشك الموت ٠ وفي اللحظة التي كانت تحتضر فيها ، شاهدتني ٠ فتنهدت كالسلحفاة ومدت يدها اليابسة لتخدشني : « انت الذي قتلتني يا الكسيس ، يالعين ٠ لتحل اللعنة عليك ولتتألم أنت أيضاً بقدر ما اتألم ! » ٠

وابتسم زوربا وقال وهو يداعب شاربه :

ـ آه ! ان لعنة العجوز لم تخطئني ٠ انني في الخامسة والستين ، على ما اعتقد ، لكنني لن اصبح حكيماً ابداً ، حتى ولو عشت مئة عام ٠ سأحمل دوماً مرآة صغيرة في جيبي وسأركض وراء الجنس الأنثوي ٠

وابتسم مرة أخرى ، والقى سيجارته من النافذة ، وتمدد قائلا :

ـ لدي اكداس من النقائص ، لكن هذه النقيصة ستقتلني !

وقفز من سريره :

ـ هذا يكفي ٠ لقد تحدثنا كثيراً ٠ اليوم ، سنعمل !

ولبس ثيابه في أقل من ثانية ، وانتعل حذاءه وخرج ٠

ورحت اجتر كلمات زوربا ، ورأسي محني على صدري ، وفجأة عادت الى صورة ذهني مدينة بعيدة مغطاة بالثلج ٠ كنت واقفاً انظر ، في معرض لأعمال رودان ، الى يد ضخمة من البرونز ، « يد الله » ٠ كانت الراحة نصف مغلقة ، وفي تلك الراحة رجل وامرأة يتدافعان ويمتزجان ، مأخوذين بالنشوة ، متعانقين ٠

واقتربت صبية ووقفت الى جانبي ٠ وراحت تنظر ، مضطربة هي ايضاً الى عناق الرجل والمرأة القلق الخالد ٠ كانت نحيفة ، أنيقة الثياب ، ولها شعر كثيف اشقر ، وذقن قوية ، وشفتان ضيقتان ٠ كان فيها ثمة شيء مصمم

ورجولي. ولا أدري ما الذي دفعني الى التكلم مع انني اكره الدخول في محادثات سهلة . فالتفت قائلا :

ــ بمَ تفكرين ؟

فتمتمت بتحدٍ :

ــ لو نستطيع الهرب !

ــ للذهاب الى اين ؟ ان يد الله في كل مكان . لا سلام . أ آسفة لذلك ؟

ــ كلا . من الممكن ان يكون الحب أعظم فرح على هذه الأرض . هـذا ممكن . لكنني اود ان اهرب ، اذ أرى الآن هذه اليد البرونزية .

ــ أتفضلين الحرية ؟

ــ نعم .

ــ لكن ما العمل ان لم تكن حريتنا الا في طاعة اليد البرونزيـة ؟ واذا كانت كلمة « الله » ليس لها المعنى الشائع الذي تعطيه الجماهير لها ؟

فنظرت الي بقلق . كانت عيناها بلون المعدن الرمادي ، وشفتاها جافتين ومريرتين . وقالت :

ــ انني لا أفهم .

وابتعدت وكأنها خائفة . ثم اختفت . ولم تعد الى خاطري قط منذ ذلك الحين . لكنها كانت تعيش بالتأكيد في داخلي ، تحت بلاطة صدري ، وها هي اليوم فوق هذا الساحل القفر ، تخرج من أعماق نفسي ، شاحبة نائحة .

نعم ، لقد اسأت التصرف ، ان زوربا على حق . لقد كانت تلك اليـد البرونزية ذريعة حسنة ، وكنا نستطيع ، بعد أن نجح الاحتكاك الأول وقيلت الكلمات الأولى اللطيفة ، ان نتعانق ، رويداً رويداً ، دون ان ينتبه احدنـا ، ونتحد بهدوء تام في راحة الله . لكنني اندفعت فجأة من الأرض الى السماء ، فذعرت المرأة وهربت .

وصاح الديك في باحة السيدة هورتانس . ان النهار يتسـرب الآن ، شديد البياض ، من النافذة الصغيرة . ونهضت دفعة واحدة .

اخذ العمال يجيئون حاملين معاولهم وعتلاتهم ومجارفهم . وسمعت زوربا يصدر الأوامر . لقد انهمك فجأة في عمله ، واصبح ذلك الرجل الذي يعرف كيف يأمر ، والذي يحب المسؤولية .

ومددت رأسي من النافذة ورأيته واقفاً ، كعملاق ضخم وسط ثلاثين من الرجال ، النحيفين ، القساة ، السمر ، القصيري القامة . كانت ذراعه تمتد بشكل آمر ، وكلماته مختصرة ودقيقة . وبعد لحظة أمسك بعنق فتى صغير

كان يتمتم ويتقدم بتردد • وصرخ :

ـ أهناك شيء تود أن تقوله ؟ قله بصوت عالٍ ! انني لا أحب الهمهمات • لكي تشتغل ، لا بد ان تكون مستعداً ، فاذا لم تكن كذلك ، فأسرع الى الحانة •

وعندئذ ظهرت السيدة هورتانس ، شعثاء الشعر ، منتفخة الخدين ، غير مخضبة الوجه ، مرتدية قميصاً عريضاً قذراً وخفين طويلين باليين • وسعلت سعالا جافاً كسعال المغنيات العجائز ، اشبه بالنهيق ، وتوقفت ونظرت الى زوربا باعتزاز • واضطربت عيناها • وسعلت من جديد كي يسمعها ، ومرت قربه وهي تتأرجح وتهز ردفيها • ولم يبق الا قيد شعرة لتمسه بكمها الواسع • لكنه لم يلتفت حتى لمجرد النظر اليها • وأخذ من أحد العمال قطعة من كعكة مصنوعة من الشعير ، وقبضة من الزيتون • وصرخ :

ـ هيا ، ايها الرفاق ، ارسموا اشارة الصليب !

وبخطا عريضة ، قاد الفريق في خط مستقيم نحو الجبل •

لن أصف ها هنا اعمال المنجم • ان ذلك يتطلب الصبر ، وليس لدي شيء منه • لقد بنينا قرب البحر كوخاً من القصب والخيزران وصفائح الوقود• كان زوربا يستيقظ عند الفجر ، ويتناول معوله ، وينطلق الى المنجم قبل العمال ، ويحفر دهليزاً ، ويتركه ، ويجد عرقاً من اللينيت اللامع كالفحم الحجري ويرقص من الفرح • لكن العرق كان يضيع بعد عدة أيام ، فيلقي زوربا بنفسه على الأرض ، رافعاً ساقيه في الهواء ، ويأخذ برجليه ويديه يتحدى السماء •

كان يشتغل من كل قلبه • ولم يكن حتى ليستشيرني • وبعد عدة أيام، كان الهم كله والمسؤولية كلها قد انتقلت من يدي الى يده • انه هو الذي يقرر وينفذ • اما أنا فعلي أن أدفع ثمن الجرار المكسورة ـ وهذا لم يكن ليزعجني بالاصل ـ لأنني احس جيداً ان هذه الأشهر من حياتي ستكون من أسعد الأشهر على الاطلاق • وهكذا ، بعد ان قمت بجميع حساباتي ، كنت أدرك انني اشتري سعادتي بقليل من التكاليف •

كان جدي لأمي الذي كان يسكن في قرية صغيرة بكريت ، يأخذ كل مساء فانوسه ويقوم بجولة في القرية ليرى اذا كان أحد الغرباء قد جاء اليها مصادفة • كان يأخذه الى منزله ، ويقدم له كثيراً من الطعام والشراب ، ثم يجلس على الأريكة ، ويشعل غليونه التركي الطويل ، ويلتفت نحو ضيفه ـ الذي حان أن يوفي ما عليه ويقول له بلهجة آمرة :

ـ حدثني !

ـ عمَ أحدثك ، ايها الأب موستيوري ؟

ـ ما بك ، من انت ، من اين قدمت ، ما المدن وما القرى التي شاهدتها عيناك ، كل شيء ، حدثني عن كل شيء • هيا تكلم !

ويبدأ الضيف بالحديث ، كيفما اتفق ، خالطاً الحقائق بالأكاذيب ، بينما يدخن جدي غليونه ، ويصغي اليه ويسافر معه ، وهو جالس بهدوء على الأريكة • واذا ما أعجبه الضيف ، يقول له :

ـ ستبقى غداً ايضاً ، لن تذهب • ما زال لديك أشياء لترويها •

ان جدي لم يغادر قريته • بل انه لم يذهب حتى الى « كانــدي » أو الى « كانيه » • كان يقول : « أأذهب اليها ، لماذا ؟ هناك سكان من كانيه وكانــدي يمرون من هنا ، ان كاندي وكانيه تأتيان اليّ • لست بحاجة الى الذهاب اليهما ! » •

انني اليوم أستمر في عادة جدي فوق هذه الأرض الكريتية • لقد وجدت انا أيضاً ضيفاً ، وكأنني بحثت عنه بضوء فانوسي • انني لن أتركه يذهب • وهو يكلفني أكثر بكثير من ثمن عشاء ، لكنه يستحق ذلك • كل مساء ، انتظره بعد العمل، وأجعله يجلس بمواجهتي،ونأكل، ثم يأتي الوقت الذي يجب ان يدفع فيه ، وأقول له : «حدثني ! » • وأدخن غليوني وأصغي اليه • لقد جاب هذا الضيف الأرض كثيراً ، وسبر غور الروح الانسانية جيداً ، وأنا لا أشبع من الاصغاء اليه •

ـ حدثني ، زوربا ، حدثني !

وما ان يفتح فاه ، حتى تتجلى كل ماسيدونيا أمامي ، وتمتد في الفسحة الصغيرة التي بيني وبين زوربا ، بجبالها ، وغاباتها وسيولها ، وجنودها غير النظاميين ، ونسائها اللواتي لا يشق عليهن العمل ، ورجالها الغلاظ القساة • وكذلك جبل آتوس بديوره الواحد والعشرين ، وترساناته ، وساكنيه الكسالى•

ويهز زوربا عنقه وهو ينهي قصصه عن الرهبان ، ويقول وهو ينفجر ضاحكا : « ليحفظك الله ، أيها الرئيس ، من مؤخرات البغال ومن مقدمات الرهبان ! »

كل مساء ، يأخذني زوربا للنزهة عبر اليونان ، وبلغاريا والقسطنطينية ، واغلق عيني وأرى • لقد جاب البلقان ، ولاحظ كل شيء بعينيه المرتبكتين القلقتين الصغيرتين اللتين تشبهان عيني الصقر ، واللتين يجحظهما في كل لحظة ، وقد تملكه الذهول • ان الأشياء التي اعتدنا عليها والتي نمر بها لامبالين ، تنتصب أمام زوربا وكأنها ألغاز مخيفة • فهو ان رأى امرأة تمر ،

يتوقف مبهوتاً ويسأل :

« ما هذا السر ؟ ما المرأة ، ولماذا تجعل عقلنا يدور ؟ ما معنى هذا ، قل لي قليلا ؟ »

انه يتساءل بالذهول نفسه أمام رجل ، او شجرة مزهرة ، او قدح من الماء البارد • ان زوربا يرى يومياً كل الأشياء للمرة الأولى •

كنا جالسين البارحة أمام الكوخ • وبعد ان شرب كأساً من الخمر ، التفت نحوي مذعوراً :

ـ ما هذا الماء الأحمر ، أيها الرئيس ، قل لي ! جذع شجرة عجوز ينبت أغصاناً ، وثمة انواع من الزخارف الحامضة المتدلية ، ويمضي الوقت ، وتنضجها الشمس ، فتصبح حلوة كالعسل ، وعندها تسمى عنباً ، وتداس بالأقدام ، و'يستخرج منها العصير الذي يوضع في براميل ، ويتخمَّر من تلقاء نفسه ، ويفتح في عيد القديس جورج السكير ، فاذا هو خمر ! ما هذه المعجزة ايضاً ! وتشرب هذا العصير الأحمر ، فاذا بروحك تعظم ، ولا تعود تستطيع البقاء في الجسد العجوز ، وتتحدى الاله للمعركة • ما هذا ، ايها الرئيس ، قل لي ؟

لم اتكلم • كنت أحس ، وأنا أصغي الى زوربا ، ببتولية العالم تتجدد • وراحت جميع الاشياء العادية الباهتة تستعيد تألق ايامها الأولى ، لحظة خرجت من يدي الله • وعاد الماء ، والمرأة ، والنجمة ، والخبز ، الى النبع البدائي الغامض ، وانطلقت الدوامة السماوية من جديد في الجو •

لهذا كنت ، كل مساء ، انتظر زوربا وانا متمدد على حصى الشاطيء ، بشوق شديد • وكان يخرج من احشاء الأرض ، مليئا بالوحل وملوثاً بالفحم ، وكأنه فأرة ضخمة بقامته الطويلة المتهادية • ومن بعيد كنت احزر كيف سار العمل في ذلك اليوم ، من هيئة جسده ، من رأسه المنحني او المنتصب عالياً ، من اهتزاز ذراعيه الكبيرتين •

في البدء ، كنت أذهب معه ، واراقب العمال • كنت اجهد نفسي للسير في درب جديدة ، وللاهتمام بالأعمال اليدوية ، ولمعرفة المادة الانسانية التي سقطت بين يدي ولمحبتها ، وللاحساس بالفرح الذي طالما تمنيته ، فرح العمل مع بشر احياء لا مع كلمات • وكنت أقوم بمشاريع رومانتيكية ـ فاستخراج الليفنيت يتم بسرعة ـ لتنظيم نوع من الكومونة نعمل فيها جميعاً • وكل شيء يكون فيها مشتركاً ، فنأكل معاً جميعاً من نفس الطعام ونرتدي نفس الثياب ، كالأخوة • كنت اخلق في ذهني رهبانية جديدة ، خميرة حياة جديدة •••

لكنني لم اكن قد قررت بعد ان اطلع زوربا على مشاريعي • وكان ينظر الي ، بانزعاج ، وأنا اذهب واجيء بين العمال ، أسأل ، واتدخل ، وادافع دوماً عن العامل • ويزم زوربا شفتيه ويقول لي :

ـ أيها الرئيس ، ألاتود ان تقوم بجولة في الخارج ؟ ان الشمس رائعة هناك !

ولكنني كنت أصر في الأيام الأولى ، ولا أذهب • كنت أسأل وأثرثر ، واطلع على تاريخ جميع عمالي : الاطفال الذين عليهم ان يطعموهم ، والاخوات اللواتي عليهم ان يزوجوهن ، والوالدين العجوزين العاجزين ، وهمومهم ، وامراضهم ، ومشاغلهم •

وكان زوربا يقول لي بغضب :

ـ لا تنبش هكذا تاريخ حياتهم • فسيميل قلبك نحوهم ، وتحبهم أكثر مما يجب ، وأكثر مما تقتضي مصلحة عملنا • وستسامحهم مهما فعلوا ••• واذ ذاك ، فيا لشقائهم هم أيضاً ، يجب ان تعرف ذلك • عندما يكون الرئيس صلباً ، يخشاه العمال ، ويحترمونه ، ويشتغلون • وعندما يكون الرئيس ضعيفاً ، يضعون الرسن في عنقه ، ويجرونه بهدوء • أتفهم ؟

وذات مساء ، بعد ان انتهى العمل ، القى بمعوله امام الكوخ ، متعباً ، وصرخ :

ـ ارجوك ، ايها الرئيس ، لا تتدخل في أي شيء • أنا أبني وانت تهدم • ما هذه القصص التي كنت ترويها لهم اليوم ؟ اشتراكية وهراء ! أأنت واعظ أم رأسمالي ؟ يجب ان تختار •

لكن كيف اختار ؟ كانت الرغبة الساذجة تتأكلني في ان اجمع الأمرين معاً ، وان اجد التركيب الذي تتآخى فيه التناقضات التي لا سبيل للتوفيق بينها ، وان اكسب في آن واحد الحياة الأرضية وملكوت السماوات • ان هذا قد بدأ منذ سنوات ، منذ حداثتي • فمنذ أن كنت في المدرسة ، نظمت مع صفوة اصدقائي « أخوة ودية » ، وهو الاسم الذي اعطيناه للمنظمة ، واقسمنا ، وقد اغلقنا على انفسنا الغرفة بالمفتاح ، اننا سنكرس كل حياتنا للنضال ضد الظلم • وقد انسابت دموع كبيرة من اعيننا ، عندما اقسمنا وايدينا فوق قلوبنا •

مُثل عليا صبيانية ! ومع ذلك فيا لشقاء من يضحك اذا سمعها ! وانني اذ أرى الى أين انتهى اعضاء «الاخوة الودية» ـ ادعياء طب ومحاماة ، وعطارون، وسياسيون دجالون ، وصحفيون صغار ـ فان قلبي لينقبض • ان مناخ هذه

الأرض فظ وقاس على ما يبدو راثمن البذور لا تنبت فيه أو هي تختنق في الشوك والقراص • ومع انني ارى ذلك الآن بوضوح ، الا انني لم اصبح منطقياً بعد • ألا فليتمجد اسم الله ! فأنا احس بأنني على استعداد لألقي بنفسي في غزوات دونكيشوتية •

كنا نستعد ليوم الاحد ، وكأننا عروسان يريدان الزواج ، فنحلق ، ونرتدي قميصاً أبيض جديداً ، ونذهب ، وفي نهاية بعد الظهر ، عند السيدة هورتانس • وكانت ، في كل يوم أحد ، تذبح لنا دجاجة ، ونجلس من جديد ثلاثتنا ، لنشرب ونأكل، ثم يمد زوربا يديه الطويلتين الى صدر السيدة الطيبة المضياف ، ويمتلكه • وعندما يرخي الليل سدوله ، نعود الى شواطئنا ، وتبدو لنا الحياة بسيطة ومليئة بالنوايا الطيبة ، وعجوزاً ، لكنها لطيفة جداً ومضيافة ، مثل السيدة هورتانس •

وذات أحد ، قررت ، ونحن عائدان من وليمتنا الوفيرة ، ان احدث زوربا واطلعه على مشاريعي • وأصغى اليّ فاغر الفم، وهو يرغم نفسه على الصبر• ومن لحظة الى أخرى فقط كان يهز رأسه الضخم بغضب ، وما ان سمع الكلمات الاولى ، حتى طارت السكرة من عقله ، وصفا ذهنه • وعندما انتهيت ، انتزع بعصبية شعرتين أو ثلاثاً من شاربه • وقال :

ــ بالاذن منك ، أيها الرئيس ، فأنا احس بأن عقلك ليس صلباً جداً ، بل هو أشبه بالمعجنات حقاً • كم عمرك ؟

ــخمس وثلاثون

ــ اذن ! فهو لن يصبح صلباً مطلقاً •

وقهقه ضاحكاً • واحسست بأنني لُسِعت ، وصرخت :

ــ الا تؤمن بالانسان ، أنت ؟

ــ لا تغضب ، ايها الرئيس • كلا انا لا اؤمن بشيء • لو كنت اؤمن بالانسان ، لآمنت أيضاً بالله ، ولآمنت أيضاً بالشيطان • وتلك مشكلة • ان الامور يلتبس بعضها ببعض ، وهذا يسبب لي ، أيها الرئيس ، كثيراً من الازعاج •

وصمت ، وخلع قلنسوته ، وحك رأسه بعصبية ، وشدّ أيضاً شاربه وكأنه يريد انتزاعه • اراد ان يقول شيئاً ما لكنه امتنع • ونظر الي من جانب عينه ، ثم نظر الي ثانية وقرّر • وصرخ وهو يضرب الحجارة بعصاه بعنف :

ــ الانسان بهيمة ؟ بهيمة كبيرة • ان سيادتك لا تعرف ذلك ، وكل شيء على ما يبدو كان سهلا بالنسبة لك ، لكن اسألني أنا • بهيمة ، اقول

لك ! اذا كنت سيئاً معه احترمك وخافك . واذا كنت طيباً فقأ عينيك .
« حافظ على المسافات ، أيها الرئيس ، لا تشجع البشر كثيراً ، ولا تقل لهم اننا جميعاً متساوون ، وان لنا جميعاً الحقوق نفسها . والا فانهم سيدوسون حقك أنت ، ويسرقون خبزك ويتركونك تفطس من الجوع . حافظ على المسافات ، أيها الرئيس ، من أجل الخير الذي أريده لك » .

فصرخت غاضباً :

ـ لكن ألا تؤمن بشيء اذن ؟

ـ كلا ، لا اؤمن بشيء ، كم مرة يجب ان اقول لك ذلك ؟ انني لا أؤمن بشيء ، ولا بأي شخص آخر ، بل بزوربا وحده . ليس لأن زوربا أفضل من الآخرين ، ليس ذلك مطلقاً ، مطلقاً ! انه بهيمة هو الآخر . لكنني اؤمن بزوربا لأنه الوحيد الذي يقع تحت سلطتي، الوحيد الذي اعرفه،وكل الآخرين انما هم اشباح . انني ارى بعينيه ، واسمع بأذنيه ، واهضم بامعائه . وكل الآخرين ، اقول لك ، اشباح . عندما اموت انا ، فكل شيء يموت . ان كل العالم الزوربي سينهار دفعة واحدة !

فقلت ساخراً :

ـ انت تتحدث بأنانية !

ـ انني لا استطيع شيئاً ، ايها الرئيس ! الأمر هكذا : اذا أكلت فولا فانني اتحدث عن الفول ، وانا زوربا ، اذن فأنا اتحدث على طريقة زوربا .

لم أقل شيئاً . كنت احس بكلمات زوربا وكأنها صفعات سوط . انني اعجب لقوته هذه ، ولمقدرته على احتقار البشر الى هذا الحد ، وفي نفس الوقت لوجود مثل هذه الرغبة عنده في ان يعيش ويعمل معهم . أما انا ، فانني اما أن أصبح ناسكاً ، واما ان ازين البشر بريش زائف كي استطيع تحملهم .

والتفت زوربا ونظر الي . وعلى ضوء النجوم ، تبينت وجهه الذي شقته ابتسامة حتى اذنيه .

وقال وهو يتوقف فجأة :

ـ أأغضبتك ، أيها الرئيس ؟

كنا قد وصلنا الى الكوخ . ونظر الي زوربا بعطف وقلق .

لم اجب . كنت احس بأن عقلي على اتفاق مع زوربا ، لكن قلبي كان يقاوم ، يريد الانطلاق ، والهرب بعيداً عن البهيمة ، وفتح طريق له .

وقلت :

ـ انني لا اشعر بالنعاس ، يا زوربا ، هذا المساء . اذهب للنوم ، انت .

كانت النجوم تتلألأ ، والبحر يتنهد ويلعق الاصداف ، واضاءت احدى الحباحب تحت بطنها منارتها الصغيرة الفاضحة • وكان شعر الليل يقطر ندى•

وتمددت على الشاطيء ، وغرقت في الصمت ، دون ان افكر بشيء • واصبحت انا والليل والبحر كلاً واحداً ، وأحسست بروحي وكأنها حباحب قد وقفت ، بمنارتها الصغيرة الذهبية الخضراء المضيئة ، فوق أرض رطبة وسوداء ، وراحت تنتظر •

كانت النجوم تسافر ، والساعات تمضي وعندما نهضت كنت قد رسمت في نفسي نهائياً ، دون ان ادري كيف ، المهمة المزدوجة التي علي ان اقوم بها على هذا الشاطيء :

ان اهرب من بوذا ، وأتخلص في الكلمات من كل همومي الميتافيزيقية ، واحرّر روحي من قلق غير مجدٍ •

ثم اقيم ، بدءاً من الآن ، احتكاكاً عميقاً ومباشراً مع البشر •

وقلت في نفسي : « لعل الوقت لم يفت بعد » •

- ٥ -

« العم انانيوستي ، المختار السابق ، يحييكما ويسألكما اذا كان يسركما ان تأتيا الى منزله لتناول الطعام • ان البيطري سيمر اليوم على القرية ليخصي الخنازير • وستطبخ لكما كيرا ماروليا ، زوجة المختار ، « الاعضاء » • وستتمنيان ايضاً عيداً سعيداً لحفيدهما ميناس ، فاليوم عيده » •

انه لمصدر فرح كبير ان تدخل الى منزل فلاحين كريتيين• فكل ما يحيط بك يدل على سيطرة الأب : المدفأة ، وقنديل الزيت ، والدنان المصفوفة على طول الجدار ، ومائدة ، وبضعة مقاعد ، والى يسار المدخل ، داخل تجويف في الجدار ، خابية الماء البارد • ومن عوارض المنزل الخشبية تتدلى سبحات السفرجل ، والرمان والنباتات العطرية : القويسة والنعنع المفلفل ، والعبيثران، والصعتر •

وفي الداخل ، أربع أو خمس درجات خشبية تؤدي الى الدهليز الذي فيه السرير العالي ، وفوقه الأيقونات المقدسة والقنديل المشتعل دوماً • ان المنزل يبدو له فارغاً ، ومع ذلك ففيه كل ما لا بد منه ، ما دام الانسان الحقيقي يحتاج الى قليل من الاشياء •

كان النهار رائعا ، وشمس الخريف كثيرة العذوبة • وجلسنا أمام المنزل ، في الحديقة الصغيرة ، تحت شجرة زيتون حاملة • وبين الأوراق اللجينية ، كان البحر يتألق من بعيد ، هادئاً ، ساكنا • وثمة غيوم متبخرة تمر فوقنا ، فتحجب الشمس ، ثم تنقشع عنها ، وكأن الأرض تتنفس ، فرحة تارة ، وحزينة أخرى •

وفي آخر الحديقة ، داخل زريبة مقفلة ، كان الخنزير المخصي يصرخ ألماً ويصمّ آذاننا • ومن المدفأة ، كانت رائحة « الأعضاء » المشوية فوق الجمر تملأ انوفنا •

وتحدثنا عن اشياء خالدة : عن الحبوب ، والكروم ، والمطر • كنا مضطرين لأن نرفع صوتنا ، فالمختار العجوز لا يسمع جيداً • انه يقول ان أذنه متكبرة جداً • ولقد كانت حياة هذا الكريتي العجوز مستقيمة وهادئة كحياة شجرة في وادٍ لا تصله الرياح • لقد ولد ، ثم كبر ، ثم تزوج • وكان له اطفال واحفاد • كثيرون منهم ماتوا ، لكن الآخرين لا يزالون أحياء ، فالذرية إذن باقية •

وتذكر الكريتي العجوز الأيام الماضية ، ايام الترك ، وعادت الى ذهنه كلمات والده ، والمعجزات التي كانت تحدث في ذلك الزمان لأن الناس كانوا يخشون الله ويؤمنون •

ـ اليكما ، انا الذي يحدثكما ، انا العم انانيوستي ، لقد ولدت بمعجزة • نعم بمعجزة • وعندما سأروي لكما كيف ، ستدهشان وتقولان : « الرحمة ، ايها الرب ! » • وستذهبان الى دير العذراء لتشعلا لها شمعة • ورسم اشارة الصليب وبدأ يتحدث بهدوء تام وبصوته العذب :

ـ في تلك الايام ، كان في قريتنا امرأة تركية غنية ـ عليها اللعنة ـ وذات يوم حبلت اللعينة ، وجاء ميعاد وضعها • فحملت الى الأريكة وراحت تصرخ كالعجل ثلاثة ايام وثلاث ليالٍ • لكن الطفل لم يخرج • وقدمت لها صديقة ـ عليها اللعنة هي الأخرى ! ـ نصيحة : « ظافر هانم ، يجب ان تستدعي لنجدتك الأم ميره ! » • والأم ميره هو الاسم الذي يطلقه الاتراك على العذراء • فصرخت ظافرة الكلبة « أأستدعي هذه ؟ هذه ؟ أفضل الموت ! » لكن الآلام كانت شديدة • وامضت أيضاً نهاراً وليلة • كانت تصرخ باستمرار، ولا تستطيع الوضع • ما العمل ؟ انها لم تعد تستطيع تحمل الآلام • اذ ذاك اخذت تصرخ : « ايتها الام ميره ! ايتها الام ميره ! » • لقد صرخت كثيراً ما استطاعت ، لكن الآلام لم تتركها والطفل لا يأتي • فقالت لها عندئذ صديقتها : « انها لا تسمعك وهي لا تعرف التركية • ناديها باسمها المسيحي ، فصرخت الكلبة عند ذاك : « يا عذراء الروميين ! يا عذراء الروميين ! » • لكن عبثاً ، فالآلام تزداد • فقالت الصديقة من جديد : « انك لا تنادينها كما يجب ، يا ظافر هانم ، انك لا تنادينها كما يجب ولهذا فهي لا تأتي » • عندئذ لما رأت تلك الكلبة الكافرة الخطر اطلقت صرخة كبيرة : « ايتها العذراء القديسة ! » وانساب الطفل دفعة واحدة من بطنها كسمكة حنكليس • « جرى ذلك يوم الأحد ، وفي الاحد التالي فاجأت الآلام والدتي بدورها • كانت تتألم هي ايضاً ، المسكينة ، كانت تتألم ، وتصرخ والدتي المسكينة • وتهتف : « ايتها العذراء

القديسة ! ايتها العذراء القديسة ! » لكنها لم تر الخلاص يأتي مطلقاً . وكان والدي جالساً على الارض وسط الباحة ، وكان يتألم كثيراً حتى انه لم يستطع لا الشرب ولا الاكل ، ويوجه اللوم الى العذراء القديسة : « أترون ، لقد نادتها تلك الكلبة ظافرة في المرة الماضية ، فاسرعت اليها حتى كادت تدق عنقهـــا لتخليصها . اما الآن ...

وفي اليوم الرابع لم يعد والدي يستطيع التحمل ، فتملكه غضب شديد ، فأخذ عصاه وذهب الى دير « العذراء الذبيحة » . كانت في عوننا ! ووصـــل ، ودخل الكنيسة حتى بدون ان يرسم اشارة الصليب ، بسبب غضبه الشديد ، وأغلق وراءه الباب بالمزلاج ووقف أمـام الايقونـــة ، وصرخ : « قولي اذن ، أيتها العذراء القديسة ، ، ان امرأتي كرينيو ، انت تعرفينها ، فهي تحمل اليك الزيت مساء كل سبت وتشعل قناديلك ، ان امرأتي كرينيو في آلام المخاض منذ ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ وهي تدعوك ، أفلا تسمعينها ؟ لا بد أنـك قد أصبحت صماء حتى لا تسمعينها . بالتأكيد ، لو كانت كلبة مثل ظافر ، قاذورة مـن قاذورات الأتراك ، لرأيناك تدقين عنقك لانقاذها . لكنـــك أصبحت صمـــاء بالنسبة الى امرأتي ، المسيحية ، ولا تسمعينها ! حسناً ، لو لم تكوني العـذراء القديسة ، لأدبتك كما يجب ، بهذه الهراوة التي ترينها ! » .

« ولما انتهى من ذلك ، أدار ظهره دون ان يسجد ، ليخرج . لكن الايقونة أخذت تصرّ في اللحظة نفسها بصوت عالٍ ، وكأنها تذوب . ان الايقونات تصرّ هكذا عندما تصنع المعجزات ، اعلم ذلك اذا كنت تجهله . وفهم والدي فوراً ، فالتفت وركع على ركبتيه ورسم اشارة الصليب وصرخ : « لقـــد أخطـأت ، أيتها العذراء القديسة ، افترضي انني لم اقل شيئاً مما قلته ! » .

« وما كاد يصل الى القرية حتى بُشّر بالنبأ السعيد : « تهانينا ، يـــا كوستاندي ، لقد وضعت زوجتك .. انه صبي : وكان انـا ، انـــا نيوستي العجوز . لكني ولدت وأذني متكبرة (١) قليلا . ولقد جدّف والـــدي ، كما تريان ، ونعت العذراء بالصماء .

ولا بد ان العذراء قد قالت : آه ! أهكذا اذن ؟ حسناً ؟ انتظر قليـــلا ، سأجعل ابنك أصم ، وسيعلمك هذا كيف تجدف ! » .

ورسم العم أنا نيوستي اشارة الصليب وقال :

ـ وهذا ليس بمهم ، لأنها كانت تستطيع ان تجعلني أعمى او أبله ، او

---

١ ـ تعبير بالفرنسية يقصد به ثقل السمع . « المترجم »

أحدب ، او كانت تستطيع ـ ليحفظني الله ! ـ ان تجعلني بنتاً • هـــذا ليس بمهم ، انني أسجد امام نعمتها !

وملأ الكؤوس وقال وهو يرفع كأسه :

ـ لتكن في عوننا !

ـ في صحتك ، أيها العم انانيوستي ، انني اتمنى لك ان تعيش مئة عام وان ترى أبناء احفادك !

وجرع العجوز كأسه دفعة واحدة ومسح شاربه وقال :

ـ كلا ، يا ابني ، هذا يكفي • لقد رأيت أحفادي ، هذا يكفي ! يجب الا نطلب كثيراً • لقد حانت ساعتي • وها انا الآن عجوز ، أيها الأصدقاء ، لم تعد لي قوة ، ولا أستطيع شيئاً ، لكن ليست الشهوة هي التي تنقصني ، الا انه لم يعد بامكاني ان أبذر الأطفال ، اذن فماذا أفعل بالحياة ؟

وملأ الكؤوس من جديد ، وأخرج مـــن حزامه جوزات وتينات يابســة ملفوفة بورق الغار ، وتقاسمها معنا • وقال :

ـ كل ما أملكه ، أعطيته لأولادي • ولقد واجهنا الفاقة ، نعم الفاقـــة ، لكن هذه آخر همومي • ان الله لكبير ؟

فهمس زوربا في أذن العجوز :

ـ الله كبير ، أيها العم انا نيوستي ، الله كبير ••• لكننا نحن صغار !

وقطب المختار العجوز حاجبيه ، وقال بقسوة :

ـ قف ، لا تسيء معاملته هكذا ، أيها الصديق • لا تسيء معاملته هكذا ! هو أيضاً ، يعتمد علينا ، المسكين !

وفي تلك اللحظة ، جاءت الأم انا نيوستي ، بصمت وخضوع ، في صحن من الخضار «بأعضاء» الخنزير وبدلو كبير من النحاس مملوء بالخمر ، ووضعت هذه الأشياء فوق المائدة ، وظلت واقفة ، وصلبت يديها وخفضت عينيها •

وأحسست بالقرف من تذوق هذه المقبلات ، لكنني خجلت ، من جهـــة أخرى ، من الرفض • ونظر اليّ زوربا من طـرف عينه وهـــو يبتسم بخبث ، وقـــال :

ـ انه أطيب لحم ، أيها الرئيس • لا تقرف •

وضحك العجوز انا نيوستي بابتسامة صغيرة •

ـ انه ينطق بالحق ، انه ينطق بالحق ، جرّب تر • انه مثل النخاع ! عندما مر الأمير جورج بالدير ، هناك ، على الجبل ، هيأ الرهبان وجبة ملكية مع اللحم للجميع • ولم يكن للأمير الا صفحة حساء • وأخذ الأمير الملعقـــة

وراح يحرك حساءه · وسأل مدهوشاً : « لوبياء ؟ بيضاء ؟ فقـــال له رئيس الدير العجوز : كل يا أميري ، كل ثم سنتحدث عن ذلك فيما بعــد » · وذاق الأمير ملعقتين ، اثنتين ، ثلاثاً ، وأفرغ صحنه ولعق شفتيه · وقال : « ما هذه الآية ؟ ما ألذ هذه اللوبياء ! انها أشبه بالنخاع ! فقـــال رئيس الدير : انهـا ليست لوبياء ، أيها الأمير ، ليست لوبياء · انما خصينا كل ديكة الجوار » ·

وشك العجوز بشوكته ، وهو يضحك ، قطعة من « أعضاء » الخنزير · وقـال :

ـ طعام أمراء ! افتح فمك ·

وفتحت فمي ودس فيه القطعة ·

وملأ الكؤوس من جديد وشربنا نخب صحة حفيده · ولمعت عينا الجد · وسألته :

ـ ماذا تريد ان يصبح حفيدك ، أيهـا العم انانيوستي ؟ قل لنـــا حتى نتمنى له :

ـ ماذا يمكنني ان أريد يا ابني ·· حسناً ، ليسر في الطريق الصالح ، وليصبح رجلا شجاعاً ، ورب عائلة صالحاً ، وليكن له ، هـو الآخر ، ابنـــاء واحفاد ، وليشبهني أحد ابنائه · كي يقول الشيوخ وهم ينظرون اليه : « أنظر ، ما اشبهه بالعم انانيوستي ! ليرقد بسلام ، فقد كان رجلاً شجاعاً · » ·

وقال دون أن ينظر الى زوجته :

ـ مارוليا ، ماروليا ، املئي ابريق الخمر ! » ·

وفي تلك اللحظة انفتح باب الزريبة ، بدفعة قوية ، وأسرع الخنزير في الحديقة مدمدماً · فقال زوربا مشفقاً :

ـ انه يتألم ، هذا الحيوان المسكين ···

فصرخ العجوز الكريتي ضاحكاً :

ـ بالتأكيد انه يتألم ! لو فعلوا بك الشيء نفسه ، ألا تتألم ، انت ؟

فنقر زوربا على الخشب وتمتم خائفاً :

ـ ابلع لسانك ، أيها الأصم العجوز !

كان الخنزير يذهب ويجيء امامنا وينظر الينا غاضباً · فقـــال العـم انانيوستي ، وقد طرب للقليل من الخمر الذي شربه :

ـ وربي ، كأنه يفهم اننا نأكلها له !

لكننا رحنا نتابع الأكل ، بهدوء ، مسرورين ، وكأننا من أكلة لحـــوم البشر ، ونحن نحتسي النبيذ ، وننظر ، من خلال أغصان الزيتون الفضية ، الى

البحر الذي تورد لونه ساعة المغيب ·

عندما أرخى الليل سدوله ، غادرنا منزل مختار القرية السابق ، وكان زوربا ، وقد انتشى هو ايضاً ، يرغب في الكلام · وقال لي :

ـ ما الذي كنا نقوله أول امس ، أيهـا الرئيس ؟ انت تريـد ان تنير الشعب ، كما قلت ، وان تفتح عيونه ! حسناً ، انظر ! حـاول أن تفتح عيني العم انانيوستي ! لقد رأيت كيف كانت امرأته تقف أمامه ، منتظرة الأوامر ، ككلب مطيع ؟ اذهب الآن وعلمهم انها لوحشية ان نجلس هنـاك ونحن نأكل قطعة من لحم الخنزير وهو يئن أمامنا من الألم الشديد ، أو ان للمرأة حقوق الرجل نفسها · ما الذي سيفيده هذا الابليس المسكين ، العم انانيوستي ، من كل هذه الترهات البيانية ؟ انك لن تفعل أكثر من ان تسبب له الازعـاج · وما الذي ستفيده الام انانيوستي ؟ ستبدأ الخصومات ، فالدجاجة تريـد أن تصبح ديكاً ، ولن يبقى في المنزل الا مناقير تتشابك ··· دع الناس مطمئنين ، أيها الرئيس لا تفتح أعينهم · اذا فتحت أعينهم ، فما الذي سيرون ؟ بؤسهم ! دعهم اذن مستمرين في أحلامهم !

وصمت لحظة ، وحك رأسه · كان يفكر · وأخيراً قال :

الا ، الا اذا ···

ـ ماذا ؟ دعنا نرى قليلا ·

ـ الا اذا كان لديك ، عندما يفتحون أعينهم ، عالم أفضل من عالم الظلمات الذي يعيشون فيه الآن · ألديك هذا العالم ؟

لم أكن اعرف · كنت اعلم جيداً ما سيتهدم ، لكنني لا أعرف مـا الذي سيبنى فوق الانقاض · وفكرت في ان ما من شخص يستطيع معرفـة ذلك ، بشكل يقيني · ان العالم القديم متين ، ملموس ، ونحن نعيشه ونناضل معه كل لحظة ، انه موجود · وعالم المستقبل لم يولد بعد ، وهو غير قابل للمس ، مائع ، مصنوع من النور الذي نسجت منه الأحلام ، انه غيمة تتضاربها رياح عنيفة : الحب والحقد والخيال والصدفة والله ··· ان أكبر نبي لا يمـكنه ان يعطي للبشر الا كلمة امر ، وكلما كانت كلمة الأمر هذه غير دقيقة ، كان النبي اعظـم ·

وأجبت غاضباً :

ـ لدي هذا العالم ·

ـ الديك ؟ دعنا نرَ !

ـ لا استطيع ان أقول لك ، فلن تفهم ·

فقال زوربا وهو يهز رأسه :

ـ ايه ! هذا يعني انه ليس لديك ! لا تتصور انني ابله ايها الرئيس • واذا قيل لك ذلك ، فهم قد خدعوك • انني جاهـل كالعم انانيوستي ، لكنني لست ابله مثله ، آه ! كلا ! اذن ما دمت انا لن افهم ، فكيف تريد ان يفهموا ، هم ، ان يفهم ذلك الساذج نصف الاحمق ، وكل انانيوستي في العالم ؟ انهـا اذن ظلمات جديدة تلك التي سيرونها ؟ اذن دع لهم الظلمات القديمة ، فهم قد اعتادوا عليها • لقد عرفوا كيف يتدبرون أمرهم حتى الآن ، ألا تعتقد ذلـك ؟ انهم يعيشون ويعيشون جيداً ، وينجبون الأطفال والأحفاد أيضـاً • وحتى لو جعلهم الله صماً ، عمياً ، فانهم سيهتفون « ليتمجد الله ! » • انهم مرتاحون في بؤسهم • اذن دعهم والزم الصمت •

ولزمت الصمت • ومررنا امام حديقة الارملة • فتوقف زوربـا لحظة ، وتنهّد دون ان يقول شيئاً • ولا بد انها امطرت في مكان ما • كان الجو يعبق برائحة الأرض ، المليئة بالرطوبة • وظهرت النجوم الأولى • ولمع القمر الجديد، حنوناً ، بلونه الاصفر ـ الاخضر ، وطفحت السماء بالعذوبة •

وفكرت في نفسي : « ان هذا الرجل لم يذهب الى المدرسة ، ولم يتبلبل عقله • لقد رأى من جميع الألوان ، وانفتحت نفسه ، واتسع قلبـه ، دون ان يفقد شجاعته البدائية • ان جميع المشاكل المعقدة ، التي تبدو لنا بلا حـل ، يحسمها ، هو ، بضربة واحدة من السيف ، مثل مواطنه اسكندر الكبير • ان من العسير عليه ان يسقط على جانبه ، لأنه يستند بأجمعه ، من القدمين الى الرأس ، الى الأرض.• ان متوحشي افريقيا يعبدون الثعبان لأنه يلمس الأرض بكل جسده فيعرف جميع اسرار العالم • انه يعرفها ببطنه ، بذنبه ، برأسه • انه يلمسها ، يتّحد بها ، يشكل كلا واحداً مع الام • وهكذا كان زوربا • اما نحن ، المثقفين ، فاننا لسنا الا طيورا طائشة في الفضاء » •

وتكاثرت النجوم • متوحشة ، مزدرية ، قاسية ، غير مشفقة على البشر•

ولم نكن لنفوه بحرف • كنا ننظر الى السماء بخوف ، ونرى في كل لحظة نجوماً أخرى تشتعل في الشرق والحريق يمتد •

ووصلنا الى الكوخ • لم تكن لي أية رغبة في الأكل وجلست على صخرة قرب البحر • واشعل زوربا النار ، وأكل ، وهم بالمجيء نحوي ، لكنه بـــدّل رأيه ، واستلقى على الفراش ونام •

كان البحر ساكناً ، والصمت مخيّماً فوق الأرض الراقـــدة تحت ألق النجوم • لم يكن ثمة كلب ينبح ، ولا طائر ليلي يشكو • صمت شامل ، خفي ،

خطر ، مصنوع من آلاف الصرخات ، الشديدة البعد ، أو العمق ، الكامنة فينا الى حد اننا لا نسمعها · كنت أحس فقط بهدير دمي وهو يضرب صدغي واوردة عنقي ·

وقلت في نفسي وانا ارتعد « انها ترنيمة النمر ! ·· في الهند ، عندما يرخي الليل سدوله ، يغنون بصوت منخفض لحناً مؤلماً ورتيباً ، أغنية وحشية وبطيئة وكأنها تثاؤب بعيد لحيوان مفترس : ترنيمة النمر · ويطفح قلب الانسان بانتظار راجف ·

وبينما انا أفكر بالترنيمة المرعبة ، امتلأ فراغ صدري شيئاً فشيئاً · واستيقظت أذناي ، وأصبح الصمت صراخاً · وكأن الروح ، المصنوعة هي ايضاً من الترنيمة نفسها ، تفلت خارج الجسد لتصغي ·

وانحنيت ، وملأت راحة يدي بماء البحر ، وبللت جبيني وصدغي · واحسست بالرطوبة تدبّ فيّ من جديد · وفي أعماقي ، ثمة صرخات تهدر ، مهددة ، مختلطة ، عديمة الصبر : ان النمر في داخلي يزأر ·

وفجأة سمعت الصوت بوضوح :

ـ بوذا ! بوذا !

صرخت وانا انهض دفعة واحدة ·

واخذت امشي بسرعة كبيرة ، بمحاذاة الماء ، وكأنني أريد الهرب · منذ فترة ، عندما اكون بمفردي ليلا والصمت سائد ، اسمع صوته ، حزينا في البدء ، متضرعاً وكأنه ندب ، ثم يغضب شيئاً فشيئاً ، ويوبخ ، ويأمر · ويضربني في صدري وكأنه جنين حان أوانه ·

لا بد ان الوقت منتصف الليل · ثمة غيوم سوداء قد تجمعت في السماء ، وقطرات ضخمة تسقط على يديّ · ولكنني لم أعرها انتباهاً · كنت غارقاً في جو محموم ، واشعر ، من اليمين واليسار ، على صدغي ، بخصلتين من نار ·

وقلت في نفسي وانا ارتعد : لقد حان الوقت ، ان الدولاب البوذي ليشدني ، لقد حان الوقت لأتحرر من الحمل الرائع ·

وعدت بسرعة الى الكوخ وأشعلت القنديل · وحرك زوربا جفنيه ، حين سقط عليهما النور ، وفتح عينيه ونظر الي وانا انحني على الورق واكتب · وتمتم بشيء ما لم اسمعه ، واستدار فجأة نحو الجدار ، وغرق في النور من جديد ·

كنت اكتب بسرعة كبيرة ، كنت مستعجلا · « بوذا » كله كان فيّ ،

وكنت أراه يتدحرج خارج نفسي وكأنه شريط حزيري أزرق مليء بالاشارات . كان يتدحرج بسرعة وانا اسرع للحاق به. واكتب. لقد اصبح كل شيء سهلا، بسيطاً جداً . لم أكن اكتب ، بل انسخ . ثمة عالم كامل يتبدى لي ، مصنوع من الشفقة ، من الرفض ، من الهواء : قصور بوذا ، ونساء الحريم ، والعربة الذهبية ، واللقاءات الثلاثة المشؤومة بين العجوز والمريض والموت ، والهرب ، والتصوف ، والخلاص ، واعلان النجاة . وامتلأت الأرض بالأزهار الصفراء ، وارتدى المتسولون والملوك اثواباً صفراء ، وخف ثقل الاحجار ، والغابات ، والاجساد . وأصبحت النفوس هواء ، أصبحت روحاً ، والروح تتبدد . وتعبت اصابعي ، لكنني لم اكن أريد ، لم أكن أستطيع التوقف ، كانت الرؤية تمر ، سريعة ، وتهرب ، وعلي ان أمسك بها .

وعند الصباح ، وجدني زوربا نائماً ، ورأسي فوق المخطوط .

- ٦ -

كانت الشمس على ارتفاع اثنتي عشرة قدماً عندما استيقظت • كانت يدي اليمنى قد خدرت بسبب الكتابة ولم أعد استطيع ضم أصابعي • لقد مرت العاصفة البوذية فوقي ، وتركتني متعباً فارغاً •

وانحنيت لأجمع الاوراق المبعثرة على الارض • لم تكن لي الرغبة ولا القوة للنظر اليها • وكأن كل ذلك الالهام الآسر لم يكن الا حلماً لا أريد ان اراه سجين الكلمات ، ذليلا لها •

كانت تمطر في ذلك اليوم ، بلا صوت ، برخاوة • وقبل أن يذهب زوربا أشعل الموقد ، ولبثت طيلة اليوم جالساً ، مثني الساقين ، ويداي ممدودتان فوق النار ، دون أن آكل ، ساكناً ، اصغي الى المطر الاول وهو يسقط بهدوء • لم أكن افكر بشيء • وراح عقلي الذي تقوقع كخلد في أرض رطبة ، يستريح • كنت أسمع حركات الأرض الخفيفة ، وضوضاءها وقرقعتها ، والمطر الذي يسقط والحبوب التي تنضج • واحسست بالسماء والأرض تمتزجان كما كانتا في العصور البدائية تتحدان كرجل وامرأة وتلدان الاطفال • وأمامي ، على طول الشاطىء كنت اسمع البحر يهدر وأمواجه تتطاول كأنه حيوان مفترس يمد لسانه ليشرب •

انني سعيد ، أنا اعرف ذلك • عندما نعيش سعادة ما ، فنادراً ما نحس بذلك • وانما عندما تمضي وننظر الى الوراء ، نحس فجأة ـ واحياناً بدهشة ـ كم كنا سعداء • اما أنا ، فوق هذا الساحل الكريتي ، فأعيش السعادة واعلم انني سعيد •

البحر الأزرق القاتم ، الواسع ، يمتد حتى الشواطىء الافريقية • وغالباً ما تهب ريح جنوبية حادة جداً ، « الليفاس » ، تأتي من الرمال البعيدة الحارة • وعند الصباح يعبق البحر كالبطيخ الاحمر ، وفي الظهيرة يتبخر ساكناً ، مع

تموجات خفيفة كأثداء لما تتكوّر تماماً · وعند المساء ، يتنهد ، ولونـــه بلون الورد ، والخمر ، والباذنجان ، والزرقة القاتمة ·

وألهو ، بعد الظهر ، بملء يدي بالرمل الناعم الأشقر ، ثم احس به وهو ينساب ويفلت ، حاراً رخواً ، من بين أصابعي · ان اليد ساعة رمليـــة تفلت الحياة منها وتضيع · تضيع وانا انظر الى البحر ، وأسمع زوربـــا ، واحس بصدغيّ ينبضان من السعادة ·

انني اذكر ، ذات يوم ، ان ابنة أخي الصغيرة ألكا ، وهي لم تتجـــاوز الرابعة ، قد استدارت نحوي ، ونحن ننظر ، عشية رأس السنة ، الى واجهـة مليئة باللعب ، وقالت لي هذه الجملة المدهشة : « يا عمي الغول ، انني مسرورة جداً لأنه نبتت لي قرون ! » · وشدهت · يا للحياة من معجزة ، وكيف تلتقي جميع النفوس وتمتزج عندما تمد جذورها عميقة جداً ! لأنني سرعان ما تذكرت رأساً لبوذا منحوتاً من الابنوس ، رأيته في متحف بعيد · لقد تحرر بوذا وغمره الفرح الأعظم ، بعد نزع دام سبع سنين · ولقد انتفخت أوردة جبينه ، مـــن اليمين واليسار ، الى حد انها نبقت خارج الجلد واستحالت الى قرنين قويين ملتويين وكأنهما نابضان من الفولاذ ·

وبعد العصر انقطع المطر الخفيف ، وعادت السماء صافية · كنت جائعاً ، ومسروراً لأنني جائع ، فسوف يأتي زوربا الآن ، ويشعل النار ، ويبدأ بحفلة المطبخ اليومية ·

كان زوربا يقول غالب الأحيان وهو يضع القدر فوق النار :

ــ وهذه هي قصة اخرى بلا نهاية ! ليست المرأة ــ عليها اللعنة ! ــ هي وحدها قصة بلا نهاية ، بل هناك ايضاً الطعام ·

ولأول مرة ، أحسست فوق هذا الساحل بعذوبة الطعام · كان زوربا ، عند المساء ، يشعل النار بين حجرين ويعد الطعام ، ثم نبدأ بالأكل والشرب ، ويحتدّ الحديث ، وأخيراً فهمت ان الأكل ايضاً عملية روحيـــة وان اللحم ، والخبز ، والخمر ، هي المواد الأولية التي تُصنع منها الروح ·

وعند المساء ، قبل الطعام والشراب ، يكون زوربا ، بعد تعب العمل ، قد فقد كل بشاشته ، فعباراته ثقيلة ، لا يتــكلم الا اذا انتزعت منـــه الكلمات انتزاعاً · لكن ما ان يلقي ، كما يقول ، بالفحم الى الآلـــة ، حتى ينتعش كل مصنع جسده الخامد المتعب ، ويندفع ، ويبدأ بالعمل · وتشتعل عينـــاه ، وتطفح ذاكرته ، وتنبت له أجنحة في قدميه ، ويرقص ·

ــ قل لي ماذا تفعل بما تأكله فأقول لك من انت · هناك مـــن يحوّلون

هذا الى شحم والى قذارات ، وآخرون الى عمل والى مزاج طيب ، وغيرهم الى اله ، كما سمعتهم يقولون ٠ اذن فهناك ثلاثة أنواع من البشر ٠ اما انا فلست من اشرارهم ، ولا من أخيارهم ٠ انني اضع نفسي بين النوعين ٠ وما آكلـه أحوله الى عمل والى مزاج طيب ٠ هذا ليس سيئاً جداً !

ونظر اليّ بخبث وأخذ يضحك ٠ ثم قال :

ـ اما انت ، أيها الرئيس ، فانني اعتقد انك تحاول ان تحول ما تأكله الى اله ٠ لكنك لا تستطيع ذلك وتعذّب نفسك ٠ لقد حدث لك ما حدث للغراب ٠

ـ ما الذي حدث للغراب ، يا زوربا ؟

ـ كان يمشي ، كما تعلم ، بشكل محترم ، مناسب ، مثل غراب حقاً ٠ لكنه رغب ذات يوم في أن يمشي متبختراً كالحجل ٠ ومنذ ذلك الحين ، نسي المسكين حتى مشيته الخاصة ، ولم يعد يعرف ماذا يفعل ، وأخذ يعرج ٠

* * *

رفعت رأسي ٠ وسمعت وقع خطا زوربا وهو يصعد من النفق ٠ وبعـــد قليل رأيته يقترب ، متطاول الوجه ، عابساً ، وذراعاه الطويلتان تتأرجحان ، مخلعتين ٠ وقال بطرف شفتيه :

ـ مساء الخير ، ايها الرئيس !

ـمرحباً ، ايها العجوز ، كيف سار العمل اليوم ؟

لم يجب ٠ ثم قال :

ـ سأشعل النار وأعد الطعام ٠

وأخذ قبضة من الأغصان من الزاوية ، وخرج ، ووضع حزمـة الأغصان بحذق بين الحجرين واشعل النار ٠ ووضع قدر الفخار ، وصبّ ماء فيها ، مع البصل والبندورة والأرز وبدأ الطبخ ٠ وأثناء ذلك ، كنت أضع أدوات المائدة على الطاولة المستديرة الواطئة ، واقطع قطعاً سميكة من خبز القمح ، وأصبّ الخمر من الدّن في القرعة المزينة بالرسوم التي أهدانا اياها العم اناتيوستي في الأيام الاولى ٠

كان زوربا راكعاً على ركبتيه أمام القدر ، ينظر الى النـــار ، بعينيـه الواسعتين ، صامتاً ٠ وفجأة سألته :

ـ ألك اولاد ، زوربا ؟

فالتفت اليّ :

ـ لمَ تسأل عن هذا ؟ لي بنت ٠

ـ متزوجة ؟

وأخذ زوربا يضحك ٠

ـ لمَ تضحك ، زوربا ؟

فقال :

ـ هذا لا يُسأل ٠ بالتأكيد، متزوجة٠ انها ليست حمقاء٠ كنت اعمل في منجم للنحاس ، في « برافيتسا » بمقاطعة « شالسيديك » ٠ وذات يوم تلقيت رسالة من أخي « ياني » ٠ هذا صحيح ، لقد نسيت أن اقول لك ان لي أخاً ، انه رجل خبيء النفس ، عاقل ، متدين ، مراب ، مراءٍ ، رجل كما يجب ، من اعمدة المجتمع ٠ انه عطار في « سالونيك » ٠ لقد كتب لي : « الكسيس اخي ، لقد سارت ابنتك « فروسو » في طريق السوء ، وجلبت العار لاسمنا ٠ ان لها عشيقاً ، وقد ولدت منه ، مما نال من سمعتنا ٠ سأذهب الى القرية لأذبحها » ٠

ـ وأنت ، ماذا فعلت يا زوربا ؟

فهز زوربا كتفيه :

ـ « آفٍ ! يا للنساء ! » قلت ، ومزقت الرسالة ٠

وحرك الارز ، ووضع ملحاً ، وضحك ٠

ـ لكن انتظر ، سترى ما هو أغرب من ذلك ٠ بعد شهرين تلقيت من أخي الأحمق رسالة ثانية ، يقول فيها : « لتعش في صحة وسرور ٠ لقد عاد الشرف الى مكانه ، وتستطيع الآن ان ترفع جبهتك عالياً ، لقد تزوج الرجل المذكور فروسو ! » ٠

والتفت زوربا اليّ ٠ وعلى بصيص سيجارته الهزيل رأيت عينيه تقدحان بالشرر ٠ وهزّ كتفيه ثانية ، وقال باحتقار لا يمكن وصفه :

ـ آفٍ للرجال !

وبعد قليل أضاف :

ـ ما الذي يمكننا ان ننتظره من النساء ؟ أن يلدن الأطفال من اول قادم ٠ ما الذي يمكننا أن ننتظره من الرجال ؟ ان يقعوا في الفخ ٠ احفظ ذلك ، ايها الرئيس !

ورفع القدر من فوق النار وأخذنا نأكل ٠

وغرق زوربا من جديد في تأملاته ٠ ثمة هم يقلقه ٠ كان ينظر اليّ ، ويفتح فمه ، ثم يغلقه ٠ وعلى ضوء مصباح الزيت ، كنت أرى بوضوح عينيه المكدودتين القلقتين ٠

ولم أعد استطيع صبراً ، فقلت :

ـ زوربا ، لديك شيء تريد أن تقوله لي ، قله · ان معدتك تؤلمك · فارقد !

ولم يتكلم زوربا · بل تناول حجراً صغيراً وألقاه بقوة من الباب المفتوح ·

ـ دع الحجارة ، تكلم !

فمدّ زوربا عنقه المتغضن ، وسألني قلقاً ، وهو يحدّق في عيني :

أتثق فيّ ، أيها الرئيس ؟

فأجبت :

ـ نعم ، زوربا · مهما فعلت ، فانك لا تستطيع ان تخطىء · حتى لو اردت ، فانك لن تستطيع · انت كأسد ، أو بالأحرى ، كذئب · ان هذه الحيوانات لا تتصرف مطلقاً كخرافٍ او حمير ، انها لا تبتعد مطلقاً عن طرق طبيعتها · انت أيضاً ، انك زوربا حتى منتهى أظافرك · فهزّ زوربا رأسه ، وقال :

ـ لكنني لم أعد اعرف الى اين يسير !

ـ انا اعرف ، لا تهتم بذلك · سر الى الامام !

فصرخ :

ـ قل ذلك ثانية ، ايها الرئيس ، حتى اتشجع !

ـ سر الى الامام !

ولمعت عينا زوربا شرراً ، وقال :

ـ الآن استطيع ان احدثك · منذ ايام وفي رأسي مشروع كبير ، فكرة مجنونة · فهل نحققها ؟

وتسأل عن ذلك ؟ لكن انما لهذا جئنا الى هنا : لنحقق أفكاراً معينة ·

ومدّ زوربا عنقه ، ونظر الي بفرح وخوف ، وهتف :

ـ تكلم بوضوح ، ايها الرئيس ! ألم نأت الى هنا من أجل الفحم ؟

ـ ان الفحم ليس الا ذريعة ، كي لا يتدخل الناس في شؤوننا · كي يظنوا اننا مقاولون عاقلون ، فلا يضربونا بالبندورة · أتفهم ، زوربا ؟

وظل زوربا فاغر الفم · انه يستبسل كي يفهم ، لكنه لا يستطيع أن يؤمن بهذا القدر الكبير من السعادة · وفجأة فهم · واسرع الي ، واخذني من كتفيّ وسألني بحماسة :

ـ أترقص ؟ أترقص ؟

ـ كلا ·

ـ كلا ؟

واسبل ذراعيه ، مذهولا ، ثم قال بعد لحظة :

ـ حسناً . اذن فسأرقص انا ايها الرئيس . اجلس بعيداً حتى لا أصدمك . هاي ! هاي !

وقفز ، ووثب خارج الكوخ ، ورمى حذائيه ، ورداءه ، وصدريته ، ورفع سراويله حتى ركبتيه ، وأخذ يرقص . كان وجهه الذي لا يزال ملوثاً بالفحم ، أسود تماماً ، وعيناه البيضاوان تلمعان .

وغرق في الرقص ، وهو يضرب بيديه ، ويقفز ، ويدور في الهواء ، ويسقط على ركبتيه المثنيتين ، ثم يقفز من جديد مثني الساقين ، وكأنه من مطاط . وفجأة ، وثب عالياً جداً وكأنه يريد ان يقهر قوانين الطبيعة الكبرى ويطير . انك لتحس في هذا الجسم الرميم بالروح وهي تناضل لتجذب الجسد وتلقي بنفسها معه ، في الظلمات ، ككوكب سماوي . انها تدفع الجسد الذي يعود للسقوط ، اذ لا يستطيع الثبات في الجو طويلا ، وتدفعه من جديد ، بلا شفقة ، اعلى قليلا هذه المرة ، لكن المسكين يعود للسقوط ، لاهثاً .

وقطّب زوربا حاجبيه ، وبدا وجهه جدياً قلقاً . انه لم يعد يصرخ . بل يحاول ، بفكيه المشدودتين ، ان يبلغ المستحيل . وصرخت :

ـ زوربا ! زوربا ! هذا يكفي !

لقد خشيت ، الاّ يستطيع الجسد العجوز مقاومة هذا القدر الكبير من الجهد ، فيتناثر فجأة في كل اتجاه ، الف قطعة .

كنت استطيع ان أصرخ كثيراً . لكن كيف تريدون ان يسمع زوربا صراخ الأرض ؟ لقد أصبحت أحشاؤه كأحشاء الطيور .

ورحت اتتبع بقلق خفيف الرقصة الوحشية اليائسة . عندما كنت طفلا ، كانت مخيلتي تعمل دون توقف وأروي لاصدقائي أكاذيب ضخمة أؤمن بها انا ايضاً .

سألني ، ذات يوم ، رفاقي الصغار في المدرسة الابتدائية : « كيف مات جدك ؟ » .

ورحت فوراً اختلق اسطورة ، وكنت بمقدار ما استمر في اختلاقها ، ازداد ايماناً بها :

« كان جدي يحتذي حذاءين من المطاط . وذات يوم ، عندما ابيضت لحيته ، قفز من سطح بيتنا . لكنه ما ان لمس الأرض حتى قفز من جديد ككرة ، وارتفع أعلى من البيت ، أعلى باستمرار ، وأعلى ، حتى اختفى بين الغيوم ـ

هكذا مات جدي.» ٠

ومنذ اليوم الذي اختلقت فيه هذه الاسطورة ، وفي كل مرة اذهب فيها الى كنيسة سان مينا الصغيرة وأرى ، في أسفل الهيكل ، صورة صعود المسيح ، امد يدي وأقول لرفاقي :

« انظروا ، هو ذا جدي بحذائيه المطاطيين » ٠

وفي هذا المساء ، بعد العديد من السنين ، عشت من جديد ، وأنا ارى زوربا يقفز في الفضاء ، تلك الحكاية الصبيانية ، بخوف ، وكأنني أخشى ان أرى زوربا يختفي بين الغيوم ٠ وصرخت :

ـ زوربا ! زوربا ! هذا يكفي !

لقد جلس الآن زوربا على الأرض لاهثاً ٠ كان وجهه يتألق ، سعيداً ، وشعره الرمادي قد التصق بجبينه ، والعرق ينسال من خديه وذقنه ، ممزوجاً بالغبار ٠

وانحنيت فوقه قلقاً ٠ وبعد لحظة قال :

ـ لقد اعاد هذا الهدوء الى نفسي ٠ كأنني فصدت ٠ والآن استطيع أن اتحدث ٠

ودخل الى الكوخ ، وجلس أمام الموقد ، ونظر الي ، مشع الوجه ٠

ـ ما الذي جعلك ترقص ؟

ـ ما الذي تريد ان أعمله ، ايها الرئيس ؟ كان الفرح يخنقني ، وعلي ان اروّح عن نفسي ٠ وكيف اروح عن نفسي ؟ بالكلمات ؟ بف !

ـ اي فرح ؟

واظلم وجهه ٠ واخذت شفته ترجف ٠

ـ اي فرح ؟ اذن فكل ما قلته ، قد قلته هكذا ، هباء ، دون ان تفهمه انت نفسك ؟ لقد قلت اننا لم نأت الى هنا من أجل الفحم ٠ لقد قلت ذلك هكذا ؟ لقد جئنا لنمضي الوقت ٠ نذر الرماد في عيون الناس ، كي لا يظنونا مجانين ويرمونا بالبندورة! لكننا عندما نكون بمفردنا لا يرانا اي انسان ، ننفجر ضاحكين ! هذا ، بشرفي ، ما أريده انا ايضاً ، لكنني لم اكن أفهم ذلك جيد الفهم ٠ احياناً أفكر بالفحم ، واحياناً بالأم بوبولينا ، واحياناً بك ٠٠٠ خليط عجيب ٠ وعندما أشق نفقاً ، اقول : « ان الفحم هو ما أريد ! » ٠ ومن اخمص قدمي الى رأسي ، أصبح فحماً ٠ لكن بعد ذلك ، عندما ينتهي العمل ، واداعب تلك الخنزيرة العجوز ، ارمي بكل الليئيت وبجميع أرباب العمل خارجاً ، ومعهم زوربا ، من أجل شريط عنقها الصغير ٠ وافقد صوابي ٠

واخيراً ، عندما أصبح بمفردي ولا يبقى لدي ما اعمله ، افــكر بك ، ايهـــا الرئيس ، ويذوب قلبي · لقد كان ذلك يثقل على نفسي ، واصرخ : « هــــذا عار ، يا زوربا ، عار ان تخدع ذلك الرجل الطيب ، وتبلع فلوسه · الى متى تظل نذلا ؟ الم تكتفِ ! » ·

« انني أقول لك ، ايها الرئيس ، لقد فقدت صوابي · ان الشيطـــان يجذبني من ناحية ، والرحمن من ناحيـــة ، وهـــكذا اتمـــزق بين الاثنين · ثم تحدثت ، ايها الرئيس ، جيداً ، واتضح لي كل شيء · لقد فهمت ! واتفقنا · والآن نضع النار في البارود ! كم بقي لديك من المال ؟ ائت بـــالكل ، فاننـــا مستهلكوه ! » ·

وجفف زوربا عرقه وبحث حوله · كانت بقايا عشائنا متناثرة على المائدة الصغيرة · ومدّ ذراعه الكبيرة ، وقال :

ــ باذنك ، أيها الرئيس ، فأنا لا ازال جائعاً ·

وتناول قطعة خبز ، وبصلة ، وقبضة من الزيتون ·

وأخذ يأكل بشراهة ، ويرفع الى فمه ، دون ان يمس شفتيه ، القرعـــة ويبقبق الخمر · ثم يصفق بلسانه ، مغتبطاً · وقال :

ــ انني احس بالغم قد انفرج عني ·

وغمزني بعينه ، وسألني :

ــ لماذا لا تضحك ، ايها الرئيس ؟ لماذا تنظر الي ؟ انني هكذا · في داخلي شيطان يصرخ ، وانا افعل ما يقوله لي · وفي كل مرة اكون فيها على وشـــك الاختناق ، يصرخ : « ارقص ! » وأرقص · ويعيد هذا الهـــدوء الى نفسي ! ذات مرة ، عندما مات صغيري ديمتراكي ، في شالسيديك ، وقفت هـــكذا ورقصت · واسرع الاقارب والاصدقاء الذين كانوا يتطلعون الي وانا ارقص امام الجثة ، ليوقفوني ، واخذوا يصرخون : « لقد جُنّ زوربا ! جُنّ زوربا ! » · لكنني انا ، في تلك اللحظة ، لو لم ارقص لجننت من الالم · ذلك لأنه كان ابني البكر وقد بلغ الثالثة من العمر ولا استطيع تحمل فقده · اتفهم ما اقوله ، أيها الرئيس ، ام انني اتكلم مع الحيطان ؟

ــ انني افهم ، زوربا ، انني افهم ، انك لا تتكلم مع الحيطان ·

ــ ومرة أخرى ·· كنت في روسيا ، بالقرب مـــن نوفوروسيسك لأنني ذهبت الى هناك أيضاً ، من اجل المناجم ، كالمعتاد · مناجم نحاس ، في تلـــك المرة ·

« تعلمت خمس أو ست كلمات روسية ، أي ما يكفي بالضبط لشغلي :

« كلا ، نعم ، خبز ، ماء ، احبك ، تعالَ ، كم ؟ » · وارتبطت برباط الصداقة مع روسي ، بولشفي متحمس · كنا نذهب ، كل مساء ، الى حانة المرفأ · وذات مرة جرعنا عدداً لا بأس به من زجاجات الفودكا ، وانتشينا · وما ان بدأنا نسكر ، حتى انفتح قلبانا · هو يريد ان يروي لي كل ما جرى له اثناء الثورة الروسية ، وانا اريد ان اطلعه على وقائعي وحركاتي · لقد سكرنا معاً ، كما ترى ، واصبحنا أخوين · « واستطعنا ان نتفق بالحركات · كان هو الذي يتكلم أولا · وعندما اعجز عن الفهم ، اصرخ به : قف ! فيقوم عندئذ ليرقص · أتفهم أيها الرئيس ؟ ليرقص ما يريد ان يقوله لي · وكذلك كنت أفعل · كل ما لم نستطع أن نقوله بفمنا ، قلناه بأرجلنا ، بأيدينا ، ببطننا أو بصرخات وحشية : هاي ! هاي! هوب لا · هو هي :

« وبدأ الروسي يتحدث : كيف حملوا البنادق ، كيف اندلعت الحرب ، كيف وصلوا الى نوفوروسيسك · وحين أعجز عن فهم ما يقوله لي ، ارفع يدي واصرخ : قف ! وسرعان ما يندفع الروسي · وهيا ! ويأخذ بالرقص ! كان يرقص كمن اصابه مس · وانظر انا الى يديه ، وقدميه ، وصدره ، وعينيه ، وافهم كل شيء : كيف دخلوا الى نوفوروسيسك وقتلوا سادتهم ، وكيف نهبوا المخازن ، وكيف دخلوا الى البيوت وخطفوا النساء · في البدء ، رحن يبكين ، العاهرات ، ويخدشن وجوههن ووجوه الرجال ، لكن رويداً رويداً ، تضاءلت مقاومتهن ، واغلقن عيونهم ، ورحن يصرخن من اللذة · نساء ، وأي نساء ···

« وفيما بعد ، جاء دوري · ومنذ الكلمات الأولى ، ولعل ذلك لأنه كان اصم قليلا ولأن عقله لا يعمل جيداً ، صرخ الروسي : قف ! ولم اكن انتظر غير ذلك · واندفعت ، وازحت الكراسي والطاولات ، ورحت ارقص · آه ! يا شيخي المسكين ! لقد سقط البشر سافلا جداً ، يا للعار! لقد جعلوا اجسادهم خرساء ولم يعودوا يتحدثون الا بالفم · لكن ماذا تريد ان يقول الفم ؟ ما الذي يمكنه ان يقوله ؟ لو استطعت ان ترى كيف كان الروسي يصغي الي ، من رأسه الى قدميه ، وكيف كان يفهم كل شيء ! ووصفت له ، وانا ارقص ، مصائبي ، واسفاري ، وكم مرة تزوجت ، والمهن التي تعلمتها : قالع حجارة ، عامل مناجم ، بائع متجول ، فخار ، جندي غير نظامي ، عازف سانتوري ، بائع بزر اليقطين ، حداد ، وقاطع طريق : وكيف ادخلوني السجن ، وكيف هربت ، وكيف جئت الى روسيا ···

« كل شيء ، كان يفهم كل شيء ، على الرغم من صممه · كانت قدماي

ويداي تتحدث ، وكذلك شعري وثيابي · وسكين معلقة بحزامي، كانت تتحدث هي أيضاً · وعندما انتهيت ، شدّني ، الاحمق الكبير بين ذراعيه ، وقبلني ، وملأنا كؤوس الفودكا من جديد ، وبكينا وضحكنا ، ونحن متعانقان · وعند الفجر كنا نفترق ونذهب لننام ونحن نترنح · وعند المساء نعـود للتلاقي · « أتضحك ، ألا تصدقني ، أيها الرئيس ، انك تقول في نفسك : ما هـذه الخزعبلات التي يرويها لنا هذا السندباد البحري ؟ أمن الممكن ان يتحـدث الانسان بالرقص ؟ ومع ذلك فلأذهب الى النار ، اذا لم يكن هذا ما يجب ان تتحدث به الآلهة والابالسة ·

« لكنني ارى ان النعاس يداعب اجفانك · هيا اذهب لتنام ، وغداً نعود للحديث · لدي مشروع ، مشروع عظيم ، غـداً سأحدثك عنـه · سأدخن سيجارة ، بل لعلي سأغطس على رأسي في البحر ، انني اشتعل ، يجب ان اطفىء نفسي · ليلة سعيدة ! » ·

وتأخرت في النوم · وفكرت في نفسي : لقد ضاعت حياتي · لو أستطيع ان آخذ اسفنجة وأمحو كل ما تعلمته ، كل ما رأيته وسمعته ، ثم ادخل الى مدرسة زوربا وأبدأ بالأبجدية الكبيرة ، الحقيقة ! كم ستكون الطريق التي سأسلكها مختلفة ! سأدرب حواسي الخمس ، جلدي كله كي يتمتع ويفهم · سأتعلم الرقص ، والقتال ، والسباحة ، وركوب الخيل ، والتجديف ، وسواقة السيارة ، واطلاق البندقية · سأملأ روحي بالجسد · واملأ جسدي بالروح · سأوفق اخيرا ، في نفسي ، بين هذين العدوين الأبديين ···

كنت أفكر ، وانا جالس على فراشي ، بحياتي التي تذهب هباء · ومن الباب المفتوح ، كنت اميز بلا وضوح ، على ضوء النجوم ، زوربا وهو جالس على صخرة كطائر ليلي · انني احسده · اقول في نفسي : انـه هـو الذي وجد الحقيقة ، وتلك هي الطريق المستقيمة !

ان زوربا ، لو عاش في عصور اخرى بدائية وخلاّقـة ، لـكان رئيس قبيلة ، ولمشى في المقدمة ، يشق الدرب بفأسه · او لكان شاعراً مشهوراً من شعراء التروبادور ، يزور القصور ، ولتعلق كل العالم بشـفتيه الغليظتين ، السادة والخدم والسيدات النبيلات ··· اما في عصرنا الجاحد ، فهو يجول ، جائعا ، حول البساتين المسورة ، كذئب ، او يسقط ، بالاحرى ، الى حد يصبح معه مهرجا لكاتب رديء ·

وفجأة ، رأيت زوربا ينهض · خلع ثيابه ، ورمى بها على الحصى، وألقى بنفسه في الماء · وكنت أرى بين الفينة والفينة ، على ضـوء القمر الوليـد

الشاحب ، رأسه الضخم يظهر ثم يختفي • ومن حين الى حين ، يطلق صرخة ، وينبح ، ويصهل ، ويقلد صياح الديك : ان روحـــه في هــذه الليلة المقفرة ترتدّ الى الحيوانــات •

وبهدوء ، ودون ان أشعر ، غلبني النوم • وفي الغد ، عند الفجر ، رأيت زوربا مبتسماً ، منشرحاً ، وهو يسحبني من قدمي • وقال :

ـ انهض ، ايها الرئيس ، كي أطلعك على مشروعي • أتصغي ؟

ـ انني مصغٍ •

وجلس على الارض متربعاً ، وراح يشرح لي كيف سيقيم مصعداً من قمة الجبل حتى الشاطىء ، نستطيع به أن ننقل الخشب الذي نحتاج اليه للانفاق ونستطيع أن نبيع الباقي خشباً للبناء • ولقد كنا قررنا ان نكتري غابـــة للصنوبر ، هي ملك للدير ، لكن النقل كان يكلف غالياً ولم نكن لنجد بغالاً • فتصور زوربا اذن ان نبني مصعدا بالحبال الضخمة والأعمـدة والبكرات • وعندما انتهى سألني :

ـ اتفقنا ؟ أتوقع ؟

ـ انني اوقع ، زوربا ، اتفقنا !

وأشعل الموقد ، ووضع الدولة على النار ، واعد لي قهوتـــي ، وألقى بغطاء على قدمي يقيني من البرد ، وذهب مغتبطا • وقال :

ـ سنحفر اليوم نفقا جديدا • لقد وجدت عرقا من تلك العروق ! عرق ماس حقيقي أسود !

وفتحت مخطوط بوذا وغرقت في انفـاقي الخاصة • واشتغلت طيلـــة اليوم ، وكلما تقدمت كنت أحس بالخلاص ، ويغمرني انفعال معقد : طمأنينة وكبرياء واشمئزاز • لكنني تركت نفسي تستسلم للعمل ، لأنني كنت اعلم ، انني ما ان انهي هذا المخطوط واختمه وأطويه ، حتى اعود حراً •

كنت جائعاً • وأكلت بعض الزبيب ، ولوزاً وقطعة خبز • كنت أنتظـر ان يعود زوربا ، حاملاً كل الحسنات التي تبعث المتعـة في قلب الانســـان : الضحكة الصافية ، والكلمة الطيبة ، والأطعمة اللذيذة •

وظهر ، عند المساء • واعـدّ الطعام ، وأكلنا ، لكن ذهنه كان في مكان آخر • وركع على ركبتيه ، وغرس قطعاً صغيرة من الخشب في الأرض ، ومدّ خيطاً ، وعلّق عود ثقاب ببكرات صغيرة ، وراح يحاول ان يجد الميل الذي يجب اعطاؤه للخيط كيلا ينهار كل شيء • وقال لي :

ـ اذا كان الميل أكثر من اللازم ، فسيضيع كل شيء • واذا كان الميل

اقل ، فسيضيع كل شيء ايضا · ويجب ان نجد الميل على الشعرة· ومن أجل ذلك ، أيها الرئيس ، يلزمنا خمر وذكاء ·

وانفجر زوربا ضاحكاً ، وقال وهو ينظر اليّ بحنان :

ـ انك لست أحمق ·

وجلس ليستريح واشعل سيجارة · لقد عاد اليه مرحه من جديد وانحلت عقدة لسانه · وقال :

ـ اذا أمكن للمصعد ان ينجح فسنقطع كل الغابة ، ونفتح مصنعاً · ونصنع ألواحاً ، وأعمدة ، واخشاباً ، ونجمع المال بالرفش ، ثم نبني مركباً بثلاث صواري ، ونقلع بكل ما معنا ، ونذهب لرؤية العالم !

ولمعت عينا زوربا ، وامتلأتا بنساء بعيدات ، بمدن ، بأنوار ، بمنازل كبيرة ، بآلات ، بمراكب ·

ـ ذلك لأن شعري قد شاب ، أيها الرئيس ، وأخذت اسناني تتململ ، ولم يعد لي وقت اضيعه · اما انت ، فشاب ، وتستطيع ان تصبر · أما انا فلا أستطيع ·بشرفي ، انني كلما كبرت ، ازددت توحشا ! ليكفوا عن القول لي ان الشيخوخة تشذّب الانسان وتهدّيء حرارته ! وانه يمد عنقه للموت عندما يراه وهو يقول : « اقطع رأسي ، من فضلك ، كي اذهب الى السماء ! »· اما انا فكلما تقدم بي العمر ، ازددت تمرداً · انني لا استسلم ، بل اريد ان اغزو العالم !

ونهض ، وتناول السانتوري من على الحائط ، وقال :

ـ تعالى هنا قليلاً ، يا ابليس · ماذا تصنع هناك ، على الحائط ، دون أن تقول شيئاً ؟ غنِ قليلاً !

لم أكن لأشبع من رؤية زوربا · بأي حذر وبأي حنان يخرج السانتوري من اللفائف التي غلفه بها · كان يبدو عليه وكأنه يقشر تينة ، أو يعري امرأة من ثيابها ·

ووضع السانتوري على ركبتيه . وانحنى عليه ، وداعب الأوتار على مهل ، وكأنه يستشيره عن اللحن الذي سيغنيه ، ويرجوه ان يستيقظ ، ويأخذه باللطف كي يأتي ليصاحب روحه المعذبة ، التعبة من العزلة · وبدأ اغنية ، لكنها لم تخرج ، فتركها ، وبدأ اخرى ، وصرّت الاوتار وكأنها مريضة ، كأنها لا تريد · واستند زوربا الى الحائط ، وجفّف العرق الذي اخذ فجأة يرشح من جبينه · وتمتم وهو ينظر بجهد الى السانتوري :

ـ انه لا يريد ··· لا يريد ·

ولفّه من جديد بحذر ، وكأنه وحش مفترس يخشى ان يعضه ، ونهض ببطء وعلقه على الحائط • وتمتم مرة أخرى :

ـ انه لا يريد •• يجب الا نغضبه •

وعاد للجلوس على الأرض ، وطمر بعض ثمار الكستناء في الجمر ، وملأ كؤوس الخمر • وشرب ، وشرب ، وقشّر ثمرة كستناء وقدمها لي • وسألني :

ـ أتفهم شيئا أيها الرئيس ؟ انا لا افهم • لكل الأشياء روحها ، الخشب، والأحجار ، والخمر الذي نشربه ، والأرض التي نسير عليها ••• كل شيء ، كل شيء ، أيها الرئيس • ورفع كأسه :

ـ في صحتك !

وافرغه وملأه من جديد • وتمتم :

ـ يا للحياة من عاهرة ! العاهرة ! انها هي أيضاً مثل الأم بوبولينا •

وأخذت اضحك •

ـ اقول لك صه ، أيها الرئيس ، لا تهزل • ان الحياة مثل الام بوبولينا• انها عجوز ،أليس كذلك ؟ ومع ذلك ، ففيها ما يثير • انها تعرف حيلاً تفقدك الرشد • وعندما تغلق عينيك ، تتصور انك بين ذراعي فتاة في العشرين •انها في العشرين ، اقسم لك ، يا صديقي ، عندما تكون مستعداً ، وقد اطفأت النور •

« قد تقول لي انها نصف ميتة ، انها عاشت حياة صاخبة ، انها تعهرت مع قباطنة ، وبحّارة ، وجنود ، وفلاّحين ، وبائعين جوالين ، وكهنة ، وصيادين ، ودرك ، ومعلمي مدرسة ، ووعاظ ، وقضاة صلح • ثم ماذا بعد ؟ ماذا يعني هذا ؟ انها تنسى بسرعة ، النذلة ، انها لا تتذكر أياً من عشاقها • انها تعود لتصبح دوماً ، انا لا امزح ، حمامة بريئة ، اوزة بيضاء ، يمامة صغيرة ، وهي تحمرّ ، تستطيع ان تصدقني ، تحمر وترتجف وكأنها المرة الأولى • ان المرأة لسر ، أيها الرئيس ! انها تستطيع ان تسقط الف مرة ، لكنها تنهض الف مرة من جديد عذراء • لكن ، قد تسألني لماذا ؟ حسناً ، لأنها لا تتذكر » •

فقلت كي اغيظه :

ـ ان الببغاء يتذكر ، يا زوربا • انه يهتف دوماً باسم ليس هو اسمك • ألا يغيظك ، في اللحظة التي تصعد معها فيها الى السماء السابعة ، ان تسمع الببغاء يصرخ : « كانافارو ! كانافارو! » الا تتمنى ان تمسكه من عنقه وتخنقه؟ أخيراً ، آن آن نعلمه ان يصرخ : « زوربا ! زوربا ! » •

فصرخ زوربا وهو يسدّ أذنيه بيديه الضخمتين :

ـ أوه ! ايه ايه ! يا لك من محافظ ! لماذا تريد ان أخنقه ؟

انني أهوىٰ ان أسمعه يصرخ بالاسم الذي ذكرت • انها تعلقه ، العاهرة ، في الليل ، فوق الفراش ، وما ان يرانا ونحن نتفاهم ، لأن له عينين تثقبان الظلمة ، حتى يأخذ ، النذل ، بالصراخ : « كانافارو ! كانافارو ! » •

« وسرعان ، انني أقسم لك أيها الرئيس ، ولكن كيف يمكنك ، ان تفهم هذا ، أنت الذي أفسدته تلك الكتب اللعينة ! انني أقسم لك ، سرعان ما أحس بحذاءين لامعين في قدمي ، وبالريش على رأسي وبلحية ملساء كالحرير تعبق بالعنبر •

صباح الخير ! مساء الخير ! أتأكل معكرونة (١) ؟ انني أصبح كانافارو عن حق • وأصعد الى دارعتي المثقوبة بألف ثقب وهيا ••• النار في المرجل ! ويبدأ اطلاق المدافع ! » •

وانفجر زوربا ضاحكاً • واغلق عينه اليسرى ونظر اليّ قائلاً :

ـ ستعذرني ، أيها الرئيس ، لكنني أشبه جدي ألكسيس ، ليرحم الله روحه ! كان يجلس كل مساء ، وقد بلغ المئة من العمر ، أمام بابه ليرقب الصبايا الذاهبات الى العين • كان بصره قد ضعف ، ولم يعد يميّز جيداً • وينادي الصبايا :

« قولي ، من أنتِ ؟ ـ لينيو ، ابنة ماستراندوني ! ـ تعالي قليلاً كي ألمسك ! تعالي ، لا تخافي ! » • وتمسك رغبتها في الضحك وتقترب • فيرفع عندئذ جدي يده حتى وجه الفتاة ويجسه ببطء ، بحنان ، بشراهة • وتنساب دموعه • وسألته ذات مرة : « لماذا تبكي يا جدي ؟ » فقال : « ايه ! ألا تعتقد ان هناك ما يدعو للبكاء ، يا بني ، عندما أكون انا على وشك الموت مخلفاً ورائي هذا العدد الكبير من الفتيات الجميلات ؟ » •

وتنهّد قائلاً :

ـ آه ! يا جدي المسكين ، كم افهمك ! انني غالبا ما أقول لنفسي : « آه ! يا للشقاء ! لو ان جميع النساء الجميلات يمتن على الأقل في الوقت الذي أموت فيه انا ! » لكن هاته القذرات ، سيعشن ، ويترفهن ، ويأخذهن الرجال بين أذرعهم ، ويقبلونهن ، وسيكون زوربا قد أصبح ترابا يطأن فوقه ! » •

وأخرج بضع كستناءات من الجمر ، وقشّرها • وقرعنا كأسينا • ولبثنا طويلاً على هذه الحال ، نشرب ونمضغ على مهل ، كأرنبين كبيرين ، ونسمع البحر يهدر في الخارج •

---

١ ـ بالايطالية في النص • «المترجم»

- ٧ -

لبثنا صامتين قرب الموقد ، الى ساعة متأخرة من الليل • واحسست من جديد ببساطة وزهادة السعادة : كأس خمر ، ثمرة كستناء ، مدفأة حقيرة ، هدير البحر • ولا شيء آخر • وكي يحس الانسان ان كل ذلك هو السعادة ، يجب ان يكون له قلب بسيط وقنوع • وسألت :

ـ كم مرة تزوجت ، يا زوربا ؟

كنا نشوانيين قليلاً ، لا لكثرة ما شربنا فحسب ، بل أيضاً بسبب تلك السعادة الكبيرة التي لا يمكن التعبير عنها والتي كانت فينـــا • لم نـكن الا حشرتين صغيرتين فانيتين ، متشبثتين بالقشرة الأرضية ، وكنا نحس ذلك بعمق ، كل حسب طريقته • ولقد وجدنا زاوية مناسبة ، قرب البحر ، وراء القصب ، والالواح ، وآنية التنك الفارغة حيث نجلس شبه متعانقين ، وامامنا اشياء جميلة وطعام ، وفي داخلنا الهدوء والحب والطمأنينة •

لم يسمعني زوربا • من يدري في اية محيطات ، لا يصلها صوتي ، كانت روحه تطوف • ومددت ذراعي ولمسته بطرف اصابعي • وسألته ثانية :

ـ كم مرة تزوجت ، يا زوربا ؟

وانتفض • لقد سمع هذه المرة • واجاب وهو يحرّك يده الضخمة :

ـ اواه ! ما الذي ستبحث عنه الآن ! بعد كل شيء انني رجل • أنا أيضاً ارتكبت « الحماقة الكبيرة » • هكذا ادعو الزواج • ليسامحني كل النـاس المتزوجين • لقد ارتكبت اذن « الحماقة الكبيرة » ، وتزوجت •

حسناً ، كم مرة ؟

وحكّ زوربا عنقه بعصبية • وفكّر لحظة • واخيراً قال :

ـ كم مرة ؟ صدقا ، مرة واحدة ، مرة واحدة لا أكثر • وبصدق قليل ، مرتين • وبلا صدق ، ألفاً ، ألفين ، ثلاثة آلاف مرة • كيف تريد ان أقـوم

بالحساب ؟

ـ حدثني قليلاً ، يا زوربا ! غداً الأحد ، سوف نحلق ، ونرتدي ثياباً جميلة ، ونذهب عند الأم بوبولينا · ليس لدينا مانفعله ، اذن نستطيع ان نسهر هذا المساء · حدثني !

ـ أحدثك عن ماذا ؟ ليست هذه اشياء تُحكى ، أيهـا الرئيس ! ان الاتحادات الشرعية ، ليس لها طعم ، انها طعام بدون بهار · عمَّ أحدثك ؟ عن انه ليست هناك أية لذة في التقبيل عندما يكون القديسون محدّقين بك من خلال ايقوناتهم ، مانحين لك البركة · اننا ، في قريتنا ، نقول : « ليس للحم طعم الا اذا كان مسروقا » · أما امرأتك عن حق ، فهي ليست لحماً مسروقا · والاتحادات غير الشريفة ، كيف تريدني الآن ان أتذكرها ؟ هل تمسك الديكة دفاتر حسابات ؟ أتتصور ذلك ! ومع ذلك ، عندما كنت شابا ، كنت معتـاداً على أخذ خصلة شعر من كل امرأة تنام معي · اذن فقد كنت أحمل دوماً مقصاً · حتى عندما اذهب الى الكنيسة ، يكون المقص في جيبي ! اننا رجال ، لا ندري مطلقاً ماذا يمكن ان يحدث ، أليس صحيحاً ؟

« اذن ، فقد كنت أجمع خصل شعر : كان عندي منها خصل سوداء ، وشقراء ، وكستنائية ، بل وأحيانا تشوبها شعرات بيض · ولكثرة ما جمعت حشوت بها وسادة · ثم ، بعد قليل من الزمن ، قرفت منها ، فقد أخـذت بالانتان ، فأحرقتها » ·

وأخذ زوربا يضحك ، وقال :

ـ ذاك كان دفتر حساباتي ، أيها الرئيس · ولقد أحرقته · لقد سئمت منه · لقد اعتقدت انه لن يكون عندي الكثير من ذلك ، ثم تبينت ان الأمر لن ينتهي ، فرميت عند ذاك بالمقص ·

ـ والاتحادات نصف الشريفة ، يا زوربا ؟

فأجاب هازئاً :

ـ ايه ! هذه الأخيرة لا ينقصها السحر · آه ! يا للنساء السلافيات ! ويا للحرية ! لا يسألنك أبداً : « أين ذهبت ؟ لمَ تأخرت ؟ اين نمت ؟ » · انهن لا يسألنك شيئاً ، ولا تسألهن شيئاً · الحرية ، وأية حرية !

ومدّ يده ، وتناول كأسه ، وأفرغه ، وقشرّ ثمرة كستناء · وكان يمضغ ويتكلم في آن واحد ·

ـ كانت هناك واحدة تدعى « سوفنكا » ، والأخرى « نوسا » · ولقـد تعرفت على سوفنكا في قرية كبيرة قرب نوفوروسيك · كان ذلك في الشتاء ،

والسماء تثلج ، وذهبت انا لأفتش عن عمل في منجم ، وبينما كنت ماراً بتلك القرية ، توقفت • كان يوم السوق • ومن جميع قرى الجوار نزل الرجال والنساء للشراء وللبيع • مجاعة مخيفة ، وبرد قارس ، والناس يبيعون كل ما لديهم ، حتى ايقوناتهم ، ليشتروا خبزاً •

« كنت اذن اتجول في القرية ، عندما رأيت فلاحة شابة تقفز من عربة صغيرة ، فتاة مرحة طولها متران وعيناها زرقاوان كالبحر ، ولها ردف ••• كالفرس ! ••• ووقفت مذهولا وقلت لنفسي : « أيْ يا زوربا المسكين ، لقد ضعت ! » •

« ورحت أتتبعها ، وانظر اليها ••• من المستحيل ان أشبع ! كان لا بد لك ان ترى ردفيها اللذين يهتزان كأجراس الفصح • وقلت في نفسي : « لماذا تذهب لشراء المناجم ، أيها الشيخ المسكين ؟ انك تتنكب الدرب المستقيم ، أيها المتقلب الرأي ! تلك هي المنجم الحقيقي : الق بنفسك فيه وشق انفاقك ! » •

« وتوقفت الفتاة ، ساومت ، وابتاعت كمية من الخشب ـ يا للذراعين ، يا الهي ! ـ والقتها في العربة • واشترت قليلا من الخبز وخمس أو ست سمكات مدخنة • وسألت : « كم اصبح الحساب ؟ ـ كذا ••• » • وفكت قرط اذنها الذهبي لتدفع • لما كانت لا تملك مالا ، فستدفع قرطها •عندها لم يدر دمي سوى دورة واحدة • أأدع امرأة تدفع قرطيها ، وحليها ، وصابونها المعطر ، وزجاجة الخزامى •• لو دفعت كل ذلك ، لضاع العالم ! تماماً كما لو انك تنزع عن طاووس ريشه • ألك قلب لتنزع ريش طاووس ؟ ابداً ! لا ، لا ، ما دام زوربا حياً ، فلن يحدث ذلك • هكذا قلت في نفسي ، وفتحت كيس نقودي ودفعت • كان ذلك عندما اصبحت الروبلات مزقاً من الورق • بمئة درهم ، كنت تشتري بغلاً ، وبعشرة دراهم ، امرأة •

« دفعت اذن • وحدجتني الفتاة بطرف عينها • وتناولت يدي لتقبلها • لكنني سحبتها • ماذا ، هل تظنني شيخاً ؟ وأخذت تصرخ : « سبا سيبا ! سبا سيبا ! » ، وهذا يعني « شكراً ! شكراً ! » • وبقفزة واحدة أصبحت في عربتها وتناولت العنان ، ورفعت السوط • وقلت في نفسي : « زوربا ، ايها الهرم ، احذر انها ستهرب تحت نظرك » • وبقفزة واحدة ، كنت في العربة الى جانبها • ولم تقل شيئاً • بل لم تلتفت لتنظر اليّ • وضربت الحصان بالسوط ، وانطلقنا •

« وفي الطريق ، فهمت انني أريدها زوجة • وتمتمت كيفما اتفق بثلاث

كلمات روسية ، ولكن بخصوص هذه القضايا ، ليس ثمة داعٍ للتكلم كثيراً ٠ وتحدثنا بالأعين ، بالأيدي ، بالركب ٠ وباختصار وصلنا الى القرية ووقفنا امام عربة ٠ ونزلنا ٠ وبضربة من كتفها فتحت الفتاة الباب ودخلنا ٠ وانزلنا الخشب الى الباحة ، وأخذنا الخبز والسمك ودخلنا الى الغرفة ٠ وكانت فيها عجوز ضئيلة جالسة قرب المدفأة المطفأة ، ترجف ٠ كانت متلفحة بأكياس ، وخرق ، وجلد خراف ، لكنها كانت ترجف ٠ كان الطقس بارداً جداً ، حتى ان اظافرك تكاد تقع ، يا الهي ! وانحنيت ، ووضعت قبضة كبيرة من الأغصان في المدفأة واشعلت النار ٠ ونظرت اليّ العجوز الضئيلة مبتسمة ٠ لقد قالت ابنتها لها شيئاً ، لكنني لم أفهم ٠ لقد اشعلت النار ، وتدفأت العجوز ، فعادت اليها الحياة قليلا ٠

« وأثناء ذلك ، وضعت الفتاة أدوات المائدة ٠ وجاءت بقليل من الفودكا ، وشربناه ٠ واشعلت السماور ، وصنعت شاياً ، واكلنا ، وقدمنا للعجوز حصتها ٠ بعد ذلك ، أعدّت السرير بسرعة ، ووضعت أغطية نظيفة ، وأشعلت القنديل أمام أيقونة العذراء القديسة ورسمت اشارة الصليب ثلاث مرات ٠ ثم نادتني باشارة ، وركعنا امام العجوز وقبلنا يدها ٠ ووضعت يديها البارزتي العظام فوق رأسينا وهي تتمتم بكلام ما ٠ لقد منحتنا ، على الأرجح بركتها ٠ وهتفت : « سبا سيبا ! سبا سيبا ! » وبقفزة واحدة ، كنت في الفراش مع الصبية » ٠

وصمت زوربا ، ورفع رأسه ونظر بعيداً نحو البحر ، ثم قال بعد قليل :

ـ كانت تدعى سوفنكا ٠٠٠

وعاد الى الصمت من جديد ٠ فسألته وقد فقدت الصبر :

ـ ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

ـ ليس هناك « ثم ! » ٠ كم أنت معتاد على « ثم » وعلى « لماذا » ايها الرئيس ! ان هذه الاشياء لا يجوز الحديث عنها ٠ ان المرأة لنبع بارد : تنحني فوقها ، وترى وجهها ، وتشرب ، وتشرب ، وتطقطق عظامك ٠ ثم ، يأتي غيرك وقد عضّه الظمأ هو ايضاً ، فينحني ، ويرى وجهها ويشرب ٠ ثم شخص ثالث ايضاً ٠٠٠ ان المرأة لنبع ، أؤكد لك ذلك ٠

ـ وبعد ذلك ، أذهبت ؟

ـ ماذا تريد أن افعل ؟ انها نبع ، أقول لك ، وانا عابر السبيل ، فعدت الى الطريق من جديد ٠ لبثت ثلاثة شهور معها ٠ لكنْ في نهاية الشهر الثالث تذكرت انني كنت ذاهباً للبحث عن منجم ٠ فقلت لها ذات صباح : « سوفنكا ،

عندي عمل ، يجب أن أذهب » • فقالت سوفنكا : « حسناً ، اذهب • سأنتظرك شهراً ، واذا لم تعد بعد شهر ، سأصبح حرة • وانت ايضاً • بنعمة الله ! » • وذهبت •

ـ وعدت بعد شهر ؟ ••

فهتف زوربا :

ـ لكنك احمق ، ايها الرئيس ، مع احترامي لك ! كيف اعود ؟ انهن لا يتركنك هادئاً ، العاهرات ! بعد عشرة ايام ، في « كوبان » ، التقيت بنوسا ،

ـ حدثني ! حدثني !

ـ مرة اخرى ، أيها الرئيس • يجب ألا نخلط بينهن ، المسكينات ! بصحة سوفنكا !

وجرع خمره دفعة واحدة • ثم قال بعد ان أسند ظهره الى الحائط :

ـ حسناً ، سأقصّ عليك قصة نوسا أيضاً • ان رأسي مليء ، هذا المساء ، بروسيا • هات ! سنفرغ ما لدينا !

ومسح شاربه وحرّك الجمر •

ـ تلك الأخيرة التقيت بها اذن ، كما قلت لك ، في قرية من قرى « كوبان » • كان ذلك في الصيف • جبال من البطيخ الاحمر والاصفر ، فانحنيت وتناولت واحدة ، ولم يقل لي احد شيئاً • وقطعتها الى قسمين ورحت انهشها • « كل شيء هناك ، كثير ، غزير في روسيا ، أيها الرئيس : اختر وخذ ! ليس فقط البطيخ الاحمر والاصفر ، لكن السمك والزبدة والنساء أيضاً • قد ترى ، وانت مار ، بطيخة فتأخذها • وقد ترى امرأة ، فتأخذها أيضاً • ليس كهنا ، في اليونان ، حيث لا تكاد تأخذ لأحدهم قشرة بطيخ حقيرة حتى يجرك امام المحاكم ، وما ان تلمس امرأة حتى يخرج أخوها سكينه ليفرم لحمك كما تفرم النقانق • افٍ ! اشحاء ، بخلاء •• اذهبوا لتشنقوا ! يا عصابة القذرين ! اذهبوا الى روسيا قليلا لتروا كيف يكون السادة العظام !

« كنت ماراً اذن بكوبان ، ورأيت امرأة في بستان • واعجبتني • يجب ان تعلم ، أيها الرئيس ، ان السلافية ليست كهاته اليونانيات النحيفات الطماعات اللواتي يبعنك الحب بالنقطة ويفعلن كل شيء ليدفعن لك اقل مما يجب ، ويغبطنك حقك • اما السلافية ، أيها الرئيس ، فتعطيك أكثر مما تستحق • في النوم ، والحب ، والاكل ، هي قريبة جداً من الأرض والبهائم : انها تمنح ، تمنح كثيراً ، أنها ليست كتلك اليونانيات اللواتي يساومنك طويلا !

وسألتها : « ماذا تدعين ؟ » • لقد تعلمت شيئاً من الروسية مع النساء ، كما ترى • « نوسا • وانت ؟ ـ ألكسيس • انك تعجبينني جداً ، يا نوسا • ونظرت الي بانتباه كما ينظر الانسان الى حصان يريد ان يبتاعه • وقالت لي : « انت ايضاً لا يبدو عليك انك مسكين • لك اسنان متينة ، وشاربان كبيران ، وظهر عريض ، وذراعان قويتان • انك تعجبني » • ولم نتحدث أكثر من ذلك ، اذ لم يكن ثمة داعٍ لذلك • وفي لحظة اتفقنا • كان علي ان اذهب في المساء الى بيتها بثياب الأحد • وسألتني نوسا : « الديك فروة ؟ ـ نعم ، لكن في مثل هذا الحر •••

ـ لا يهم • جيء بها • ستظهر بمظهر الغني » •

« عند المساء اذن ارتديت ثيابي كأنني عريس جديد ، وأخذت الفروة على ذراعي ، وحملت أيضاً عصاة لها قبضة من الفضة كانت لدي ، وانطلقت • كان بيتها عبارة عن منزل قروي كبير ، فيه باحات ، وابقار ومعاصر ، ونيران مشتعلة في الباحة ، ومراجل فوق النار • وسألت : « ما الذي يغلي هنا ؟ ـ عصير البطيخ الاحمر ـ وهنا ؟ عصير البطيخ الأصفر » • وقلت في نفسي : « يا لهذه البلاد ، أتسمع هذا ! عصير البطيخ الاحمر والاصفر ، انها الأرض الموعودة ! في صحتك ، زوربا ، لقد وقعت كجرذ على قطعة جبن » •

« وصعدت الدرج ، وكان ضخماً من الخشب الذي يصر • وفي اعلاه ، كان يقف والدا نوسا • كانا يرتديان نوعاً من القماش الاخضر وحزاماً احمر مزركشاً ، وقبعات ضخمة • وفتحا ذراعيهما ، واقبلك من هنا ، واقبلك من هناك • لقد امتلأت باللعاب • كانا يتحدثان معي بسرعة كبيرة ، ولم افهم جيداً ، لكن من تعبير وجهيهما ادركت انهما لا يريدان بي شراً •

« ودخلت الى القاعة ، ، فماذا رأيت ؟ موائد مصفوفة ، ممتلئة وكأنها مراكب شراعية • كل الناس كانوا واقفين : الاقارب ، نساء ورجالا ، وفي المقدمة نوسا ، متزينة ، مرتدية اجمل ثيابها وصدرها مشرع في الهواء كأنه جؤجؤ السفينة • والجمال والشباب يطفحان منها • وكانت تعقد رأسها بمنديل احمر ، وقد طرزت فوق قلبها صورة منجل ومطرقة • وقلت في نفسي : « قل اذن ، يا زوربا ، ايها المحظوظ ، ألك انت كل هذا اللحم ؟ اهذا هو الجسد الذي ستحتضنه هذا المساء بين ذراعيك ؟

« ورمى الجميع بأنفسهم على الطعام ، النساء كالرجال • واكلنا كالخنازير ، وشربنا كبالوعة • وسألت والد نوسا الذي كان جالساً قربي وقد كاد ينفجر من كثرة ما أكل • « والكاهن ؟ اين الكاهن الذي سيباركنا ؟ »

فأجابني واللعاب يتطاير من فمه : « ليس هناك كاهن · ليس هناك كاهن · الدين افيون الشعب » ·

« وعلى اثر ذلك ، نهض نافخاً صدره ، وفكّ حزامه الاحمر ، ورفـــع ذراعه ليصمت الحاضرون · كان يمسك بكأسه ، المليئة حتى تكاد تطفـــح ، ويحدّق في عيني · ثم بدأ يتكلم ، ويتكلم ، والقى خطاباً ، وأي خطاب ! إمـا ما كان يقوله ؟ الله وحده يعرف ذلك ! وتعبت من كثرة الوقوف ، ثم ان السكر قد بدأ يدير رأسي قليلا · وجلست ، ولصقت ركبتي بركبة نوسا التي كانت جالسة الى يميني ·

« وما كان العجوز لينتهي من الكلام ، وأخذ عرقه يسيل · آنذاك القوا بأنفسهم عليه وشدوه بين اذرعهم كي يسكتوه · واشارت الي نوسا : « هيا ، تكلم ، أنت أيضاً ! »

« فنهضت بدوري والقيت خطاباً ، بلغة نصفها روسية ونصفها يونانية · اما ما قلته ؟ لتنصب مشنقتي اذا كنت اعرف · انني اذكر فقط انني في النهاية انطلقت في الاغاني الكليفتية وبدأت دون وعي انهق :

صعد كليفتيون الى الجبل
ليسرقوا احصنه !
لكن لم يكن هناك خيل ·
انها نوسا التي خطفوها ·
« كما ترى ، أيها الرئيس ، فقد حورت قليلا من اجل المناسبة · »
وانطلقوا ، انطلقوا ···
(هيا ، يا امي ، لقد انطلقوا !)
آه ! يا نوسا ،
آه ! يا نوسا ،
آي !

« وبينما كنت اصرخ « آي » ألقيت بنفسي على نوسا وقبلتها ·

« كان ذلك ما يجب ! فأسرع بعض الشبان الأشداء مـــن ذوي اللحى الحمراء ، وكأنني أعطيت الاشارة التي ينتظرونها ، وكأنهم لم يكونوا ينتظرون غير ذلك ، وأطفؤوا الأنوار ·

« وراحت النسوة الخبيثات يصرخن ، مدّعيات الخـــوف · ثم رحـــن يطلقن ، في الظلام صرخات صغيرة · وكان ذلك يبعث على الدغدغة والمرح ·

أما ما جرى ، ايها الرئيس ، فالله وحده يعرفه · لكنني اعتقـد انـــه لا

يعرفه ، والا أرسل الصاعقة لتشوينا • وتدحرج الرجال والنساء على الأرض ، الحابل بالنابل • ورحت انا ابحث عن نوسا ، لكن عبثاً ! ووجدت أخرى وقمت بالعمل معها •

« عند الفجر ، نهضت لأذهب مع امرأتي • كان الجو لا يزال معتماً ولم اكن أرى جيداً • وأمسكت بقدم ، وسحبتها لكنها لم تكن قدم نوسا • وأمسكت قدماً أخرى : نفس الشيء ! وأمسكت ثالثة ، ورابعة ، وفي النهاية ، بعد ان سعيت ككلب ، وجدت قدم نوسا ، وسحبتها ، وخلّصتها من بين اثنين او ثلاثة أبالسة كانوا يسحقونها ، المسكينة ، وأيقظتها ، قائلا لها : نوسا ، هيا بنا من هنا ! » • فأجابتني : « لا تنس فروتك ! هيا ! » • ومضينا » •

فسألت من جديد ، بعد ان رأيت زوربا قد صمت :

ـ ثم ماذا ؟

فقال زوربا بعصبية :

ـ ها أنت تعود من جديد الى « ثم ماذا ؟ » • وتنهّد :

ـ عشت ستة أشهر معها • منذ ذلك اليوم ، أؤكد لك ، لم اعد أخشى شيئاً • لا شيء مطلقاً ، اقول لك ! لا شيء سوى أمر واحد : هو ان يمحو الشيطان او الله من ذاكرتي هذه الأشهر الستة • أتفهم ؟

وأغلق زوربا عينيه • كان يبدو شديد الانفعال • انها المرة الأولى التي أراه فيها تتملكه بمثل هذه القوة ذكرى بعيدة • وسألته بعد عدة لحظات :

ـ لقد أحببتها اذن كثيراً ، نوسا تلك ؟

وفتح زوربا عينيه ، وقال :

ـ أنت شاب ، ايها الرئيس ، انت شاب ، لا تستطيع ان تفهم • عندما يشيب شعرك انت ايضاً ، سنعود للحديث عن تلك القصة الخالدة •

ـ اية قصة خالدة ؟

ـ المرأة ، بحق الشيطان ! كم مرة يجب ان أكرر لك ذلك ؟ المرأة قصة خالدة • اما الآن ، فأنت كالديكة الشابة التي تطبق على الدجاجات ثلاث مرات على دفعتين ثم تنفخ حوصلاتها ، وتصعد على المزبلة وتأخذ بالصياح والخيلاء • انها لا تنظر الى الدجاجات ، بل الى عرفها • اذن ، فما الذي يمكنها ان تفهمه من الحب ؟ لا شيء مطلقاً •

وبصق على الأرض باحتقار • ثم أدار رأسه ، اذ هو لا يريد ان ينظر اليّ •

فسألته مرة اخرى :

ـ ثم ماذا ، يا زوربا ؟ ونوسا ؟

فأجاب زوربا ونظرته ضائعة بعيداً نحو البحر :

ـ ذات مساء ، وانا عائد الى المنزل ، لم أجدها • لقد هربت مع عسكري جميل كان قد وصل الى القرية منذ بضعة ايام • لقد انتهى الأمر ! وانفطر قلبي وانشطر شطرين • لكنه سرعان ما التصق من جديد ، الشرير • لقد رأيت ، ولا بد ، تلك الأشرعة المرقعة بالقطع الحمراء ، والصفراء ، والسوداء ، والمخيطة بخيط ثخين ، والتي لا تتمزق ابداً ، حتى في اسوأ العواصف ؟ ان قلبي مثلها • فيه ستة وثلاثون ألف ثقب ، وست وثلاثون الف رقعة : انه لا يخشى شيئاً ابداً !

ـ ولِمَ تحقد على نوسا ، زوربا ؟

ـ لماذا احقد عليها ؟ تستطيع ان تقول ما تشاء ، لكن المرأة شيء آخر ، انها ليست بشراً ! لماذا احقد عليها ؟ ان المرأة شيء لا يُفهم ، وكل قوانين الدولة والدين لا تعير هذا انتباهاً • ان على هذه القوانين ألا تعامل المرأة هكذا ، كلا ! انها قاسية جداً ، ايها الرئيس ، ظالمة جداً ! لو كنت انا الذي يسن القوانين ، فانني لن اسنها واحدة للرجال والنساء • عشر ، مئة ، الف وصية للرجل • الرجل رجل ، ويستطيع ان يتحمل هذا • لكن ثمة توصية للمرأة • لأن المرأة ، كم مرة يجب ان اقول لك ذلك ، ايها الرئيس ؟ لأن المرأة مخلوق ضعيف • في صحة نوسا ، ايها الرئيس ! وليضع الله لنا رصاصاً في مخنا ، نحن الرجال !

وشرب ، ورفع ذراعه ثم جعلها تسقط فجأة وكأنه يمسك فأساً ، وعاد يقول :

ـ ليضع لنا رصاصاً في مخنا ، او ليجرِ لنا عملية • والا ، يمكنك ان تصدقني ، فاننا هالكون ! •

- ٨ -

اليوم ، أمطرت ببطء ، واتحدت السماء بالارض بحنان لا متناهٍ • انني اذكر نقشاً هندوكياً من الحجارة الرمادية القاتمة يمثل رجلا ملقياً ذراعيه حول امرأة ومتحداً بها بكثير من العذوبة والاستسلام حتى انك لتحس ، بعد ان لعق الدهر الجسدين وتأكلهما ، انك ترى حشرتين متعانقتين بشدة ، راح المطر الناعم يتساقط فوقهما ، والأرض تتشربه بلذة وتمهل •

انني جالس في الكوخ • انظر الى السماء تتكدر ، والى البحر يتألق ببريق رمادي اخضر • ومن طرف الساحل الى طرفه الآخر ، ليس ثمة انسان ، ليس ثمة شراع ، ليس ثمة طير • رائحة الأرض وحدها تدخل من النافذة المفتوحة •

ونهضت ، ومددت يدي الى المطر كأنني متسول • وفجأة ، رغبت في البكاء • كان ثمة حزن ، ليس من أجلي ، ليس لي ، أعمق ، وأظلم ، يتصاعد من الأرض الندية • انه كالرعب الذي يتملك الحيوان الذي يرعى ، بلا مبالاة ، ثم يشم حوله فجأة ، في الفضاء ، دون ان يرى شيئاً ، أنه محاصر ، لا يستطيع أن يفلت •

وكدت اطلق صرخة ، مدركاً ان ذلك سيعيد الهدوء الى نفسي ، لكنني خجلت •

وكانت السماء تنخفض اكثر فأكثر • ونظرت من النافذة : كان قلبي يرتعد بهدوء •

انها للذيذة ، وحزينة جداً ، تلك الساعات من المطر الناعم ، تعيد إلى الذهن جميع الذكريات المرة ، المدفونة في القلب : فراق الاصدقاء ، ابتسامات نساء قد انطفأت ، آمال قد فقدت اجنحتها كفراشات لم يبق منها الا الدود • ولقد وقف هذا الدود فوق اوراق قلبي وراح يقرضها •

ورويداً رويداً ، عبر المطر والأرض الندية ، صعدت من جديد ذكـــرى صديقي ، المنفي هناك ، في القوقاز • واخذت ريشتي ، وانحنيت على ورقي ، واخذت احدثه ، لأمزق شبكة المطر واتنفس •

« أيها العزيز جداً ، اكتب اليك من شاطيء منعـــزل في كريت ، حيث اتفقنا ، انا والقدر ، ان ابقى عدة شهور لأمثل ، أمثل دور الرأسمالي ، مالـك منجم لللينيت ، رجل اعمال • واذا نجح تمثيلي ، فسأقول آنذاك انه لم يـكن تمثيلا ، بل انني اتخذت قراراً كبيراً ، قراراً بأن اغيّر حياتي •

« انت تذكر انك دعوتني ، وانت مغادر ، « بالفأر قارض الورق » فأثرت غضبي ، وقررت آنذاك ، ان اهجر القرطاس لفترة من الزمن ــ او دوماً ؟ ــ وألقي بنفسي في العمل • فاستأجرت تـلا صغيراً يحتـــوي على اللينيت ، وتعاقدت مع عمال ، واشتريت معاول ، وارفاشاً ، ومصابيـــح الاسيتيلين ، وسلالا ، وعربات ، وحفرت انفاقاً ودفنت نفسي فيهـا • هـــكذا ، كي اثير غضبك • وتحوّلت ، بسبب الحفر وشق الدهاليز في الأرض ، من فأر قارض لورق الى خُلد • فأرجو ان تسرّ لهذا التحول • « ان افراحي هنـــا كبيرة لأنها في غاية البساطة ، مصنوعة من عناصر خالدة : هوآء صافٍ ، وشمس ، وبحر ، وخبز حنطة • وعند المساء ، يحدثني ، وهو جالس أمامي ، سندبـاد بحري رائع ، يتحدث ويتسع العالم كلما تحدث • واحياناً ، عندما لا تســد الكلمة حاجته ، ينتصب قافزاً ويرقص • وعندما لا يكفيـــه الرقص نفسه ، يضع السانتوري على ركبتيه ويبدأ بالعزف •

« أحياناً ، يعزف لحناً وحشياً ، فتحس بأنك تختنق ، لأنك تفهم فجأة ان الحياة تافهة وبائسة ، غير لائقة بالانسان • واحيـانـاً يعـزف لحناً مؤلماً ، فتحس بأن الحياة تمر وتنساب كما ينساب الرمل من بين الأصابع ، وبـــأن الطمأنينة لا وجود لها •

« ويذهب قلبي ويجيء ، من طرف صدري الى طرفه الآخـــر ، كمكوك حائك • انه يحيك هذه الاشهر القلائل التي سأمضيها في كريت وانني اعتقد ــ ليسامحني الله ! ــ انني سعيد •

« يقول كونفوشيوس : « كثيرون يبحثون عن السعادة فيما هو اعلى من الانسان ،، وآخرون فيما هو اوطى منه • لكن السعادة بطول قامة الانسان » • هذا صحيح • اذن فهناك عدد من السعادات بصدد ما للانسان من قامات • تلك هي ، يا تلميذي ومعلمي العزيز ، سعادتي اليوم ، وانني لأقيسها ، واعيـــد قياسها ، قلقاً ، لأعرف ما طول قامتي الآن • لأن قامة الانسان ، كمـا تعلم ،

ليست دائماً واحدة ٠

« ان البشر يبدون لي ، هنا ، وانا انظر اليهم من عزلتي ، لا كالنمل ، لكن على النقيض من ذلك ، كوحوش هائلة ، من نوع الزواحف السّامة الضخمة الطائرة المتحجرة ، تعيش في جو مشبع بحامض الفحم وبعفونة المستحاثات الكثيفة ٠ غاب غير مفهوم ، عبثي ، معول ٠ ان مفاهيم « الوطن » و « العرق » التي تحبها ، ومفاهيم « الوطن الاعلى » و « الانسانية » التي جذبتني ، لها قيمة نفحة الهدم الفائقة القوة ٠ اننا نحس اننا صعدنا من جديد لنقول بضعة مقاطع ، واحياناً حتى ليس مقاطع ، بل مجرد اصوات لا تلفظ مثل « آ » ! و « او » ! ـ ومن ثم نتحطم ٠ واسمى الافكار ، لو بقرت بطونها ، لتبينا انها ، هي أيضاً ، دمى محشوة بالنخالة ، ثم نجد ، نابضا من التنك مخفياً في النخالة ٠

« انت تعرف جيداً ان هذه التأملات القاسية ، وهي بعيدة عن ان تجعلني استسلم ، انما هي على النقيض من ذلك ، اعواد ثقاب لا بد منها لشعلتي الداخلية ٠ لأنني ، وكما يقول معلمي بوذا ، قد « رأيت » ٠ وبما انني رأيت واتفقت بغمزة عين مع المخرج المسرحي اللامرئي ، فانني استطيع من الآن فصاعداً ، وكلي مزاج رائق ورغبة في ان افعل ما لا داعي له ، ان امثل دوري على الأرض حتى النهاية ، اعني بانسجام وبدون ان تثبط عزيمتي ٠ ذلك بما انني رأيت ، فقد اشتركت ، انا أيضاً ، في العمل الذي امثله على مسرح الله ٠

« وهكذا ، اراك ، وانا انقل نظري في المسرح الكوني ، هناك في مغاور القوقاز الاسطورية ، تمثل ، انت أيضاً ، دورك ، اذ تجهد نفسك لانقاذ بضعة آلاف من ارواح عرقنا الذي يواجه خطر الموت ٠ انك بروميثيوس آخر ، لكنه يتحمل عذابات حقيقية وهو يناضل ضد قوى الظلام : الجوع ، والبرد ، والمرض ، والموت ٠ لكنك تسرّ احياناً ، لما فيك من كبرياء ، من ان قوى الظلام كثيرة الى هذا الحد وغير مرئية ، وهكذا يصبح هدفك في ان تكون بلا امل تقريباً ، أكثر بطولة ، وتدرك روحك عظمة اشد فجيعة ٠

« ان هذه الحياة التي تعيشها تعتبرها ، بلا شك ، سعادة ٠ ولما كنت تعتبرها هكذا ، فهي كذلك ٠ لقد فصّلت ، انت ايضاً ، سعادتك على قدك ، وقدك الآن ـ ليتمجد الرب ! ـ يتجاوز قدي ٠ والمعلم الصالح لا يريد مكافأة اروع من هذه : ان ينشيء تلميذاً يتجاوزه ٠

« اما انا ، فأنسى غالباً ، وانتقد ، واتيه ، وما ايماني الا فسيفساء من الجحود المستمر ، وقد اشتهي احياناً ان اقوم بمقايضة : ان آخذ دقيقة صغيرة

واعطي حياتي كاملة . لكنك ، انك تمسك بالدفة بحزم ، ولا تنسى الى اين انت متجه ، حتى في اعذب اللحظات المميتة .

« اتذكر ذلك اليوم الذي كنا نعبر فيه معاً ايطاليا ، ونحن عائدان الى اليونان ؟ لقد عزمنا على الذهاب الى منطقة « بونت » التي كانت في خطر آنذاك ، اتذكر ذلك ؟ وفي مدينة صغيرة ، نزلنا من القطار بسرعة ، اذ لم يكن امامنا الا ساعة واحدة قبل وصول القطار الآخر . ودخلنا الى بستان كبير كثيف ، قرب المحطة ، مملوء بالأشجار ذات الأوراق العريضة ، وبأشجار الموز ، وبقصب لونه معدني قاتم ، وبنحلات كانت متشبثة بغصن مزهر يرتجف ، سعيداً ، لأنه يراها تمتص .

« وتقدمنا بصمت ، وقد أخذتنا النشوة ، وكأننا في حلم . وفجأة ، عند منعطف الدرب المزهر ، ظهرت فتاتان تمشيان وهما تقرآن . لا اذكر ان كانتا جميلتين او قبيحتين . اذكر فقط ان احداهما كانت شقراء ، والأخرى سمراء ، وانهما كانتا ترتديان ثوبين ربيعيين .

« وبجرأة الانسان عندما يكون حالماً ، اقتربنا منهما وقلت لهما ضاحكاً :

« مهما كان الكتاب الذي تقرآنه ، فسوف نتناقش حوله » . كانتا تقرآن غوركي . وعند ذاك ، تقدمنا بسرعة لأننا كنا مستعجلين ، واخذنا نتحدث عن الحياة ، والبؤس ، وتمرد الروح ، والحب ...

« لن انسى ابداً فرحنا وألمنا . كنا قد أصبحنا ، نحن وتانك الفتاتان المجهولتان ، اصدقاء قدماء ، احباء قدماء . كنا على عجلة من امرنا ، وقد اصبحنا مسؤولين عن روحيهما وجسديهما : فبعد بضع دقائق سنغادرهما للأبد . وفي الهواء المرتجف ، كانت رائحة الاغتصاب والموت .

« ووصل القطار وصفّر . وقفزنا كأننا استيقظنا . وتصافحنا . كيف ننسى تعانق ايدينا الشديد واليائس ، والأصابع العشر التي لا تريد ان تنفصل . كانت احدى الفتاتين شاحبة جداً ، والأخرى تضحك وترتعد .
« واذكر انني قلت لك عندئذ : « هي ذي الحقيقة . اما اليونان ، والوطن ، والواجب ، فهي كلمات لا تعني شيئاً . واجبتني انت : « اليونان ، والوطن ، والواجب ، هذا لا يعني شيئاً بالفعل ، لكننا من اجل هذا اللاشيء سنذهب عن طواعية لنموت » .

« لكن لماذا اكتب لك هذا ؟ لأقول لك انني لم أنسَ شيئاً مما عشناه معاً . ولأتيح لنفسي أيضاً فرصة كي اعبر عما كان مستحيلا عليَّ التعبير عنه عندما كنا معاً ، بسبب تلك العادة الحسنة او السيئة التي كنا نتقيّد بها والتي

كانت تلزمنا بتمالك أنفسنا .

« والآن وانت لست أمامي ، ولا ترى وجهي ، وانا لا اخاطر بأن ابدو سخيفاً ، فانني أقول لك انني احبك كثيراً » .

وختمت رسالتي . لقد تحدثت مع صديقي وعاد الهدوء الى اعصابي .
وناديت زوربا . وكان جالساً على صخرة كي لا يتبلل ، يجرب مصعده .
وصرخت :

ـ زوربا تعال . انهض وهيا الى القرية لنتنزّه .

ـ مزاجك الآن حسن ، أيها الرئيس . انها تمطر . ألا تريد ان تذهب بمفردك ؟

ـ نعم . لكن لا اريد ان افقد مزاجي الحسن . واذا كنا معاً ، فلن اخاطر بشيء . تعال .

وضحك قائلا :

ـ انني سعيد لأنك بحاجة الي . هيا !

وارتدى قميصه الصوفي الصغير الكريتي ذا القبعة المدببة الذي اهديته له ، وخضنا في الدرب الموحل .

كانت تمطر . وقمم الجبال مخفية ، وليس ثمة نسمة هواء ، والحجارة تلمع . وكان جبل الليثيت الصغير مخنوقاً تحت الضباب . وكأن حزناً بشرياً يغلف وجه التل الانثوي ، وكأنه قد اغمي عليه تحت المطر . وقال زوربا :

ـان قلب الانسان يتألم عندما تمطر ، ويجب الا نلومه على ذلك !

وانحنى على اسفل سياج وقطف أولى ازهار النرجس البري ، ونظر اليها طويلا ، دون ان يشبع ، وكأنه يرى النرجس لأول مرة ، واستنشقها مغمضاً عينيه ، وتنهدّ وقدّمها الي ، قائلا :

ـ لو كنا نعرف ، أيها الرئيس ، ما تقوله الحجارة ، والازهار ، والمطر ! لعلها تنادي ، تنادينا ، ونحن لا نسمع . متى ستنفتح آذان الناس ؟ متى ستتفتح اعيننا لنرى ؟ متى سنفتح الاذرع لنعانق الجميع ، الحجارة ، والازهار ، والمطر ، والبشر ؟ ماذا تقول عن ذلك ، أيها الرئيس ؟ وكتبك ، ما الذي تقوله ؟

فقلت مستخدماً التعبير المفضل عند زوربا :

ـ ليأخذها الشيطان ، ليأخذها الشيطان !

واخذ زوربا ذراعي :

ـ سأقول لك فكرة خطرت لي ، أيها الرئيس ، لكن يجب الاّ تغضب :

كوّم كل هذه الكتب واشعل فيها النار • وبعد ذلك ، من يعلم ، فأنت لست ابله ، انك رجل شجاع ••• يمكن ان يُصنع منك شيء ما !

وهتفت في نفسي : « انه على حق ، انه على حق ، لكنني لا استطيع ! » •

وتردّد زوربا ، وفكّر • ثم بعد لحظة قال :

ـ ثمة شيء افهمه و •••

ـ ماذا ؟ قله !

ـ لست ادري على الضبط • يبدو لي ، هكذا ، انني افهم شيئاً ما • لكن لو حاولت ان اقوله لهدمت كل شيء • وذات يوم عندمـــا اكون مستعـداً ، سأرقصه لك •

وازداد المطر عنفاً • ووصلنا الى القرية • كانت فتيات صغيرات يعـدن بالخراف من المراعي ، والحرّاث قد فكوا الثيران ، تاركين حقلهـــم نصـف محروث ، والنساء يجرين وراء اطفالهن في الازقة • لقد تملك القرية خـــوف سريع عند قدوم عاصفة المطر • النساء تطلق صرخات حادة وعيونهن تضحك ، وقطرات المطر الضخمة تتشبث بلحى الرجال الكثـــة وشواربهم المفتولـــة • وتصاعدت رائحة حادة من الأرض ، من الحجارة والعشب •

ودخلنا ، بعد ان تبللنا حتى العظام ، الى المقهى ـ المجزرة « الحياء » • كانت غاصّة بالرجال ، البعض يلعب بالورق ، وآخرون يتناقشون بصـــوت عالٍ ، وكأنهم يتداعون من جبل لآخر • وفي صدر القاعة ، كان يتربع ، الى مائدة صغيرة ، على مقعد خشبي ، اعيان القرية : العم انانيوستي ، بقميصـه الأبيض العريض الاكمام ، ومافراندوني ، الصامت ، القاسي ، الذي يدخـن النارجيلة ، وعيناه متجهتان نحو الأرض ، والمعلم الذي انتصف به العمـــر ، الجاف ، الوقور ، المستند الى عصاه الضخمة والمصغي بابتسامة متنازلة الى رجل عملاق كثيف الشعر قد عاد تواً من « كاندي » وراح يصف روائع المدينة الكبيرة • وكان صاحب المقهى ، الواقف امام منضدتـه ، يصغي ويضحـك ، مراقباً دولات القهوة ، الموضوعة على النار •

وما ان رآنا العم انانيوستي حتى نهض قائلا :

ـ تفضلا بالحضور الى هنا ، يا مواطنيّ • ان سفاكيانو نيكولـي يروي لنا كل ما رآه وسمعه في كاندي ، انه ظريف حقاً ، تعاليا هنا •

والتفت نحو صاحب المقهى وقال :

ـ كأسين من العرق ، يا مانولاكي !

وجلسنا ، وانكمش الراعي المتوحش على نفسه ، عندما رأى غربـاء ،

وصمت • وسألة المعلم ليحمله على الكلام :

ـ اذن ، لقد ذهبت ايضاً الى المسرح ، ايها الكابتن نيكولي ؟ كيف وجدته ؟

وقدّم سفاكيانو نيكولي يده الضخمة ، وقبض على كأس خمره، وجرعه دفعة واحدة ، وتشجع ، وصاح :

ـ وكيف لم اذهب ؟ لقد ذهبت الى المسرح بالتأكيد • كنت أسمعهم دوماً يقولون : « كوتوبولي (١) هنا ، كوتوبولي هناك » • اذن ذات مساء ، رسمت اشارة الصليب وقلت : سأذهب الى هناك ، بديني، سأذهب لأراها ، انا أيضاً •

وسأل العم انانيوستي :

ـ وماذا رأيت ، ايها الشجاع ؟ قل ذلك !

ـ لا شيء • لم أر شيئاً ، أقسم لكم على ذلك • كنت اسمعهم يتحدثون من المسرح واعتقدت انذلك مسلٍ • لكن لم يكن الأمر كذلك • انني آسف للنقود التي أنفقتها • كان المسرح عبارة عن مقهى كبير ، مستدير ، وكأنه حظيرة ، ممتلىء بالناس حتى ليكاد ينفجر ، وبالمقاعد والشمعدانات • لم اكن مطمئناً ، وكان نظري مضطرباً ، ولم اكن أرى شيئاً • وقلت في نفسي : « يا الهي ! لا بد انهم يعدون لي مقلباً • سأهرب » • وفي تلك اللحظة ، اقتربت مني فتاة ترتعش كعصفور صغير ، واخذتني من يدي • فصرخت بها : « قولي ، الى اين تقودينني ؟ » • لكنها راحت تسحبني ، وتسحبني دون ان تهتم بما أقوله ثم التفتت نحوي وقالت لي : « أجلس ! » وجلست • كان الناس في كل مكان : امامنا ، ووراءنا ، ويمينا وشمالا ، وفي السقف • واعتقدت انني سأختنق ، بالتأكيد ، وافطس ، اذ لم يكن هناك هواء ! والتفتُ نحو جاري : « من اين ستخرج ، الراقصات اذن ، ايها الصديق ؟ » • فقال لي وهو يشير الى ستار : « هناك ، من الداخل » •

« وكان هذا صحيحا ! هناك أولاً جرس يقرع ، ويرتفع الستار ، وتبدو كوتوبولي • لكن على الرغم من انها كانت كوتوبولي الا انها كانت امرأة ، امرأة حقيقية ، واي امرأة ! وأخذت تمشي وهي تتمايل على الجانبين • كانت تذهب ، وتجيء ، وبعد ذلك ، شبع الناس منها ، فراحوا يضربون بأيديهم ، فهربت بنفسها » •

وتلوى الفلاحون ضحكاً • واستاء سفاكيانو نيكولي وعبس • والتفت

---

١ ـ ممثلة مشهورة في اليونان • واسمها يعني دجاجة صغيرة •

نحو الباب • وقال كي يغيِّر الحديث :

ــ انهــــا تمطر !

وتابعت كل الانظار نظره • وفي تلك اللحظة بالضبط ، مرت امرأة وهي تجري ، وقد رفعت ثوبها الأسود حتى ركبتيها ، واسبلت شعرها على كتفيها• كانت ممتلئة ، متمايلة ، وثيابها ملتصقة بجلدها ، تتكشف عــــن جسد مثير وصـــــلب •

وقفزت • وقلت في نفسي : اي حيوان مفترس هناك ؟ لقد بـــدت لي لدنة ، خطرة ، تلتهم الرجال •

وأدارت المرأة رأسها لحظة وألقت نظرة هاربة تقدح بالشرر على المقهى •

وتمتم شاب صغير قد بدا زغب لحيته ، جالس قرب الزجاج :

ــ ايتها العذراء القديسة !

وهدر مانولاكس ، حارس الغابة :

ــ عليك اللعنة ، يا زارعة الشقاق ! ان النــــار التي تشـــعلينها ، لا تطفئينها •

واخذ الشاب الجالس قرب الزجاج يدندن ، بهدوء وتردد اولاً ، ثـم اخشوشن صوته شيئاً فشيئاً :

ان لوسادة الأرملة رائحة السفرجل •

انا ايضاً شممتها ولم أعد استطيع النوم •

وصرخ مافراندوني وهو يهزّ أنبوب نارجيلته :

ــ أطبق فاك !

وظل الشاب هادئاً • وانحنى رجل هرم على مانولاكاس ، حارس الغابة، وقال بصوت خافت :

ــ ها هو عمك قد بدأ يغضب • لو كان يستطيع لمزقها ارباً ، التعيسة ! ليحمها الله !

فقال مانولاكاس :

ــ ايه ! ايها الأب اندرولي ، يبدو لي انك ، انت ايضاً ، متعلق برداء الأرملة • ألا تخجل ، أنت ، ايها القوّاس ؟

ــ كلا ! اكرر عليك ذلك : ليحمها الله ! لعلك لم ترَ الأطفــــال الذين يولدون في قريتنا منذ بعض الوقت ؟ انهم جميلون كملائكة • أتســـتطيع أن تقول لي لماذا ؟ حسناً ، هذا بفضل الأرملة ! انها كما يقولون عشيقة جميـــع سكان القرية : فأنت تطفيء النور وتتصور انها ليست امرأتك تلــــك التي

تحتضنها بين ذراعيك . بل الأرملة • ولهذا ، فان قريتنا ، كما ترى ، تضع اطفالاً في غاية الجمال •

وصمت الأب اندرولي لحظة ثم تمتم :

ـ سعيدة هي الأفخاذ التي تعانقها ! آه ! يا صديقي ، لو كنت في العشرين مثل بافلي ، ابن مافراندوني !

فقال احدهم وهو يضحك :

ـ سنراه الآن وهو عائد !

والتفتوا نحو الباب • كانت تمطر بغزارة • والماء يهدر فوق الحصى ، وبين الفينة والفينة يشق البرق السماء • ولم يعد زوربا يحتمل ، وقد بعث مرور الأرملة الحرارة في نفسه ، وأشار لي قائلاً :

ـ انها لم تعد تمطر ، هيا بنا !

وعند الباب ظهر صبي شاب ، عاري القدمين ، اشعث الشعر ، تائه العينين ، كبيرهما • هكذا كان الرسامون يمثلون القديس يوحنا المعمدان ، وقد انتفخت عيناه كثيراً بسبب الجوع والصلاة •

وصرخ بعضهم ضاحكين :

ـ السلام ، يا ميميتو !

ان لكل قرية عبيطها ، واذا لم يكن فيها أحد ، فانهم يصنعون واحداً لتمضية الوقت • وقد كان ميميتو عبيط القرية •

وصرخ بصوته المتلعثم والمخنث :

ـ أيها الأصدقاء ، أيها الاصدقاء ، لقد أضاعت الأرملة سورمولينا نعجتها • من وجدها ، له خمسة ليترات من الخمر مكافأة !

فصرخ العجوز مافراندوني :

ـ اغرب عنا ، اغرب عنا !

وانطوى ميميتو على نفسه ، خائفا ، في الزاوية ، قرب الباب •

وقال العم انانيوستي مشفقا :

ـ اجلس ، يا ميميتو ، تعالَ اشرب كأساً من العرق ليدفئك • الام تصير قريتنا بدون عبيطها ؟

وظهر عند العتبة شاب يبدو مريضاً ، ذو عينين زرقاوين فاتحتين ، يلهث ، وشعره ملصوق بجبهته يقطر ماء •

وهتف مانولاكاس :

ـ السلام ، يا بافلي ! السلام ايها الصغير ابن العم ! ادخل •

والتفت مافراندوني ، ونظر الى ابنه ، وقطّب حاجبيه • وقال في نفسه :

ـ أهذا ابني ؟ هذا الطرح ؟ بحق الشيطان من يشبه ؟ أود لو أمسكه من عنقه ، وارفعه ، واخبطه على الارض مثل اخطبوط !

كان زوربا يجلس على أحرّ من الجمر • لقد اشعلت الأرملة لبه ولم يعد يستطيع البقاء بين هذه الجدران الأربعة • وراح يهمس في اذني كل لحظة :

ـ هيا بنا ، ايها الرئيس ، هيا بنا ، اننا سنفطس هنا !

وبدا له ان الغيوم قد انقشعت وان الشمس قد اظهرت مـن جديــد • والتفت نحو صاحب المقهى وسأله وهو يتظاهر باللامبالاة :

ـ من هذه الارملة ؟

ـ فأجاب كوندو مانوليو :

ـ فرس •

ووضع اصبعاً على شفتيه وأشار بعينه الى مافراندوني الذي اتجهــت عيناه من جديد الى الارض • وأضاف :

ـ فرس ، دعنا من الحديث عنها ، كي لا نذهب الى جهنم •

ونهض مافراندوني ولفّ الانبوب حول عنق النارجيلة • وقال :

ـ اعذروني • سأعود الى بيتي • تعالَ ، بافلي ، اتبعني !

وأخذ ابنه ، وسرعان ما اختفى الاثنان تحت المطر • ونهض مانولاكاس وتبعــه •

وتربّع كوندومانوليو على مقعد مافراندوني ، وقال بصوت منخفض حتى لا يسمعه أحد من الطاولات المجاورة :

ـ يا للمسكين مافراندوني ، انه سيفطس من العار • انها لمصيبة كبيرة تلك التي حلّت ببيته • بالامس ، سمعت بافلي ، بأذني ، يقول له : « اذا لم تصبح زوجتي ، فسأنتحر ! » • ولكنها ، العاهرة ، لا تريده • انهـا تدعوه ، « الساذج ! » •

وكرّر زوربا قوله ، وقد ازداد اشتعالاً عندما سمع الحديث يدور عن الارملـــة :

ـ هيـــا بنـــا •

وأخذت الديكة تصيح ، وخفّ المطر قليلاً • فقلت وانا انهض :

ـ هيـــا !

وقفز ميميتو من زاويته ، وسار في اثرنا •

كانت الحصى تلمع ، واسودت الابواب المبللة بالمطر ، وخرجت العجائز

القميئات بسلالهن ليجمعن الحلزون ·
واقترب ميميتو مني ولمس ذراعي قائلاً :
ـ اعطني سيجارة ، ايها الرئيس ، فهذا يجلب لك الحظ في الحب ·
واعطيته سيجارة · ومدّ يده النحيفة ، التي احرقتها الشمس وقال :
ـ اعطني ايضاً كبريتاً !
واعطيته ، واستنشق الدخان حتى اعماق رئتيه ، ونفثه من منخريه واغمض عينيه نصف اغماضة وتمتم :
ـ انني مبسوط مثل باشا !
ـالى اين انت ذاهب ؟
ـ الى حديقة الأرملة · لقد قالت انها ستقدم لي طعاماً اذا اعلنت لها عن نعجتها ·
كنا نسير بسرعة وتمزقت الغيوم قليلاً ، وظهرت الشمس · وابتسمت القرية كلها ، بعد ان اغتسلت بالمطر ·
وقال زوربا ، وقد تصاعد اللعاب الى فمه :
ـ أتعجبك ، الأرملة ، يا ميميتو ؟
فصاح ميميتو ؟
ـ ولماذا لا تعجبني ؟ ألم اخرج من بالوعة ، انا ايضاً ؟
فقلت مندهشاً :
ـ من بالوعة ؟ ماذا تعني ، يا ميميتو ؟
ـ من بطن امرأة ·
وارتعدت · وقلت في نفسي : ان شكسبير وحده ، يستطيع ، في مثل هذه الدقائق الخلاّقة ، ان يجد تعبيراً واقعياً فجاً الى هذا الحد ، ليصف سر الولادة الغامض والمقرف ·
ونظرت الى ميميتو · كانت عيناه كبيرتين ، فارغتين ، حولاوين قليلا ·
ـ كيف تمضي ايامك ، ، يا ميميتو ؟

ـ كيف تريد ان امضيها ؟ مثل باشا ! استيقظ صباحاً ، وآكل قطعة من الخبز ، ثم ابدأ بالعمل ، واقوم بالسخريات ، لا يهم اين ، ولا ماذا · انني اقوم بحمل الرسائل ، وانقل السماد ، واجمع الروث · واقطف الثمار · انني اسكن عند خالتي ، الام لينيو ، النوّاحة · من المحتمل أنك تعرفها ، فكل الناس يعرفونها · حتى لقد صوروها · وعند المساء ، اعود الى البيت ، وآكل

صحفة من الحساء واشرب قليلا من الخمر • واذا لـم يكن هنـاك خمر فانني اشرب ماءً ، ماء الله الرحمن ، حتى ارتوي ، ويصبح بطني كالطبل • وبعـد ذلك ، ليلة سعيدة !

ـ ولن تتزوج ، يا ميميتو ؟

ـ انا ؟ انني لست مجنوناً ! ما الذي تقوله يا صديقي ؟ أآتي بالهـم لرأسي ؟ ان المرأة تحتاج الى الاحذية ! فمن اين اجد لها منها ؟ انني اسير حافي القدمـين •

ـ أليس عندك حذاء ؟

ـ كيف ليس عندي ؟ انه الحذاء الذي نزعته خالتي لينينو من قدمـي شخص مات في العام الماضي • لكنني لا ألبسه الا في عيد الفصح لأذهـب الى الكنيسة ، وأتسلى بالنظر الى الكهنة • وبعد ذلك ، أخلعه ، واضعه في رقبتي واعود الى البيت •

ـ ما الذي تحبه اكثر من اي شيء آخر في الدنيا ، يا ميميتو ؟

ـ اولاً الخبز • آه كم احبه ! وهو ساخن ! ومحمَّص ، على الأخص اذا كان خبز حنطة ! ثم ، الخمر • ثم النوم •

ـ والنسـاء ؟

ـ بف ! كل واشرب ونم ، كما أقول لك • وكل ما تبقى ، هم ؟

ـ والأرملة ؟

ـ دعها للشيطان ، فهذا أفضل ما تفعله ! ألا ابتعد عني يا ابليس !

وبصق ثلاث مرات ورسم اشارة الصليب •

ـ أتعرف القراءة ؟

ـ مطلقاً ! عندما كنت صغيراً ، جروني بالقوة الى المدرسة ، لكن سرعان ما اصبت بالتيفوس ، وأصبحت أبله • وهكذا تخلصت منها !

وضجر زوربا من اسئلتي ، ولم يكن يفكر بغير الأرملة • وقال لي وهو يأخذني من ذراعي :

ـ ايها الرئيس •••

والتفت نحو ميميتو وامره قائلاً :

ـ سر اماماً ، فلدينا ما نتحدث عنه •

وخفض صوته ، وكان منفعلاً ، وقال :

ـ ايها الرئيس ، هنا سأنتظرك • لا تلوث اسم جنس الـذكور ! ان الشيطان ، او الرحمن ، يرسل لك هذا الطعام الذي يمكن ان تقبله او ترفضه،

وما دامت لك اسنان ، فلا ترفضه ! مد يدك وخذه ! لماذا منحنا الخالق اليدين؟ لنأخذ ! اذن ، خذ • لقد رأيت من النساء في حياتي كميات • لكن هذه الأرملة، تستطيع ان تسقط قبب الأجراس ، تلك اللعينة !

فقلت غاضبا :

ــ انني في غنى عن الازعاجات •

لقد ثارت عصبيتي ، لأنني ، انا أيضاً ، في داخلي ، اشتهيت ذلك الجسد الفائق القوة ، الذي مرّ أمامي ، كحيوان مفترس يبحث عن انثى •

فقال زوربا مدهوشاً :

ــ الا تريد ازعاجات ؟ فماذا تريد اذن ؟

ولم اجب • وتابع زوربا :

ــ ان الحياة ازعاج • اما الموت ، فلا • أن تعيش ، أتعرف ماذا يعني هذا ان تفكّ حزامك ، وتبحث عن قتال •

ولم اقل شيئاً • كنت أعرف ان زوربا محق ، كنت أعرف ذلك ، ولكنني افتقد الى الشجاعة • لقد تنكبت حياتي الدرب الصحيح ، ولم يكن احتكاكي بالبشر الا مونولوجاً داخلياً • لقد انحدرت وانحدرت حتى انه لو كان علي ان اختار بين الوقوع في حب امرأة او قراءة كتاب جيد عن الحب ، لاخترت الكتاب • وتابع زوربا :

ــ دعك من الحسابات ، ايها الرئيس ، وابتعد عن الارقام ، واهدم الميزان اللعين ، واغلق الدكان ، كما اقول لك • فالآن ستنقذ روحك او تخسرها • اسمع ايها الرئيس ، خذ ليرتين أو ثلاثاً ، ولتكن ليرات ذهبية ، فالليرات الورقية لا تملأ العين ، واعقدها في منديل وارسلها الى الأرملة بواسطة ميميتو • وعلّمه ما الذي يجب ان يقوله : « ان رئيس المنجم يحييك ويرسل لك هذا المنديل الصغير • وقد قال ان هذه اشياء قليلة ، لكنّ معها كثيراً من الحب • وقال أيضاً لا تهتمي بسبب النعجة ، فاذا ضاعت ، فلا تحزني • فنحن هنا ، لا تخافي !لقد رآك تمرين امام المقهى ، ومنذ ذلك الحين ، لم يعد يفكر الا بك » •

« هو ذاك ! ثم ، في المساء نفسه ، تقرع بابها • يجب ان تطرق الحديد عندما يكون حامياً • وتقول لها ايضاً انك تهت في الطريق ، وان الليل فاجأك وانك بحاجة الى فانوس • او انك اصبت بوجع على حين غرة وانك تريد قدح ماء • او بالأحرى ، تشتري نعجة ، وتأخذها وتقول : « خذي ، يا جميلتي ، تلك هي النعجة التي اضعتها ، لقد وجدتها ! » • وثق بي ، ايها الرئيس ،

فستكافئك الارملة وستدخل ــ آه ! لو كنت استطيــع ان اجلس وراءك على الحصان ! ــ ستدخل على الحصان الى الجنة · وأؤكد لك ، يا صديقي ، انه ليست هناك جنة أخرى غير هذه · لا تصغ الى ما يقوله الكهنة ، فليس هناك جنة أخرى ! » ·

ولا بد اننا اقتربنا من حديقة الارملة ، لان ميميتو تنهّد ، واخذ بصوته المتلعثم ، يغني ألمه :

ان الكستناء تحتاج الى خمر والجوز الى عسل ،

والفتاة الى شاب والشاب الى فتاة ·

وحثّ زوربا خطاه · واختلج منخراه · وتوقف ، وتنهّد بعمق ونظـر الي ، وقال وقد فقد الصبر :

ــ اذن ؟

فأجبت بجفاء :

ــ لنذهــب !

وحثثت خطاي ·

وهز زوربا برأسه ودمدم بشيء ما لم اسمعه · وعندما وصــــلنا الى الكوخ ، جلس ، متصالب القدمين ، ووضع السانتوري على ركبتيه ، وخفض رأسه ، غارقاً في التأمل · كأنه يصغي الى اغان لا تحصى ويحاول ان يختار واحدة منها ، اكثرها جمالاً او يأساً · واخيراً قام باختياره ، وأنشد لحنــــاً مؤسياً · وكان ، بين الفينة والفينة ، يرمقني بطرف عينه · واحسست ان كل ما لا يستطيع او يجرؤ على قوله بالكلمات ، يعبر عنه بالســانتوري · وكان هذا السانتوري يقول انني افسدت حياتي ، وانني انا والأرملة حشــرتان لا تعيشان الا لحظة واحدة تحت الشمس ،ثم تموتان الى الأبد · وبعد ذلك لا شيء ! لا شيء !

ونهض زوربا بقفزة · لقد فهم فجأة انه يتعب نفسه بلا جــــدوى · واستند الى الحائط واشعل سيجارة ، ثم قال بعد فترة :

ــ ايها الرئيس ، سأسرّ لك بشيء قالته لي ذات يوم في سالونيــــك خادمة عجوز ، سأسر لك به ، حتى ولو كان لا يفيد شيئاً ·

« في ذلك الوقت ،كنت أعمل كبائع جوّال في ماسيدونيا · كنت اذهب الى القرى لأبيع مكبات الخيطان ، والابر ، وحيــاة القديسين ، واللبـــــان ، والبهار · كان لي صوت رائع ، صوت بلبل حقاً · ويجب ان تعلم ان النساء يؤخذن بالصوت ايضاً · (وبماذا لا يؤخذن ، العاهرات ؟) · الله يعلم ما الذي

يجري في احشائهن ! يمكنك ان تكون قبيحاً ، اعرج ، احدب ، لـكن اذا كان صوتك عذبا وتعرف الغناء ، فانك تسبي عقولهن ٠

« كنت بائعاً جوالاً في سالونيك ايضاً ، وأمرّ حتى بالاحياء التركية ٠وقد جذب صوتي ، على ما يبدو ، امرأة مسلمة غنية ، الى حد انها لم تستطع النوم٠ فاستدعت عند ذاك خادمة عجوز وملأت كفها بالمجيديات وقالت لها : « آمان ، قولي للبائع الجوّال الكافر ان يأتي ، آمان ! يجب ان اراه ! لم اعـد استطيع ! » ٠

وجاءتني الخادمة وقالت لي : « ايها الرومي الشاب ، تعال- معـي » ٠ فأجبتها : « لن آتي ٠ الى اين تريدين أخذي ؟ ـ هناك ابنة باشا كالماء العذب تنتظرك في غرفتها ،تعال- ايها الرومي الشاب ! » لكنني كنـت اعلـم انهم يقتلون المسيحيين ، ليلاً ، في الاحياء التركية ٠ وقلت : « كلا ، لن آتي ـ الا تخشى اللهاذن، ايها الكافر ؟ ـ ولماذا اخشاه ؟ ـ لأن الذي يستطيع ، ايهـا الرومي الشاب ، ان ينام مع امرأة ، ولا يفعل ذلك ، يرتكب خطيئـة كبيرة ٠ عندما تدعوك امرأة لتقاسمها الفراش ، يا ولدي ، ثم لا تذهب ، فان روحـك تهلك ! ان هذه المرأة ستتنهد يوم دينونة الله ، وهذه التنهدة ، مهمـا كنت ، وعلى الرغم من كل الأعمال الصالحة التي قمت بها ، ستسرع بك الى جهنم !»٠

وتنهّد زوربا ، وقال :

ـ اذا كانت الجحيم موجودة ، فسأذهب اليها ، وسيـكون هذا هـو السبب ٠ ليس لأنني سرقت ، وقتلت ونمت مع نساء الآخرين ، لا ، لا ! هذا كله ليس بشيء ذيبال ٠ ان الرحمن يغفر هذه الأمور ٠ لـكنني سأذهب الى جهنم ، لأن امرأة كانت تنتظرني ، تلك الليلة ، في فراشها ولم اذهب اليها ٠٠

ونهض ، واشعل النار ، وبدأ يطبخ ٠ ونظر الي من طرف عينه وابتسم باحتقار ، وتتمم ٠

ـ هناك اسوأ ممن هو أصم ، وهو الذي لا يريد ان يسمع ! وانحنى ، وراح ينفخ بشدة على الاغصان الرطبة ٠

- ٩ -

بدأ النهار يقصر ، والنور يغرب بسرعة ، والقلب يقلـــق في نهاية كل عصر • وتملكنا من جديد رعب اسلافنا البدائي ، الذين كانوا يرون ، خلال أشهر الشتاء ، الشمس تنطفيء قبل أوانها باستمرار ، كل مســـاء • كانوا يقولون في أنفسهم ، يائسين : « غداً ستنطفيء تماما » ، ويمضون الليلة كلها على المرتفعات يرتعدون •

كان زوربا يحس بهذا القلق ، بشكل اعمق واكثر بدائية مني • وكي يتخلص منه ، لم يعد يخرج من الانفاق الأرضية الا بعد ان تشتعل النجوم في السماء •

كان قد وجد عرقاً طيباً من الليتنيت ، ليس فيه رمـاد كثير ، قليـــل الرطوبة ، غنياً بالحريرات ، وكان فرحاً لأن الربـح كان يبعـث في مخيلته ، فجأة ، تغيرات رائعة ، ويصبح اسفاراً ، ونساء ، ومغامرات جـديدة • كان ينتظر ، بنفاد صبر ، اليوم الذي سيربح فيه كثيراً ، والذي سينمو فيــــه جناحاه ــ فقد كان يدعو المال اجنحة ــ ليطير • وهـــكذا كان يمضي الليالي الكاملة وهو يجرب مصعده الصغير ، باحثاً عن الميل المضبوط ، كي تهبـــط الجذوع على مهل ، كما يقول ، وكأن ملائكة تحملها •

وذات يوم ، أخذ ورقة طويلة ، وأقلاماً ملونة ، ورسم الجبل والغابة ، والمصعد ، والجذوع الهابطة المثبتة بالحبال ، وكـــــل واحدة منهـا مجهَّزة بجناحين كبيرين بلون اللازورد • ورسم ، في الخليج الصغير المســـــتدير ، مراكب سوداء عليها بحارة خضر مثل ببغاوات صغيرة ، وزوارق تحمل جذوع اشجار صفراء • وفي الزوايا الأربع يقف أربعة رهبان ، ومـن أفواههم تطير شرائط وردية مكتوب عليها بأحرف سوداء كبيرة : « ايها السيد ، ما أعظمك وما أعظم أعمالك ! » :

منذ بضعة أيام ، وزوربا يشعل النار بسرعة ، ويعدّ الطعام ، ونأكل ، ثم ينطلق نحو طريق القرية · وبعد قليل من الوقت ، يعود عابساً · وكنت اسألــــه :

ـ الى اين ذهبت ايضاً ، يا زوربا ؟

فيقـــول :

ـ لا تهتم بذلك ايها الرئيس ·

ويطرق حديثا آخر ·

وذات مساء ، سألني ، بعد ان عاد ، بقلق :

ـ هل الله موجود ، نعم او لا ؟ ما رأيك ، ايهـــا الرئيس ؟ واذا كان موجوداً ـ وكل شيء ممكن ـ فكيف تتمثله ؟

وهززت كتفي دون ان اجيب ·

ـ لا تضحك ، أيها الرئيس ، انني اتمثل الله شبيهاً بي ، انمـا اكبر ، واقوى ، واكثر هموماً · وقبل كل شيء ، خالد · انه يجلس مرتاحــاً فوق جلود خرافٍ لدنة ، وكوخه هو السماء · انه ليس مصنوعاً من صفائح الوقود مثل كوخنا ، من الغيوم · وبيده اليمنى لا يمسك سيفاً او ميزاناً ـ فهـــذه الآلات انما هي للجزّارين والعطّارين ـ بل يمسك باسفنجة مليئـــة بالماء ، وكأنها غيمة من المطر · وعن يمينه ، الفردوس ، وعن يســاره ، الجحيـــم · وعندما تأتي روح من الأرواح ، مرتجفة ، عارية تماماً ، المسكينة ، لأنها اضاعت جسدها ، فينظر اليها الله وهو يُخفي ضحكته ، لكنه يتظاهر بالغضب ،ويقول لها بصوت جهوري : « تعالي هنا ، ايتها اللعينة ! » ·

« ويبدأ الاستجواب · وتلقي الروح بنفسها على قدمي الله · وتصرخ به : « الرحمة ! سامحني ! » · وتبدأ بتعداد خطاياها · تعد ولا تنتهـــي · ويتملك الضجر الله · ويتثاءب · ويصرخ بها : « اسكتي ، فقد صدعـــت رأسي ! » · وبلمحة بصر ، يمسح بالاسفنجة كل خطاياها · ويقول لهـــا : « هيّا عني ، اغربي الى الفردوس ! يا بطرس ، ادخــل ايضــاً هــذه الفتــاة المسكينــــة ! » ·

« لأن الله ، ايها الرئيس ، يجب ان تعلم ذلك ، سيد كبير ، والنبل هو ان تغفر ! » ·

وفي ذلك المساء ، تذكرت انني كنت أضحك بينما كان زوربا منطلقاً في هذره العميق · لكن « نبل » الله هذا راح يتجسّد وينضج فيّ ، وكله اشفاق ، وكرم ، وقدرة فائقة ·

وفي مساء آخر ، بينما كانت السماء تمطر ونحن متكومان في كوخنا ، مشغولان بشيّ الكستناء في الموقد ، أدار زوربا عينيه نحوي ونظر اليّ ملياً وكأنه يريد ان يكشف سراً كبيراً • وفي النهاية ، لم يعد يستطيع • وقال :

ـ اريد ان اعرف ، ايها الرئيس ، ما الذي يمكن ان تجده عندي ؟ مـــا الذي تنتظر لتأخذني من أذني ، وتلقي بي خارجاً ؟ لقـــد قلت انهم يدعونني « مليديو » لأنني حيثما ذهبت لا اترك حجراً على حجر ••• ان اعمالك صائرة الى الدمار • القِ بي خارجاً ، اقول لك !

فأجبت :

ـ انك تعجبني • لا تطلب أكثر من ذلك •

ـ الا تفهم اذن ، ايها الرئيس ، انه ليس لمخي ثقل ! لعل عندي أكثر ، او اقل ، لكن ليس الثقل اللازم ، يقيناً لا ! اسمع ، ستفهم : ها قد مرت ايام وليالٍ منذ ان تركتني الأرملة بدون راحة • ليس من اجلي ، كلا ، اقسم لك • انا ، تلك قضية مضمونة ، لن اتعرض لها • انها ليست من اجـل منقاري ، ليأخذها الشيطان ! لكنني لا أريد أن يفقدها جميع الناس • لا أريد أن تنام لوحدها • سيكون ذلك أمراً يدعو للأسف ، ايها الرئيس ، انني لا استطيـع تحمله • اذن ، فانني اتسكع ليلا حول حديقتها • أتعرف لماذا ؟ لأرى اذا كان ثمة شخص سينام معها ، فأستطيع الاطمئنان !

واخذت أضحك •

ـ لا تضحك ، ايها الرئيس ! اذا نامت امرأة لوحدها ، فهذه خطيئتنا ، نحن الرجال • سنقدّم جميعاً الحساب يوم الدينونة الاخير • ان الله يغفـــر جميع الخطايا ، كما يقال ، ففي يده الاسفنجة ، لكن هذه الخطيئة ، لن يغفرها• يا لشقاء الرجل الذي كان يستطيع ان ينام مع امرأة ولم يفعل ! ايها الرئيس • ويا لشقاء المرأة التي كانت تستطيع أن تنام مع رجل ولم تفعـل ! تذكر مـا قالته العجوز التركية •

وصمت قليلا ثم سأل فجأة :

ـ عندما يموت الانسان ، هل يستطيع ان يعود الى الأرض بشكل آخر ؟

ـ لا اعتقد ذلك ، يا زوربا •

ـ ولا أنا • لكن لو كان يستطيع ، فان هؤلاء البشر الذين احدثك عنهم ، الذين رفضوا ان يخدموا ، ولنقل هربوا من الحب ، سيعودون الى الأرض ، أتعرف كيف ؟ مثل البغال !

وصمت من جديد وغرق في التفكير • وفجأة شعّت عيناه وقال ، وقد أثاره اكتشافه :

ـ من يعرف ، فلعل جميع البغال التي نراها اليوم في العالم ، هي هؤلاء الناس ، الغليظون ، الذين كانوا اثناء حياتهم رجـــالا ونساء دون ان يكونوا كذلك حقاً ، ولهذا انقلبوا الى بغال • ولهذا يرفسون دوماً • مـــا رأيك في ذلك ، ايها الرئيس ؟

فأجبت ضاحكاً :

ـ اظن ان عقلك يزن بالتأكيد اقل من اللازم • قم ، وتناول السانتوري •

ـ لا يوجد سانتوري هذا المساء ، ايهـــا الرئيس ، يجب الاّ تغضب • انني اتحدث ، واتحدث ، وأقول الحماقات ، أتدري لماذا ؟ لأن في رأسي هموماً عظيمة • ازعاجات كبيرة • ان النفق الجديد سيحـدث لنـــا متاعب • وانت تتحدث عن السانتوري •••

وعلى اثر ذلك ، اخرج بعض الكستناء من الرماد ، وقدّم لي قبضة منها ، وملأ كأسينا بالعرق • وقلت وانا اقرع كأسي بكأسه :

ـ ليكن الله في عوننا !

فكرّر زوربا :

ـ ليكن الله في عوننا ، اذا شئت ••• لكن ، حتى الآن ، لم يأتِ هـذا بفائدة •••

وجرع السائل الحار دفعة واحدة وتمدّد على فراشه • وقال :

ـ غداً ، سأحتاج الى قوة كبيرة • فعليّ ان اقاتل ضد الف شيطان • ليلة سعيدة !

في اليوم التالي ، عند الفجر ، نزل زوربا الى المنجم • كانوا قد حفروا نفقاً طويلا في العرق الطيب ، وراح الماء يرشح من السقف ، والعمال يغوصون في الوحل الأسود •

وكان زوربا ، منذ أول أمس ، قد جاء بالخشب ليدعم النفق • لكنه كان قلقاً • فجذوع الأشجار لم تكن ضخمة كما يجب ، وبغريزته العميقـة ، التي تجعله يحسّ بالذي يجري في تلك المتاهة الأرضية كما يحس بمـــا يجري في جسده بالذات ، كان يعلم ان التدعيم بالخشب ليس مضموناً ، ويسمع صريراً خافتاً ، لم يستطع الآخرون بعد ان يميّزوه ، وكان دعامات السقف تئن تحت الثقـل •

وثمة شيء آخر كان يزيد في قلق زوربا ، ذلك المساء ، ففي اللحظة التي كان يستعدّ فيها للنزول الى النفق ، مرّ كاهن القرية ، الاب اسطفان ، على بغله ، وهو متجه بسرعة كبيرة نحو الدير المجاور ، ليمنح الاسرار الى راهبة

تحتضر • ولحسن الحظ تمكن زوربا ان يبصق ثلاث مرات على الأرض ، قبل ان يوجه اليه الكاهن الكلام •

ورد ، بطرف أسنانه ، على تحية الكاهن :

ـ صباح الخير ، ايها الكاهن !

وبصوت أخفض تمتم :

ـ لتحلّ لعنتك علي !

ومع ذلك احس ان هـــذه الرقية ليست كافية ، ونزل ، بعصبية ، الى النفق الجديد •

كانت تفوح رائحة ثقيلة من اللينيت وغاز الاستصباح • بينما كان العمال قد بدأوا بتعزيز العضادات وتدعيم النفق ، فتمنى لهم زوربا صبـاح الخير ، وبجفاء ، وعبوس ، شمرّ عن ساعديه وبدأ يعمل •

كان اثنا عشر عاملا يفتتون العرق بضربات المعاول ، ويجمعون الفحم عند اقدامهم ، فينقله عمال آخرون بالرفش الى عجلات يدوية صغيرة ، ويحملونه خارجاً •

وتوقف زوربا فجأة وأشار الى العمال أن يفعلوا مثله واصـاخ سمعه • وكما يتحد الفارس بحصانه ويشكل معه كلا واحداً مثل القبطـان وسفينته ، كذلك كان حال زوربا مع المنجم ، فيحسّ بالنفق وهو يتشـعب كالأوردة في جسده ، وما لم تكن كتل الفحم السوداء تستطيع أن تحس به ، كان زوربـــا يحس به بصفاء بشري واعٍ •

وراح يتنصت ، وقد مد أذنه الكبيرة المليئة بالشعر • وفي تلك اللحظـة وصلت • وكنت قد استيقظت قافزاً ، وكأن نذيراً ما ، كأن يـــداً دفعتني • ولبست بسرعة ووثبت خارجاً ، دون ان أدري لمَ أنا مستعجل هكذا ولا الى اين اذهب ، لكن جسدي أخذ ، دون تردد ، طريق المنجم • ووصلت في اللحظة التي كان زوربا يرهف فيها أذنه ، قلقاً ، لينصت •

وقال بعد لحظة :

ـ لا شيء ••• خيل الي ••• الى العمل ، ايها الأولاد !

والتفت ، ورآني ، وزمّ شفتيه :

ـ ما الذي تفعله هنا ، باكراً جداً ، ايها الرئيس ؟

واقترب مني وهمس :

ألا تصعد لاستنشاق الهواء ، ايها الرئيس ؟ عد في يوم آخر الى هنـــا لتقوم بنزهتك القصيرة •

ـ ما الذي يجري ، زوربا ؟

ـ لا شيء ··· لقد تخيلت أشياء · رأيت كاهناً في الصباح الباكر · اذهب !

ـ اذا كان هناك خطر ، أفليس من العار أن اذهب ؟

فأجاب زوربا :

ـ نعم ·

ـ أكنت ذهبت ، أنت ؟

ـ كلا ·

ـ اذن ؟

فقال بعصبية :

ـ ان التدابير التي آخذها من أجل زوربا ، ليست نفسها من أجل الآخرين · لكن ما دمت قد فهمت ان من العار ان تذهب ، فلا تذهب اذن · ابقَ · على رسلك !

وأخذ مطرقته ، وانتصب على اطراف قدميه وراح يثبت بمسامير ضخمة خشب السقف · وتناولت من فوق احدى العضادات مصباحاً بغاز الاستصباح ، ورحت اذهب واجيء في الوحل ، وانا انظر الى العرق الاسمر القاتم اللامع · لقد دفنت هنا غابات شاسعة ، وانقضت آلاف السنين ، ومضغت الأرض ، وهضمت ، وحولت اطفالها · واصبحت الاشجار لينيتاً ، واللينيت فحماً ، وجاء زوربا ···

اعدت المصباح الى مكانه ونظرت الى زوربا وهو يعمل · كان منصرفاً بكليته الى الشغل ، وذهنه خلو من شيء آخر ، وهو متحد بالأرض والمعول والفحم · لقد انقلب هو والمطرقة والمسامير الى جسد واحد ، ليناضل ضد الخشب · وكان يتألم مع سقف النفق الذي يتكور · كان يناضل ضد الجبل كله ليمسك الفحم بالحيلة ، بالعنف · ان زوربا يشم المادة بثقة لا تخطيء ، ويضربها دون ان يخطيء ، في مواطن الضعف التي يمكن ان تقهر منها · وبدا لي ، كما رأيته في تلك اللحظة ، متسخاً ، مليئاً بالغبار ، لم يبقَ فيه موضع ابيض سوى عينيه ، وكأنه تنكرّ بالفحم ، واصبح فحماً ، كي يستطيع بسهولة أكبر ان يقترب من الخصم ويدخل الى تحصيناته ·

وصحت ، وقد امتلكني اعجاب ساذج :

ـ هيا ، يا زوربا الشجاع !

لكنه لم يلتفت · كيف يمكنه ان يتحدث في هذه اللحظة مع فأر قارض

للورق ، يمسك في يده ، بدلا من المعول ، طرف قلم صغير ؟ كان مشغولا ، لا يتنازل للحديث • لقد قال لي ذات مساء : « لا تحدثني عندما اشتغل ، فقد اطق • ـ تطق ، لماذا يا زوربا ؟ ـ ها قد عدت الى « لماذا » • مثل غلام • كيف اشرح لك ؟ انني غارق في العمل بكليتي ، اكون متوتراً ، متصلباً ، من اصابع قدمي حتى رأسه ، ملتصقاً بالصخر أو بالفحم ، أو بالسانتوري • فاذا ما لمستني فجأة ، اذا ما حدثتني والتفت ، فانني قد اطق • هكذا » •

ونظرت الى ساعتي : انها العاشرة • فقلت :

ـ حان وقت الافطار • لقد تأخرتم عن الموعد •

وسرعان ما القى العمال بأدواتهم في زاوية ، وجففوا العرق عن وجوههم ، واستعدوا للخروج من النفق • لكن زوربا لم يسمع شيئاً ، لأنه كان غارقاً في العمل • ولو سمع ، لما تحرك • واصاخ سمعه من جديد ، قلقاً • وقلت للعمال :

ـ انتظروا ، هاكم سيجارة !

وبحثت في جيوبي ، وكان العمال حولي ينتظرون •

وفجأة وثب زوربا • والصق اذنه بجدار النفق • وعلى ضوء غاز الاستصباح لمحت فمه المفتوح متشنجاً • وصرخت :

ـ ماذا بك ، زوربا ؟

لكن ، في تلك اللحظة ، خيل الينا ان سقف النفق كله قد رجف فوقنا • وصرخ زوربا بصوت مبحوح :

ـ اهربوا ! اهربوا !

واسرعنا نحو المخرج ، لكن ما ان بلغنا العضادة الأولى حتى سمعنا ، فوق رؤوسنا ، طقطقة أخرى اقوى • وكان زوربا ، في تلك الاثناء ، يرفع جذع شجرة ضخمة ليدعم به العضادة التي أخذت تتخاذل • واذا استطاع ان يفعل ذلك بسرعة ، فلعله سيسند السقف ، بضع ثوانٍ ، ويمنحنا الوقت الكافي لنهرب •

وصرخ زوربا ثانية بصوت اصم ، هذه المرة ، وكأنه خارج من احشاء الأرض :

ـ اهربوا !

واسرعنا جميعاً ، بذلك الجبن الذي يتملك الرجال غالباً في اللحظات الحرجة الى الخارج ، دون ان نهتم بزوربا • لكن بعد بضع لحظات استطعت ان اهدىء روعي وانطلقت نحوه ، وصرخت :

ـ زوربا ! زوربا !

لقد خيِّل الي انني صرخت ، لكنني فهمت بعد ذلك ان الصرخة لم تخرج من حنجرتي • لقد خنق الرعب صوتي •

وتملكني الخجل • وتراجعت خطوة الى الوراء ومددت ذراعي • كان زوربا قد انتهى من تدعيم العضادة الضخمة ، ثم زحف في الوحل ، وقفز نحو المخرج، شبه المظلم • وسقط علي ، بسبب اندفاعه • وعلى دون ارادة منا ، سقط كلانا بين ذراعي الآخر •

وصاح بصوت مخنوق :

ـ لنهرب ! لنهرب !

ورحنا نركض ووصلنا الى الضوء • وكان العمال المتجمعون عند المدخل يترقبون ، شاحبين ، دون كلام •

وسمعنا طقطقة ثالثة ، اقوى ، كطقطقة شجرة حطّمتها العاصفة • وفجأة انفجر هدير قوي ، وتعالى مزمجراً كالرعد ، وهزّ الجبل ، وانهار النفق •

وتمتم العمّال وهم يرسمون اشارة الصليب :

ـ ياللرحمة الالهية !

وصرخ زوربا غاضباً :

ـ أتركتم معاولكم ، في الداخل ؟

فصمت العمال • فصرخ من جديد ، مغيظاً :

ـ لماذا لم تأخذوها ؟ لقد فعلتموها في سراويلكم ، أيها الشـــجعان ! يا حسرتي على الادوات !

فقلت متدخلا :

ـ أهذا هو الوقت لنهتم بالمعاول ، يا زوربا ! لنفرح لأن احداً لم يصب بأذى ! اننا مدينون لك بشمعة كبيرة ، يا زوربا ، فبفضلك انت نحن لا نزال احيـــاء •

فقـال زوربـا :

ـ انني جائع • لقد هدّني الحادث •

وأخذ كيسه الذي فيه افطاره ، ووضعه على صخرة ، وفتحه ، واخـــرج خبزاً ، وزيتوناً ، وبصلا ، وبطاطة مسلوقة ، وكوز خمر صغيراً •

وقـال ، وفمه ممتلىء :

ـ هيا ، افطروا ، أيها الرفاق !

كان يبلع بشراهة ، بسرعة ، كأنه فقد فجأة كثيراً من القوى فهو يريد ان

يعوّض عنها ٠

وأكل بصمت ، محني الظهر ، وأخذ الكوز ، والقى برأسه الى الوراء وصبّ الخمر في حلقومه اليابس ٠

وتشجّع العمال أيضاً ، وفتحوا زواداتهم وبدأوا يأكلون ٠ كانوا جميعاً قد جلسوا ، متربعين حول زوربا ، يأكلون وهم ينظرون اليه ٠ لقد ودوا لو يلقون بأنفسهم على قدميه ، ويقبلون يديه ، لكنهم كانوا يعلمون انه سريع الغضب ، غريب المزاح ، ولم يجرؤ أي واحد منهم على البدء بذلك ٠

في النهاية ، حزم ميشيليس أمره ، وهو أكبرهم سناً ، وله شاربان رماديان ، وتكلم قائلا :

ـ لو لم تكن موجوداً ، أيها المعلم الكسيس ، لكان اطفالنا قد اصبحوا ايتاماً الآن ٠

فقال زوربا وفمه مليء :

ـ اطبق فمك !

ولم يجرؤ احد على التفوه بكلمة واحدة ٠

- ١٠ -

« من الذي خلق اذن تلك المتاهة من الشك ، ذلك المعبد من الخيلاء ، ذلك الدن من الخطايا ، ذلك الحقل المزروع بألف خدعة ، ذلك الباب المؤدي الى جهنم ، تلك السلة الطافحة بالأكاذيب ، ذلك السم الذي يشبه العسل ، تلك السلسلة التي تربط الأنام بالأرض : المرأة ! » ·

كنت انسخ ، ببطء ، بصمت ، هذا النشيد البوذي ، وانا جالس على الأرض ، قرب الموقد المشتعل ، ورحت اجهد ، آخذاً برقية تلو رقية ، لطرد جسد مبلل بالمطر من ذهني ، كان يتبختر ، ويمر ويمر ، طيلة ليالي الشتاء تلك ، امامي في الهواء الرطب · ولست ادري ، على اثر انهيار النفق ، اذ كادت روحي تنتهي ، كيف انبجست الأرملة في دمي ، وراحت تناديني ، كحيوان مفترس ، بلهجة آمرة ، مليئة بالتأنيب · كانت تصرخ :

ــ تعالَ ، تعالَ ! ليست الحياة الا كالبرق ، سريعة الزوال · تعال مسرعاً ، تعالَ ، تعالَ ، قبل ان يفوت الأوان !

كنت اعلم جيداً ان هذا هو « مارا » ، روح الشر ، يتستر في جسد امرأة، قوية الردفين · وكنت أقاوم · ورحت اكتب « بوذا » ، كما كان المتوحشون يرسمون في مغاورهم بحجر مدبب أو يصورون بالاحمر والابيض الحيوانات المفترسة التي تجول حولهم جائعة · كانوا يحاولون ، هم ايضاً ، ان يثبتوها ، برسمها وتصويرها ، على الصخرة ، ولو لم يفعلوا ذلك لانقضَّت عليهم ·

منذ اليوم الذي كدت أُسحق فيه ، والارملة تمر في فضاء وحدتي الملتهب، وتشير اليّ وهي تهزّ كشحيها بتلذذ · في النهار ، اكون قوياً ، متيقظ الذهن ، فأستطيع طردها · واكتب كيف تمثَّل المجرب لبوذا ، وكيف تسترّ في ثياب امرأة ، وكيف اسند ثدييه المشرئبين الى ركبتي الناسك ، واخيراً ،

كيف رأى بوذا الخطر ، فاستنفر كل كيانه واضطر ابليساً الى الهرب · واتمكن ، انا أيضاً ، من اضطرارها الى الهرب ·

كانت الطمأنينة تعود اليّ ، عند كل كلمة اكتبها ، واتشجّع ، واشعر بابليس وهو ينسحب ، مطروداً بقوة الرقية الفائقة : الكلمة · كنت اناضل ، نهاراً ، بكل قواي ، لكن عقلي ، يضع سلاحه ، ليلا ، وتنفتح الابواب الداخلية وتدخل الارملة ·

واستيقظ ، صباحاً ، منهكاً ، مقهوراً ، وتبدأ الحرب من جديد · أحياناً ارفع رأسي ، فأرى النهار قد أوشك على الغروب ، والنور يتراجع مطارداً ، وتنهار الظلمة فوقي فجأة · كان النهار يتقاصر باستمرار · واقترب عيد الميلاد ، واندفعت في المعركة وانا اقول في نفسي : « انني لست بمفردي · ان قوة كبيرة ، النور ، تحارب ، هي أيضاً ، فتارة تنتصر وطوراً تغلب ، لكنها لا تيأس · وانا أحارب وآمل معها ! » ·

وخيّل اليّ ، وقد شجعني ذلك ، انني اخضع لنغم كوني كبير بنضالي ضد الارملة · وكنت اقول في نفسي : « هذا هو الجسد الذي اختارته المادة المخاتلة لتقهر بهدوء الشعلة الحرّة التي تتصاعد فيّ ولتطفئها » · واقول ايضاً : « الهية هي القوة التي لا تفنى ، والتي تحول المادة الى روح · ان في كل انسان جزءاً من هذه الدوامة الالهية ، ولهذا فهو ينجح في تحويل الخبز والماء واللحم الى فكر وعمل · ان زوربا على حق : قل لي ماذا تفعل بما تأكله ، اقل لك من انت ! » ·

رحت اذن اجهد ، بمشقة ، في تحويل رغبة الجسد العنيفة هذه الى « بوذا » · وقال لي زوربا ، ذات مساء عشية الميلاد ، وكان يشك في الشيطان الذي احارب ضده :

ــ فيمَ تفكر ؟ انك لا تبدو على ما يرام ، ايها الرئيس ·

وتظاهرت بأنني لم اسمع · لكن زوربا ما كان ليستسلم بسهولة ، فقال :

ــ انك شاب ، ايها الرئيس ·

وفجأة ، رنّ صوته مريراً غاضباً :

ــ انك شاب ، قوي ، تأكل جيداً ، تشرب جيداً ، تتنشق هواء البحر المنعش ، تكدّس قواك ، وماذا تفعل بكل ذلك ؟ انك تنام لوحدك · هذا يدعو للأسف ! هيا ، هذا المساء بالذات ، لا تضع الوقت ، كل شيء في العالم

بسيط ، ايها الرئيس · كم مرة يجب ان اكرّر عليك ذلك ؟ فلا تعقّد اذن كل شيء !

كان مخطوط « بوذا » مفتوحاً امامي ، ورحت اقلبه ، مصيغاً الى كلمات زوربا ، وانا عالم انها تفتح درباً اميناً · ومعها ، كانت ايضاً روح مارا ، الوسيط المخاتل ، تنادي ·

واصغيت له ، دون ان افوه بكلمة ، عازماً على المقاومة ، وانا اقلّب ببطء المخطوط ، وأصفر كي اخفي اضطرابي · لكن زوربا ، وقد رآني صامتاً ، انفجر :

ـ انها ليلة الميلاد ، هذا المساء ، يا صديقي ، اسرع ، واذهب لتجدها قبل ان تذهب الى الكنيسة · في هذا المساء يولد المسيح ، فقم بمعجزتك ، أيها الرئيس ، انت أيضاً !

ونهضت ، متضايقاً ، وقلت :

ـ هذا يكفي ، يا زوربا · ان كل انسان يتبع طريقه الخاص · ان الانسان ، اعلم ذلك ، شبيه بالشجرة · هل سعيت ذات مرة الى خصام شجرة تين لأنها لا تحمل كرزاً ؟ اذن ، اصمت ! ان الساعة تقارب منتصف الليل ، فهيا الى الكنيسة ، لنرى ، نحن أيضاً ، ولادة المسيح ·

ووضع زوربا على رأسه قبعته الشتوية الضخمة ، وقال سئماً :

ـ حسناً ! هيا! لكنني اصرّ على ان اعلمك ان الله سيُسر أكثر لو ذهبت هذا المساء الى الارملة ، مثل الملاك جبريل · ولو سار الله في نفس الطريق الذي سرت فيه ، أيها الرئيس ، لما ذهب ابداً الى مريم ولما ولد المسيح · ولو سألتني في أي طريق سار الله ، لقلت لك : في الطريق الذي يؤدي الى مريم · ومريم ، هي الارملة ·

وسكت منتظراً الجواب ، لكن عبثاً · وفتح الباب بقوة ، وخرجنا · وأخذ يضرب ، بطرف عصاه ، الحصى ، بنفاد صبر · وكرّر بعناد :

ـ نعم ، نعم ، ان مريم هي الارملة !

فقلت :

ـ هيا ، سر ! لا تصرخ !

ومشينا ، بخطى سريعة ، في الليلة المشتية · كانت السماء صافية الى حد مدهش ، والنجوم تلمع ، ضخمة ، واطئة ، مثل كرات نارية معلقة في الفضاء · وكان الليل يزداد هديراً ، كلما تقدمنا على طول الشاطىء ، مثل حيوان اسود كبير ممدد على ساحل البحر ·

وقلت في نفسي : « بدءاً من هذا المساء ، سيأخذ النور الذي زحمه الشتاء ، في التغلب · وكأنه يولد في هذه الليلة مع الطفل الاله » ·

كان القرويون جميعاً قد تجمعوا في خلية الكنيسة الدافئة العبقة · الرجال في المقدمة ، وفي الخلف النساء ، وقد صلبن اذرعهن · وكان الكاهن اسطفان ، الطويل ، وقد احنقه صومه أربعين يوماً ، يجري ، هنا ، وهناك ، مرتدياً حلته الذهبية الثقيلة ، بخطى عريضة ، يحرك المبخرة ، يغني بأعلى صوته ، مستعجلا رؤية ولادة المسيح والعودة الى بيته ليرتمي على الحساء الدسم ، والنقانق واللحوم المدخنة ···

لو قالوا : « اليوم يولد النور » ، لما هزّ ذلك قلب الانسان ، ولما اصبحت الفكرة اسطورة ولما غزت العالم · انها ما كانت لتعبر الا عن ظاهرة فيزيائية عادية ولما أثارت مخيلتنا ، اقصد روحنا · لكن النور الذي يولد في قلب الشتاء اصبح طفلا ، واصبح الطفل الهاً ، وها قد انقضى عشرون قرناً وروحنا تحتفظ به في صدرها وترضعه ···

بعد منتصف الليل بقليل ، انتهى الاحتفال الصوفي · لقد ولد المسيح · واسرع القرويون الى منازلهم ، جائعين ، فرحين ، ليصفوا الموائد ويحسوا حتى اعمق بطونهم بسر التجسد · ان البطن هي الاساس المتين ، فالخبز والخمر واللحم قبل كل شيء ، ولا يمكن الا بالخبز والخمر واللحم خلق الله ·

كانت النجوم تلمع ، كبيرة كالملائكة ، فوق قبة الكنيسة البيضاء · وكان درب المجرة ، مثل نهر ، يجري من طرف السماء الى طرفها الآخر · وتلألأت نجمة خضراء ، فوقنا كأنها زمردة · وتنهدت ، قلقاً ·

والتفت زوربا نحوي :

ـ أتؤمن بذلك ، أيها الرئيس ، اتؤمن بأن الله قد أصبح انساناً وولد في اصطبل ؟ أتؤمن بذلك ام انك تسخر من الناس ؟

فقلت :

ـ من الصعب اجابتك ، يا زوربا · لا استطيع ان اقول لك انني أؤمن بذلك ولا انني لا أؤمن · وانت ؟

ـ بالحق ، انني ، أنا أيضاً ، لست ادري · عندما كنت غلاماً ، لم اكن أؤمن مطلقاً بقصص الجنيات التي ترويها جدتي ، ومع ذلك ، كنت ارتعد من الانفعال ، واضحك ، وابكي ، وكأنني أؤمن بها · وعندما نبتت لي لحية في ذقني ، اهملت كل تلك القصص ، بل سخرت منها أيضاً · لكن ، ها انا الآن ،

أيها الرئيس ، في أيامي الأخيرة ، ألين وأؤمن بها من جديد ٠٠٠ يا للانسان من آلة غريبة !

وسرنا في الطريق المؤدي الى منزل السيدة هورتانس ، وحثثنا الخطا ، كأننا حصانان جائعان استنشقا رائحة الاصطبل ٠ وقال زوربا :

ـ انهم في غاية الخبث ، آباء الكنيسة أولئك ! انهم يأخذونك من بطنك ، فكيف تستطيع ان تفلت منهم ؟ انهم يقولون ان عليك الا تأكل لحماً ، ولا تشرب خمراً ، خلال أربعين يوماً : انه الصوم ٠ لماذا ؟ كي تشتهي اللحم والخمر ٠ آه ! يا لهم من خنازير سمينة ، تعرف كل الحيل !

وحث خطاه وقال :

ـ اسرع ، ايها الرئيس ، فلا بد ان الدجاجة الهندية قد نضجت !

عندما دخلنا الى غرفة سيدتنا الطيبة الصغيرة ، بسريرها الكبير المغري ، كانت المائدة مغطاة بسماط أبيض ، والدخان يتصاعد من الدجاجة ، وقد امتدت اطرافها الى الاعلى متباعدة ، ومن الموقد المشتعل تأتي حرارة بالغة العذوبة ٠

كانت السيدة هورتانس قد عقدت شعرها خصلا وارتدت روب ديشامبر طويلا له وردة قديمة وكمان عريضان وتخاريم منسلة ٠ وكان يحيط بعنقها المجعدة ، في ذلك المساء ، شريط عرضه أصبعان ، لونه أصفر كناري ، وقد ضمخت ابطيها بماء زهر البرتقال ٠

وقلت في نفسي : « ما اشد انسجام كل شيء فوق هذه الأرض ! ما اشد انسجام الأرض مع القلب البشري ! هي ذي هذه المغنية العجوز تسقط الآن ، بعد ان طافت في كل مكان ، فوق هذا الساحل المنعزل ، فتجمع في هذه الغرفة الحقيرة كل اعتناء المرأة المقدس وحرارتها » ٠

الطعام الغزير المعتنى به ، والموقد المشتعل ، والجسد المزين ، المتبرج ، وعطر ازهار البرتقال ٠٠٠ كيف تتبدل كل هذه المتع الجسدية البالغة الانسانية ، وبأية بساطة وسرعة ، الى فرحة للروح عارمة ٠

وفجأة ، امتلأت عيناي بالدموع ٠ وشعرت بأنني لم أكن ، في هذه الليلة الحافلة ، وحيداً ، هنا ، على ساحل البحر المقفر ٠ كان ثمة مخلوق انثوي يتقدم نحوي ، مليئاً بالاخلاص ، وبالحنان والصبر : انها الام ، الاخت ، المرأة ٠ وأحسست فجأة ، أنا الذي كان يظن انه لا يحتاج الى شيء ، انني محتاج الى كل شيء ٠

ولا بد ان زوربا ، بدوره ، قد احس بهذا الانفعال العذب ، لأننا ما كدنا

تدخل ، حتى اندفع واخذ بين ذراعيه المغنية المتبرجة . وهتف :
ــ لقد ولد المسيح ! السلام لك ، ايتها المرأة !
والتفت نحوي ضاحكاً :
ــ انظر قليلا الى المخلوق المحتال الذي هو المرأة ! لقد تمكنت من اغراء الله بالذات !
وجلسنا الى المائدة ، وارتمينا على الصحاف ، وشربنا من الخمر ، واحس جسدنا بأنه قد شبع ، وارتعدت روحنا من الغبطة . ومن جديد ، اشتعل زوربا ، وراح يصرخ بي كل لحظة :
ــ كل واشرب ، كل واشرب ، ايها الرئيس ، وامرح . غنِّ ، انت ايضاً ، يا رفيقي ، غنِ كالرعاة : « المجد لله في العلى ! ... » . لقد ولد المسيح ، وليس هذا بالشأن القليل . اطلق اغنيتك ، كي يسمعك الرب ويتهلل !
لقد عاد اليه حبوره وانطلق :
ــ لقد ولد المسيح ، يا كاتبي ، يا عالِمي الكبير . لا تصدع رأسك : أولد أم لم يولد ؟ لقد ولد ، يا صديقي ، فلا تتحامق ! اذا اخذت عدسة مكبرة لتنظر الى الماء الذي تشربه ــ لقد قال لي ذلك مهندس ــ فسترى ان الماء مليء بالديدان ، الصغيرة جداً ، التي لا ترى بالعين المجردة . سترى الديدان ولن تشرب . لن تشرب وستفطس من العطش . حطم العدسة ، ايها الرئيس ، حطمها حتى تختفي الديدان الصغيرة فوراً فتستطيع ان تشرب وترتوي !
والتفت نحو رفيقتنا المزججة ، وقال وهو يرفع كأسه :
ــ انني سأشرب هذه الكأس ، يا بوبولينا العزيزة جداً ، يا رفيقتي القديمة في المعركة ، في صحتك ! لقد رأيت ، في حياتي ، عدداً لا بأس به من وجوه مقدمات السفن ، انها تسمر في مقدمة المركب ، ممسكة بأثدائها ، وخدودها وشفاهها مطلية بالأحمر الناري . لقد طافت في كل البحار ، ودخلت الى جميع المرافىء ، وعندما يبلى المركب ، تهبط الى الأرض المتينة وتظل مستندة حتى نهاية ايامهابجدار حانة للبحارة يأتي اليها القباطنة ليشربوا .
« يا بوبولينتي ، انك في هذا المساء الذي أراك فيه ، على هذا الشاطىء ، بعد أن أكلت جيداً ، وشربت جيداً ، وتفتحت عيناي ، تبدين لي كوجه مقدمة سفينة كبيرة . وانا مرفئك الأخير ، يا دجاجتي ، انا الحانة التي يأتي اليها القباطنة ليشربوا . تعالي ، واستندي الي ، وهلمي بأشرعتك ! انني أشرب هذه الكأس من الخمر ، يا جنيتي ، في صحتك !
وأخذت السيدة هورتانس تبكي ، منفعلة ، مضطربة ، واستندت الى كتف زوربا . وهمس زوربا في أذني :

ـ سترى كيف ستحصل لي ازعاجات ، بسبب خطابي الجميل ۰ انها لن تتركني هذا المساء ، العاهرة ! لكن ماذا تريد : انني أشفق عليهن ، المسكينات ، نعم ، انني اشفق عليهن !

وصرخ بملء قوته بجنَّيته :

ـ لقد ولد المسيح ! في صحتنا !

وأمرّ ذراعه تحت ذراع السيدة الطيبة ، وافرغ الاثنان كأسيهما بجرعة واحدة ، متعانقين ، وهما يتبادلان النظرات بنشوة ۰

لم يكن الفجر بعيداً عندما تركت بمفردي الغرفـــة الصغيرة الدافئـــة بسريرها الكبير وسرت في درب العودة ۰ لقد احتفلت كل القرية ، وها هي الآن تنام ، والأبواب والنوافذ مغلقة ، تحت نجوم الشتاء الضخمة ۰

كان الطقس بارداً ، والبحر يهدر ، ونجمة الزهرة معلقة عند الشرق ، تتراقص ، عنيدة ۰ ومشيت على طول الشاطيء ، ألاعب الامــــواج : كـــانت تنقضّ علي لتبللني ، فأفلت منها ، كنت سعيداً اقول لنفسي :

« تلك هي السعادة الحقيقية : الاّ يكون لي اي مطمــــح ، وان اشتغل كعبد ، وكأن عندي كل المطامح ۰ ان اعيش بعيداً عن البشر ، الاّ احتاج اليهم وأحبهم ۰ ان اكون في عيد الميلاد ، وبعد أن أشرب هنيئاً وآكل مريئاً ، اهــرب بنفسي بعيداً عن كل فخ ، وفوقي النجوم ، والأرض عن يساري ، والبحر عن يميني ، وفجأة أتبين ان الحياة قد أتمت في قلبي معجزتها النهائية : انها قد أصبحت قصة من قصص الجنيات » ۰

وتمضي الايام ۰ كنت اتظاهر بالقوة والشجاعة ، لكنني كنت احس في اعمق أعماق قلبي بأنني حزين ۰ طيلة اسبوع الاعياد هذا ، صعدت الذكريات ، مالئة صدري بموسيقى بعيدة وبمخلوقات حبيبة ۰ ومرة اخرى بدت لي عدالة الاسطورة القديمة : ان قلب الانسان عبارة عن حفرة مليئـــة بالـــدم ، وعلى اطراف هذه الحفرة يرتمي الأموات الاحياء على بطنهم ليلعقوا الدم وتعود الحياة اليهم ، وكلما كانوا عزيزين عليك اكثر ، شربوا من الدم اكثر ۰

وفي ليلة رأس السنة ، جاءت عصابة من غلمان القرية ، يحملون مركباً كبيراً من الورق ، حتى كوخنا ، وبدأوا ، بأصواتهم الحادة والمرحة ، ينشدون أغنية « الكالاندا (١) » : لقد وصل القديس باسيل من مسقط رأسه ، مـــن مدينة قيصرية ، ووقف هنا ، امام هذا الشاطيء الكريتي الصغير بلونه الازرق النيلي ، ثم اتكأ على عكازه ، وسرعان ما امتلأ العكاز بالأوراق،والازهار،وتعالت

١ ـ اغنية شعبية يونانية عن رأس السنة ۰ (هـ۰م)

انشودة رأس السنة : « ليمتلىء مسكنك ، ايها المعلم ، بالقمح ، بزيت الزيتون والخمر ، ولتدعم امرأتك ، كعمود من رخام ، سقف بيتك ، ولتتزوج ابنتك وتلد تسعة صبيان وفتاة ، وليحرّر ابناؤك القسطنطينية ، مدينة ملوكنا ! سنة طيبة ، ايها المسيحيون ! » ٠

كان زوربا يصغي ، مفتوناً ، ثم أمسك بطبل الاطفال الصغير ، وراح يقرعه مسعوراً ٠

كنت انظر ، واصغي ، دون ان اقول شيئاً ٠ واحسست بقلبي تنفصل عنه ورقة اخرى ، سنة أخرى ٠ وتقدّمت خطوة اخرى نحو الحفرة السوداء ٠

وسأل زوربا الذي كان يغني بأعلى صوته مع الصبيان ، ويضرب على الطبل :

ـ ماذا بك ، ايها الرئيس ؟ ماذا بك ، ايها الرفيق ؟ ان لونك بلون الارض ،، لقد شخت ، ايها الرئيس ٠ انني ، في مثل هذه الايام ، اعود من جديد صبياً صغيراً ، انني اولد ثانية ، كالمسيح ٠ الا يولد ، هو ، في كل السنين ؟ وانا كذلك ٠

وتمدّدت على سريري واغلقت عيني ٠ لقد كان قلبي مستوحشاً هذا المساء ، لا أريد التكلم ٠

ولم استطع النوم ٠ ومرّت كل حياتي امام عيني من جديد ، سريعة ، غير منسجمة ، مترددة ، كحلم ورحت انظر اليها يائساً ، وكأن عليّ ان أؤدي الحساب ، هذا المساء ، عن كل اعمالي ٠ ومثل غيمة زغباء ، تسفعها رياح الاعالي ، راحت حياتي يتبدل شكلها ، تنحل ، وتتركب من جديد ٠ كانت تمسخ ـ بجعاً ، كلباً ، شيطاناً ، عقرباً ، قرداً ـ وراحت الغيمة تتمزّق ، وتتفرّق بلا انقطاع ، مليئة بقوس قزح بالريح ٠

وطلع النهار ٠ لم افتح عيني ، بل حاولت ان اركز رغبتي الآسرة ، في تحطيم قشرة المخ والدخول الى القناة المظلمة الخطرة حيث تختلط كل نقطة بشرية بالمحيط الكبير ٠ كنت اود لو يتمزق هذا الحجاب بسرعة لأرى ما تحمله لي السنة الجديدة ٠٠٠

ـ صباح الخير ، ايها الرئيس ، سنة طيبة !

وألقاني صوت زوربا بوحشية فوق الارض المتينة من جديد ٠ وفتحت عيني ، ولمحت زوربا وهو يلقي على عتبة الكوخ برمانة كبيرة ٠ وتطايرت الياقوتات الطازجة حتى سريري ، فجمعت بعضها ، وأكلتها ، وترطّب حلقي ٠ وصرخ زوربا بمرح :

ـ انني اتمنى لنا ان نربح كثيراً وان تخطفنا فتيات جميلات !

ونهض ، وحلق ، وارتدى أجمل ثيابه ـ سروالا من الجوخ الاخضر ، وسترة من الصوف الخشن الاسمر ، وصدرة مصنوعة من وبر الماعز نصف منجردة · ووضع ايضاً قبعته الصوفية الروسية ، ورفع شاربه وقال :

ـ سأظهر ، أيها الرئيس ، في الكنيسة ، كممثل للشركة · ليس من مصلحة المنجم ان يقال عنا اننا ماسونيان · لن أخسر شيئاً ، أليس كذلك ! ثم انني سأمضي الوقت ·

وحنى رأسه وغمز بعينه متمتماً :

ـ ولعلني سأرى ايضاً الارملة ·

ان الله ، ومصالح الشركة ، والارملة الجميلة ، تشكل خليطاً منسجماً في ذهن زوربا · وسمعت خطاه الخفيفة تبتعد ، ووثبت قائماً · لقد زال السحر ، وعادت روحي من جديد الى سجن الجسد ·

* * *

ارتديت ملابسي وسرت على شاطيء البحر · كنت أمشي بسرعة ، فرحاً ، كأنني أفلت من خطر او اثم · وبدت لي فجأة رغبتي المكشوفة عند الصباح في التجسس على المستقبل والامساك به قبل ان يولد ، كأنها انتهاك للقدسيات ·

انني أذكر صباح يوم اكتشفت فيه شرنقة في قشرة شجرة ، في اللحظة التي كانت فيها الفراشة تحطّم الغلاف وتتهيأ للخروج · وانتظرت فترة طويلة، لكنها تأخرت ، وكنت مستعجلا · وبعصبية ، انحنيت واخذت ادفئها بأنفاسي · كنت ادفئها ، بنفاد صبر ، وبدأت المعجزة تتم أمامي ، بأسرع مما تتم عادة · وانفتح الغلاف ، وخرجت الفراشة تجرّ نفسها جراً ، ولن انسى مطلقاً الشناعة التي شعرت بها عندئذ ، فجناحاها لم يكونا قد تفتّحا بعد ، وراحت تحاول بكل جسدها الصغير المرتعد ان تنشرهما · واخذت اساعدها بأنفاسي ، وانا منحنٍ فوقها · لكن عبثاً · كان لا بد لها من نضج بطيء ، ولا بد للأجنحة من ان تنمو ببطء تحت الشمس ، اما الآن فقد فات الأوان · لقد اجبرت انفاسي الفراشة على الظهور ، مثخنة ، قبل موعدها وارتجفت يائسة ، وبعد عدة ثوانٍ ماتت في راحة يدي ·

هذه الجثة الصغيرة هي اشد ما يثقل على ضميري ، على ما اعتقد · لأن اغتصاب القوانين الكبرى ، وانا افهم الآن ذلك جيداً ، خطيئة مميتة · يجب الاّ نستعجل ، الاّ نفقد الصبر ، وان نتبع بثقة النسق الابدي ·

وجلست على صخرة لأتمثل بهدوء فكرة رأس السنة هذه · آه ! لو تستطيع هذه الفراشة الصغيرة ان تطير أمامي من جديد وتهديني الى الطريق !

- ١١ -

استيقظت فرحاً وكأنني امسك بهدايا العيد • وكانت الريح باردة ، والسماء صافية والبحر يلمع •

وسرت في درب القرية • لا بد ان القداس قد انتهى • وبينما أنا اتقدم ، تساءلت في نفسي بقلق لا مبرر له عمن سيكون الشخص الأول – أيجلب الحظ ؟ ام الشؤم ؟ – الذي سأراه في بداية هذه السنة • وقلت في نفسي : لو يكون طفلا صغيراً ، يحمل لعب رأس السنة بين ذراعيه ، أو شيخاً صلباً يرتدي قميصاً أبيض عريض الكمين ، مطرزهما ، مغتبطاً وفخوراً لأنه ادى واجبه على الأرض بشجاعة ! وكلما تقدمت واقتربت من القرية ، كان هذا القلق الذي لا مبرر له يزداد •

وفجأة تخاذلت ركبتاي ، فعلى طريق القرية ، تحت اشجار الزيتون ، ظهرت الارملة ، وهي تسير بخطا متوازنة ، عاقدة منديلها الاسود على رأسها ، وقد احمر جلدها ، رشيقة مندفعة •

كانت مشيتها المتهادية تشبه عن حق مشية نمرة سوداء ، وخيّل الي ان رائحة مسك حادة تعبق في الجو • لو استطيع الهرب ! قلت ذلك في نفسي • وشعرت ان هذا الحيوان الحانق لا يرحم وان النصر الوحيد الممكن تجاهه هو الهرب • لكن كيف اهرب ؟ كانت الارملة تقترب • وخيّل اليّ ان الحصباء تصرّ وكأن جيشاً يمر فوقها • ولمحتني ، وهزّت برأسها ، وانزلق منديلها ، وظهر شعرها ، لامعاً ، بلون الفحم • ورمقتني بنظرة ذابلة وابتسمت • كان في عينيها عذوبة وحشية • وبسرعة كبيرة اصلحت من وضع منديلها ، وكأنها خجلت من أنها تركت سر المرأة العميق يظهر : شعرها •

وددت لو احدثها ، واتمنى لها « سنة طيبة » ، لكن حنجرتي كانت جافة ، جفافها يوم انهار النفق وتعرضت حياتي للخطر ، واضطرب القصب الذي

يتشكل منه سياج حديقتها · وسقطت شمس الشتاء على الليمـــون الذهبي والبرتقال ذي الاوراق الكامدة اللون · وتلألأت الحديقة كلها كأنها فردوس ·

توقفت الأرملة ، ومدّت ذراعها ، ودفعت الباب بعنف وفتحتـه · وفي تلك اللحظة مررت امامها · والتفتت ، وتركت نظرتهـا تنساب علي ، وهي تلاعب حاجبيها ·

وتركت الباب مفتوحاً ، ورأيتها تختفي ، وهي تتمايـل على الجنبين ، وراء اشجار البرتقال ·

عليّ ان اعبر العتبة ، واغلق الباب بالمزلاج ، واركض وراءها وآخذهـا من خصرها ، ودون ان أنبس ببنت شفة اجرّها نحو سريرها الكبير ، فهذا ما يدعونه ان تتصرف كرجل ! وهذا ما كان يفعله جدي ، واتمنى لو يفعل حفيدي مثل ذلك · اما انا ، فلبثت واقفاً هنا ، ازن الأمر وافكر ···

وتمتمت وانا ابتسم بمرارة : « في حياة أخرى، في حياة أخرى سأتصرف على نحو افضل ! » ·

وابتعدت في الوادي المشجّر ، وأنا احس بثقـل على قلبي ، وكأنني ارتكبت خطيئة مميتة · وتسكعت هنا وهناك ، وكان الطقس بـارداً ، وانا ارتجف · وحاولت ان اطرد من فكري اهتزاز الارملة ، وابتسامتها وعينيها ، وصدرها ، لكنها كانت تعود بلا انقطاع ، وانقبض صدري ·

لم تكن أوراق الاشجار قد نبتت بعد ، لكن البراعم كانت قد انتفخت ، وتفتقت ، مليئة بالنسغ · وكان كل برعم يعد بأنوار ، بأزهار ، بثمار قادمة ، لا تزال خبيئة متجمعة ، مستعدة للانطلاق نحو النور · كانت معجزة الربيـع الكبرى تنمو ، تحت القشر اليابس ، دون صوت ، خلسة في قلب الشتاء ·

وفجأة اطلقت صرخة فرحة · فأمامي ، في حفرة محمية من الريح ، كانت شجرة لوز جريئة قد ازهرت في قلب الشتاء ، ممهدة الطريـق لكل الاشجار بقدوم الربيع ·

وشعرت بهدوء كبير · وتنشّقت عميقاً الرائحة الخفيفـة اللاذعـة ، وتنكبت عن الطريق واستلقيت تحت الاغصان المزهرة ·

لبثت هناك ملياً ، دون أن أفكر بشيء ، دون أي شاغل ، مغتبطاً · كنت جالساً في الابدية ، تحت شجرة من أشجار الفردوس ·

وفجأة ، القاني ارضاً صوت غليظ وحشي :

ـ ماذا تفعل في هذه الحفرة ، ايها الرئيس ؟ منذ زمن وانا ابحث عنك ·

لقد قاربت الساعة الظهر ، هيا !

ـ الى اين ؟

ـ الى اين ؟ وتسألني ؟ الى منزل ام الخنزير الوليد · ألست جائعاً ؟ لقد خرج الخنزير الوليد من الفرن ؟ ان له رائحة ، يا صديقي ··· حتى ان فمك ليمتلىء باللعاب · هيا !

ونهضت ، وداعبت جذع شجرة اللوز القاسي ، المليء بالسر الذي استطاع ان ينتج هذه المعجزة المزهرة · وسار زوربا في المقدمة ، رشيقاً ، مندفعاً ، متلمظاً · ان حاجات الانسان الاساسية ـ الطعام ، والشراب ، والمرأة ، والرقص ـ لا تزال غير مستهلكة ، غضة ، في جسده الظمىء والقوي ·

كان يمسك بيده شيئاً معلقاً بورق وردي ، مربوطاً بخيط ذهبي · وسألته مبتسماً :

ـ أهدية ؟

فأخذ زوربا يضحك ، محاولا اخفاء انفعاله ، وقال دون ان يلتفت :

ـ نعم · لتتدلل قليلا ، المسكينة ! انها ستتذكرها بالأيام الماضية الجميلة ··· انها امرأة ، فهي اذن ، وقد سبق وقلت ذلك ، مخلوق يشتكي دوماً ·

ـ أهي صور ؟

ـ سترى ··· سترى ، لا تستعجل الأمور · لقد صنعتها بنفسي · لنسرع ·

كانت شمس الظهيرة تدفىء العظام ، والبحر يتدفأ بالشمس ، سعيداً · وبعيداً ، كانت الجزيرة الصغيرة الجرداء ، المحاطة بضباب خفيف ، تبدو وكأنها ارتفعت خارج البحر وعامت ·

واقتربنا من القرية · وجاء زوربا من خلفي ، وقال خافضاً صوته :

ـ أتعرف ، ايها الرئيس ، ان الشخص الذي تحدثنا عنه كان في الكنيسة · كنت اقف في المقدمة ، قرب المرتِّل ، عندما رأيت فجأة الايقونات المقدسة تتلألأ · المسيح ، والعذراء القديسة ، والاثنا عشر رسولا ، كلها تتألق · وقلت في نفسي وانا ارسم اشارة الصليب : « ما هذا ؟ الشمس ؟ » · والتفت ، فاذا هي الارملة ·

فقلت وانا احث الخطا :

ـ لقد تحدثت كثيراً ، يا زوربا ، هذا يكفي !

لكن زوربا ركض ورائي :

ـ رأيتها عن قرب ، ايها الرئيس ، ان لها خالا على خدها ! انها لتأخذ بلبك ! انه لسرّ آخر ، الخال الذي على خدود النساء !

وجحظ عينيه ، مذهولا ٠

ـ ايه ، أرأيت ذلك ، ايها الرئيس ؟ يكون الجلد أملس ، وفجأة تجد عليه لطخة سوداء ٠ حسناً ، هذا يكفي ليأخذ بلبك ! أتفهم شيئاً من هذا ، ايها الرئيس ؟ ما الذي تقوله كتبك ؟

ـ الى الشيطان ، بكتبي !

واخذ زوربا يضحك ، مسروراً ٠ وقال :

ـ هكذا اذن ، لقد بدأت تفهم ٠

ومررنا بسرعة امام المقهى ، دون ان نتوقف ٠

كانت سيدتنا الطيبة قد طبخت في الفن خنزيراً وليداً ، ووقفت تنتظرنا على العتبة ٠

لقد احاطت عنقها من جديد بنفس الشريط الاصفر البسيط ، وطلت وجنتيها بمسحوق كثيف ، ودهنت شفتيها بطبقة قرمزية سميكة ، وكانت تبدو والهة ٠ وما ان رأتنا ، حتى أخذ جسدها يتحرك ، مغتبطاً ، وتراقصت عيناها بلذة وتشبثتا بشاربي زوربا المفتولين ٠

وما ان أغلق زوربا باب الباحة ، حتى اخذها من خصرها ، وقال لها :

ـ سنة طيبة يا بوبولينتي ، أنظري ما أحمله اليك !

وقبّلها من رقبتها السمينة المتجعدة ٠

وتملكت الجنية العجوز رعدة مدغدغة ، لكنها لم تضل طريقها ٠ كان نظرها متجهاً الى الهدية ، فتناولتها ، وفكّت الخيط الذهبي ، ونظرت ، واطلقت صرخة ٠

وانحنيت لأرى : كان زوربا الخبيث قد رسم على قطعة كبيرة من الورق المقوى بأربعة ألوان ـ الاصهب ، والكستنائي ، والرمادي ، والاسود ـ أربع مدمرات كبيرة مزينة في بحر نيلي اللون ٠ وأمام المدمرات ، تسبح ، ممددة على الامواج ، بيضاء ، عارية ، محلولة الشعر ، ناهدة الصدر ، لها ذيل سمكة لولبي الشكل ، وشريط أصفر صغير حول عنقها ، جنية ، هي السيدة هورتانس ٠ وكانت تمسك بأربعة خيطان وتسحب المدمرات الاربع الرافعة للأعلام الانجليزية ، والروسية ، والفرنسية ، والايطالية ، وعند كل زاوية من اللوحة ، تتدلى لحية ، واحدة شقراء ، وواحدة كستنائية ، وواحدة رمادية ، وواحدة سوداء ٠

وفهمت المغنية العجوز فوراً ، وقالت وهي تشير الى الجنية باعتزاز :

ـ أنـا !

وتنهدت · وقالت :

ـ آه ! انا ايضاً كنت دولة كبيرة ، في الماضي ·

ونزعت مرآة صغيرة مستديرة كانت فوق سريرها ، قرب قفص الببغاء ، وعلّقت لوحة زوربا · ولا بد ان وجنتيها قد شحبتا ، تحت الطلاء الكثيف ·

وكان زوربا ، في تلك الاثناء ، قد دلف الى الحجرة ، فهو جائع · وعاد بطبق الخنزير الوليد ، ووضع امامه زجاجة خمر ، وملأ الكؤوس الثلاث ·

وصاح مصفقاً بيديه :

ـ هيا ، الى المائدة ! لنبدأ بما هو رئيسي ، بالمعدة · وبعد ذلك ، يـا طيبتي ، سننزل الى أسفل !

لكن الجو كان مضطرباً بسبب تنهدات جنيتنا العجوز · ان لهـا ، هي الأخرى ، في مطلع كل سنة ، يوم دينونتها الصغيرة الاخير ، فتزن حياتهـا وتجدها مضاعة · ان المدن الكبيرة ، والبشر ، واثـواب الحرير ، وزجاجـات الشمبانيا ، واللحى المعطرة ، تنبعث ، في الايام الحافلة ، في رأسُ هذه المرأة الذي تساقط شعره ، خارج قلبها وتصرخ ·

وتمتمت بلهجة غنجة :

ـ انني لست جائعة مطلقاً · لست جائعة ·· مطلقاً ·· مطلقاً ·

وركعت امام الموقد وحركت الجدى ، وانعكس على وجنتيها الواهنتين ضوء النار الشاحب · وانسابت خصلة فوق جبينهـا ، ومست الشعلـة ، وانتشرت في الغرفة رائحة الشعر المحترق الكريهة · وتمتمت من جديد ، وقد رأت اننا لم نهتم بها :

ـ لا اريد ان آكل ···

وشدّ زوربا على قبضته بقوة · وظل لحظة متردداً · انه يستطيـع ان يتركها تتذمر ما شاءت ، بينما نظل نحن نلتهم الخنزير الصغير المحمَّر · وهو يستطيع أيضاً ان يركع امامها ، ويأخذها بين ذراعيه ، وبكلمة طيبة ، يعيـد اليها الرضى · وتطلعت اليه ورأيت الموجات المتناقضة في انفعالات وجهـه الدبغي المتتالية ·

وفجأة ، جمد وجهه · لقد اتخذ قراراً · فركع ، وقـال بصوت متمزق وهو يمسك بركبتي الجنية :

ـ اذا لم تأكلي ، يا دجاجتي ، فستكون نهاية العالم · كوني اذن رحيمة ،

يا طيبتي ، وكلي فخذ الخنزير الصغيرة هذه ٠

ودسّ في فمها الفخذ القضيم التي تسيل منه الزبدة ٠ واخذهـا بين ذراعيه ورفعها ، واجلسها بهدوء على مقعدها ، بيننا نحن الاثنين ٠ وقال :

ـ كلي ، كلي ، يا كنزي ، كي يدخل القديس باسيل الى قريتنا ! والا ، وانت تعرفين ذلك ، فلن يدخل اليها ، ويعود الى وطنـه ، في قيصريـة ، ويستعيد الورق والدواة ، وكعكات الملوك ، والهدايا ، ولعب الاطفال ، بل وهذا الخنزير الصغير ، ثم ، ينطلق ! اذن افتحي ، يا دجاجتي ، فمك الصغير وكلي!

ومدّ اصبعين من اصابعه ودغدغها تحت ابطها ٠ وهدلت الجنية العجوز ، ومسحت عينيها الصغيرتين المحمرتين وراحت تمضغ ببطء الفخذ المحمرة ٠٠٠

وفي تلك اللحظة ، أخذ قطـان عاشقـان يموءان على السـطح ، فوق رؤوسنا ، يعويان بحقد لا يوصف ، ويعلو صوتاهمـا ، وينخفضان ، مليئين بالتهديد ٠ وفجأة سمعناهما يتدحرجان معاً ويمزقان احدهما الآخر٠وقال زوربا وهو يغمز الجنية العجوز بعينه :

ـ مياو ٠٠ مياو ٠٠٠

فابتسمت وضغطت على يده خفية تحت الطاولـة ٠ وارتخى بلعومهـا وبدأت تأكل ، بمرح ٠

وانخفضت الشمس ، ودلفت من النافذة الصغيرة ، وحطّت على قدمي سيدتنا الطيبة ٠ كانت الزجاجة قد فرغت ٠ واقترب زوربا ، وهو يداعب شاربيه المنتصبين انتصاب شاربي هرّ متوحش ، مـن السيدة هورتانس ٠ واحست هذه ، وهي متقوقعة على نفسها ، مرتجفة ، وقد دخـل رأسها بين كتفيها ، بأنفاسه الحارة التي تفوح منها رائحة الخمر ٠ والتفت زوربا قائلا :

ـ ما هذا السر ايضاً ، ايها الرئيس ؟ كل شيء يسير بالمقلوب ، بالنسبة لي ٠ عندما كنت طفلا ، كان يبدو علي انني عجوز قصير ، اذ كنت ثقيلا ، لا اتكلم كثيراً ، وصوتي غليظاً كصوت رجل عجوز ٠ وكانوا يقولون انني إشبه جدي ! لكنني كنت كلما تقدّمت في العمر ، ازددت طيشاً ٠ وفي العشريـن اخذت ارتكب حماقات ، لكن ليس بكثرة ، حماقات كالتي يرتكبها جميع الناس في تلك السن ٠ وفي الأربعين بدأت أحس انني قد بلغت سن الشباب الحق ، واندفعت عند ذاك في الحماقات الـكبيرة والآن ، في الستين ـ في الخامسة والستين ، ايها الرئيس ، لكن هذا بيننا ـ الآن وقد دخلت في الستين ، اصبح العالم ، اقسم لك ، صغيراً بالنسبة لي ! كيف تفسر هذا ، ايها الرئيس ؟

ورفع كأسه ، والتفت بوقار نحو سيدته ، وقال بصوت مهيب :

ـ صحتك ، يا بوبولينتي · انني لأتمنى ، في هذه السنة ، ان ينبت لك اسنان ، وحاجبان جميلان رفيعان ، وان يعود اليك جلدك غضاً مثل جلد الدراق ! وعندئذ ، ستلقين في الهواء بهذه الشرائط الصغيرة القذرة ! وانني لأتمنى لك ايضاً ثورة أخرى في كريت ، وان تعود الدول الأربع الكبرى ، يا بوبولينتي العزيزة ، بأساطيلها ، وان يكون لكل اسطول اميراله ، ولكل اميرال لحيته المجعدة المعطرة · وانت يا جنيتي ، ستنبعثين من الأمواج مرة أخرى وانت تنشدين أغنيتك العذبة ·

وعلى اثر ذلك ، وضع يده الضخمة فوق ثديي السيدة الطيبة المتدليين الرخوين ·

ومن جديد ، اشتعل زوربا ، وبحّ صوته من الشهوة · واخذت أضحك · لقد رأيت ، ذات مرة ، في السينما ، باشا تركياً يمرح في حانة باريسية · كان على ركبتيه فتاة عاملة شقراء ، وعندما اشتعلت النار في عروقه ، اخذت طرة طربوشه بالارتفاع على مهل ، حتى استوت أفقياً ، ثم اندفعت فجأة وانتصبت عمودياً في الهواء · وسألني زوربا :

ـ لمَ تضحك ، ايها الرئيس ؟

لكن السيدة الطيبة كانت لا تزال اسيرة كلمات زوربا · فقالت :

ـ آه ! هل هذا ممكن ، يا زوربا ؟ ان الشباب يذهب ··· دون عودة ·

واقترب زوربا أكثر ، وتلامس المقعدان · وقال وهو يحاول ان يفك الزر الثالث ، وهو الزر الحاسم في قميص السيدة هورتانس :

ـ استمعي اليّ ، يا دجاجتي ، استمعي الى الهدية الكبيرة التي سأقدمها لك : يوجد الآن طبيب يصنع المعجزات · انه يعطي دواء ، سائلا او مسحوقاً ، لست ادري ، ويعود الانسان الى العشرين ، او الى الخامسة والعشرين على الاكثر · لا تبكي ، يا طيبتي ، سآتي لك منه من اوروبا ···

وانتفضت جنيتنا العجوز ، ولمع جلد جمجمتها الصقيل الاحمر بين الشعر المتفرق ، والقت بذراعيها الكبيرتين المكتنزتين حول عنق زوربا · ودمدمت وهي تحك نفسها بجسد زوربا مثل قطة :

ـ اذا كان سائلا ، يا عزيزي ، اذا كان سائلا فستجلب لي منه دمجانة · واذا كان مسحوقاً ···

فقال ، زوربا ، وقد فكّ الزر الثالث :

ـ كيساً كبيراً ·

وعاد القطّان ، اللذان صمتا لحظة ، الى العواء • كان أحـــد الصوتين يتباكى ويتضرع ، والآخر حانقاً ، يهدّد •••

وتثاءبت سيدتنا الطيبة وذبلت عيناهـــا • وهمست وهي تجلس على ركبتي زوربا :

ـ أتسمع هذه الحيوانات القذرة ؟ انها لا تخجل •••

وتمدّدت عليه وتنهدت • لقد شربت اكثر من اللازم قليـــلا ، وكبت عيناها • وقال زوربا وهو يأخذ بثدييها في كفيه :

ـ بمَ تفكرين ، يا قطتي ؟

فتمتمت الجنية المسافرة متباكية :

ـ الاسكندرية ••• الاسكندريـة ••• بيروت ••• القسطنطينة ••• اتراك ، وعرب ، ومشروبات واحذية مذهبة ، وطرابيش حمر •••

وتنهدت من جديد :

ـ عندما كان علي بك يبيت معي ـ ويا لشاربيه ، وحاجبيه ، وذراعيه !ـ كان يستدعي عازفي الطبل والزمـــر ، ويلقي اليهم بالدراهم مـــن النافذة ، فيعزفون في باحتي حتى الفجر • وتموت الجارات حسداً ، ويقلن : « ان علي بك في هذه الليلة ايضاً مع السيدة ••• »

« وبعد ذلك ، في القسطنطينة ، لم يكن سليمان باشا ليتركني أخـرج للتنزه يوم الجمعة • كان يخشى ان يراني السلطان وهو ذاهب الى الجامع ، فيسحره جمالي ، ويأمر بخطفي • وكان عندما يخرج صباحاً من عندي ، يضع ثلاثة عبيد على بابي كي لا يقترب اي ذكر ••• آه ! يا صغيري سليمان ! »•

وأخرجت من تحت قميصها منديلا كبيراً ذا مربعات وعضّت عليه وهي تتنهّد وكأنها سلحفاة ماء •

وتملص زوربا منها بأن اجلسها على المقعد المجاور ، ونهض ، حانقاً • وذرع الغرفة مرتين او ثلاثاً ، وهو يتنهّد ايضاً ، وبدت له الغرفة فجأة ضيقة جداً ، فأمسك بهراوته ، واندفع الى الباحة ، واسند السلم الى الحائـــط ، ورأيته يصعد الدرجات اثنتين اثنتين ، في غضب • فصرخت :

ـ من ستضرب ، يا زوربا ؟ سليمان باشا ؟

فزمجر :

ـ القطان القذران ، انهما لا يريدان ان يدعانا في سلام !

وبقفزة واحدة ، وثب الى السطح •

كانت الآن السيدة هورتانس ، قد اغمضت ، وهي ســكرى ، شعثـاء

الشعر ، عينيها اللتين قبلتنا عشرات المرات · لقد رفعها النوم وحملها الى مدن الشرق الكبيرة ، الى الحدائق المسورة ، ودور الحريم المظلمة ، في منازل الباشوات العشاق · وجعلها تعبر البحر ، ورأت نفسها وهي تصيد · لقد رمت أربعة خيوط وأوقعت بأربع مدمرات ·

وراحت الجنية العجوز ، وقد غسلها ماء البحر وأعاد اليها النضارة ، تبتسم في نومها ، سعيدة ·

ودخل زوربا ، وهو يهزّ هراوته · فقال بعد ان رآها هكذا :

ــ أتنام ؟ أتنام ، العاهرة ؟

فأجبت :

ــ نعم ، لقد خطفها فونوروف الذي يعيد الشباب الى الشيوخ ، يا زوربا باشا ، خطفها النوم · وهي الآن في العشرين ، تتنزه في الاسكندرية ، وبيروت ···

فدمدم زوربا ، باصقاً على الأرض :

ــ لتذهب الى الشيطان ، هذه القذارة العجوز ! انظر اليها كيف تبتسم ! هيا بنا ، ايها الرئيس !

ووضع قبعته وفتح الباب · وقلت :

ــ أنأ كل كالخنازير ، ثم نذهب بعد ذلك ونتركها وحيدة ! هذا لا يجوز !

فصاح زوربا :

ــ انها ليست وحيدة ، انها مع سليمان باشا ، ألا تراها ؟ انها في السماء السابعة ، هذه الانثى القذرة ! هيا ، لنذهب !

وخرجنا الى الهواء البارد · كان القمر يتهادى في السماء الهادئة · وقال زوربا باشمئزاز :

ــ آه ! يا للنساء ! افٍ لهن ! لكنها ليست خطيئتهن ، بل خطيئتنا ، نحن المجانين ، الأغبياء ، وكل الذين على شاكلتنا ، انا وسليمان !

وبعد لحظة ، اضاف حانقاً :

ــ بل انها ليست خطيئتنا ، بل شخص واحد ، خطيئة المجنون الكبير ، الغبي ، سليمان باشا الكبير ··· انت تعرف منا !

فقلت : اذا كان موجوداً ، لكن اذا لم يكن موجوداً ؟

ــ اذن ، فقد هلكنا !

وسرنا مدة طويلة بخطا عريضة ، دون ان نقول شيئاً · لا بد ان زوربا كان يجترّ أفكاراً متوحشة ، لأنه راح يضرب ، في كل لحظة ، الحصى بعصاه

ويبصق . وفجأة ، التفت نحوي وقال :

ــ لقد كان جدي ــ ليرقد في سلام ! ــ خبيراً بالنساء . كــان يحبهن كثيراً ، الشقي ، وقد أرينه من الثمار ما كان أخضر وغير ناضج . وكان يقول لي : « ياصغيري ألكسيس ، سأمنحك ، مع بركتي ، نصيحة : لا تثق بالنساء . عندما اراد الاله الرحيم ان يخلق المرأة من ضلع آدم ، تحــوّل الشيطان الى ثعبان ، وفي اللحظة المناسبة ، وثب وسرق الضلع . وأسرع الاله الرحيم ، لكن الشيطان تملَّص من بين أصابعه ولم يترك له الا قرونه . وقال الاله الرحيم في نفسه : « ان ربة البيت الصالحة ، اذا لم تجد مغزلا غزلت بالملعقة . وكذلك انا ، سأخلق المرأة من قرون الشيطان ! » . وخلقها من أجل شقائنا ، يا صغيري الكسيس ! اذن ، فنحن عندما نلمس امرأة ، في أي موضع كان من جسدهــا ، فاننا انما نمس قرون الشيطان ! احذرهن ، يا بني ! انهــا المرأة ايضاً التي سرقت تفاح الفردوس ، وخبأته في صدرها . وهي الآن تتبختر به متباهية . انها الطاعون ! ولو أكلت من تلك التفاحات ، ايها الشقي ، لهلـكت . واذا لم تأكل ، فانك هالك أيضاً . اية نصيحة تريد ان اعطيكها ، يا صغيري ؟ افعــل ما يعجبك ! » . هذا ما قاله لي جدي المرحوم ، لكنني لم أزدد عقلا بسبب ذلك . لقدسرت في الدرب نفسه الذي سار فيه ووصلت الى هنا !

واجتزنا القرية بسرعة . كان ضوء القمر مقلقاً . تصوّر انك ، بعد ان سكرت ، خرجت لتستنشق الهواء ، فوجدت العالم قد تبدل فجأة . كانــت الطرق قد أصبحت أنهاراً من اللبن ، والحفر تطفح بالكلس ، والجبال مغطاة بالثلج . وترى يديك ووجهك وعنقك تشع بالفوسفور مثل بطن الحباحب . والقمر ، مثل ميدالية مستديرة ، غريبة ، معلق على صدرك .

كنا نسير بخطاً حذرة ، في صمت . ولم نكن لنحس ، وقــد انتشينا بضوء القمر وانتشينا بالخمر ، بأقدامنا تمسّ الأرض . وكانت الكلاب قــد صعدت ، في القرية النائمة ، وراءنا الى الاسطحة ، وراحت تنبــح بأسى ، وعيونها مثبتة بالقمر . وتملكتنا الرغبة ، بدون سبب ، في ان نمد عنقنا ونبدأ نحن أيضاً بالعواء ...

ومررنا امام حديقة الأرملة . وتوقف زوربا . لقد أدار الخمر والطعــام الطيب والقمر ، رأسه . ومدّ عنقه ، وبصوته الغليظ الأشبه بصوت حمــار اخذ ينهق بهذين البيتين من الشعر ، اللذين ارتجلهما ، في لحظة النشوة هذه :

كم أحب جسدك الجميل ، من خصرك حتى الأسفل !
انه يتلقى الحنكليس الحي ويفقده الحركة بضربة واحدة !

وصاح :

ـ وهذه ايضاً قرن من قرون الشيطان ! هيا بنا ، ايها الرئيس !

كان النهار على وشك الطلوع عندما وصلنا الى الكوخ · وألقيت بنفسي على سريري ، منهكاً · واغتسل زوربا ، وأشعل النار في الكانون وأعدّ القهوة· وجلس على الارض أمام الباب ، وأشعل سيجارة واخذ يدخن بهدوء ، مستقيم الجسد ، ساكناً ، ينظر الى البحر · كان وجهه رصيناً ومركزاً ، يشبه لوحة يابانية أحبها تمثل ناسكاً جالساً وساقاه متصالبتان ، ووجهه يلمع وكأنه منحوت من الخشب بدقة فائقة ، قد سودته الأمطار ، وهو ينظر ، مستقيم العنق ، باسماً ، بدون خوف ، الى البحر المظلم أمامه ···

كنت أنظر الى زوربا على ضوء القمر الشاحب ، واعجب بتلك الكبرياء وبتلك البساطة اللتين يتلاءم بهما مع العالم ، وبجسده وروحه كيف يشكلان كلا واحداً منسجماً ، وبكل الاشياء ، النساء ، والخبز ، والماء ، واللحم ، والنوم ، كيف تتحد بفرح مع جسده وتتحول الى زوربا · انني لم أر في حياتي مثل هذا التفاهم بين الانسان والكون ·

واخذ القمر الآن ، وقد استدار كله ، بلونه الأخضر الشاحب ، يأفل نحو المغيب · وانتشرت عذوبة لا توصف على البحر ·

وألقى زوربا سيجارته ، ومد ذراعيه ، وبحثت أصابعه في سلة ، واخرج خيوطاً ، ومكبات ، وقطعاً صغيرة من الخشب ، واشعل مصباح الزيت ، وأخذ ، مرة أخرى ، يقوم بتجاربه بشأن المصعد · وغرق ، وهو محني على لعبته البدائية ، في الحسابات ، الصعبة ولا شك ، لأنّه كان ، في كل لحظة ، يحك رأسه ويشتم ·

وفجأة ، سئم من العملية ، فضرب برجليه وانهار المصعد ·

- ١٢ -

أخذني النعاس ٠ وعندما استقيظت ، كان زوربا قــد ذهب ٠ الطقس بارد ، وليست لي اية رغبة في النهوض ٠ ومددت ذراعي نحـو رف صغير فوقي ، وأخذت كتاباً احبه كنت قد حملته معي ، وهو قصائد مالارميه ٠ وقرأت ببطء ، دون تعيين ، واغلقت الكتاب ، وفتحته من جديد ، ثم القيت به ٠ لقـد بدا لي كل هذا ، في ذلك اليوم ، للمرة الأولى ، فقيراً بالدم ، منعدم الرائحة ، والطعم ، والجوهر الانساني ٠ مجرد كلمات زرق فقدت لونها ، فارغة ، معلقة في الهواء ٠ مجرد ماء مقطر صافٍ تماماً ، بدون جراثيم ، لكن أيضاً بدون مواد مغذية ٠ بدون حياة ٠

ان هذا الشعر اشبه بالآلهة ، في الاديان الفاقدة لنفحتها الخلاقة ، التي تنتهي الى مجرد دوافع شعرية أو مجرد زينة تصلح لتنميق العزلة الانسانية ٠ ان التطلع الحاد للقلب المليء بالأرض والبذور قد أصبح لعبة ذهنية معصومة عن الخطأ ، هندسية هوائية ، عالمة ومعقدة ٠

واعدت فتح الكتاب ورحت اقرأ ٠ لماذا امسكت بي ، طوال تلك السنين العديدة ، هذه الاشعار ؟ الشعر الصافي ! الحياة التي أصبحت لعبة ذكيـة ، شفافة ، ليست مثقلة حتى بنقطة دم واحدة ٠ ان العنصر البشري ثقيل بالرغبة، كدر ، دنس ــ الحب ، والجسد ، والصرخة ــ فكيف يتصعـد اذن الى فكـرة مجردة ، وكيف يفقد ماديته في فرن الفكر العالي ، ويتبدد !

كم تبدو لي كل تلك الاشياء ، التي جذبتني كثيراً في الماضي ، مجـرد بهلوانيات مشعوذة رفيعة ، في هذا الصباح ! هكذا ينتهي دوماً ، قلق الانسان، عند افول كل حضارة ، الى العاب مشعوذة ، متقنة تماماً : الشعـر الصافي ، والموسيقى الصافية ، والفكر الصافي ٠ ان الانسان الاخير ــ الذي تخلص من كل ايمان ومن كل وهم ، والذي لم يعد ينتظر شيئاً ، ولا يخشى شيئاً ــ يرى

الطين الذي هو مصنوع منه ، قد استحال الى فكر ، وليس للفكر مكان يلقي فيه جذوره ليمتص ويتغذى · لقد تجوف الانسان الأخير ، فلم يعد فيه زرع ، ولا قذر ولا دم · ان كل الاشياء قد اصبحت كلمات ، وكل الكلمات شعوذات موسيقية · ان الانسان الأخير سيذهب أبعد من ذلك : انه سيجلس عند طرف وحدته ويحلل الموسيقى الى معادلات رياضية صامتة ·

وانتفضت · وهتفت : «ان بوذا هو الانسان الاخير · ذلك هـــو معناه السري والرهيب · ان بوذا هو الروح « الصافية » التي تجوفت ، ان فيه العدم، وانه العدم · انه يصرخ : افرغوا احشاءكم ، افرغوا روحكم ، افرغوا قلبكم ! وأنّى وضع قدمه ، امتنع الماء عن الانبجاس ، والعشب عن النبت ، والطفل عن الولادة » ·

وقلت في نفسي : « يجب حصاره ، بتعبئة الكلمات الراقية ، والاستنجاد بالايقاع السحري ، ورميه بسحر ، لاخراجه من احشائي ! يجب ان أرميـــه بشبكة الصور ، لأمسك به واتخلص منه ! » ·

ان كتابة « بوذا »قد كفت ، في النهاية ، عن ان تكون لعبة ادبية ، بـــل انها الآن نضال حتى الموت ضد قوة تدمير عظمى كامنة فيّ ، صراع مع الـ «لا» الكبرى التي تنهش قلبي ، وبنتيجة هذا الصراع يتعلق سلام روحي ·

واخذت المخطوط ، بفرح ، وعزم · لقد وجدت المرمى ، وانا اعرف الآن أين أوجه ضرباتي ! ان بوذا هو الانسان الأخير · اما نحن ، فلسنا بعد الا في البداية ، اننا لم نأكل ، ولم نشرب ، ولم نحب بما فيه الكفاية ، اننا لم نحي بعد · لقد جاءنا قبل الاوان بكثير ، هذا العجوز النحيف اللاهث · فليرحـــل بأسرع ما يمكن !

وأخذت اكتب بغبطة · كلا ، لم اكن اكتب · انها لم تكن كتابة ، بـــل حرباً حقيقية ، مطاردة عديمة الشفقة ، حصاراً وفخاً ، لاخراج الحيوان مــن حجره · ان الفن ليس في الحقيقة إلا استخداماً سحرياً للكلمـــات · ان فـــي احشائنا قوى مظلمة سفاكة ، دوافع مشؤومة الى القتل ، والهدم ، والــكره ، وتلويث الشرف · وعندئذ يظهر الفن ، بشبابته العذبة ، ليخلصنا ·

وكتبت ، بحثت ، وناضلت طوال اليوم · وعند المســاء كنت منهكـــاً ، لكنني شعرت انني تقدمت ، وانني سيطرت على عدة مواقع امامية للعــــدو · انني اتعجل الآن رؤية زوربا لآكل ، وانام ، واتزود بقوى جديدة ، واعود الى المعركة منذ الفجر ·

كان الليل قد أرخى سدوله عندما عاد زوربا · كان وجهه يتألق · وقلت

في نفسي : « لقد وجد ، هو أيضاً ، لقد وجد ! » وانتظرت ·

قبل بضعة ايام ، قلت له في غضب ، وقد بدأت تتضح لي الأمور :

ـ ان المال يتضاءل ، يا زوربا · افعل ما يجب فعله بسرعة ! لنبدأ بتنفيذ المصعد ، واذا لم ينجح الفحم ، فلنتشبث بالخشب · والا فاننا لهالكون ·

وحك زوربا رأسه وسأل :

ـ المال يتناقص ، أيها الرئيس ؟ هذا سيء !

ـ لقد انتهى الامر ، فقد انفقنا كل شيء ، يا زوربا · تدبَّر أمرك ! كيف حال تجارب المصعد ؟ لا شيء بعد ؟

وحنى زوربا رأسه دون ان يجيب · لقد احس بالعار في ذلك المساء · فدمدم : « سأحصل عليك ، أيها المصعد اللعين ! » · وفي هذا المساء ، عـــاد يتألق · وصرخ من بعيد :

ـ لقد وجدت ، أيها الرئيس ! لقد وجدت الميل المطلوب · كان ينساب من يدي ، لا يريد ان يقع في الكمين ، ذلك القذر ، لكنني قبضت عليه !

ـ اذن ، اسرع بوضع النار في البارود ، يا زوربا ! ماذا تحتاج ؟

ـ غداً ، يجب ان اذهب باكراً جداً الى المدينة لأشتري المواد اللازمـة : حبالا غليظة من الفولاذ ، وبـــكرات ، وآلات ، ومســـامير ، وكلابـــات ··· وسأعود قبل ان تراني اذهب !

واشعل النار بسرعة ، وأعدّ العشاء ، وأكلنا وشربنا مقبلات ممتازة · لقد اشتغل كلانا جيداً ، في هذا المساء ·

في صباح اليوم التالي ، رافقت زوربا حتى القرية · واصطدم زوربـــا ، ونحن نهبط منحدراً ، بحجر راح يتدحرج · وتوقف ، وقد تملكه الذهـــول ، وكأنه يرى للمرة الأولى في حياته مثل هذا المشهد المدهش · والتفت نحـــوي ، ونظر الي ، ولمحت في نظرته خوفاً بسيطاً · وأخيراً قال لي :

ـ هل لاحظت ذلك ، أيها الرئيس ؟ ان الحجارة تصبح حية في المنحدرات ·

لم اقل شيئاً ، لكن فرحي كان كبيراً ، وقلت في نفسي : « هـــكذا كان كبار المتنبئين ، وكبار الشعراء يرون كل شيء للمرة الأولى كل صباح ، يرون امامهم عالماً جديداً يخلقونه بأنفسهم » ·

لقد كان الكون بالنسبة لزوربا ، كما كان بالنسبة لأوائل البشر ، رؤية ثقيلة وكثيفة : فالنجوم تنساب عليه ، والبحر يتكسر على صدغيه ، وهـــو يعيش ، دون تدخل العقل المشوه ، الارض ، والماء ، والحيوانات ، والله ·

كان النبأ قد بلغ السيدة هورتانس ، فانتظرتنـــا على عتبة بابهـــا ،

مصبوغة ، مدهونة بالمساحيق ، قلقة • لقد تزينت كأنها ذاهبة الى حفلة شعبية مساء السبت • وكانت البغلة امام الباب ، فقفز زوربا على ظهرها وأمسك بالعنان •

واقتربت جنيتنا العجوز بخجل وأسندت يدها الصغيرة السمينة الى لبانه ، كأنها تريد منع حبيبها من الذهاب • وقالت هي تنتصب على أطراف أصابعها :

ـ زوربا ••• زوربا •••

فأدار زوربا رأسه الى الجهة الأخرى ، اذ كان لا يستمرىء الهذر الغزلي في وسط الشارع • ورأت السيدة المسكينة نظرة زوربا وارتعدت • لكن يدها ظلت مستندة ، مليئة بصلاة حارة ، الى لبان البغلة • فقال زوربا منزعجاً :

ـ ماذا تريدين ؟

فتمتمت ضارعة :

ـ زوربا ، كن حكيماً ••• لا تنسني ، يا زوربا ، كن حكيماً •••

وهز زوربا العنان ، دون ان يجيب • وبدأت البغلة تسير • وصحت :

ـ رحلة موفقة ، يا زوربا ! ثلاثة أيام ، أتسمع ؟ ليس أكثر !

والتفت ، وحرك يده الضخمة • كانت الجنية العجوز تبكي ودموعها تحفر أخاديد في المساحيق • وصرخ زوربا :

ـ لك كلمتي ، أيها الرئيس ، هذا يكفي ! الى اللقاء !

واختفى تحت أشجار الزيتون • كانت السيدة هورتانس تبكي وتنظر الى الغطاء الأحمر الفاتح الذي وضعته المسكينة ليجلس حبيبها عليه مستريحاً ، وهو يتألق وينطفيء من بعيد الى بعيد ، عبر الاوراق اللجينية • وبعد فترة ، اختفى الغطاء بدوره • ونظرت السيدة هورتانس حولها : لقد تجوّف العالم •

* * *

لم أعد نحو الشاطىء ، بل اتجهت نحو الجبل • وفي اللحظة التي بلغت فيها الدرب الصاعد ، سمعت بوقاً • ان ساعي البريد الريفي يعلن عن مقدمه الى القرية • وصاح وهو يحرك يده •

ـ أيها الرئيس !

واقترب وأعطاني رزمة من الصحف ، ومجلات ادبية ورسالتين • وسرعان ما أخفيت احداهما في جيبي لأقرأها مساء في الساعة التي ينتهي فيها النهار ويهدأ الفكر • كنت أعلم من كتب اليّ ، وأريد ان أؤجل فرحتي ، كي تدوم اكثر •

أما الرسالة الأخرى ، فقد عرفتها من خطها الخشن القاطع وطوابعها

الغريبة · انها قادمة من افريقيا ، من جبل مقفر قرب تانغانيكا ، أرسلها لي احد رفاقي القدامى في الدراسة : كارايانيس · انه لشاب غريب ، عنيف ، أسمر ، له أسنان ساطعة البياض · واحدى أنيابه تبرز مثل ناب خنزير بري لم يكن ليتحدث مطلقاً ، بل يصرخ · ولم يكن ليناقش ، بل يخاصم · ترك وطنه ، كريت ، حيث كان يدرس اللاهوت الكهنوتي ، وهو لا يزال شاباً بعد · كان يغازل احدى تلميذاته ، ففاجأوهما ذات يوم في الحقل متعانقين ، وراحوا يصرخون بهما هازئين · وفي اليوم نفسه ، رمى المعلم الشاب ثوب رهبانيته ، واستقل المركب · وجاء الى افريقيا ، وأقام عند احد أعمامه ، وانهمك في العمل كلياً ، وفتح مصنعاً لحبال المراكب وربح مالا كثيراً · ومن حين الى حين ، كان يكتب اليّ ويدعوني للاقامة عنده ستة أشهر ، وكنت أحس وانا افتح كل رسالة من رسائله ، حتى قبل ان أقرأها ، بصفحات غزيرة دوما مدروزة بالخيطان تنشر قلوعها ، وبريح هوجاء تطير شعري · وكنت أعزم دوماً على الذهاب الى افريقيا ، ولا أذهب ·

وابتعدت عن الدرب ، وجلست على صخرة ، وفتحت الرسالة وبدأت اقرأ :

« متى اذن ستعزم ، أيها المحار الملتصق بالصخرة اليونانية ، على القدوم ! أنت ايضاً ، أصبحت ، كجميع اليونانيين ، من رواد الحانات · انك تتمرغ في المقاهي كما في كتبك ، وعاداتك ، وعقائدك المشهورة · اليوم احد ، وليس عندي ثمة نقطة مطر · هنا ، عندما يهطل المطر ، في نيسان ، وايار ، وحزيران ، فانه يكون طوفاناً حقيقياً ·

« انني وحيد واحب ذلك · ثمة عدد لا بأس به هنا من اليونانيين ، لكنني لا أود رؤيتهم · انهم يثيرون اشمئزازي ، لأنكم أيها المواطنون الاعزاء ــ ليأخذكم الشيطان ــ قد أرسلتم لنا ، حتى الى هنا ، جذامكم ، أهواءكم السياسية · ان السياسة هي التي تضيع اليونان · ويوجد أيضاً ورق اللعب ، ثم النقص في التعليم ، والجنس ·

« انني أكره الاوروبيين ، فلهذا أتسكع هنا ، في جبال فاسامبا · انني أكره الاوروبيين ، لكنني اكره اليونانيين وكل ما هو يوناني ، اكثر من أي شيء آخر · انني لن أضع قدمي ثانية مطلقاً في يونانكم · سأموت هاهنا ، وقد أعددت ضريحي منذ الآن ، أمام كوخي ، على الجبل المقفر · بل لقد وضعت أيضاً الشاهدة وحفرت عليها بنفسي بأحرف كبيرة :

هنا يرقد يوناني يكره اليونانيين · .

« انني لأنفجر ضاحكاً ، وابصق ، واشتم ، وابكي ، عندما أفكر باليونان ·

لقد هجرت وطني كي لا أرى اليونانيين وكل ما هو يوناني . لقــد جئت الى هنا ، وأتيت بقدري - ليس قدري هو الذي اتى بي ، فالانسان يفعل ما يشاء . اتيت بقدري الى هنا ، واشتغلت ، وانني لأشتغل مثل عبد . لقد صببت ، ولا أزال اصب ، سيولا من العرق . انني أحارب الارض ، والريـــح ، والمطـر ، والعمال السود والحمر .

« ليس لي أي فرح . بلى ، عندي فرح واحد : العمل . أعمل بجسدي وفكري ، لكن بجسدي على الاخص . انني أحب ان اتعب ، وان ينضـــح مني العرق ، وان اسمع عظامي تطقطق . انني أرمي بنصف مالي ، وأبذره ، حيثما وكيفما بدا لي . انني لست عبداً للمال ، بل المال عبدي . انني عبد للعمل ، وانني لافخر بذلك . انني أقطع أشجاراً ، وعندي عقد مع الانجليز . انني أصنع الحبال ، والآن أزرع ايضاً القطن . البارحة مســـاء ، اشتبكت قبليتان مــن عمالي السود - الغاياي والغانغيوني - بالايدي من أجل امرأة : من أجل بغي . الكبرياء ، أترى . كل شيء هنا كما هو عندكم ، أيها اليونانيون . شـتائم ، ونزاع ، وضرب بالهراوات ، ودم يسيل . وأسرعت النساء في حلكة الليـــل وأيقظنني وهن يصرخن لأذهب وأحكم بينهم . وغضبت ، وأرسلت بهم جميعاً الى الشيطان ، ثم الى البوليس الانجليزي . لكنهم ظلوا طوال الليل أمام بابي ينبحون . وعند الفجر ، خرجت ، وحكمت بينهم .

« غداً ، الاثنين في الصباح الباكر ، سأتسلق جبال فاسامبا حيث الغابات الملتفة ، والمياه الباردة ، والخضرة الابدية . حسناً ، ايها اليوناني ، متى ستهجر بابل الحديثة هذه ، تلك « البغي الجالسة فوق المياه الكبيرة ، التي زنى معها كل ملوك الارض » : اوروبا ؟ متى ستأتي لنتسلق معاً هذه الجبـــال المقفـرة الصافية ؟

« عندي طفل من زنجية : انه بنت . لقد طردت امها ، فقد كانت تخونني علانية ، في هجيرة الظهر ، تحت كل شجرة خضراء . عندئذ سئمت منها وألقيت بها على الباب . لكنني احتفظت بالصغيرة ، ولها الآن سنتان في العمر . انهـا تمشي ، وقد بدأت تتكلم ، وانني أعلمها اليونانية ، وأول جملة علمتها اياهـا هي : « انني ابصق عليك ، ايتها اليونان القذرة ! .

« انها تشبهني ، الخبيثة . وليس لها من امها سوى انفهـــا العريض ، المسطح . أحبها ، لكن كما يحب الانسان كلبه او هره . تعالَ ، انت ايضاً . ستنجب صبياً من احدى نساء فاسامبا ، ثم ، نزوجهما ذات يوم » .

تركت الرسالة مفتوحة على ركبتي . ومن جديد انفجرت في نفسي الرغبة الحارة في الذهاب . ليس لحاجتي الى الذهاب ، فالأمور على ما يرام فوق هذا

الساحل الكريتي ، وانني مرتاح ، سعيد ، حر · لا شيء ينقصني · لكن ثمة رغبة حارة قد تأكلتني دوماً : ان أرى وألمس ، اكثر ما يمكن ، الأرض والبحر قبل ان أموت ·

ونهضت ، وبدلت رأيي · وبدلا من ان اتسلق الجبل ، نزلت بخطى سريعة نحو الشاطىء · كنت احس في جيب سترتي الاعلى بالرسالة الثانية ، ولم أعد أطيق صبراً · وقلت في نفسي : « لقد دام طويلا هذا التمهيد للفرح ، العذب جداً والمقلق جداً » ·

ووصلت الى الكوخ ، وأشعلت النار ، واعددت الشاي ، وأكلت خبزاً مع الزبدة والعسل وبرتقالات وخلعت ثيابي ، وتمددت على سريري وفتحت الرسالة :

« السلام ، يا معلمي وتلميذي الجديد ! »

« لقد قمت بعمل ضخم وصعب ، ليتبارك « الله » ـ انني اضع الكلمة الخطرة بين هلالين مزدوجين (مثل حيوان مفترس بين القضبان) ، كي لا يتملكك النزق بعد ان تفتح الرسالة · لقد قمت بعمل صعب ، ليتبارك «الله» ! ان نصف مليون من اليونانيين يواجهون الخطر في روسيا الجنوبية والقوقاز · كثيرون منهم لا يتكلمون الا التركية او الروسية ، لكن قلبهم يتكلم اليونانية بتعصب · انهم من دمنا · يكفي ان تراهم : الطريقة التي تلمع بها اعينهم الناقبة والشرهة ، الطريقة التي تبتسم بها شفاههم بخبث وتلذذ ، والطريقة التي نجحوا بها في ان يصبحوا سادة هنا ، على هذه الأرض الروسية الشاسعة ، وفي ان يستخدموا فلاحين روسيين ، يكفي ان ترى ذلك حتى تفهم انهم احفاد حقيقيون لمحبوبك « أوليس » · وعندئذ ستحبهم ولا تتركهم يهلكون ·

« لأنهم يواجهون خطر الهلاك · لقد فقدوا كل ما لديهم ، فهم جائعون ، عراة · وهم مطاردون من قبل البلاشفة من جهة ، ومن قبل الأكراد من جهة ثانية · من كل مكان ، جاء اللاجئون ليتكوموا في بضع مدن من جورجيا وأرمينيا · وليس عندهم طعام ، ولا ثياب ، ولا أدوية · انهم يتجمعون في الموانىء ، ويتفحصون الأفق بقلق ليتبينوا ما اذا كانت المراكب اليونانية قد جاءت لاعادتهم نحو امهم ، اليونان · أن جزءاً من عرقنا ، جزءاً من روحنا ، يعيش طريد الذعر ·

« اذا تركناهم لمصيرهم ، فانهم هالكون · لا بد من كثير من الحب والتفهم ، والحماسة والروح العملية ـ وهما الصفتان اللتان تحب ان تراهما مجتمعتين ـ كي نتمكن من انقاذهم ونقلهم الى ثرانا الحر ، هناك حيث سيقدمون اعظم الفائدة لعرقنا ـ هناك عالياً عند حدود ماسيدونيا ، وابعد من

ذلك ، عند حدود تراسيا • هكذا فقط سينقذ مئات الألوف مـن اليونانيين ، وننقذ انفسنا معهم • لأنني ، منذ الدقيقة التي وصلت فيها الى هنا ، رسمت دائرة ، حسب تعليماتك ، وسميت هذه الدائرة : « واجبي » • وقلت : « اذا انقذت هذه الدائرة كلها ، فانني اكون قد انقذت نفسي ، اما اذا لم انقذهـا ، فانني لهالك » • والخمسمئة الف يوناني انما هم موجودون في تلك الدائرة •

« انني اجتاز المدن والقرى ، واجمع اليونانيين ، واحرر تقارير وبرقيات ، واجاهد لأجعل حكامنا في اثينا يقررون ارسال مراكب ، واغذية ، وثيـــاب ، وادوية ، ولأعمل على نقل تلك المخلوقات الى اليونان • اذا كان النضال الحاد العنيد سعادة ، فانني لسعيد • لست ادري اذا كنت ، كما تقول ، قد «فصّلت» سعادتي على قدي، واذا صحّ ذلك ، تكون قامتي،وحمداً للسماء، طويلة•انني أفضل على كل حال ان أمد قامتي حتى أبعد حدود اليونان التي هي في الوقت نفسه حدود سعادتي • لكن ، لنعلن الهدنة مع النظريات ! انك الآن ممدد على ساحلك الكريتي ، تصغي الى البحر والسانتوري ، ولديك الوقت ، أما أنا فلا • ان النشاط ليلتهمني ، واني لمسرور لذلك • فالعمل هو الطمأنينة الوحيدة •

« ان موضوع تأملاتي الان بسيط جدا ، انني أقول لنفسي دفعة واحدة : « ان سكان « البونت » و « القوقــاز » هؤلاء ، وفلاحي « كارس » ، وتجـــار « تفليس » و « باتوم » و « نوفوروسيسك »، و « روستوف »،و « أوديسا » ، و « كريمة » انما هم منا ، من دمنا ، وعاصمة اليونان بالنسبة لهم ، كمـا هي بالنسبة لنا ، القسطنطينية • ان قائدنا جميعاً واحد • انت تدعوه « اوليس » وآخرون «قسطنطين الباليولوجي(١)» ليس ذاك الذي قتل تحت أسوار بيزنطة، بل الآخر ، بطل الاسطورة ، الذي تحول الى رخام ، والذي ينتظر ، واقفـاً ، ملاك الحرية • اما انا ، فانني أدعو قائد عرقنا ، بعد اذنك ، اكريتاس (٢) • ان هذه الكلمة تعجبني أكثر من غيرها ، فهي اشد صلابة وحربية • انني ما ان اسمعها ، حتى ينتصب امامي ، شاكي السلاح ، الهيليني الخالد ، الذي يقاتل بلا هدنة ولا نصب ، في الثغور ، وعند الحدود • يقاتل عند مختلف الحدود : القومية ، والفكرية ، والروحية • واذا ما أضفنا ايضا « ديجينيس » ، فانـنـا نكون قد عبرنا بشكل اعمق عن عرقنا ، الذي هو تركيب رائع للشرق والغرب •

« انني موجود الآن في « كارس » ، حيث جئت لأجمع يونانيي جميع قرى الضواحي • وفي يوم وصولي بالذات ، أخذ الاكراد ، عند ضواحي كـارس ،

---

١ ــ آخر الاباطرة البيزنطيين قتل في دفاعه عن القسطنطينية ضد محمد الفاتح (هـ٠م)

٢ ــ ديجينيس اكريتاس : بطل اسطوري لملحمة يونانية • اكريتاس كلمة تعني اميرَ ثغر • وديجينيس : من العرقين اليوناني والشرقي • (هـ٠م)

قساً ومعلماً يونانيين ، وسمروا اقدامهما بنعال من حديد كالبغال . والتجأ الاعيان هلعين ، الى المنزل الذي نزلت فيه . اننا نسمع مدافع الاكراد وهي تقترب وقد ثبت الجميع اعينهم علي ، وكأنني انا الوحيد القادر على انقاذهم .

« كنت عازماً على الذهاب غداً الى تفليس ، لكنني اشعر بالخجل من الابتعاد الآن امام الخطر . انني باقٍ اذن . لا اقول انني لست خائفاً ، انني خائف ، خجل . أما كان « محارب رامبراندت » ، « محاربي » ، ليفعل الشيء ذاته ؟ لو كان محلي لبقي ، انني باقٍ اذن ، انا الآخر . اذا دخل الاكراد المدينة، فمن الطبيعي والعدل ان اكون أول من يسمرونه . انك لم تكن لتتوقع بالتأكيد، يا معلمي ، ان ينتهي تلميذك نهاية البغال هذه .

« لقد قررنا ، بعد مناقشة طويلة جداً كما هي عادة اليونانيين، ان يجتمع الجميع هذا المساء ، مع بغالهم ، واحصنتهم ، وابقارهم ، وخرافهم ، ونسائهم ، واطفالهم ، وان نبدأ سيرنا معاً ، عند الفجر ، نحو الشمال . وسأسير في الطليعة كالكبش يقود القطيع .

« يا للهجرة الرعوية لشعب ، عبر سلاسل الجبال والسهول ذات الاسماء الاسطورية ! وانا سأكون ، اشبه بموسى وهو يقود الشعب المختار نحو الارض الموعودة ، كما يدعو هؤلاء السذج أرض اليونان . وقد كان لا بد بالتأكيد ، كي اكون بمستوى مهمتي الموسوية ، وكي لا اسبب لك العار ، ان اخلع حذائي الجلدي الانيق ، الذي كان موضع سخريتك ، وان الف ساقي بعصائب من جلد الخراف . وان تكون لي أيضا لحية متموجة دسمة ، واهم من ذلك كله ، ان يكون لي قرنان . لكن اعذرني ، فلن احقق لك هذه المسرة . انه لمن الاسهل علي ان ابدل روحي من ان ابدل ثيابي . انني انتعل جزمة جلدية ، وانني لحليق مثل لب الملفوف ، ولست متزوجاً .

« أيها المعلم العزيز ، ارجو ان تستلم هذه الرسالة التي قد تكون الاخيرة . لا أحد يدري . انني لا اثق بالقوى السرية التي تحمي البشر ، كما يقولون . انني اؤمن بالقوى العمياء التي تضرب يميناً ويساراً ، دون خبث ، دون هدف ، وتقتل كل من تصيبه . اذا تركت (اقول « تركت » كي لا اخيفك واخيف نفسي باستعمال الكلمة المضبوطة) ، اذا تركت الارض ، فعش في صحة جيدة ، سعيداً ، أيها المعلم العزيز ! انني خجل من ان اقول لك ذلك ، لكن هذا واجب فاعذرني : أنا أيضاً قد احببتك كثيراً » .

وفي اسفل الصفحة ، كتب بالقلم هذه الملاحظة السريعة : « ملاحظة : ان الاتفاق الذي عقدناه على المركب ، يوم رحيلي ، لن انساه . اذا كان علي ان « اترك » الارض ، فانني سأعلمك ، حيثما كنت ، فلا تخشَ شيئاً » .

- ١٣ -

مضت ايام ثلاثة ، واربعة ، وخمسة ، ولم يعد زوربا ٠

وفي اليوم السادس ، تلقيت من « كادي » رسالة في عدة صفحات ، ذات نفس واحد ، كتبت على ورق وردي معطر ، وفي زاويتها العليا قلب يخترقه سهم ٠

وحفظتها بعناية واعدت كتابتها محتفظاً بالتعابير المدروسة المتناثرة هنا وهناك ٠ ولم أقم سوى باصلاح اخطائه الاملائية الساحرة ٠ ان زوربا ليمسك بالريشة كما يمسك بالمعول ، ويضرب بقوة ، ولهذا كانت الورقة مثقوبة وملطخة بالحبر ، في عدة امكنة ٠

« انني اتناول الريشة لأسأل اذا كانت صحتك جيدة أولا ، ولأقول لك ثانياً اننا ، نحن ايضاً ، في صحة جيدة ، وليتبارك الله !

« اما بالنسبة لي فقد لاحظت منذ زمن بعيد انني لم آتِ الى العالم حصاناً أو ثوراً ٠ ان الحيوانات هي وحدها التي تعيش لتأكل ٠ وانني أخلق لنفسي أعمالا كثيرة ليل نهار ، كي افلت من التهمة المذكورة اعلاه ، واغامر بخبزي من أجل فكرة ، واقلب الامثال وأقول : « ان دجاجة تسبح في الماء أفضل من دوري في قفص » ٠

« ان الكثيرين وطنيون ، لكن هذا لا يكلفهم شيئاً ٠ اما أنا فلست وطنياً ٠ ولو سبب لي ذلك الأذى ٠ ان الكثيرين يؤمنون بالفردوس وموقنون بأنهم سيدخلون حميرهم الى تلك المراعي الغنية ٠ اما انا ، فليس عندي حمار ، انني حر ، لست اخاف الجحيم ، حيث قد يفطس حماري ، ولست أرجو الفردوس حيث سيعلف بالفصة ٠ انني لست متعلماً ، ولا احسن التعبير ، لكنك تفهمني ايها الرئيس ٠

« لقد خاف الكثيرون من بطلان الاشياء ، اما انا فلست بحاجة الى

التفكير • انني لا أسر للخير ، ولا أحزن للشر ، واذا علمت ان اليونانيين قد اخذوا القسطنطينية ، فهذا سيان عندي كما لو ان الاتراك اخذوا اثينا •

« واذا رأيت ، بعد ان تقرأ ما اكتبه لك هنا ، ان ذكائي قد ضعف ، فاكتب لي بذلك • انني أذهب الى مخازن « كاري » لشراء حبال المصعد ، وأضحك •

« انهم يسألونني « لمّ تضحك ، ايها الصديق ؟ » • لكن كيف اشرح لهم ؟ انني اضحك لانني ، في اللحظة التي امد فيها يدي لأرى اذا كانت الحبال الحديدية جيدة ، افكر فجأة في ماهية الانسان ، وفي السبب الذي جاء من اجله الى العالم ، وفي الفائدة المرتجاة منه ••• وفي رأيي انه لا يفيد شيئاً • ان كل الاشياء متشابهة ، وسيان أكانت لي امرأة أم لم تكن،وسيان أكنت شريفاً أم غير شريف ، أم كنت باشا أو حمالا • الخلاف الوحيد هو ان يكون حياً أو ميتاً • فاذا ما استدعاني الشيطان أو الله ــ ماذا تريد ، انهما لشيء واحد بالنسبة لي ــ فانني سأفطس ، واصبح جثة منتنة وافسد الهواء على الناس ، فيضطرون الى دفني على عمق أربعة أقدام تحت الأرض كي لا يختنقوا •

« وبالمناسبة ، ايها الرئيس ، فانني سأطلب منك شيئاً يخيفني ــ الوحيد الذي يخيفني ــ ولا يترك لي راحة لا ليلا ولا نهاراً • انني اخاف الشيخوخة ، ايها الرئيس ، فلتقِنا السماء منها ! ان الموت لا شيء ، مجرد بف ! وتنطفىء الشمعة • لكن الشيخوخة عار •

« انني لأعتبر عاراً كبيراً جداً ان اعترف انني شيخ ، واقوم بكل ما في طاقتي كي لا يتبين أي انسان انني قد شخت : انني اقفز ، وأرقص ، ويؤلمني ظهري، لكنني ارقص ، انني اشرب، فاشعر بالدوار ، ويختلط كل شيء حولي، ولكنني لا اكبو ، واتصرف وكأنه ليس بي شيء • انني اعرق ، فأغطس في البحر ، فأصاب بالبرد ، وأرغب في السعال ، احم ، احم ! كي اعيد الهدوء الى صدري ، لكنني اخجل ، ايها الرئيس ، فأكبت السعال بالقوة ــ هل سمعتني بعض المرات أسعل ؟ ابداً ! وليس امام الناس فحسب ، كما يمكن ان تظن ، لكن عندما أكون بمفردي أيضاً • انني اخجل امام زوربا ، ايها الرئيس • انني اخجل امامه !

« ذات يوم ، في جبل آتوس ــ لقد ذهبت الى هناك ايضاً ، واولى بي لو كسرت رجلي ولم اذهب ــ تعرفت على راهب ، الاب لافرنتيو ، وأصله من « شيو » • وكان هذا الانسان المسكين يعتقد ان فيه شيطاناً ، بل لقد اعطاه اسماً ، فيدعوه : « الخوجا » • وكان لافرنتيو المسكين يصيح على عتبة الكنيسة وهو يضرب رأسه : « الخوجا يريد أن يأكل لحماً يوم الجمعة المقدس • الخوجا

يريد أن ينام مع امرأة ، الخوجا يريد ان يقتل رئيس الدير • انه الخوجا ، الخوجا ، وليس انا ! » • ويضرب جبينه بالصخر •

« انا ايضاً ايها الرئيس ، فيَّ مثله شيطان وانني لأدعوه زوربا • ان زوربا الذي في داخلي لا يريد ان يشيخ ، وهو لم يشخ ، ولن يشيخ ابداً • انه غول شعره أسود كالغراب ، وله اثنتان وثلاثون سناً ، وقرنفلة حمراء وراء اذنه • لكن زوربا الذي في الخارج ، قد شاخ ، الشيطان المسكين ، ونبت له شعر أبيض ، وامتلأ جلده غضوناً وتقلص ، واخذت أسنانه تسقط ، ووخط رأسه الكبير شيب الشيخوخة الأبيض ، وامتلأ بشعر الحمار الطويل •

« ما العمل ، ايها الرئيس ؟ الامَّ سيختصم هذان الزوربايان ؟ من منهما سينتصر في النهاية ؟ اذا مت سريعاً ، فهذا حسن ، ولن اقلق • لكن اذا عمرت أيضاً طويلا ، فانني هالك • انني هالك ، ايها الرئيس ، فسيأتي يوم أُذل فيه • سأفقد حريتي ، وتأمرني حماتي وابنتي بأن أراقب طفلا صغيراً ، وحشاً مريعاً ، سليلهما ، كي لا يحرق نفسه ، ولا يقع ولا يتسخ • واذا ما وسخ نفسه ، فانهما ستضطرانني الى تنظيفه ! افٍ !

« انت ، ستتعرض للعار نفسه ، ايها الرئيس • وعلى الرغم من انك شاب ، كن على حذر ! اصغِ الى ما اقوله لك ، واتبع الطريق نفسه الذي اتبعته انا • ليس ثمة سلام آخر ، فلندلف الى الجبال ، ولنستخرج منها الفحم ، والنحاس ، والحديد والتوتياء ، ولنربح المال كي يحترمنا الاقارب ، ويلعق الاصدقاء أحذيتنا ، ويرفع البورجوازيون قبعاتهم لنا • واذا لم ننجح ، ايها الرئيس ، فمن الافضل ان نموت ، وان تقتلنا الذئاب والدببة ، أو أي حيوان كاسر آخر يجدنا امامه • وانما لهذا السبب أرسل الله الحيوانات المفترسة الى الارض ، لكي تلتهم بعضاً من أفراد جنسنا ، حتى لا يذلوا » •

وهنا كان زوربا قد رسم ، بالاقلام الملوَّنة ، رجلا طويلا ، نحيفاً ، يجري تحت أشجار خضر ، وفي اثره سبعة ذئاب حمر ، وتحت هذا الرسم ، كتب ، بأحرف كبيرة : « زوربا والخطايا السبع الرئيسية » •

ويتابع رسالته :

« بعد ان تقرأ رسالتي ، ستتبين اي انسان تعيس انا • وانني لا أرجو اي أمل في الخلاص من سوداويتي الا عندما احدثك • لأنك ، انت ايضاً ، مثلي ، لكنك لا تعرف ذلك • انت ايضاً فيك شيطان ، لكنك لا تعرف بعد ماذا ُيدعى ، وانك لتختنق بسبب ذلك • عمِّده ، ايها الرئيس ، واعد الطمأنينة الى نفسك !

« كنت أقول اذن كم كنت تعيساً • انني أرى بوضوح ان كل ذكائي ليس الا حماقة ولا شيء آخر • ومع ذلك • يحدث لي ان أمر بأيام أفكر فيها تفكير انسان كبير ، ولو كنت استطيع عند ذاك ان أحقق كل ما هو عليه الآن !

« ولما لم يكن بيني وبين حياتي عقد محدّد ، فانني أرخي العنان عندما أصل الى أخطر المنحدرات • ان حياة الانسان طريق لها مرتفعاتها ووهادها • وذوو العقول يتقدّمون وايديهم على العنان • اما انا ايها الرئيس ، وهنا تكمن قيمتي ، فقد القيت بالعنان منذ زمن بعيد ، لان الصدمات لا تخيفني • اننا ندعو ، نحن العمال ، الخروج عن الخط الحديدي اصطداماً • ولتعلق مشنقتي اذا كنت أعير الصدمات التي أقوم بها انتباهاً • ان لي في كل عرس قرصاً ، وأنا أفعل ما يحلو لي ، ولا أبالي ان متّ • ما الذي أخشى عليه من الضياع ؟ لا شيء • وعلى كل حال ، حتى ولو عشت طويلا ، فانني سأموت في النهاية ! هذا أكيد ! اذن ، فلنحرق المراحل !

« يقيناً انك لتضحك الآن أيها الرئيس بسببي ، لكنني اكتب لك عن خمولي ، او ، اذا كنت تفعل ذلك ، عن تفكيري أو ضعفي — وما الفرق بين الثلاثة ، انني ، والحق ، لا أرى فرقاً — انني اكتب لك ، فاضحك انت اذن اذا شئت • انا ايضاً أضحك لمعرفتي بأنك تضحك ، وهكذا فان الضحك لن ينتهي على الارض • أن لكل انسان حماقاته ، لكن الحماقة الكبرى في رأيي هي ألاّ يكون للانسان حماقات •

« اذن فأنا ايضاً هنا في « كاندي » ، ادرس جنوني ، واكتب لك عن كل شيء بالتفصيل ، لانني أريد ، كما ترى ، ان اسألك نصحاً • انك لا تزال شاباً ، ايها الرئيس ، هذا صحيح • لكنك قرأت الحكماء الأسبقين واصبحت — أرجو — هرماً قليلا ، وانا بحاجة الى نصحك •

« اذن ، فانني اعتقد ان لكل انسان رائحته الخاصة به ، ونحن لا نميّزها لان الروائح تختلط فلا نعرف ايها الخاصة بك ، وايها الخاصة بي ••• اننا نفهم فقط ان تفوح رائحة العفونة من ذلك ، وهذا ما ندعوه « الانسانية » ، اعني العفونة الانسانية • وثمة من يستروحها وكأنها رائحة الخزامى • اما انا فتدفعني الى القيء • لكن دعنا من ذلك ، فتلك قصة أخرى •

« كنت اريد بالاحرى ان اقول ، وسأطلق العنان مرة أخرى ، ان اولئك السافلات ، النساء ، أنوفهن رطبة دوماً ، كالكلبات ، وهن يستروحن فوراً رائحة الرجل الذي يشتهيهن والذي لا يشتهيهن • ولهذا فقد كان هناك دوماً ، في كل مدينة أحطّ فيها قدمي ، وعلى الرغم من انني قد اصبحت الآن مسناً

وقبيحاً كقرد لا اعتني بثيابي ، امرأتان أو ثلاث ليجرين ورائي · انهن يتتبعن اثري كما ترى ، اولئك الكلبات · ليباركهن الله !

« اذن ، في اليوم الاول من وصولي سالماً الى كاندي ، كان الوقت مساء ، عند افول النهار · واسرعت فوراً الى المخازن ، لكن كل شيء كان مغلقاً · وذهبت الى فندق ، وقدّمت علفاً لبغلتي ، وأكلت انا ايضاً ، واغتسلت · واشعلت سيجارة وخرجت لأقوم بجولة · لم أكن اعرف اي انسان في المدينة ولا احد يعرفني · كنت حراً · كان بامكاني ان اصفّر في الشارع ، واضحك ، واتكلم بمفردي · واشتريت قليلا من بزر اليقطين المقلي ، ورحت اتسلى به وابصق ، واتنزّه · كانت مصابيح الشوارع قد أُشعلت · ومضى الرجال لتناول بعض المشروب ، وعادت النساء الى منازلهن ، وكان الجو عبقاً برائحة المساحيق والصابون وشرائح اللحم المقلي والعرق · ورحت اقول في نفسي : « قل اذن ، ايها العجوز زوربا ، الى متى ستظل حياً يختلج منخراك ؟ لم يبقَ أمامك وقت طويل لاستنشاق الهواء ، يا عجوزي المسكين ، هيّا واستنشق حتى الاعماق ! »

« هذا ما كنت اقوله لنفسي وانا اسير عرضاً وطولا في الساحة التي تعرفها · وفجأة ، سمعت صياحاً ، ورقصاً ، وقرع طبول وأغاني · وارهفت اذني واخذت اركض نحو الجهة التي تأتي منها الضجة · كان المكان عبارة عن مقهى وملهى · لم اكن اطلب غير ذلك ، فدخلت · وجلست الى مائدة صغيرة ، في المقدمة · وما الذي اخشى ؟ فكما قلت لك ، لم يكن ثمة انسان يعرفني · حرية كاملة !

« كانت هناك امرأة طويلة ترقص فوق المنصة ، ترفع بذلتها وترخيها ، لكنني لم أعرها انتباهاً · وطلبت زجاجة جعة ، وجاءت فرخة صغيرة لتجلس الى جانبي · فتاة لطيفة ، شديدة السمرة ، على وجهها طبقة كثيفة من الاصباغ ·

« وقالت لي وهي تضحك : أتسمح أيها الجدّ ؟ وصعد الدم الى رأسي · وتملكتني رغبة قوية في ان ادق عنقها ، تلك البلهاء ! لكنني تمالكت نفسي ، مشفقاً عليها ، وناديت النادل :

« ـ شمبانيا !

« (يجب ان تعذرني ، ايها الرئيس ! فقد انفقت كل مالك ، لكن كان لا بد من مواجهة الموقف ، من انقاذ شرفنا ، شرفي وشرفك ، كان يجب ان اجعلها تركع امامنا ، تلك البلهاء ! كان لا بد من ذلك · انني أعلم جيداً انك ما كنت

لتتركني هكذا ، دون دفاع ، في تلك اللحظة الصعبة . اذن : شمبانيا ، أيها النادل !) .

« وجاءت الشمبانيا ، وطلبت ايضاً حلوى ، ثم شمبانيا من جديد . ومرَّ رجل معه ياسمين ، فاشتريت السَّلة كلها ، وافرغتها على ركبتي تلك الجبانة التي تجرأت على اهانتنا .

« ورحنا نشرب ، ونشرب ، لكنني اقسم لك ايها الرئيس انني لم امسها. انني اعرف شغلي . عندما كنت شاباً ، كان أول ما افعله هو المداعبة . اما الآن وقد أصبحت عجوزاً ، فان اول ما افعله هو ان انفق واتظاهر بالظرف ، وارمي بالمال يميناً وشمالا . ان النساء يغرمن بمثل هذه الحركات ، انهن يغرمن بها ، العاهرات ، ويمكنك ان تكون أحدب ، يمكنك ان تكون حطاماً قديماً ، قبيحاً كقملة ، الا انهن يتناسين كل شيء . انهن لا يرين شيئاً ، السافلات ، لا شيء سوى اليد التي تجعل المال ينساب وكأنها سلة مثقوبة . كنت أقول اذن انني انفقت كثيراً وأكثر من الكثير ، لتكن مباركاً وليعوضك الرحمن عنه مئة ضعف ، ايها الرئيس ، وما كانت الفتاة لتنصرف . واخذت تقترب بهدوء ، وتضغط بركبتها الصغيرة على ساقيَّ الطويلتين .

« لكنني ، كنت كالجليد ، اما في داخلي فقد كنت اتحرَّق . ذاك هو ما يجعل النساء يفقدن العقل ، يجب ان تعرف ذلك في حالة سنوح مثل هذه الفرصة لك : ان تحس بأنك تحترق في الداخل لكنك مع ذلك لا تلمسهن حتى مجرد لمس .

« باختصار ، جاء منتصف الليل وانقضى . وانطفأت الانوار شيئاً فشيئاً ، وبدأ المقهى يغلق ابوابه . واخرجت رزمة من اوراق الالف ودفعت تاركاً للنادل مبلغاً سخياً . وتعلَّقت الصغيرة بي . وسألتني بصوت متخاذل :

ـ ما اسمك ؟

فأجبت غاضباً :

ـ الجدّ !

وقرصتني الصغيرة بقوة وقالت بصوت منخفض :

ـ تعالَ ... تعالَ ...

واخذت يدها الصغيرة ، وضغطت عليها موافقاً ، وأجبت بصوت مبحوح :

ـ هيا يا صغيرتي ...

« اما الباقي ، فلا بد انك تعرفه . ثم اخذنا النعاس . عندما استيقظت ، كان الوقت ظهراً . ونظرت حولي فماذا وجدت ؟ غرفة صغيرة ظريفة ،

وأرائك ، ومغسلة ، وصابونـــاً ، وزجاجات صغيرة وكبيرة ، واثواباً زاهية معلّقة على الجدار ومجموعة ضخمة مـن الصور : صور بحّارة ، وضبـاط ، وقوّاد ، ودرك ، وراقصات ، ونساء ليس عليهـن من الثيـاب سوى نعلين صغيرين ٠ والى جانبي ، في الفراش ، الفتاة ، مشعثة الشعر ، حارة ، يفوح منها العطر ٠

« وقلت في نفسي وانا اغمض عيني من جديد : آه ! يا زوربا ، لقـد دخلت الجنة حياً ٠ المكان جيد ، فلا تتحرّك من هنا ! »

« لقد قلت ذلك سابقاً ، أيها الرئيس ، ان لكلٍ فردوسه الخاص : ان فردوسك ، سيكون محشواً بالكتـب ودمجانات الحبر الكبيرة ٠ وبالنسبة لانسان آخر سيكون محشواً ببراميل الخمر والروم والكونياك ٠ وبالنسبـة لآخر ، بأنضاد الجنيهات الاسترلينية ٠ اما فردوسي انا فهو هذا : غرفـة صغيرة عبقة فيها اثواب زاهية ، وصابون ، وسرير عريض ذو نوابض ، والى جانبي امرأة ٠

« ان الخطيئة التي تعترف بها يغفر لك نصفها ٠ انني لم اخرج طـوال النهار ٠ فالى أين اذهب ؟ وماذا افعل ؟ تصوّر ! كنت مرتاحاً هنا ٠ وطلبـت طعاماً من افضل فندق ، فجاؤونا بطبق كبير ، ليس فيه الا كل ما هو مقوٍ : كافيار اسود ، وشرائح لحم ، وسمك ، وليمون معصور ، وقطايف ٠ وقمنـا بالحب مرة أخرى ثم عدنا الى النوم ٠ واستيقظنا حوالي المساء ، وارتدينا ثيابنا وذهبنا واذرعنا متشابكة الى المقهى حيث تعمل ٠

« كي اوضّح لك الامور بكلمات قليلة ، ولا اصدع رأسـك بالكلام ، فانني اقول لك ان هذا البرنامج لا يزال مستمراً ٠ لكن لا تغضب ، فانني اهتم أيضاً بقضايانا ٠ من حين لحين اذهب لالقـاء نظرة على المخازن ٠ سأشتري الحبال وكل ما هو لازم ، كن مطمئناً ٠ قبل يوم ، أو بعد اسبوع ، أو حتى شهر ، فماذا يعني هذا ؟ وكما يقول المثل : ان القطة ، في عجلتها ، تضـع أولادها خلسة ٠ اذن لا تتعجل كثيراً ٠ انني انتظر من اجل مصلحتك ، ان تتفتح اذناي ، ويتوقد ذهني ، كي لا يغشني احد ٠ يجب ان تكون الحبال من النوع الاول ، والا فقد اضعنا كل شيء ٠ اذن اصبر قليلا ، أيها الرئيس ، وثق فيّ ٠

(على الاخص ، لا تقلق على صحتي ٠ ان المغامرات تفيدني ٠ في بضعة ايام ، عدت من جديد شاباً في العشرين ٠ انني احس بقوة ، اؤكد لك ، الى حد ان اسناناً جديدة ستنبت لي ٠ كان ظهري يؤلمني قليلا ، لكنني اتمتع بصحة

قوية الآن • كل صباح انظر الى نفسي في المرآة ، فأدهش لكون شعري لم يصبح بعد اسود كالطلاء •

« لكنك ستتساءل لماذا اكتب لك كل هذا • لانك بالنسبة لي اشبه بمعرِّف ولست اخجل من ان اعترف لك بخطاياي • أو تعرف لماذا ؟ لانك تهتم ، على ما يبدو لي بكل ما افعله ، سواء أكان خيراً أم شراً ، كما يهتم المقامر باللعب • انت أيضا تمسك باسفنجة ندية كالاله : فلاب ! فلوب ! انك تمحو كل شيء ، أخيراً كان أم شراً • هذا ما يشجعني على الاعتراف لك بكل شيء • اذن ، اصغ !

« لقد بدأت الامور تختلط علي ، وانني اكاد افقد رشدي • أنني ارجوك ، في اللحظة التي تستلم فيها هذه الرسالة ، أن تأخذ ريشتك وتكتب الي • والى ان اتلقى رداً ، فانني سأظل على أحرِ من الجمر • انني أعتقد انني منذ سنوات ليست بالقليلة لم اعد مسجلا في سجلات الرحمن • ولا في سجلات ابليس أيضاً • انني لست مسجّلا الا في سجلك ، اذن فليس امامي انسان اتوجّه اليه الا سيادتك ، اذن اعر اذنك لما سأقوله لك • هذا ما يجري :

« البارحة ، كان يوم عيد في قرية قريبة من كاندي • وليأخذني الشيطان اذا كنت اعرف عيد أي قديس • وقالت لي لولا ــ هذا صحيح ، لقد نسيت ان اقدّمها لك : انها تُدعى لولا ــ :

« أيها الجدّ (انها تدعوني من جديد بالجد ، لكن على سبيل المداعبة الآن) أيها الجد ، انني أود الذهاب الى العيد •

فقلت لها :

ــ اذهبي ، ايتها الجدّة ، اذهبي •

ــ لكنني اريد ان أذهب معك •

ــ انني لن أذهب • لدي عمل هنا • اذهبي بمفردك •

ــ اذن ، فلن اذهب أنا أيضاً •

وجحظت عيني :

ــ لن تذهبي ، لماذا ؟

ــ اذا جئت معي ، فسأذهب • واذا لم تجيء ، فلن اذهب •

ــ لكن لماذا ؟ ألست اذن شخصاً حراً ؟

ــ لا ، انني لست حرة •

ــ ألا تريدين ان تكوني حرّة ؟

ــ كلا !

وايم الحق ، لقد احسست بأنني أصبحت معتوها ٠ وصرخت :

ـ ألا تريدين ان تكوني حرة ؟

ـ لا ، لا أريد ! لا أريد ! لا أريد !

« أيها الرئيس ، انني اكتب لك من غرفة لولا ، على ورق لولا ٠ وحباً بالله ، أنتبه ، ارجوك ٠ انا اعتقد ان الذي يريد ان يكون حراً هو وحده مخلوق انساني ٠ المرأة لا تريد ان تكون حرة ٠ اذن ، فهل المرأة مخلوق انساني ؟

« اغثني ، واكتب لي فوراً ٠ انني اقبلك من كل قلبي ، يا رئيسي الطيب ٠

« انا ، ألكسيس زوربا » ٠

عندما انهيت قراءة رسالة زوربا ، بقيت متردداً ملياً ، لم أكن ادري أعليَّ ان أغضب ، أو أضحك أو أعجب بهذا الانسان البدائي الذي يبلغ الجوهر عن طريق تحطيم المنطق والاخلاق والصدق التي هي قشرة الحياة ٠ انه يفتقر الى جميع الفضائل الصغيرة ، مهما كانت مفيدة ٠ لم يبق لديه الا فضيلة واحدة عسيرة ، صعبة ، خطرة تدفعه بشكل لا يقاوم نحو الحد الاقصى ، نحو الهاوية ٠

ان هذا العامل الجاهل ليحطم ، في فورته اللجوج ، الريشة عندما يكتب ٠ انه كأولئك الرجال الذين كانوا أول من نزعوا عن أجسادهم جلد القرود ، أو كالفلاسفة الكبار ، تسيطر عليه المشاكل الاساسية ٠ فهو يراها وكأنها ضرورات فورية وعاجلة ٠ انه شبيه بالطفل ، يرى الاشياء دوماً لاول مرة ٠ انه يندهش باستمرار ويسأل ٠ كل شيء يبدو له معجزاً ، وكل صباح ، عندما يفتح عينيه ويرى الاشجار والبحر والصخور ، وطائراً ما يقف فاغر الفم ٠

انه يصيح : « ما هذه المعجزة ؟ ما هذه الاسرار التي تُدعى : شجرة : بحر ، صخرة ، طائر ؟ » ٠

انني اذكر ذات يوم ، وكنا نسير الى القرية ، اننا صادفنا عجوزاً ضئيلا يمتطي بغلا ٠ وجحظ زوربا عينيه المستديرتين وهو ينظر الى الدابّة ٠ ولا شك ان نظرته كانت ملتهبة ونافذة جداً الى حد أن الفلاح صاح مذعوراً :

ـ حباً بالله ، لا ترمِه بعين حسود !

ورسم اشارة الصليب ٠

والتفتُ الى زوربا وسألته :

ـ ما الذي فعلت للعجوز حتى صاح هكذا ؟

ـ انا ؟ لم افعل له شيئاً ! لقد نظرت الى البغل عجباً ! أهذا لا يدهشك ،

انت أيها الرئيس ؟

ـ ماذا ؟

ـ ان توجد بغال على الارض ٠

وفي يوم آخر ، بينما كنت أقرأ مستلقيـاً على الشـاطىء ، جاء زوربا وجلس بمواجهتي ، ووضع السانتوري على ركبتيه وراح يعزف ٠ ورفعـت عيني ونظرت اليه ٠ وتبدّل وجهه شيئاً فشيئاً ، وتملّكه فرح وحشي وهزَّ رقبته الطويلة المصقولة وبدأ يغني ٠

ألحان ماسيدونية ، وأغانٍ كليفتية ، وصرخات وحشية ٠ ان الحنجـرة البشرية تعود الى عصور سابقة للتاريخ كانت الصرخة فيها تركيباً عالياً لكل ما نسميه اليوم : موسيقى وشعراً وفكراً ٠ وصرخ زوربا من اعماق احشائه : « آخ ! آخ ! » ، وذابت كل القشرة الرقيقة التي نسميها حضارة ، وافسحت الطريق للوحش الخالد ، للاله المشعر ، للغوريلا المرعبة ٠

واختفى كل شيء : الليـنيت والخسائر والأرباح ، والسيدة هورتـانس ومشاريع المستقبل ٠ لقد حملت الصرخة كل شيء ، ولم نعد بحاجة الى شيء ٠ كنا نحمل ، ونحن واقفان بلا حراك فوق ارض كريت المنعزلة هذه ، كل مرارة الحياة وعذوبتها ، بل ان المرارة والعذوبة لم تعودا موجودتين ، ثـم مـالت الشمس ، وجاء الليل وراح الدب الكبير يرقص حول محور السماء الثابـت ، وصعد القمر وراح ينظر مذعوراً الى حيوانين صغيرين ينشدان فوق الرمال ، لا يخشيان احداً ٠

وقال زوربا فجأة وقد انتشى بسبب الغناء :

ـ حسناً ، يا عجوزي ، ان الانسان حيوان مفترس ، دع كتبـك ، ألا تخجل ؟ ان الانسان حيوان مفترس ، والحيوانات المفترسة لا وجود لهـا في الكتب ٠

وصمت لحظة ثم أخذ يضحك وقال :

ـ أتعرف كيف خلق الاله الانسان ؟ أتعرف ما الكلمات الاولى التي وجهها هذا الانسان الحيوان الى الله ؟

ـ كلا ، كيف تريد ان اعرف ؟ انني لم اكن حاضراً لحظتها ٠

فصرخ زوربا وقد تطايرت عيناه شرراً :

ـ اما انا فقد كنت حاضراً !

ـ اذن ، قل لي !

وراح يخترع ، نصف منتشٍ ، نصف هازيء ، حـكاية خلق الانسـان

الاسطورية :

ـ حسناً ، اصغ ، ايها الرئيس ! ذات صباح ، استيقظ الالـــه الرحيم حزيناً : « اي نوع من الآلهة انا ؟ ليس عندي حتى بشر يحرقون لي البخـــور او يقسمون باسمي ، فأجد فيهم تمضية للوقت ! لقد ضجرت من العيش وحيداً وكأنني بومة عجوز ! » • وبصق في يديه ، وشمّر عن أكمامه ، ووضع نظارتيه، وأخذ جبلة من التراب ، وبصق عليها ، وأحالها الى طين ، وعجنها جيداً كمـا يجب ، وصنع انساناً صغيراً ووضعه في الشمس •

« وبعد سبعة أيام ، سحبه • لقد نضج • ونظر اليه الاله الرحيم وأخـذ يضحك ، وقال :

ـ ليأخذني الشيطان ! لكن هذا أشبه بخنزيـر ينتصب على قدميـــه الخلفيتين ! انه أبعد ما يكون عما أردت ان يكونه !

وأخذه من جلد رقبته ورفسه برجله :

ـ اذهب ، هيا ! اغرب من هنا ! ليس عليك الا أن تصنع خنازير صغيرة الآن ، ان الأرض لك • اغرب ! واحد ، اثنان ، الى الامام ، سر !

«لكنه ، يا صديقي ، لم يكن خنزيراً البتة • كان يرتدي قبعة رخـوة ، وسترة ملقية بلامبالاة على كتفيه ، وسروالا له ثنية ، ونعلين مزدانين بأوراد حمر • ثم أنه كان يحمل في حزامه ـ ولا شك في ان ابليساً هو الذي اعطاه اياه ـ خنجراً مشحوذاً مكتوباً عليه : « سأقتلك ! » •

« كان ذاك هو الانسان • ومدّ الاله الرحيم يده كي يقبلها الآخر ، لكن الانسان فتل شاربه وقال :

ـ « هيا ايها العجوز ، ابعد من هنا كي أمرّ ! »

وتوقف زوربا وقد رآني أتثنى من الضحك ، فعبس ، وقال لي :

ـ لا تضحك ، فالامر قد جرى هكذا !

ـ لكن كيف تعرف ذلك ؟

ـ هكذا أحسّ به ، وهكذا كنت سأفعل ، انا ايضاً ، مكان آدم • انني اراهن برأسي على ان آدم لم يتصرف بطريقة أخرى • لا تثق بكل ما ترويه الكتب ، بل عليك ان تصدقني انا !

ومدّ يده الضخمة دون ان ينتظر جـــواباً وعـــــاد الى العزف على السانتوري •

* * *

وكنت ما ازال امسك برسالة زوربا المعطرة المرسوم عليها قلب قـــد نفذ فيه سهم ، وعشت من جديد كل تلك الايام ، الغنية بالجوهر الانساني ،

التي أمضيتها قربه ٠ ان الزمن الى جانبه قد أصبح له طعم جديد ٠ انه لم يعد مجرد تتابع رياضي للأحداث ، ولم يعد بالنسبة لي مشكلة فلسفية لا حـــلّ لها ٠ بل كان عبارة عن رمل حار ، مصفى بدقة ، وكنت أحس به ينساب من بين أصابعي بحنان ٠

وتمتمت : ليكن زوربا مباركاً ! لقد أعطى جسداً حبيباً وحاراً للمفاهيم المجرّدة التي كانت ترتعد في داخلي ٠ وانني لأعود الى الارتعاد عندما لا يكون هنـــا ٠

وأخذت ورقة ، وناديت عاملاً ، وأرسلت برقية عاجلة :

« عد حالاً » ٠

- ١٤ -

يوم السبت ، الأول من آذار ، بعد الظهر • كنت مستنداً الى صخرة تجاه البحر ، وأنا اكتب • في ذلك اليوم رأيت أول سنونو ، كنت فرحاً ، وكانت عملية طرد بوذا تجري بلا عقبات على الورق• لقد تعدل نضالي ضده• انني لم أعد مستعجلاً وصرت واثقاً من الخلاص •

وفجأة سمعت وقع خطا على الحصى • ورفعت رأسي ورأيت جنيتنا العجوز وهي تسعى على طول الشاطيء ، متبرجة كمركب حربي ، لاهثة ، مندفعة • كانت تبدو قلقة •

وصرخت بقلق :

ـ أهناك رسالة ؟

فأجبت ضاحكاً ، وأنا انهض لأستقبلها :

ـ نعم ! انه يقول لك اشياء كثيرة ، انه يفكر بك ليل نهار ، ويقول انه لا يستطيع طعاماً ولا نوماً وانه لا يطيق الفراق •

فأجابت المسكينة لاهثة •

ـ أهذا كل ما يقوله ؟

واشفقت عليها • أخرجت الرسالة من جيبي وتظاهرت بقراءتها • وفتحت الجنية العجوز فمها الذي تساقطت اسنانه ، والتمعت عيناها الصغيرتان ، وراحت تصغي ، متلاحقة الانفاس •

وتظاهرت بالقراءة ، وكنت عندما يشرد ذهني أتظاهر بأنني أستصعب فهم بعض الكلمات : « ذهبت البارحة أيها الرئيس لتناول الغداء عند بائع لحم مشوي • كنت جائعاً • ورأيت صبية جميلة جداً ، شبيهة بالهة حقيقية ، تدخل • يا للرحمن ! كم تشبه بوبولينتي ! وسرعان ما راحت عيناي تجريان

كالينبوع ، وانقبض زلعومي ، ولم اعد استطيع البلع ! ونهضت ودفعت وانسحبت واستولى علي شوق شديد ، واسرعت ، انا الذي لا يفكر بالقديسين الا مرة كل سنة ، اسرعت الى كنيسة القديس ميناس لأشعل له شمعة . وقلت في صلاتي : « أيها القديس ميناس ، اجعلني اتلقى اخباراً طيبة عن الملاك الذي احبه ، اجعل اجنحتنا تتحد في اقرب فرصة ! » .

وصرخت السيدة هورتانس التي تألق وجهها من الفرح :

ـ هيْ ! هي ! هي !

فسألتها وأنا اتوقف لأستعيد أنفاسي وأختلق أكاذيب جديدة :

ـ لماذا تضحكين ، يا سيدتي ؟ لماذا تضحكين ؟ ان هذا الكلام يدفع بي الى البكاء ، أنا .

فهدلت منفجرة :

ـ لو كنت تعلم ... لو كنت تعلم ...

ـ ماذا ؟

ـ الاجنحة ... هكذا يسمي الأرجل ، السافل ! هكذا يسميها عندما نكون منفردين . انه يتمنى ان تتحد اجنحتنا ...

هيْ ! هي ! هي !

ـ لكن اسمعي الباقي ، يا سيدتي ، انك ستذهلين ...

وقلبت الصفحة وتظاهرت من جديد بالقراءة :

« مررت اليوم أيضاً امام دكان حلاّق . وفي تلك اللحظة بالذات كان الحلاق يفرغ خارج دكانه طسته المليء بماء الصابون . وعبق الشارع كله . وفكّرت من جديد ببوبولينتي ، وأخذت أبكي . انني لا استطيع البقاء بعيداً عنها ، أيّها الرئيس . سأجنّ . تصوّر ، انني أخذت اقرض الشعر أيضاً . لم استطع النوم أول أمس ، فنظمت لها قصيدة صغيرة . آرجوك آن تقرأها لها كي ترى الى أي حد أتألم :

« آه ! لو كنا نستطيع ان نلتقي انت وانا ، في درب ما .

« في درب فسيحة تتسع لألمنا !

« انني حتى ولو قطّعت ارباً ومزّقوا جسدي بالفأس !

« فان حطام عظامي ستظل تسعى نحوك ! »

كانت السيدة هوتانس تصغي بكل سمعها ، سعيدة ، وعيناها ذابلتان نصف مغلقتين . بل انها حلّت عن عنقها الشريط الذي كان يخنقها، وآعادت للغضون حريتها . كانت تقف صامتة مبتسمة . وكانت روحها تطوف فرحة،

سعيدة ، بعيداً جداً ، على غير هدى ·

آذار ، والعشب النضر ، والازاهير الحمر ، والصفر ، والليلكية ،والمياه الصافية حيث تجتمع عصائب من البجع السود والبيض وهي تغني · اناثها بيضاء ، وذكورها سود ، مناقيرها ارجوانية مفتوحة · وراحت اسماك الجري الزرق تخرج من الماء لامعة ، وتتحد بالثعابين الصفر الكبيرة · وعادت السيدة هورتانس من جديد الى سن الرابعة عشرة ، والى الرقص على سجادات شرقية في الاسكندرية ، وبيروت ، وازمير ، والقسطنطينية ، ثم في كريت على سطوح السفن المطلية ··· انها لم تعد تتذكر جيداً · كل شيء اختلط عليها ، وانتصب صدرها ، وطقطقت الشطآن ·

وفجأة بينما كانت ترقص ، امتلأ البحر بسفن مطلية من الأمام بالذهب، وفي مؤخرتها خيام متعددة الألوان ، وراياتها من الحرير · سفن يخرج منها باشاوات تتدلى من طرابيشهم الحمر طرر ذهبية ، وبكوات اغنياء جاؤوا للحج ، وايديهم مثقلة بالهدايا الثمينة ، وابناء بكوات مرت في وجوههم كآبة · سفن يخرج منها أميراليون بقبعاتهم المثلثة اللامعة ، وبحارة بياقاتهم المتألقة البياض وسراويلهم العريضة الخافقة · سفن يخرج منها شبان كريتيون بثيابهم الزرق الفاتحة المنتفخة ، واحذيتهم الصفر ، وقد عقدوا مناديل سوداً حول رؤوسهم · سفن يخرج منها ايضاً زوربا ، لا متناهياً ، قد أهزله الحب ، في اصبعه خاتم خطوبة ضخم ، وعلى شعره الرمادي اكليل من ازهار البرتقال ···

من بين جميع الرجال الذين عرفتهم في حياتها المغامرة ، لم يغب أي منهم ، حتى ولا البحار العجوز ، الأحدب الذي تساقطت اسنانه ، والذي اخذها ذات مساء لتتنزه في مياه القسطنطينية · كان الليل قد ارخى سدوله، ولم يعد يلمحهم احد · وخرجوا جميعاً ، بينما كانت اسماك الجري والثعابين والبجع تتزاوج وراءهم ·

خرجوا وانضموا اليها ، مجتمعين ، كالثعابين العاشقة التي تتلاصق في الربيع حزماً حزماً ، بشكل مستقيم ، وهي تصفّر · وفي وسط المجموعة ، كانت سيدة عمرها اربعة عشر ، وعشرون ، وثلاثون ، وأربعون ، وستون عاماً ، السيدة هورتانس ، تصفر ، بيضاء اللون ، عارية ، يبلّلها العرق ، وشفتاها تنفرجان عن أسنانها الصغيرة الحادة ، بلا حراك ، لا ترتوي ·

لم يضع اي شيء ، ولم يمت أي عاشق · انهم يبعثون جميعاً ، في صدرها الذابل ، شكاة السلاح · فكأن السيدة هورتانس سفينة حربية

عظيمة لها ثلاث صوار ، وكأن جميع عشاقها ـ وهي لا تزال تعمل منذ خمسة واربعين عاماً ـ يتسلقونها ، ويحتلّون مخازنها وسطحها وحبالها ، بينما تتابع هي سيرها، بعد أن ثقبت اكثر من ألف مرة ورمّمت أكثر من ألف مرة، نحو المرفأ الأخير الذي كانت تتمناه بحرارة منذ زمن طويل : الزواج . ويتخذ زوربا ألف وجه : اتراك ، وغربيون ، وارمن ، وعرب ، ويونانيون ، فتعانق السيدة هورتانس بمعانقتها له كل ذلك الموكب المقدس اللامتناهي ..

وتبينت الجنية العجوز فجأة انني قد توقفت ، واختفت رؤياها دفعة واحدة ، ورفعت جفونها المثقلة وتمتمت بصوت مؤنب ، وهي تلعق شفتيها بشره :

ـ ألا يقول شيئاً آخر ؟

ـ ماذا تريدين اكثر من ذلك ، يا سيدتي هورتانس ؟ ألا ترين ؟ ان الرسالة كلها لا تتحدّث الا عنك . انظري ، اربع ورقات . وهناك ايضاً قلب، أنظري ، هنا ، في الزاوية . زوربا يقول انه رسمه بنفسه . انظري ، ان الحب يخترقه من الطرف الى الطرف . وتحته ، أنظري ، حمامتان تتعانقان ، وعلى اجنحتهما كُتب بأحرف صغيرة غير مقروءة بالحبر الأحمر اسمان متعانقان : هورتانس ـ زوربا .

لم يكن هناك حمامتان، ولا كتابة ، لكن عيني الجنية العجوز انتفختا بالدموع ، واصبحتا تريان كل ما تودّان رؤيته .

وسألت من جديد دون ان ترتوي :

ـ ألا شيء آخر ؟ ألا شيء آخر ؟

كل ذلك ـ الأجنحة ، ومياه الحلاق الصابونية ، والحمام الصغير ـ لم يكن الا مجرد كلمات ، لا شيء . لكن عقلها العملي كامرأة كان يطلب شيئاً محسوساً اكثر من ذلك ، وموثوقاً اكثر . الكلمات الطيبة ، كم مرة سمعتها في حياتها !؟ ما الذي افادته منها ؟ انها الآن ، بعد سنين كثيرة من العمل القاسي ، وحيدة ،لاتملك شيئاً .

وتمتمت من جديد مؤنبة :

ـ ألا شيء آخر ؟ ألا شيء آخر ؟

وحدّقت في عينيَّ وكأنها ظبي مطارد . فأشفقت عليها ، وقلت :

ـ انه يقول ايضاً شيئاً هاماً ، هاماً جداً ، يا سيدتي هورتانس . ولهذا أبقيت عليه الى النهاية .

فقالت وقد فقدت السيطرة على نفسها تماما :

ـ هــاتِ ...

ـ انه يكتب انه سيلقي بنفسه على قدميك ، عندما يعود ، ليرجوك ، والدموع في عينيه ، ان تتزوجيه . انه لم يعد يطيق . انه يريد ان يجعل منك امرأته الصغيرة ، السيدة هورتانس زوربا ، كي لا تفترقا ابداً .

وفي هذه المرة اخذت العينان المغرورقتان تبكيان عن حق . كان ذاك هو، الفرح الأكبر ، المرفأ الذي طالما اشتهته ، كان ذاك هو الأسف على حياتها كلها ! انها ستجد الطمأنينة ، وتتمدّد على فراش شريف ، ولا شيء أكثر من ذلك !

وغطت عينيها . وقالت بتنازل سيدة كبيرة : حسناً ، انني أقبل . لكن اكتب له ، من فضلك ، انه ليس في القرية أكاليل من ازهار البرتقال . عليه ان يأتي بها من كاندي . وليأتِ ايضاً بشمعتين بيضاوين مزدانتين بشرائط حريرية وردية ، وبملبس صنع من اللوز الطيب . ثم ليشترِ لي ثوب زفاف ، ابيض ، وكلسات حريرية ، وخفين من الأطلس . واكتب له ألا يأتي بأغطية للسرير ، لأن عندنا منها . وعندنا ايضاً سرير .

ونظمت قائمة طلباتها ، اذ هي قد اصبحت ترى من الآن في زوجها رسولا يلبي حاجاتها . ونهضت ، واتخذت فجأة مظهر امرأة متزوجة ، وقالت :

ـ لديّ شيء اقترحه عليك ، شيء هام جداً ... (وتوقفت منفعلة .)

ـ قولي ، يا سيدتيهورتانس ، انني تحت اوامرك .

ـ اننا نميل اليك ، زوربا وانا : انك كريم ولا تشعرنا بالخجل . هل تريد ان تكون شاهدنا ؟

وارتعدت . كان لأهلي في الماضي خادم عجوز ، تدعى ديامانتولا ، قد تجاوزت الستين ، عانس عجوز نصف مجنونة بسبب العذرية ، عصبية ، متغضنة الجلد ، بدون صدر ، ولها شارب . فوقعت في غرام ميتسو ، اجير عطار الحي ، وهو فلاح بخيل ، بدين ، أمرد .

وكانت تسأله كل يوم أحد :

ـ متى ستتزوجني ؟ تزوجني ! كيف تستطيع ان تقاوم ، انت ! انا لا استطيع !

فيجيب العطار الخبيث الذي كان يداريها ليؤمن على زبائنه :

ـ ولا انا ، يا طيبتي ديامانتولا ، لكن اصبري أيضاً قليلاً . اصبري قليلاً ايضاً الى ان ينبت شاربي ، انا ايضاً ...

ومضت السنوات هكذا وديامانتولا العجوز تصبر . هدأت اعصابها ،

وتناقصت أوجاع رأسها ، وأخذت شفتها المريرة التي تجهل القبل تبتسم ٠ وصارت تعتني اكثر بغسل الثياب ، وتكسر عدداً أقل من الصحاف ، وتحرص على ألا يحترق الطعام ٠

وسألتني ذات يوم خلسة :

ـ هل تريد ان تكون شاهدنا ، ايها الرئيس الصغير ؟

فأجبت بينما انقبضت حنجرتي من المرارة :

ـ انني أريد من كل قلبي ، يا ديامانديولا ٠

لقد سببت لي تلك القصة ألماً شديداً ، لهذا لما سمعت السيدة هورتانس تعيد الجملة نفسها ، ارتعدت ٠ واجبت :

ـ اريد من كل قلبي ٠ انه لشرف لي ، يا سيدتي هورتانس ٠

فنهضت ، وسوّت خصل شعرها التي كانت تنساب من تحت قبعتها الصغيرة ، ولعقت شفتيها ٠ وقالت :

ـ ليلة سعيدة ، يا صديقي ٠ ليلة سعيدة ، وليعد الينا بسرعة !

ونظرت اليها وهي تبتعد ، متمايلة ، تثني قامتها العجوز كما تفعل الصبايا ٠ لقد منحها الفرح اجنحة ، وراح نعلاها العتيقان المعقوفان يخلفان في الرمل ثقوبا صغيرة عميقة ٠

وما كادت تغادر الشاطىء حتى تعالت منه صرخات حادة وصوت بكاء ٠

فنهضت ورحت اركض ٠ هناك ، في الجانب المقابل من الشاطىء ،كانت ثمة نساء يعولن ، وكأنهن ينشدن رثاء يائساً ٠ وصعدت الى صخرة واخذت أراقب ٠ كان الرجال والنساء يقبلون من القرية ، والكلاب وراءهم تنبح ٠ وكان هناك فارسان او ثلاثة في المقدمة ، يثيرون وراءهم غيمة كثيفة من الغبار ٠

وقلت في نفسي : « هناك مصيبة » ، ونزلت بسرعة نحو الشاطىء ٠

كانت الضجة تزداد ٠ وثمة غيمتان او ثلاث من غيوم الربيع، ورديتان، ساكنتان في السماء حيث تغرب الشمس ٠ وكانت تينة الآنسة قد امتلأت بأوراق خضراء فتية ٠

وعادت السيدة هورتانس ادراجها، شعثاء الشعر ، لاهثة، وقد اضاعت أحد نعليها ٠ وكانت تمسك به في يدها وهي تركض باكية ٠ وصرخت بي .

ـ يا الهي ٠٠ يا الهي ٠٠

وتعثرت وكادت تسقط فوقي ، فأمسكن بها :

ـ لم تبكين ؟ ماذا هناك ؟

وساعدتها على ارتداء نعلها المتثني ٠
ــ انني خائفة ٠٠٠ خائفة ٠٠٠
ــ ممّ ؟
ــ من الموت ٠
لقد استروحت في الجو رائحة الموت ، وسيطر الرعب عليها ٠
واخذتُ ذراعها المترهلة ، لكن الجسد العجوز ظل يقاوم ويرتجف وصرخت :
ــ لا أريد ٠٠٠ لا أريد ٠٠٠
كانت المسكينة تخاف من الاقتراب من منطقة ظهر فيها الموت ٠ يجب الا يراها « كارون (١) » فيتذكرها ٠٠٠ انها كسائر العجائز ، تجهد نفسها في الاختفاء بين عشب الارض والتلوّن بلونه الاخضر ، في الاختفاء في الارض والتلون بلونها الأسمر القاتم ، كي لا يستطيع « كارون » تمييزها ٠ كانت ترتجف ، وقد أدخلت رأسها بين كتفيها البدينتين المحدودبتين ٠
وجرّت نفسها الى قرب شجرة زيتون ، ومدّت معطفها المرقع ٠ وقالت :
ــ دثّرني ، دثرني ، واذهب لترى ما هناك ٠
ــ أتشعرين بالبرد ؟
ــ انني أشعر بالبرد ، دثرني ،
ودثرتها ، بأمهر ما يمكن ، بحيث انها امتزجت بالأرض ، وذهبت ٠
اقتربت من الشاطيء الصخري ، وصرت اميّز الاناشيد الجنائزية ٠ ومرّ « ميميتو » امامي وهو يركض ٠ فصحت :
ــ ما هناك ، يا ميميتو ؟
فأجابني دون ان يتوقف :
ــ لقد أغرق نفسه ! لقد أغرق نفسه !
ــ من ؟
ــ بافلي ، ابن مافراندوني ٠
ــ لماذا ؟
ــ الأرملة ٠٠٠
وتجمدت الكلمة في الهواء ٠ وانبجس جسد الأرملة الخطر واللدن من الظلمة ٠

---

١ ــ كارون : رسول الموت في الاساطير (م٠ه)

كنت قد بلغت الصخور التي اجتمعت عندها كل القرية · كان الرجال صامتين ، عاري الرؤوس ، والنساء يشددن شعورهن ويطلقن صرخات حادة ، وقد ألقين بمناديلهن على أكتافهن · وكان ثمة جسد شاحب ومنتفخ ممدد على الحصى · والعجوز مافراندوني يقف فوقه ، بلا حراك ، يتأمله · كان يستند بيده اليمنى على عصاه ، وبيده اليسرى يقبض على لحيته الرمادية المجعدة ·

وتعالى فجأة صوت ثاقب :

ـ عليكِ اللعنة ، ايتها المجرمة ! سيجازيك الله على هذا !

ووثبت امرأة والتفتت الى الرجال :

ـ اذن ، ألا يوجد بينكم رجل ليذبحها على ركبته مثل خروف ؟ افٍ ! يا لجبنكم !

وبصقت على الرجال الذين كانوا ينظرون اليها دون ان ينبسوا ببنت شفة ·

ورد عليها كوندو مانوليو ، صاحب المقهى ، صائحاً :

ـ يجب ألا تذلّينا ، يا ديليكاتيرينــا ، لا يجب ، يوجد شجعـان في قريتنا ، وسترين !

ولم أعد استطيع تمالك نفسي فصحت :

ـ هذا مخجل ، أيها الاصدقاء ! ما جرم تلك المرأة ؟ لقد كـان ذلك مكتوباً · ألا تخشون الله اذن ؟

لكن لم يجب أحد ·

وحنى « مانولاكاس » ، ابن عم الغريق ، جسده الضخم ، ورفع الجثة بين ذراعيه وشق ، قبل الجميع ، طريقه الى القرية ·

كانت النساء يعولن ويخدشن وجوههن ويشددن شعورهن · وعندما رأين الجسد يُحمل ، اسرعن ليتشبثن به · لكن العجوز مافراندوني ، رفع عصاه وابعدهن ، وأخذ مكانه على رأس الموكب · فتبعنه عند ذاك وهن ينشدن المراثي النادبة ، وفي المؤخرة ، سار الرجال صامتين

واختفوا في عتمة الغسق · وعاد البحر من جديد الى تنفسه الهادىء · ونظرت حولي · لم يبقَ غيري · وقلت في نفسي : « سأعود · انه يوم آخر نال حصته من المرارة ! » ·

وسرت في الدرب مفكراً · انني لمعجب بهؤلاء الناس ، الممتزجين بقوة وحرارة في الآلام البشرية : السيدة هورتانس ، وزوربا ، والارملة ، والمسكين

بافلي الذي القى بنفسه بشجاعة في البحر ليطفيء ألمه • وديليكاتيرينا التي كانت تصرخ بذبح الارملة كخروف ، ومافراندوني الذي كان يرفض ان يبكي أو حتى ان يصرخ أمام الآخرين • أنا الوحيد الذي كان عاجزاً ومنطقياً ، ولم يغل دمي ، ولم احب ولم احقد بقوة • انني أرغب الآن أيضاً في ان اسوي الأمور بالقاء مسؤولية كل شيء ، بجبن ، على عاتق القدر •

ولمحت ، في الظلمة الشفافة ، العم انانيوستي الذي ما يزال هناك ، جالساً على صخرة • كان يسند ذقنه الى عصاه الطويلة وينظر الى البحر • وناديته ، فلم يسمع • فاقتربت ، فرآني وهزّ رأسه وتمتم :

ـ يا للانسانية البائسة ! يا للشباب الضائع ! لكن المسكين لم يكن ليتحمل حزنه ، فألقى بنفسه في الماء ، وغرق • وهكذا انقذ نفسه •

ـ انقذ نفسه ؟

ـ انقذ نفسه ، يا بني ، انقذ نفسه • ما الذي كان يستطيع ان يفعل بحياته ؟ لو تزوج الارملة ، لما تأخر الخصام ، بل والعار أيضاً • انها كفرس تماماً ، الفاجرة • فعندما يقترب منها رجل تأخذ بالصهيل • ولو لم يتزوجها ، لقضى حياته في عذاب ، ولتصور انه اضاع سعادة كبرى ! الهاوية من الامام ، والجرف من الوراء •

ـ لا تتكلم هكذا ، أيها العم انانيوستي ، ان من يسمعك لتتخاذل ركبتاه•

ـ دعك من هذا ! لا تخف • ليس ثمة انسان يسمعني • ولو سمعوني لما صدقوني • انظر ، هل وجد انسان محظوظ مثلي ؟ كانت لي حقول ، وكروم ، وبساتين زيتون ومنزل بطابقين ، كنت غنياً • ووقعت في حب امرأة طيبة وطيعة لم تكن لتتقدم لي الا الذكور • لم أرها في حياتي ترفع عينيها لتنظر في وجهي ، وأولادي جميعاً أرباب اسر صالحون • انني لا اشكو من شيء ، ولي أيضاً احفاد • انني لا اطلب شيئاً آخر • لقد رميت بجذور عميقة• ومع ذلك ، فلو كان علي ان ابدأ من جديد ، لوضعت صخرة في عنقي مثل بافلي والقيت بنفسي في البحر • ان الحياة قاسية ، حتى بالنسبة للمحظوظين، انها قاسية ، العاهرة !

ـلكن ما الذي ينقصك ، أيها العم انانيوستي ؟ ممَّ تشكو ؟

ـ لقد قلت لك : لا ينقصني شيء ! لكن حاول ان تسأل قلب الانسان !

وصمت لحظة ، ونظر من جديد الى البحر الذي راح الظلام يخيم عليه ، وصاح وهو يرفع عصاه :

ـ ايه ، يا بافلي ، لقد فعلت حسناً ! دع النساء يصرخن ، فهن نساء لا

عقول لهن · ها أنت انقذت نفسك ، يا بافلي ، وابوك يعرف ذلــك جيداً ، ولهذا فهو لم يقل افٍ ·

وطاف نظره بالسماء والجبال التي اخذت تتلفع بالظلمة · وقال :

ـ هوذا الليل ، فلنعد ·

وتوقف فجأة ، وبدا عليه انه أسف لكل الكلمات التي أفلتت منــه ، وكأنه فضح سراً كبيرا يحاول الآن ان يمسك به من جديد ·

ووضع يده المعروقة على كتفي ، وقال لي وهو يبتسم :

ـ انت شاب ، فلا تصغ للشيوخ · لو استمع العالم للشيوخ لأسرع الى الدمار · اذا مرت ارملة في طريقك ، فالقِ بنفسك عليها ! تزوج ، وانجــب اطفالا ، لا تتردد · ان الازعاجات انما خلقت للشباب !

* * *

وصلت الى شاطئي ، واشعلت النار ، وهيأت شاي المساء · كنت متعباً، جائعاً ، فأخذت آكل بشره ، مستسلماً بكليتي لهذه السعادة الحيوانية ·

وفجأة مد ميميتو رأسه الصغير المسطح من الكوة ، ونظر اليّ وانــا آكل ، جاثياً قرب النار ، وابتسم بخبث ·

ـ ما الذي جئت تسعى اليه ، يا ميميتو ؟

ـ ايها الرئيس ، انني احمل لك شيئا من قبل الأرملة ·· سلة برتقال · لقد قالت انها آخر ما انتجه بستانها ·

فقلت مضطرباً :

ـ من قبل الأرملة ؟ ولمَ تبعث لي بها ؟

ـ لقد قالت انها من اجل كلمتك الطيبة التي قلتها هــذا المساء لأهالي القريــة ·

ـ أية كلمة طيبة ؟

ـ لست ادري ! انني اكرر ما قالته ، هذا كل شيء !

وافرغ سلة البرتقال على السرير · وعبق الكوخ كله ·

ـ ستقول لها انني اشكرها على هديتها ، لتكن على حذر ! لتكن على حذر ، ولا تظهر في القرية ، أسمعت ؟ لتبقَ في منزلها بعض الوقت ، الى ان تنسى المصيبة · أفهمت ، يا ميميتو ؟

ـ هذا كل شيء ، أيها الرئيس ؟

ـ هذا كل شيء ، اذهب ·

وغمز ميميتو بعينه :

ـ أهذا كل شيء ؟

ـ أغرب !

وذهب . قشرت تفاحة ، ناضجة ، مليئة ، حلوة كالعسل . وتمددت ، ونمت . وطوال الليل ، تنزهت تحت أشجار البرتقال . وكانت ثمة ريح حارة تصفر ، وانتفخ صدري العاري ملء رئتيه ، ووضعت خلف اذني غصن ريحان صغير . كنت فلاحاً في العشرين ، اذهب واجيء في حديقة البرتقال ، وانتظر وانا اصفر . من الذي كنت انتظره ، لست ادري ، لكن قلبي كان على وشك الانفجار من الفرح . وفتلت شاربي ، ورحت اصغي ، طوال الليـــل ، وراء اشجار البرتقال ، الى البحر وهو يتنهد كامرأة .

- ١٥ -

كانت تهبّ في ذلك اليوم ريح جنوبية شديدة ، محرقة ، قادمة من وراء البحر ، من رمال افريقيا • وكانت غيوم من الرمل الناعم تحوم في الجـــو ، وتتسرب الى الحنجرة والرئتين • والاسنان تصرف ، والعيون تحترق ، وكان لا بد من اغلاق الابواب والنوافذ حتى يمكن أكل قطعـــة خبز دون ان تتغبر بالرمل •

كان الطقس ثقيلا • انني انا أيضاً أصبح عرضة ، في تلك الأيام المبهظة التي يتصاعد فيها النسغ ، لقلق الربيع • تعب ، وانفعال في الصدر ، وتنمُّل في الجسد كله والرغبة ، ــ الرغبة أو الذكرى ؟ ــ في سعادة كبرى وبسيطة •

وسرت في الدرب الجبلية الكثيرة الحصى • لقد تملكتني الرغبة فجأة في أن أذهب حتى المدينة المينوسية الصغيرة التي انبجست من الأرض بعـد ثلاثة او أربعة آلاف عام ، لتتدفأ من جديد تحت شمس كريت الحبيبـــة • وقلت في نفسي : لعل التعب ، بعد مسير ثلاث أو أربع ساعات ، سيهدىء هذا القلق الربيعي •

صخور رمادية جرداء ، وعري وضيء ، والجبل الوعر المقفر كما أحبه • كانت بومة ، أعماها النور الشديد ، تجثم ، بعينيها الصغيرتين المستديرتين ، فوق احدى الصخور ، وقد بدت مهيبة ، ساحرة ، مليئة بالاسرار • ومشيت بخفة ، لكنها ذعرت وطارت دونما صوت بين الصخور واختفت •

كان الجو عبقاً برائحة الصعتر • واولى أزهـار شجـــر الرتم الصفراء الحانية اخذت تتفتح بين الأشواك •

عندما وصلت الى المدينة الصغيرة الخربة ، وقفت مرتعشاً • لا بد ان الوقت كان ظهراً • فالنور يسقط عمودياً ويغرق الانقاض • انها لساعة خطرة في المدن القديمة الخربة ، يكون الجو فيها مليئاً بالصرخات والأرواح • فما ان

ينكسر غصن ، او ينساب ضب ، او تمر غيمة معها ظلهـا ، حتى يتملكك الرعب · ان كل بوصة من الأرض تطؤها ان هي الا قبر ، والأموات يتنهدون ·

وشيئاً فشيئاً تعتاد العين النور الباهر · انني المح الآن بين هـذه الصخور يد الانسان : شارعان عريضان مفروشـان ببلاط لامـع · والى اليمين واليسار أزقة ضيقة متعرجة · وفي الوسط سـاحة مستـديرة ، والى جانبها ، يقع ، بتنازل ديموقراطي تام ، قصر الملك ، بأعمدته المزدوجـة ، وأدراجه الصخرية العريضة وملحقاته العديدة ·

في قلب المدينة ، حيث وطئت احجار الشارع اقدام الناس اكثر من أي مكان آخر ، ينتصب المعبد ، وكانت الآلهة الكبيرة هناك بثدييها النـاهدين المتباعدين ، وذراعيها اللتين تلتف حولهما الثعابين ·

وفي كل مكان حوانيت ومخازن صغيرة : معاصر زيت ، ومحلات حدادة ، ونجارة ، وورشات لصنع الآنية الفخارية · انها عبارة عن خلية نمل ، صنعت بمهارة ، في مخبأ أمين ، وأديرت شؤونها بمهارة ، ثم غادرها النمل منذ آلاف السنين · في أحد المخازن ، كان ثمة صانع ينحت اناء من الصخر المعرق ، لكن الوقت لم يتح له لاتمامه ، فقد سقط الأزميل من يديه ، ثم وجدوه ، بعد آلاف السنين ، قرب الاناء الذي لم ينته ·

الاسئلة الابدية ، اللامجدية ، الحمقاء : لماذا ؟ لماذا ؟ تعود من جديد مرة أخرى لتسمِّم القلب · ان هذا الاناء غير المنتهي الذي تحطَّمت عليـه حميـة الصانع في أوج انطلاقها الفرح الواثق من نفسه ، قد روى ظمئي من المرارة ·

وفجأة انتصب أمامي ، على صخرة الى جانب القصر المنهـار ، راعٍ قصير القامة ، لوحته الشمس ، اسود الركبتين ، شعره المجعد محاط بمنديل قذر ، وصاح :

ـ ايه ! ايها الصديق !

كنت أريد ان ابقى بمفردي · وتظاهرت بأنني لم اسمع · لكن الراعي القصير أخذ يضحك ساخراً ·

ـ ايه ! انك لتصم اذنيك ! ايه ! ايها الصديق ! ألديك سجائر ؟ اعطني واحدة ، انني هنا ، في هذه الصحراء ، متضايق ·

ومطَّ الكلمة الاخيرة بشكل مؤثر جداً الى حد انني اشفقت عليه ·

لم يكن معي سجائر ، فأردت ان اقـدم له مالا ، لكن الراعي القصير غضب ، وصاح :

ـ الى ابليس بالمال ! ماذا أفعل ؟ قلت لـك انني متضايـق ، اعطني

ونهض ، وأخذه من ذراعه ، وجره الى الداخل واغلق الباب · واخرج من كيسه زجاجة روم وملأ قدحاً صغيراً · وقال له :

ـ اشرب ، أيها الشيخ ، فهذا سيقوي من عزيمتك ·

وافرغ الشيخ الضئيل الكأس ، وعاد الى نفسه · وجلس على سريري ، واستند الى الحائط · وقلت :

ـ أيها الأب الفائق الاحترام ، ماذا كانت طلقة المسدس تلك ؟

ـ لست ادري ، يا بني ··· قد اشتغلت حتى منتصف الليل ، ثم ذهبت لأنام عندما سمعت ، الى جواري ، في غرفة الأب ديميتيوس ···

فقهقه زوربا قائلا :

ـ آه ! آه ! لقد كنت محقاً جداً ، يا زكريا !

وخفض الاسقف رأسه · وتمتم :

ـ لا بد انه لص ·

كانت الجلبة في الممر قد انقطعت ، وغرق الدير في الصمت من جديد · ونظر الي الاسقف ، بعينيه الطيبتين المذعورتين ، ضارعاً ، وسألني :

ـ أناعسٌ أنت ، يا بني ؟

وشعرت بأنه لا يريد الانصراف والعودة الى غرفته بمفرده · كان خائفاً · فأجبت :

ـ كلا ، لست ناعساً ، ابق ·

ورحنا نتحدث · ولف زوربا ، وهو مستند الى وسادته ، سيجارة · وقال لي الضئيل :

ـ يبدو عليك انك فتى مثقف · انني لا اجد هنا انساناً اتحدث اليه · وعندي ثلاث نظريات تلطّف من حياتي · وددت لو اطلعتك عليها ، يا ولدي ·

ولم ينتظر جوابي ، بل بدأ يقول :

ـ نظريتي الأولى هي هذه : ان اشكال الزهور تؤثر على ألوانها ، وألوانها تؤثر على خواصها · وهكذا فان لكل زهرة تأثيرها المختلف على جسم الانسان ، وبالتالي على روحه · لهذا فعلينا ان نأخذ حذرنا تماماً عندما نعبر حقلا مزهراً ·

وصمت كأنه ينتظر رأيي · ولمحت الشيخ الضئيل يتسكع في الحقل المزهر ، ينظر الى الأرض ، برعدة سرية ، حيث الازهار واشكالها وألوانها · ولا بد ان الشيخ المسكين كان يرتعد من خوف صوفي ، فالحقل ، في الربيع ، يمتلىء بالملائكة والشياطين المتعددي الألوان ·

سيجارة !

فقلت يائساً :

ـ ليس معي ، ليس معي !

فصرخ الراعي القصير ، وقد فقد السيطرة على أعصابه ، وهو يضرب الأرض بعصاه بعنف :

ـ ليس معك ! ليس معك ! اذن فماذا يوجد في جيوبك ؟ انها منتفخة ٠

فأجبت وأنا أسحب كل الاشياء الموجودة في جيبي ، الواحد تلو الآخر :

ـ كتاب ، ومنديل ، وورق ، وقلم ، وموسى ٠ أتريد الموسى ؟

ـ لدي واحدة ٠ عندي من كل شيء : خبز ، وجبن ، وزيتون ، وسكين ، ومخرز ، وجلد لأحذيتي ، وماء ، عندي من كل شيء ، كل شيء ! لكن ليس عندي سجائر ، فكأنه اذن ليس عندي شيء ! وما الذي تبحث عنه ، انت ، بين الأنقاض ؟

ـ انني أتأمل الآثار القديمة ٠

ـ وما الذي تفهمه منها ؟

ـ لا شيء !

ـ لا شيء ٠ وانا ايضاً ٠ انها ميتة ، اما نحن فأحياء ٠ هيـا ، اذهب !

وخيـّل اليّ كأن روح المكان هي التي تطردني ، فقلت طائعاً :

ـ انني ذاهب ٠

وعدت بسرعة الى الدرب ، وانا عرضة لقلق خفيف ٠

من حين لحين كانت تمر فوقي نفحات حارة وروائح عبقـة آتية مـن الحدائق القريبة ، كانت الارض تعبق ، والبحر يضحك ، والسماء زرقـاء ، تلمع كالفولاذ ٠

ان الشتاء يقبض الجسد والروح ، لكن ها هي الحـرارة التي تشرح الصدر قادمة ٠ وبينما كنت أتقدم ، سمعت فجأة نعيقاً مبحوحاً في الجو ٠ رفعت رأسي ورأيت المشهد الرائع الذي أثارني دوماً منذ طفولتي : كانت طيـور الكراكي تقف ، مصطفة كجيش على اهبة الحرب ، بعد ان عادت من البـلاد الحارة ، وكما تريد الاسطورة ، حاملة طيور السنونو على أجنحتهـا وفي أجواف جسدها المتعظم العميقة ٠

ان ايقاع السنة الذي لا يتبدل ، ودولاب العالم الدائر ، وأوجه الأرض الأربعة ، التي تضيئها الشمس الواحد تلو الآخر ، والحياة التي تمضي ، كل ذلك ملأ قلبي من جديد باضطراب ثقيل ٠ ومن جديد تردد ، في داخلي ، مع

صراخ الكراكي ، الانذار الرهيب بأنه ليس للانسان غير هذه الحياة ، وانه لن تكون هناك حياة أخرى ، وان كل ما يمكن ان نتمتع به ، فانما سنتمتع به هنا • ولن نمنح في الأبدية أية فرحة أخرى •

ان الروح التي تسمع هذا التحذير القاسي — والمليء في الوقت نفسه بالشفقة — لتعزم على ان تقهر صغائرها وضعفها ، ان تقهر الكسل ، والآمال الكبيرة الباطلة ، وعلى ان تتشبث ، بكليتها ، بكل لحظة من اللحظات التي تمضي الى غير رجعة •

وتتصاعد الى الذاكرة أمثال عظيمة ، ويتضح لنا بجلاء اننا لسنا سوى بشر ضائعين ، وان الحياة تستهلك في المسرات الصغيرة ، وفي الآلام الصغيرة، وفي لحظات تافهة • ونرغب في ان نهتف : « يا للعار » ونحن نعض على شفاهنا •

وعبرت الكراكي السماء ، واختفت نحو الشمال ، لكنها ظلت تصرخ بصوتها المبحوح وتطير دون توقف اينما أدرت رأسي •

وصلت الى البحر • ومشيت بحذاء الماء بخطى سريعة • كم هو محزن ان تسير بمفردك على ساحل البحر ! كل موجة ، كل طائر في السماء يدعوك ويذكرك بواجبك • عندما يسير الانسان بصحبة رفاقه ، فانه يضحك ، ويتحادث ، وهذه الضجة تحول بينه وبين ان يسمع ما تقوله الأمواج والطيور• ولعلها بالأصل لا تقول شيئاً • انها تنظر اليك وانت تمر ، وكلك ثرثرة ، وتصمت • وتمددت على الحصى وأغمضت عينيّ • وقلت في نفسي : « ما الروح اذن ، وأية علاقة خفية بينها وبين البحر ، والغيوم ، والعطور ؟ لكأن الروح نفسها هي أيضاً بحر وغيم وعطر ••• » •

ونهضت ، وتابعت المسير ، وكأنني اتخذت قراراً • أي قرار ؟ كنت أجهل ذلك •

وفجأة سمعت صوتاً ورائي :

— الى أين ذاهب ، أيها الرئيس ؟ الى الدير ؟

واستدرت • كان ثمة شيخ قوي ، قصير ، دون عصا ، يعصب شعره الابيض بمنديل • يحرّك يده نحوي وهو يبتسم • ووراءه تسير امرأة عجوز ، ووراءها ابنتهما ، وهي فتاة سمراء وحشية العينين ، على رأسها منديل أبيض •

وسأل العجوز ثانية : « الى الدير ؟ » •

وتبينت فجأة انني اتخذت قراراً بالذهاب في تلك الجهة • منذ شهور ،

وانا اريد الذهاب الى دير الراهبات الصغير المبني قرب البحــــر ، دون ان استطيع العزم على ذلك • ولقد اتخذ جسدي هذا القرار فجأة ، هذا المساء ، واجبت :

ـ نعم • انني ذاهب الى الدير لأسمع اناشيد العذراء •

ـ لتكن نعمتها في عونك !

وحثّ خطاه ، حتى وصل الي :

ـ أأنت هو ، كما يقال ، شركة الفحم ؟

ـ نعم •

ـ حسناً لتأتيك العذراء القديسة بربح وفير ! انك تفيد القرية ، تقدم لآباء الاسر الفقراء ما يطعمون به اسرهم • ليباركك الله !

وبعد فترة ، اضاف الشيخ الخبيث ، الذي كان ولا بد يعرف ان الامور على غير ما يرام ، هذه الكلمات المعزية :

ـ وحتى لو لم يأتك هذا بشيء ، يا بني ، فلا تأبه لذلــــك ، تابــع ! ستخرج على كل حال رابحاً • ستذهب روحك مباشرة الى الجنة •••

ـ هذا ما أتمناه أيضاً ، أيها الجد •

ـ انني لست مثقفاً كثيراً ، لكنني سمعت ذات مرة في الكنيسة شيئاً قاله المسيح • ولقد بقي ذلك محفوراً في رأسي ولن انساه • لقد قال : « بع ، بع كل ما تملكه لتشتري اللؤلؤة الكبيرة » • وهذه اللؤلؤة الكبيرة ، هي سلام النفس ، يا بني • وأنت ، أيها الرئيس ، تسير في الطريق الذي يؤدي الـى اللؤلؤة الكبيرة • '

اللؤلؤة الكبيرة ! كم مرة تألقت في نفسي ، وسط الظلمات ، وكأنهـا دمعة ضخمة !

وتابعنا السير ، أنا والشيخ في المقدمة ، والمرأتان خلفنا ، وايديهمـــا متصالبة ، ومن حين لحين كنا نلقي بعبارة : « هل ستستطيع أزهار الزيتون ان تثبت ؟ هل ستمطر حتى ينضج القمح ؟ » • ولا شك اننا كنا جائعين نحن الاثنين ، لأننا وجهنا الحديث الى الطعام ولم نشأ ان نبدل الموضوع •

ـ ما طعامك المفضل ، أيها الجد ؟

ـ كل الاطعمة ، كلها ، يا بني • انها لخطيئة كبيرة ان تقول : هــــذا طيب ، وهذا سيء !

لماذا ؟ ألا نستطيع ان نختار ؟

ـ لا ، بالتأكيد ، لا نستطيع •

ـ لماذا ؟

لأن هناك اناساً جائعين ·

وصمت ، خجلا · ان قلبي لم يبلغ قط مثل هذا النبل والتعاطف ·

وقرع جرس الدير الصغير ، بمرح ، وهزل ، مثل ضحكة امرأة ·

ورسم العجوز اشارة الصليب · وتمتم :

ـ لتكن الذبيحة المقدسة جداً في عوننا ! ان عنقها مصابة بضربة سكين ، والدم يجري منها ، في ايام القراصنة ···

وبدأ الشيخ يتحدّث عن آلام العذراء ، وكأنه يتحدث عن امرأة حقيقية ، عن صبية لاجئة مضطهدة ، مزّقها الكفار بطعنات خناجرهم ، فجاءت الى الشرق مع طفلها وهي تبكي ـ وتابع الشيخ :

ـ ومرة في السنة ، يسيل من جرحها دم حار حقيقي · انني اذكر ذات مرة ، يوم عيدها ، في تلك الأيام التي لم يكن شاربي فيها قد نبت بعد ، اننا نزلنا جميعاً من القرية لنسجد أمام نعمتها · كان ذلك في ١٥ آب · ورقدنا ، نحن الرجال ، في الباحة لننام · ورقدت النساء في الداخل · واثناء نومي سمعت العذراء تصيح · فنهضت بسرعة ، واسرعت الى ايقونتها ، ووضعت يدي على عنقها ، وماذا رأيت ؟ كانت اصابعي مليئة بالدم ···

ورسم العجوز اشارة الصليب ، والتفت ، ونظر الى المرأتين ، وصاح :

ـ هيا ، تشجعا ، لقد وصلنا !

وخفض صوته ·

ـ لم اكن متزوجاً بعد · ورميت بنفسي على الأرض ، وسجدت أمام نعمتها ، وقررت ان اهجر عالم الكذب هذا ، وان اصبح راهباً ···

وأخذ يضحك ·

ـ لمَ تضحك ، أيها الجد ؟

ـ لأن هناك ما يدعو للضحك ، يا بني ! ففي ذلك اليوم بالذات ، اثناء العيد تنكر الشيطان في ثياب امرأة وتوقف امامي · وكانت هي !

وبدون ان يلتفت ، اشار بابهامه الى الوراء ، الى العجوز التي كانت تتبعنا في صمت · وقال :

ـ لا تنظر اليها الآن وقد أصبحت تثير الاشمئزاز · لقد كانت في ذلك الوقت صبية شابة تقفز كالسمكة · كانوا يدعونها : « الحسناء ذات الحواجب الطويلة » وكانت تستحق لقبها هذا ، الخبيثة ! والآن ، ايه ! يا لتعاستنا ! أين هما حاجباها ؟ لقد تساقطا !

وفي تلك اللحظة اطلقت العجوز ، خلفنا ، دمدمة مكبوتة مثـــل كلب شرس تقيده سلسلته · لكنها لم تفه بحرف · وقال الشيخ وهو يمد ذراعه :

ـ هناك ، هوذا الدير !

كان الدير الصغير يتألق بياضاً ، عند شاطىء البحر ، وهو محصور بين صخرتين ضخمتين · وفي الوسط ، كانت تنتصب قبة الكنيسة التي اعيد تبييضها حديثاً ، فتبدو صغيرة ومستديرة كثدي امرأة · وحول الكنيسة ، خمس أو ستّ حجرات ذات أبواب زرق ، وفي الباحة ثلاث اشجار سرو ، وعلى طول السياج اشجار تين بري ضخمة مزهرة ·

وحثثنا الخطا · وتسربت الينا من نافذة المعبد المفتوحة تراتيل متماوجة، وعبق الهواء المالح برائحة اللبان · كان الباب الخارجي المقوّس مفتوحـــاً على مصراعيه على الباحة النظيفة ، العبقة ، المليئة بالحصى الاسود والابيض· والى اليمين واليسار ، على طول الجدران ، صفوف من اصص العبوثران ، والحبق ، والريحان ·

يا للهدوء ! ان الشمس آخذة الآن بالافول ، والجدران المبيضة بالكلس قد اتخذت لوناً وردياً ·

كانت رائحة الشمع تفوح من الكنيسة الصغيرة ، الدافئة ، الخافتـــة الاضاءة · وثمة رجال ونساء يتحركون بين دخان البخور ، وخمس أو ست من الراهبات ينشدن ، وقد تدثرن في اثوابهن السوداء الضيقـــة ، بأصوات عذبة نحيفة ، نشيد « سيد جميع القوى » · وفي كل لحظـــة كن يركضن . فيُسمع لثيابهن حفيف شبيه برفرفة الاجنحة ·

انني لم اسمع ، منذ سنين عديدة ، تسابيح العذراء · كنت أمرّ ، اثناء تمرد الشباب الأول ، امام الكنائس وكلي احتقـار وغضب · ومـــع الزمن هدأت · بل صرت اذهب بين وقت وآخر الى الاعياد الحافلـــة : الميـلاد ، والبيرمون ، والبعث ،وافرح برؤية الطفل الكامن في داخلي ينبعث من جديد · ان رعدة الامس الصوفية قد تحوّلت الى متعـــة جمـــالية · ان المتوحشين يعتقدون انه عندما لا تعود احـــدى الآلات الموسيقية تستخـــدم في الطقوس الدينية ، تفقد قوتها الالهية وترسل عند ذاك أصواتاً متناغمة · كذلك انحط الدين في داخلي ، وتحوّل الى فن ·

ووقفت في احدى الزوايا ، واستندت الى كرسي لامع صقلته ايـــدي المؤمنين حتى أصبح كالعـــاج · ورحت أصغي ، مسحـــوراً ، الى الترانيم البيزنطية وهي تتصاعد من أعماق الزمن « السلام ! ايها العلو الذي لا تطاله

الافكار البشرية • السلام ! ايها العمق الذي لا تراه حتى أعين الملائكــة ••• السلام ! ايتها الزوجة التي لم يتزوجها أحد ، يا وردة لم تذبل قط ••• » • وتخرّ الراهبات مرة أخرى ساجدات أرضاً ، ورؤوسهن الى الامــام ، ويتصاعد حفيف الأثواب من جديد كحفيف الاجنحة •

وراحت الدقائق تمضي ، شبيهة بملائكة لها اجنحة تعبق باللبـــان ، وتمسك بزنابق لم تتفتح بعد ، وتتغنى بجمـــال مريم • وغربت الشمس ، وجاء الغسق ، ازغب أزرق • انني لا اذكر كيف وجدنا أنفسنا في الباحـــة ، حيث بقيت بمفردي مع الأم الرئيسة العجوز ، وراهبتين شابتين ، تحت اكبر شجرات السرو • وجاءت راهبة مبتدئة لتقدم لي ملعقة المربى والماء البـــارد والقهوة ، وبدأت المحادثة الهادئة •

وتحدثنا عن معجزات العذراء ، والليمون ، والدجاجات التي تبدأ الآن ، في الربيع بالبيض ، والاخت « اودكسي » التي أصيبت بالشر الأعلى • لقد سقطت على بلاط الكنيسة وراحت ترتعد كسمكة ، وتزبد ، وتجدف وتمزق ثيابها • واضافت الرئيسة وهي تتنهد •

ــ انها في الخامسة والثلاثين ، عمر ملعون ، وساعات صعبة ! لتساعدها قداستها ، سيدتنا الذبيحة ، وستشفى • ستشفىخلال عشرة او خمسة عشر عاماً •••

فتمتمت بخوف :

ــ عشرة أو خمسة عشر عاماً •••

فقالت الرئيسة بقسوة :

ــ ما قيمة عشرة أو خمسة عشر عاماً • فكر بالأبدية !

ولم أجب بشيء • كنت أعلم ان الأبدية هي كل دقيقة من الدقائق التي تمر • وقبّلت يد الرئيسة ، يداً بيضاء وبدينة ، تعبق بالبخور ، وانصرفت •

كان الليل قد أرخى سدوله • وثمة غرابان او ثلاثة تعود ، مسرعة ، الى أعشاشها ، وخرجت البوم من الأشجار الجوف لتأكل ، وخـــرج الحلزون ، والفراش ، والدود ، والجرذان ، من الأرض لتقدم نفسها طعاماً للبوم •

وأطبق عليّ الثعبان الغامض الذي يعض ذنبه ولفّني : ان الأرض تلد وتلتهم أبناءها ، ثم تضع غيرهم لتلتهمهم من جديد •

نظرت حولي • كانت الظلمة قد أطبقت • وانصرف آخـر القرويين ، وسادت وحدة تامة ، ولم يعد يراني أحد • وخلعت حذائي ، وغطست قدمي في البحر ، وتدحرجت على الرمل • لقد شعرت بالحاجة لأن ألمس ، بجسدي

العاري الأحجار ، والماء ، والهواء · لقد أغضبتني كلمة الرئيسة « الأبدية » ، وأحسست بها تسقط فوقي مثل حبل الفارس الذي يطبق على الخيل المتوحشة · ووثبت لأفلت منها · لقد شعرت بالحاجة لأن ألمس ، صدراً الى صدر ، الارض والبحر ، ولأن أحس احساساً أكيداً ان هذه الاشياء المؤقتة والحبيبة موجودة ·

وهتفت في داخلي : « أنت وحدك موجودة ، يا أرض ! وانا لست الا وليدك الأخير · انني أرضع ثديك ولا أتركه · انك لا تتركينني اعيش الا دقيقة واحدة ، لكن الدقيقة تصبح ثدياً ، فأرضع » ·

وارتعدت · وكأنني خاطرت في ان أهوي في تلك الكلمة التي تتغذى بلحم البشر : « الأبدية » · انني لأذكر كم كنت أنحني في الماضي ـ متى ؟ العام الماضي لا أكثر ! ـ بحرارة عليها ، مغلق العينين مفتوح الذراعين ، تتأكلني الرغبة في أن أهوي فيها ·

عندما كنت في الصف الأول ، في مدرسة القرية ، كان القسم الثاني من كتاب الأبجدية يحتوي على قصة من قصص الجن للقراءة :

سقط طفل صغير في بئر · وهناك وجد مدينة رائعة فيها حدائق مزهرة، وبحيرة من العسل ، وجبل من الأرز الحليبي ، ودمى متعددة الألوان · وكنت كلما أكثرت من التهجي ، شدني كل مقطع أكثر فأكثر الى أعماق الحكاية · وذات يوم ، وانا عائد من المدرسة ظهراً ، دخلت المنزل ركضاً ، وأسرعت الى حافة بئر الباحة ، تحت العريشة ، وأخذت أنظر ، مأسوراً ، الى صفحة الماء الصقيلة السوداء · وسرعان ما خيّل اليّ انني أرى المدينة الرائعة ، وبيوتاً وشوارع ، وأولاداً وعريشة مثقلة بالعنب · ولم أعد اطيق صبراً · فأحنيت رأسي ، ومددت ذراعي ، وانا أضرب الأرض بقدمي كي اثب واسقط · لكن أمي ، في تلك اللحظة رأتني · فأطلقت صرخة ، وأسرعت ، ووصلت في الوقت المناسب لتمسكني من حزامي ···

لقد كدت أسقط ، وانا طفل ، في البئر · ولما كبرت كدت اسقط في كلمة « الأبدية » ، وكذلك في عدد لا بأس به من الكلمات : « حب » ، « امل » ، « وطن » ، « الله » · وكنت ما ان انعتق من كلمة ، حتى أشعر وكأنني افلتُ من خطر · وتقدمت خطوة · لكن لا · كنت أغيّر فقط الاسماء ، وهذا ما كنت أدعوه بالخلاص · وها انا معلق منذ سنتين فوق كلمة « بوذا » ·

لكن بوذا ، انني أحس بذلك جيداً ، بفضل زوربا ، سيكون البئر

الاخيرة ، الكلمة ـ الهاوية الاخيرة ، وسأنقذ نهائياً · نهائياً ؟ هذا ما نقوله في كل مرة ·

ونهضت بقفزة واحدة · كنت سعيداً من أخمص قدمي الى قمة رأسي · ونزعت ثيابي وارتميت في البحر · وعندما خرجت في النهاية من الماء تعباً ، جففت نفسي بهواء الليل ، ثم أخذت درب العودة من جديد بخطا طويلة خفيفة وانا أحس بأنني افلت من خطر كبير وانني تشبثت بقوة اكثر من أية مـــرة سابقة بثدي الارض ·

- ١٦ -

ما ان لمحت ساحل الليتيت ، حتى توقفت فجأة ، فقد كان هناك نور في الكوخ · وقلت في نفسي فرحاً : « لا بد ان زوربا قد عاد ! » ·

وهممت بالجري ، لكنني تمالكت نفسي · وقلت : « يجـــب ان أخفي فرحي · يجب ان يبدو علي انني غاضب وان ابدأ بمهاجمته · لقد أرسلته الى هناك لمسائل عاجلة ، لكنه القى بالمال من النافذة وارتمى في احضان المغنيات ، وعاد متأخراً اثني عشر يوماً · يجب أن يبدو علي انني غاضب ، يجب ذلك ··»

وتابعت السير بخطا وئيدة ، كي أتيح الوقت للغضب كي يتملكني · واجهدت نفسي في محاولة الغضب ، فقطبت حاجبي ، وشددت على أصابعي ، وقمت بكل الحركات التي يقوم بها انسان غاضـــب ، لكنني لم استطع ان أغضب حقاً · بل على النقيض من ذلك · كان فرحي يزداد ، كلما تناقصت المسافـة ·

واقتربت على رؤوس أصابعي ونظرت من النافذة الصغيرة المضـاءة · كان زوربا راكعاً على الأرض ، وقد أشعل الموقد ، وراح يعد القهوة · وذاب قلبي وصحت : ـ زوربا !

وانفتح الباب بضربة واحدة · واندفع زوربا خارجاً ، عاري القدمين ، دون قميص · ومد رقبته في الظلمة ، ولمحني ، وفتح ذراعيه ، لكنه سرعان ما تمالك نفسه وأسبلهما ·

وقال بصوت متردد ، وهو يقف أمامي بلا حراك ، متألق الوجه :

ـ سعيد لرؤيتك من جديد ، ايها الرئيس !

وحاولت ان اجعل صوتي غليظاً ، وقلت ساخراً :

ـ سعيد لأن تكون تحملت مشقة العودة · لا تقترب ، فرائحة الصابون المعطر تفوح منك ·

فتمتم :
ـ آه ! لو تدري كم اغتسلت ، ايها الرئيس • لقد فركت ، وايْ فرك ، جلدي اللعين قبل أن أمثل أمامك ! لقد ظللت اغسل نفسي ساعة كاملة • لكن هذه الرائحة الشيطانية ••• ومع ذلك فما الذي يمكن ان تفعله ؟ انها ليست المرة الاولى ، ويجب ان تختفي أشاءت ام أبت •

وقلت وانا أكاد انفجر ضاحكاً :

ـ لندخل •

ودخلنا • كان الكوخ يعبق برائحة العطر والمساحيق ، والصابون ، والمرأة •

ـ قل ، وهذه الحاجات ، ما شأنها ؟

هتفت بذلك وأنا أرى حقائب يدوية ، وقطع صابون ، وجوارب ، ومظلّة حمراء صغيرة وحقّاً دقيقاً من العطر ، وكلها مصفوفة على أحد المقاعد •

فتمتم زوربا ، وقد خفض رأسه :

ـ هدايا •••

فقلت وانا أحاول ان اتخذ لهجة عنيفة :

ـ هدايا ؟ هدايا ؟

ـ هدايا ، ايها الرئيس ، لا تغضب من اجل بوبولينا المسكينة • ان عيد الفصح يقترب ، والمسكينة •••

فقلت :

ـ انك لم تأتها بأهم الاشياء •••

ـ ماذا ؟

ـ لماذا تتجاهل ؟ أكاليل الزواج !

ورويت له القصة التي لفقتها على مسامع الجنية العاشقة •

وحك زوربا رأسه ، وفكر لحظة ، وأخيراً قال :

ـ انك لم تفعل حسناً ، ايها الرئيس ، لم تفعل حسناً ، ارجو عفوك • مزاح كهذا ، ايها الرئيس ••• ان المرأة مخلوق ضعيف ، هشْ ، كم مرة يجب ان أقول لك ذلك ؟ ان اناء من الخزف الصيني يجب أن يدارى بحذر •

وشعرت بالخجل • لقد ندمت انا ايضاً ، لكن فات الاوان • وغيرت موضوع الحديث ، وسألته :

ـ والحبال ؟ والأدوات ؟

ـ لقد جئت بكل شيء ، كل شيء ، لا تغضب ! « الطعام كامل والكلب

شبعان » . المصعد ، ولولا ، وبوبولينا ، كل شيء على اتم ما يرام ، ايهـــا الرئيس !

ورفع الابريق عن النار ، وملأ فنجاني ، وقدم لي كعكا بسمسم اتى به معه وحلوى معسولة كان يعرف انني أحبها . وقال لي بحنان :

ـ لقد جئتك بعلبة كبيرة من الحلوى ، كهدية ! انني لم أنسك . انظر ، ولقد اخذت ايضاً كيساً صغيرا من فستق العبيد للببغاء . انني لم أنسَ أحداً . فرأسي ، كما ترى ، في مكانه تماماً ، ايها الرئيس !

وأكلت الكعك ، وبعض الحلوى ، وشربت القهوة وجلســـت ارضاً . واحتسى زوربا أيضاً قهوته ، ودخن ، وراح ينظر اليّ ، وجذبتني عيناه مثل عيني ثعبان . وسألته محاولا ان يكون صوتي لطيفاً :

ـ هل حللّت المشكلة التي كانت تقلقك ، أيها الخبيث ؟

ـ اية مشكلة ، ايها الرئيس ؟

ـ ما اذا كانت المرأة مخلوقاً بشرياً أم لا .

فأجاب زوربا وهو يهزّ يده الضخمة :

ـ دعك من هذا ! لقد انتهت المشكلة ! انها كائن بشري ، هي الاخرى ، كائن بشري مثلنا تماماً ـ بل وأسوأ ! عندما ترى حافظة نقودك ، تصـــاب بالدوار ، وتلتصق بك ، وتفقد حريتها وتسر لفقدانها ، لان وراءها ، كما ترى ، حافظة النقود التي تلمع . لكن سرعان ... آه ! دعك من هذا ، أيها الرئيس !

ونهض ورمى سيجارته من النافذة ، وقال :

ـ والآن لنتكلم كرجال . ها هو « الاسبوع المقدس » قادم ، ولدينا الآن الحبال ، وقد آن أن نصعد الى الدير لنتحدث مع أولئك الخبثاء الاثرياء ونوقّع الاوراق من اجل الغابة ... قبل ان يروا المصعـد ، فيشمخوا برؤوسهـم ، أتفهم ؟ ان الوقت يمضي ، أيها الرئيس ، ولا يجدي فتيلا ان نبقى هنـــا ، ونتكاسل ، يجب ان نجني شيئاً ما الآن ، يجب ان تأتي المراكـب لتحمـل ، وتغطي النفقات ... لقد كلف السفر الى « كاندي » كثيراً . لعن الله الشيطان ، أترى ...

وصمت . وأشفقت عليه . فقد كان كطفل ارتكب حماقات ولا يـدري كيف يصلحها ، يرتعد بكل قلبه الصغير .

وهتفت في نفسي : « يا للعار ! هل يمكن ان نسمـح لنفس كهـذه ان ترتعد من الخوف ؟ انهض ، فأين يمكنك ان تجد زوربا آخر ؟ انهض ، وخـذ الاسفنجة ، وامحُ كل شيء ! » .

وصحت :

ـ زوربا ، دع الشيطان ، فلسنا بحاجة اليه ! ان هي الا أمور قد مضت و'نسيت . خذ السانتوري !

وفتح ذراعيه وكأنه يريد من جديد ان يطوقني . لكنه اعاد اغلاقهما ، وهو لا يزال متردداً .

وبخطوة واحدة ، وصل الى الجدار . وانتصب على اطراف اصابعه ، وانزل السانتوري . وفي اللحظة التي اقترب فيها من نور مصباح الزيت ، لمحت شعره : كان أسود كالدهان . فصحت :

ـ قل ، ايها الخبيث ، ما هذا الشعر ؟ من اين جئت به ؟

وطفق زوزبا يضحك :

ـ لقد صبغته ، ايها الرئيس ، لا تندهش ، لقد صبغته ، الخائن ...

ـ لماذا ؟

ـ بسبب الكبرياء ، وحق ابليس ! كنت أتنزه ذات يوم مع لولا وانا امسك بذراعها . اعني ... انظر ، هكذا ، بطرف أصابعي فقط ! واذا بصبي أزعر لعين ، لا يصل الى فخذي ، راح يزعجنا . وأخذ ابن العاهرة يصرخ : « ايه ! ايها العجوز ، ايه ! الى اين تأخذها ايها العجوز ، حفيدتك ؟ » .

وخجلت لولا ، وخجلت انا ايضاً ، كما ترى . وذهبت في ذلك المساء بالذات ، كي لا تشعر لولا بالخجل بسببي ، الى الحلاق لأعيد الى شعري سواده .

واخذت اضحك . ونظر اليَّ زوربا بجدية :

ـ هذا يبدو لك مضحكاً ، ايها الرئيس ؟ ومع ذلك ، انظر الى حقيقتنا كبشر . لقد أصبحت منذ ذلك اليوم رجلا آخر . ان من يراني يعتقد ، وانا اعتقد ذلك ايضاً ، ان شعري أسود حقاً ـ اننا ننسى بسهولة كما ترى ما لا يلائمنا ـ وانني لأقسم لك ان قواي قد ازدادت . ولقد تبينت لولا ايضاً ذلك . والالم الذي كان في ظهري ، أتذكر ؟ لقد زال ! انت لا تصدقني . ان هذه الاشياء ، كما ترى ، لا تكتبها كتبك ...

وضحك بسخرية ، لكنه سرعان ما أسف لذلك ، وقال :

ـ أعذرني ، ايها الرئيس . ان الكتاب الوحيد الذي قرأته في حياتي هو « السندباد البحري » ، اما الفائدة التي استخلصتها منه ...

وانزل السانتوري ، ونزع الغطاء عنه بحنان وبطء ، وقال :

ـ هيا الى الخارج . ان السانتوري هنا ، بين هذه الجدران الاربعة ، غير

مرتاح . انه حيوان متوحش ، وهو بحاجة الى مدى شاسع .

وخرجنا . كانت النجوم تقدح شررا . ودرب المجرة تسيل من طرف السماء الى طرفها الآخر . والبحر يغلي .

وجلسنا على الحصى . وراحت الامواج تلعق باطن أقدامنا . وقال زوربا :

ـ عندما تتملكنا الكآبة ، فعلينا ان نمنح انفسنا وقتاً طيباً . هل تتصور ، هي ، اننا سنستسلم ؟ تعالَ هنا ، ايها السانتوري !

وقلت :

ـ اعزف لحناً ماسيدونياً ، من بلدك ، يا زوربا .

فقال زوربا :

ـ بل لحناً كريتياً من بلدك أنت ! سأنشدك مقطوعة تعلمتها في «كاندي» ولقد تغيرت حياتي منذ ان عرفتها .

وفكر لحظة ، وقال :

ـ لا ، لم تتغير ، لكنني افهم الآن انني كنت محقاً .

ووضع اصابعه الضخمة على السانتوري ومد عنقه . وارتفع صوته المتوحش ، المبحوح ، المتألم :

عندما تتخذ قراراً ، لا تخف ، والى الامام !

ارخِ الحبل لشبابك ، ولا تقيّده !

وتفرقت الهموم ، وهربت المتاعب الوضيعة ، وبلغت النفس قمتها الخاصة . وأصبحت لولا ، والليني‍ت ، والمصعد ، و « الابدية » ، والمتاعب الصغيرة والكبيرة ، كل ذلك اصبح دخاناً ازرق تبدد في الاجواء ولم يبق الا عصفور فولاذي ، النفس الانسانية التي تنشد .

وهتفت عندما انتهت الاغنية المتكبرة :

ـ انني اهديك كل شيء ، يا زوربا ! انني اهديك كل ما فعلته المغنية ، وشعرك المصبوغ ، والمال الذي انفقته ، كل شيء ، كل شيء ! انشدني مزيداً !

ورفع من جديد عنقه المعروقة :

أيها الشجاع ، يا اسم الاسماء ، تقدّم ، وليحصل ما يحصل !

فاما ان تخطىء ضربتك ، واما ان تربح !

وسمع حوالي عشرة من العمال كانوا يرقدون قرب المنجم الاغاني . فنهضوا ، ونزلوا بسرعة ، وتجمعوا حولنا . كانوا يصغون الى لحنهم المفضل ، ويشعرون بالتنمّل في سيقانهم .

وفجأة ، برزوا من العتمة ، نصف عراة ، مشعثي الشعور ، بقمصانهم الفضفاضة ، بعد ان اصبحوا عاجزين عن تمالك أنفسهم أكثر من ذلك ، وشكلوا دائرة حول زوربا والسانتوري وأخذوا يرقصون فوق الحصى الضخم ٠

ورحت انظر اليهم منفعلا ، بصمت ، وقلت في نفسي : « هوذا العرق الحقيقي الذي كنت ابحث عنه ٠ انني لا اريد غيره » ٠

***

في اليوم التالي ، قبل طلوع النهار ، كانت الانفاق ترن بضربات المعاول وصراخ زوربا ٠ والعمال يشتغلون بحمية ٠ ان زوربا هو الوحيد الذي يستطيع السيطرة عليهم هكذا ٠ ان العمل معه يصبح خمراً ، وغناء ، وحباً ، وهم ينتشون ٠ أن الحياة لتحيا في يديه ٠ والصخور ، والفحم ، والخشب ، والعمال ، يسيرون على ايقاعه ، وتنشب حرب في الانفاق ، تحت ضوء غاز الاستصباح الابيض ، وزوربا يسير في الطليعة ويناضل جسداً لجسد ٠ انه يعطي اسماً لكل نفق ولكل عرق ، يعطي وجهاً للقوى التي لا وجه لها ، وعندئذ يصبح من الصعب عليها ان تفلت منه ٠

كان يقول : « عندما اعرف ان هذا النفق هو نفق كانافارو (هكذا عمّد النفق الاول) فانني اطمئن ٠ انني اعرفه باسمه ، فلا يجرؤ على عمل مقلب لي ٠ وكذلك لا « الام الرئيسة » ولا « المعوجة الساقين » ولا « المبولة » ٠ انني اعرفها جميعها ، اؤكد لك ، وكلاً باسمه » ٠

كنت قد نزلت في ذلك اليوم الى النفق دون ان يلمحني زوربا ٠ كان يصرخ بالعمال حسب عادته عندما تتملكه الحمية :

ـ هيا ! هيا ! الى الامام ! سنتغلب على الجبل ، أيها الرفاق ! اننا رجال ، أليس كذلك ! وحوش مفترسة ، والاله الطيب يرانا ويقشعر بدنه ٠ انتم ، الكريتيين ، وانا ، الماسيدوني ، سنتغلب على الجبل ، وليس هو الذي سيتغلب علينا ! لقد تغلبنا على تركيا ، أليس كذلك ، اذن فهل يخيفنا هذا الجبل الذي لا قيمة له ؟ الى الامام !

وجاء احدهم راكضاً نحو زوربا ٠ وعلى ضوء غاز الاستصباح لمحت انف ميميتو الضيق ٠ وقال بصوته الذي يأكل نصف الحروف :

ـ زوربا ٠٠٠ زوربا ٠٠٠

والتفت هذا ورأى ميميتو ، وفهم ٠ ورفع يده الضخمة ، وصاح :

ـ اغرب عني ! أيها الأبله !

لكن العبيط بدأ يقول :

ـ انني قادم من طرف السيدة ···

ـ اغرب عني ، اقول لك ! لدينا عمل ·

وجرى ميميتو مهرولا · وبصق زوربا ، ثائراً ، وقال :

ـ لقد ُخلق النهار للعمل · النهار رجل · وخلق الليل للاحتفالات : الليل امرأة · يجب ألا تخلط الامور !

وفي تلك اللحظة ، تقدمت ، وقلت :

ـ أيها الاصدقاء ، لقد انتصف النهار ، وحان ان توقفوا العمل من أجل الطعام ·

والتفت زوربا ، ورآني وقطّب وجهه ، وقال :

ـ مع اذنك ، أيها الرئيس ، دعنا ، اذهب لتناول الغداء ، أنت · لقد اضعنا اثني عشر يوماً ، فيجب ان نعوض عنها · ارجو لك شهية طيبة !

وخرجت من النفق ونزلت نحو البحر · وفتحت الكتاب الذي كنت امسك به · كنت جائعاً ، ونسيت جوعي · وقلت في نفسي : « ان التأمل ايضاً منجم ··· هيا ! » · وغرقت في انفاق العقل الكبيرة ·

كتاب مقلق عن جبال التيبت المغطاة بالثلوج ، والأديرة الغامضة ، والرهبان الصامتين بأثوابهم الصفراء ، الذين يرغمون الاثير ، بتركيز ارادتهم ، على ان يأخذ شكل رغائبهم ·

من اعلى القمم ، هواء مسكون بالارواح · وطنين العالم الباطل لا يصل الى هناك · الناسك الكبير يأخذ تلاميذه ، وهم صبيان بين السادسة عشرة والثامنة عشرة ، ويقودهم في منتصف الليل الى بحيرة جليدية في الجبل · فيخلعون ثيابهم ، ويحطمون الجليد ، ويغطسون ثيابهم في الماء المتجمد ، ويعيدون ارتداءها ويتركونها تجف على اجسادهم · ثم يعيدون غطسها ، ويجففونها من جديد ، وهكذا ، سبع مرات · وبعد ذلك يعودون الى الدير ليؤدوا فرض الصباح ·

انهم يصعدون الى قمة ، على ارتفاع خمسة او ستة آلاف متر · ويجلسون بهدوء ، ويستنشقون بعمق ، وانتظام ، عراة الصدر ، لا يبردون · ويمسكون بكأس ماء متجمد بين راحاتهم ، وينظرون اليها ، ويركزون أنفسهم ، ويرمون بقوتهم على الماء المتجمد فيغلي الماء · ثم يعدّون شايهم ·

ويجمع الناسك الكبير تلاميذه حوله ويقول لهم : « شقيٌ من ليس في داخله منبع السعادة ! »

« شقي من يريد ان يعجب الآخرين !

« شقي من لا يحس أن هذه الحياة والحياة الاخرى ان هما الا حيـــاة واحدة ! » ٠

***

كان الليل قد أرخى سدوله ، ولم أعد أرى جيداً حتى استطيع متـابعة القراءة ٠ اغلقت الكتاب ونظرت الى البحر ٠ قلت في نفسي : « يجب ، يجب ان اتخلص من كل هذه الاشباح ٠٠٠ وهتفت : شقي من لا يستطيع الخلاص من البوذاوات ، والآلهة ، والاوطان ، والافكار ! » ٠

كان البحر قد أصبح أسود فجـــأة ٠ وراح القمر الفتي يتدحرج نحو مغربه ٠ ومن بعيد ، كانت كلاب ، في البســاتين ، تعوي بحزن والوادي كله ينبح ٠

وظهر زوربا ، ملوثاً ، موحلا ، وقميصه يتدلى مزقاً ٠

ورقد قربي ، وقال راضياً :

ــ لقد سارت الامور اليوم جيداً ، وقمنا بعمل طيب ٠

كنت اسمع كلمات زوربا دون ان اتمكن من فهم معناها ٠ كانت روحي ما تزال بعد فوق صخور عالية بعيدة وغامضة ٠

ــ بمَ تفكر ، ايها الرئيس ؟ انك في مكان آخر ٠

وعدت بنفسي والتفت ٠ ونظرت الى صديقي ، وهززت رأسي ٠ واجبت :

ــ انك تتصور ، يا زوربا ، انك سندباد بحري رائع ، وانت تعيد البحث فيما لديك لانك عشت حياة رحلة ومغامرة في كل العــــالم ٠ لكنك ، لم ترَ شيئاً قط ، أيها الشقي ! ولا انا ايضا ٠ ان العالم أوسع بكثير مما نعتقد ٠ اننا نسافر ، ونطوف في البر والبحر ، ومع ذلك فاننا لا نكون قد تجاوزنا عتبة بيتنـــا ٠

وثنى زوربا شفتيه ، لكنه لم يقل شيئاً ٠ لقد دمدم فقط مثــل كلب أمين عندما يضرب ٠ وتابعت :

ــ توجد جبال ، عالية جداً ، لا حدود لها ، مليئة بالأديرة ٠ وفي تلك الاديرة يعيش رهبان بأثوابهم الصفراء ٠ انهم يظلون جالسيـــن ، وارجلهـــم متصالبة ، شهراً ، وشهرين ، وستة اشهر ، ولا يفكرون الا بشيء واحـــد وحيد ٠ واحد فقط ، أتسمع ؟ لا أثنين ، بل واحد ! انهم لا يفكرون ، مثلنا ، بالمرأة والليينيت او بالكتب والليينيت : انهم يركزون نفوسهم على شيء واحد لا غير ، ويقومون بالمعجزات ٠ وهكذا تحدث المعجزات ٠ هل رأيت يا زوربا ، عندما تضع زجاجة مكبرة تحت الشمس وتجمع كل الاشعة على نقطة واحدة ؟

ان هذه النقطة سرعان ما تشتعل · لماذا ؟ لان قوة الشمس لم تتوزع ، لقد اجتمعت كلها على هذه النقطة الواحدة · وكذلك روح الانسان · اننا نقوم بالمعجزات بتركيز روحنا على شيء واحد لا غير · أتفهم ، يا زوربا ؟

كان زوربا يلهث · وانتفض للحظة كأنه يريد الهرب · لكنه تمالك نفسه · ودمدم بصوت مخنوق :

ـ تابع ·

لكنه سرعان ما انتصب باستقامة ، قافزاً · وصرخ :

ـ اصمت ! اصمت ! لمَ تقول لي هذا ، ايها الرئيس ؟ لمَ تسمم قلبي ؟ لقد كنت مرتاحاً هنا ، فلماذا تدفعني ؟ كنت جائعاً ، فألقى لي الرحمن أو الشيطان بعظمة فأخذت ألعقها · وأهزُّ ذنبي وانا اصيح : « شكراً ! شكراً ! » · اما الآن ···

ضرب الارض برجله ، وأدار ظهره ، وقام بحركة وكأنه يبادر بالذهاب نحو الكوخ ، لكنه كان ما يزال يغلي ، فتوقف · وزمجر :

ـ بف ! ··· ! العظمة الجميلة ··· مغنية عجوز قذرة ! سفينة عجوز قذرة !

وتناول قبضة من الحصى رماها الى البحر · وصرخ :

ـ لكن من هو ، من هو الذي يلقي لنا بالعظام ؟

وانتظر لحظة ، واذ لم يسمع اي جواب يأتي ، توترت اعصابه ، وصرخ:

ـ ألا تقول شيئاً ، ايها الرئيس ؟ اذا كنت تعلم ، فقل لي ، حتى اعرف اسمه ، انا ايضاً ، ولا تغضب ، فسأجازيه كما يجب ! لكن هكذا ، على غير هدى ، دون ان أدري في أي اتجاه يجب ان أسير ؟ انني سأحطم رأسي ·

فقلت :

ـ الجوع · اهتم بالطبخ · سنأكل أولا !

ـ ألا يمكننا ان نظل ولو مساء واحداً بلا طعام ، ايها الرئيس ؟ كان لي عم راهب وكان لا يأكل ايام الاسبوع الا الماء والملح · وفي ايام الآحاد والاعياد كان يضيف قليلا من النخالة · ومع ذلك فقد عاش مئة وعشرين عاماً ·

ـ لقد عاش مئة وعشرين عاماً ، يا زوربا ، لأنه كان يؤمن · لقد وجد الهه ، ولم يعد يشغله همّ · لكننا ، نحن يا زوربا ، ليس لنا اله يغذينا ، اذن اشعل النار ، فلدينا بضع سمكات · اصنع حساء حاراً ، ثقيلا ، مع كثير من البصل والفلفل ، كما نحبه · ثم سنرى ·

فقال زوربا غاضباً :

ـ ما الذي سنرى ؟ فعندما تمتلىء بطوننا ، سننسى كل ذلك ·

ـ هذا ما اريده بالضبط!فتلك هي قيمة الطعام ، يا زوربا • هيا ، اصنع لنا حساء من السمك ، يا عجوزي ، والا سينفجر رأسنا !

لكن زوربا لم يحرك ساكناً • كان يقف ، جامداً ، يحدّق فيّ • وقال :

ـ اصغ ايها الرئيس • انني اعرف مشاريعك • فمنذ لحظة ، عندما كنت تحدثني ، عبرت ذهني ومضة ، ورأيت !

فسألته بتشوق :

ـ وما مشاريعي ، يا زوربا ؟

ـ انك تريد ان تبني ديراً ، هوذا الامر ! ديراً تضع فيه ، بدلا من الرهبان ، بعض الكتّاب من نوع سيادتك يمضون وقتهم في التحبير ليل نهار • ثم يخرج من فمك ، مثل القديسين الذين نراهم على الصور ، شرائط مطبوعة • قل ، ألم احزر ؟

خفضت رأسي محزوناً • أحلام الشباب القديمة ، وأجنحة عريضة فقدت ريشها ، ورغبات ساذجة ، سخية ، نبيلة ••• ان نبني مجتمعاً روحياً، ونسجن أنفسنا فيه مع عشرة من الرفاق ـ موسيقيين ورسامين وشعراء ـ ونعمل طوال النهار ، ولا نلتقي الا في المساء ، ونأكل ونغني معاً ، ونقرأ ، ونطرح الاسئلة الكبرى ، ونهدم الاجوبة القديمة • وكنت قد حررت دستور المجتمع • بل لقد وجدت ايضاً البناء ، في منطقة « القديس يوحنا الصياد » ، في أحد ممرات جبل الهيميت •••

وقال زوربا وكله سرور ، وهو يراني صامتاً :

ـ لقد حزرت ، اذن فسوف اطلب منك خدمة ، يا رئيس الدير القديس: ستأخذني ، في ذلك الدير ، كبواب ، كي اقوم بقطع الطريق وأسمح من حين لحين بمرور بعض الاشياء الغريبة : النساء ، والقيثارات ، ودنان العرق ، والخنازير الصغيرة المحمرة ••• كل هذا كي لا تبدد حياتك في التفاهات وحدها !

وضحك وتوجه بحمية نحو الكوخ • وجريت وراءه • ونظف السمكات دون ان يفتح فمه • وجئت انا بالخشب ، وأشعلت النار • وعندما نضج الحساء ، أخذنا ملاعقنا ورحنا نأكل من القدر نفسها •

لم يفه أحدنا ببنت شفة • اننا لم نأكل شيئاً طوال النهار • فرحنا نلتهم الحساء بوحشية • وشربنا خمراً ، وعاد الينا مرحنا • وفتح زوربا فاه :

ـ انه لأمر مسلٍ ، ايها الرئيس ، ان تأتي الآن السيدة بوبولينا ! لا ينقصنا شيء الا هي • ومع ذلك ، أتريد ان اقول لك ، ايها الرئيس ؟ لقد

سئمت منها ، بحق ابليس !

ـ ألا تسأل الآن من الذي يلقي اليك بهذه العظمة ؟

ـ وما يهمك من الامر ، ايها الرئيس ؟ انها قملة بين كومة من التبن . خذ العظمة ولا تهتم باليد التي تلقي بها اليك . ألها طعم مستساغ ؟ أعليها شيء من اللحم ؟ تلك هي المسألة . اما الباقي ...

فقلت وأنا أربّت على كتف زوربا :

ـ لقد أتم الطعام معجزته ! لقد هدأ الجسد الجائع ! اذن فقد هدأت ايضاً النفس التي تسأل . جيء بالسانتوري !

لكن في اللحظة التي نهض فيها زوربا ، سمعنا وقع خطا صغيرة مستعجلة وثقيلة على الحصى . وارتعد منخرا زوربا المشعران ، وقال بصوت خافت وهو يربت على فخذيه :

ـ « اذكر الديب وحضّر القضيب ! » . ها هي ! لقد استنشقت الكلبة رائحة زوربا في الهواء فجاءت .

ـ انني ذاهب . لقد سئمت من الامر . سأقوم بجولة . تدّبر امرك !

ـ ليلة سعيدة ، ايها الرئيس !

ـ ولا تنس ، يا زوربا ! لقد وعدتها بالزواج ، فلا تكذّبني .

وتنهّد زوربا :

ـ أأتزوج مرة اخرى ، ايها الرئيس ؟ لقد سئمت !

واقتربت رائحة الصابون المعطر .

ـ تشجّع ، يا زوربا !

وخرجت بسرعة . وسمعت لهاث الجنّية العجوز .

- ١٦ -

في اليوم التالي ايقظني صوت زوربا ، عند الفجر ٠

ــ ما بك في مثل هذه الساعة المبكرة ؟ لماذا تصرخ ؟

فقال وهو يملأ كيس طعامه :

ــ ليس الأمر خطيراً ، ايها الرئيس ٠ لقد جئت ببغلتين ، انهض ، فسنذهب الى الدير لنوقّع الاوراق ثم نبدأ بتنفيذ المصعد ٠ ليس هناك غير شيء واحد يخيف الاسيد ، وهو القملة ٠ ان القمل سيأكلنا ، ايها الرئيس !

فقلت وانا اضحك :

ــ لماذا تعامل بوبولينا المسكينة كقملة ؟

لكن زوربا تظاهر بأنه لم يسمع ، وقال :

ــ هيّا ، قبل ان ترتفع الشمس عالياً ٠

كنت راغباً ، اشد الرغبة ، في التنزه عبر الجبل ، وتنشق رائحة الصنوبر ٠ وامتطينا الدابتين ، وبدأنا بالصعود ٠ وتوقفنا قليلا عند المنجم حيث ابلغ زوربا توصياته للعمال : أن يعمّقوا « الأم الرئيسة » ، ويحفروا مجرى للماء في « المبولة » ، وينظفوا « كانافارو » ٠

كان النهار يتألق مثل ماسة بالغة النقاء ٠ وكلما ارتفعنا ، ارتفعت الروح ، وتطهرت ٠ وشعرت ، مرة أخرى ، بتأثير الهواء النقي والتنفس الخفيف والافق الشاسع ، على الروح ٠ وكأن الروح ، هي ايضاً ، حيوان له رئتان ومنخران ، فهي بحاجة الى كثير من الأوكسجين ، وتختنق في الغبار وبين الانفاس الخانقة الكثيرة ٠

كانت الشمس قد اصبحت عالية عندما دخلنا غابة الصنوبر ٠ كان الهواء يعبق برائحة العسل ، والريح تهبّ فوقنا ، هادرة كالبحر ٠

كان زوربا ، خلال الرحلة ، يتأمل انحدار الجبل ٠ وكان يتخيل انه قد

غرس الاوتاد كل عدة امتار ، فيرفع عينيه ويرى الحبل يلمع تحت الشمس ويهبط مستقيماً حتى الشاطىء . وجذوع الاشجار المقطوعة تنساب ، وهي مربوطة بالحبل ، تئز كالنبال :

وراح يفرك يديه ويقول :

ــ عمل طيب ! عمل من ذهب . سنجمع المال بالرفش وسنفعل ما قلناه.

ونظرت اليه مدهوشاً .

ــ ايه ، انك تتصرف وكأنك نسيت ! قبل ان نبني الدير ، سنذهب الى الجبل الكبير . كيف تدعوه ؟ طيبة ؟

ــ التيبت ، يا زوربا ، التيبت ... لكن فقط نحن الاثنان . ان ذلك المكان لا يتحمل النساء .

ــ ومن الذي يحدثك عن النساء ؟ ثم انهن ، بعد كل شيء ، مفيدات ، المسكينات ، لا تتحدث بشر عنهن . انهن مفيدات عندما لا يكون امام الرجل عمل رجولي عليه ان يقوم به ، كأن يستخرج الفحم ، ويغزو المدن ، ويتحدث عن الرحمن . وما الذي يبقى امامه في هذه الحالة حتى لا يفطس ؟ انه يشرب الخمر ، ويقامر ، ويداعب النساء . وينتظر ... ينتظر ان تأتي ساعته ــ اذا كانت ستأتي .

وصمت لحظة . ثم عاد يقول مغضباً :

ــ اذا كانت ستأتي ! لأنه من الجائز جدا الا تأتي ابداً !

وبعد لحظة اضاف :

ــ ان الحال لا يمكن ان تستمر هكذا ، ايها الرئيس ، فاما ان تصغر الارض ، واما ان اكبر انا . والا فانني هالك !

وظهر راهب بين اشجار الصنوبر ، أحمر الشعر ، مصفرّ البشرة مشمراً عن أكمامه ، وعلى رأسه قبعة مستديرة من الصوف البني . وكان يمسك بقضيب من الحديد ، ويضرب الأرض به ، ويمشي بخطا عريضة . وعندما رآنا توقف ، ورفع عصاه ، وسألنا :

ــ الى اين تذهبان ، ايها الشجاعان ؟

فأجاب زوربا :

ــ الى الدير ، لنؤدي واجباتنا .

فصرخ الراهب وعيناه الزرقاوان الباهتتان تحمرّان :

ــ عودا من حيث جئتما ، ايها المسيحيان ! عودا من حيث جئتما ، من اجل الخير الذي اريده لكما ! ان هذا الدير ليس حديقة « العذراء » ، بل

بستان ابليس · الفقر ، والطاعة والعفة ··· اكليل الراهب كما يقولون ! هيْ ! هيْ ! هيْ ! اذهبا ، أقول لكما · المال ، والكبرياء ، والغلمان ! هـذا هو ثالوثهم الأقدس ·

وهمس زوربا في أذني مسروراً :

ـ انه لظريف ايها الرئيس ·

ومال نحوه وسأله :

ـ كيف تدعى ، ايها الأخ الراهب ؟ وأي رياح اتت بك ؟

ـ انني أدعى زكريا · لقد حزمت امتيعتي ، وهأنذا ذاهب · انني ذاهب، ذاهب ، لم اعد استطع التحمل ! انعم علي بالتعرف الى اسمك ، ايها المواطن ·

ـ كانافارو ·

ـ ان الحال لا تحتمل ، ايها الاخ كانافارو · ان المسـيح ليئنّ طوال الليل ويمنعني من النوم · فأئنُّ انا معه ، وعندئذ دعـاني رئيس الـدير ـ لتشوه ألسنة الجحيم ! ـ باكر هذا اليوم وقال لي :

ـ حسناً ، ايها الاخ زكريا ، الا تدع اخوتك ينامون ؟ سأطردك ·

فقلت له :

ـ أنا الذي لا يدعهم ينامون ؟ أأنا ام المسيح ؟ انه هو الذي يئن !

عند ذاك رفع عصاه ، عدو المسيح ، انظر انظرا ! وخلـع قلنسوتـه وكشف عن بقعة من الدم المتخثر فوق شعره ·

ـ عندئذ نفضت الغبار عن حذائي ومضيت ·

فقال زوربا :

ـ عد معنا الى الدين ، وسأصالحك مع الرئيس · تعال ، ستكون رفيقنا وتدلنا على الطريق · ان السماءهي التي ارسلتك ·

ففكر الراهب لحظة · والتمعت عيناه ، وقال :

ـ ماذا تريد ؟

ـ كيلو من السمك المملح وزجاجة كونياك ·

وانحنى زوربا ونظر اليه وقال :

ـ بالمناسبة ، الا يسكن في داخلك ابليس ، ايها الاخ زكريا ؟

فانتفض الراهب ، وسأله مذهولا :

ـ كيف حزرت ؟

فأجاب زوربا :

ـ انني قادم من جبل آتوس ، وانا أعرف عن مثل هذا الموضوع !

وخفض الراهب رأسه • وخفت صوته الى حد انه لم يعد يسمع ، واجاب :

ـ نعم ، في داخلي ابليس •

ـ وهو يريد السمك والكونياك ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، عليه اللعنة ثلاث مرات !

ـ حسناً ، اتفقنا ! وهو يدخن ايضاً ؟

ورمى اليه زوربا بسيجارة تلقفها بشراهة • وقال :

ـ انه يدخن ، انه يدخن ، ليلتهمه الطاعون !

واخرج من جيبه حجر صوان وفتيلة ، واشعل السيجارة واستنشق من كل رئتيه • وقال :

ـ باسم المسيح !

ورفع عصاه ، واستدار على عقبيه ، وبدأ السير •

وسأله زوربا وهو يغمزني بعينه :

ـ وكيف يدعى ، شيطانك ؟

فأجاب الراهب دون ان يلتفت :

ـ يوسف !

ان رفقة هذا الراهب نصف المجنون لم تكن لتعجبني • ان عقلا عاجزاً ، مثل الجسد العاجز ، يثير فيّ الشفقة والاشمئزاز معاً • لكنني لم أقل شيئاً • وتركت زوربا يفعل ما يحلو له •

وفتح الهواء النقي شهيتنا • فجلسنا تحت شجرة صنوبر عظيمة وفتحنا كيس الطعام • وانحنى الراهب بشراهة ، يبحث بعينيه عما يحويه • وصاح زوربا :

ـ أيْ ! أيْ ! لا تلعق شفتيك سلفاً ، يا زكريا ! اليوم هو الاثنين المقدس • اننا لكفرة نحن ، لهذا فسنأكل قليلا من اللحم ، ودجاجة ، وليسامحني الله ! لكن لدينا أيضاً حلوى وزيتون من اجل قداستك ، خذ !

وداعب الراهب لحيته الدسمة وقال بندم ظاهر :

ـ أنا ، أنا زكريا ، انني اصوم ، وسآكل زيتونا وخبزا وسأشرب ماء بارداً ••• لكن يوسف ، باعتباره شيطاناً ، سيأكل قليلا من اللحم ، يا اخويّ ، انه يحب الدجاج كثيراً وسيشرب الخمر من ابريقكما ، اللعين !

ورسم اشارة الصليب ، وابتلع بشراهة خبزاً ، وزيتونا ، وحلوى ، ومسح فمه بظهر يده ، وشرب ماء ثم رسم اشارة صليب ثانية وكأنه انهى

طعامه · وقال :

ـ والآن حان دور يوسف ، عليه اللعنة ثلاث مرات ···

والقى بنفسه على الدجاجة · وراح يتمتم بحنق ، وهو يتلقف لقمـــاً كبيرة ·

ـ كل ، أيها اللعين ! كل !

وقال وزربا بحماسة :

ـ مرحى ، أيها إلراهب ! ان في قوسك أكثر من وتر واحد (١) ، على ما أرى ·

والتفت نحوي :

ـ كيف وجدته أيها الرئيس ؟

فأجبت ضاحكاً :

ـ انه يشبهك ·

وقدم زوربا للكاهن ابريق الخمر :

ـ يوسف ، اشرب جرعة !

فقال الراهب وهو يمسك بالابريق ، ويثبته على فمه :

ـ اشرب ، أيها اللعين !

كانت الشمس قد اصبحت قاسية ، فابتعدنا قليلا نحو الظـل · كان الراهب تفوح منه رائحة العرق اللاذع والبخور ، والعرق ينسال منـه تحت الشمس وكأنه يذوب · وقاده زوربا نحو الظل حتى لا تفوح منه روائـــح كثيرة · وسأله بعد ان أكل جيداً وأحس بالحاجة الى الثرثرة :

ـ كيف اصبحت راهباً ؟

فقهقه الراهب :

ـ لعلك تعتقد ان ذلك بسبب القداســـة ؟ كم انت مخطىء ! بسبب الفقر ، يا أخي ، بسبب الفقر · لما لم يكن عندي شيء آكله قلت في نفسي : ليس عليك الا ان تدخل الدير كي لا تفطس من الجوع !

ـ وهل انت مسرور ؟

ـليتمجد اسم الرب ! انني غالبــاً ما اتألم لكن لا تهتم بذلك · انني لا اتألم للأرض ، عليها اللعنة ··· كل يوم ألعنها ··· لكنني اتألم للسماء · انني اروي نكتاً ، واتظاهر بالمرونة ، ويضحك الرهبان عندما يرونني · انهم

---

١ تعبير يقال لمن لديه اكثـر من وسـيلة واحدة لانجاح مشروع ما · «هـ·م» ·

يقولون انني ممسوس ، ويشتمونني • لكنني اقول لنفسي : « هـذا ليس ممكناً ، بل من المؤكد ان الاله الطيب يحب المزاح • ادخل يا مهرجي ، ادخل، يا صغيري ! هكذا سيقول لي ذات يوم • تعال لتضحكني ! » • وهكذا ، كما ترى ، فانني سأدخل الى الجنة كمهرج •

فقال زوربا وهو ينهض :

ـ اعتقد ، يا صديقي ، ان رأسك على كتفيك حقاً ! هيا ، قبل ان يفاجئنا الليل !

ومن جديد ، سار الراهب في المقدمة • وبدا لي وانا اصعد الجبل ، انني اتسلق في داخلي مشاهد روحية ، وانني امر من هموم وضيعة الى هموم أكثر سموا ، ومن حقائق السهل البسيطة الى نظريات وعرة •

وفجأة توقف الراهب ، وقال وهو يرينا كنيسة صغيرة تعلوها قبة مستديرة مهيبة :

ـ سيدة الانتقام !

وسجد ورسم اشارة الصليب •

ونزلت عن البغل ، ودخلت الى صحن الكنيسة الرطب • ولمحت في احدى الزوايا ، ايقونة قديمة سودها الدخان ، مثقلة بالنذور : قطع رقيقة من الفضة حفر عليها بدون اتقان صور ارجل ، وايد ، واعين ، وقلوب ••• وكان ثمة قنديل من الفضة يشتعل أمام الايقونة ، لا ينطفىء أبداً •

واقتربت بصمت : كان ثمة تمثال مستوحش للعذراء المحاربة ، بعنقها المشدودة ، ونظرتها القاسية القلقة العذرية ، وهي تمسك ، ليس بالطفل الالهي ، بل بحربة طويلة مستقيمة • وقال الراهب بخوف :

ـ شقي من يمس الدير بسوء ؟ انها تنب عليه وتبقره بحربتها • لقد جاء الأمر ، في الماضي ، واحرقوا الدير • لكن انتظر ، سترى ما كلفهم هذا الأمر ، الكفرة : ففي اللحظة التي مروا فيها امام هـذه الكنيسة ، اندفعت العذراء القديسة من الايقونة واسرعت الى الخارج • وهيا ، فها هي تأخذ حربتها وتضرب ، وتضرب هنا ، وتضرب هناك ، وقتلتهم جميعاً • ان جدي لا يزال يذكر عظامهم وقد ملأت الغابة كلها • ومنذ ذلك الحين ، سموها «سيدة الانتقام» • وكانوا قبل ذلك يسمونها « **سيدة الرحمة** » •

فسأل زوربا :

ـ ولماذا لم تقم بمعجزتها قبل ان يحرقوا الدير ، ايها الأب زكريا ؟

فأجاب الراهب وهو يرسم اشارة الصليب ثلاث مرات :

ـ انها ارادة القدير جداً !

فتمتم زوربا وهو يمتطي ظهر البغل من جديد :

ـ يا للقدير جداً : الى الامام !

وبعد فترة قصيرة ، ظهر دير العذراء ، فوق هضبة ، محاطاً بالصخور والصنوبر • وبدا لي هذا الدير ، الهادىء ، المبتسم ، المنعزل عن العالم ، في حضن هذه القمة الخضراء العالية ، المنسجم بعمق مع سمو الذرى وعذوبة السهل ، كملجأ أحسن اختياره للتأمل البشري •

وقلت في نفسي : « ان نفساً صابرة وعذبة تستطيع ، هنا ، ان ترفع قمة الانسان الى الوجه الديني • انها ليست قمة وعرة فوق القدرة البشرية ، ولا سهلا كسولا مريحاً ، بل كل ما يلزم كي ترتفع النفس دون ان تفقد عذوبتها الانسانية • ان مثل هذا المكان لا يصنع لا ابطالا ولا خنازير • انه يصنع بشراً » •

ان هذا المكان يصلح ليكون اطاراً رائعاً لمعبد مهيب من اليونان القديمة او لجامع اسلامي مرح • ولا بد ان ينزل الله هنا بثيابه البشرية البحتة • لا بد ان يمشي عاري القدمين على العشب الربيعي ، ويتحادث بألفة واطمئنان مع البشر •

وتمتمت :

ـ يا للروعة ، يا للعزلة ، يا للغبطة !

ونزلنا عن الدابتين ، وعبرنا الباب المقوس الشكل ، وصعدنا الى قاعة الاستقبال حيث قدمت لنا الوجبة التقليدية ، مع العرق والمربى والقهوة • وجاء الأب المضيف ، وأحاطنا الرهبان ، وبدأ الحديث • عيون خبيثة ، وشفاه لا ترتوي ، ولحى ، وشوارب ، وآباط تفوح منها رائحة الخراف • وسألنا راهب قلق :

ـ ألم تأتيا بجريدة ؟

فقلت مندهشاً :

ـ جريدة ؟ وما حاجتكم اليها هنا ؟

فهتف راهبان او ثلاثة باستنكار :

ـ جريدة لنرى ، ايها الأخ ، ماذا يجري للعالم !

كانوا واقفين ، متشبثين بقضبان الشرفة ، ينعقون كغربان ، ويتحدثون بحماسة عن انكلترا ، وروسيا ، وفينزيلوس ، والملك • لقد نفاهم العالم ، لكنهم ، هم ، لم ينفوا العالم • كانت اعينهم مليئة بمدن

كبيرة ، ودكاكين ، ونساء ، وصحف ٠٠٠

ونهض راهب بدين ، كث الشعر ، وقال لي وهو يشهق :

ـ لدي شيء أريد ان اريكه ، وستقول لي رأيك فيه ، انت ايضاً ٠ سأذهب لآتي به ٠

وذهب ، ويداه المشعرتان القصيرتان فوق بطنه ، وهو يجر نعليه المصنوعين من الجوخ ، واختفى وراء الباب ٠

وقهقه الرهبان بخبث ، وقال الاب المضيف :

ـ لقد ذهب الأب ديميتيوس ، ليأتي من جديد بتمثال الراهبة الغضاري ٠ لقد طمرها الشيطان في الارض لمأرب في نفسه ، وذات يوم بينما كان ديميتيوس يجتاز الحديقة ، وجدها ، وجاء بها الى صومعته ، ومنذ ذلك الحين ، فقد المسكين القدرة على النوم ٠ ولن يتأخر به الحال عن فقدان عقله ايضاً ٠

ونهض زوربا ٠ فقد يكاد يختنق ، وقال :

ـ لقد جئنا لنرى قداسة رئيس الدير ، ولنوقع الأوراق ٠

فأجاب الاب المضيف :

ـ ان قداسة رئيس الدير ليس موجوداً ، لقد ذهب هذا الصباح الى القرية ٠ عليك بالصبر ٠

وظهر الاب ديميتيوس من جديد . كانت يداه ممدودتين ومضمومتين، وكأنه يحمل الكأس المقدسة ٠ وقال وهو يفتح يديه بحذر :

ـ ها هي !

اقتربت ، ورأيت تمثالا صغيراً جداً من صنع « تاناغرا » يبتسم ، نصف عارٍ ، بظرف ، بين راحتي الراهب البدينتين٠ وكانت الراهبة تمسك بيدها الوحيدة الباقية رأسها ٠ وقال ديميتيوس :

ـ حتى تشير الى رأسها ، فلا بد ان فيه حجرا كريماً ، من الجائز ماسة ، او لؤلؤة ٠ ما رأيك ؟

فقاطعه أحد الرهبان بسخرية مرة :

ـ انا اعتقد ان رأسها يوجعها ٠

لكن ديميتيوس البدين ظلَّ ينظر اليَّ ، وشفتاه متدليتان كشفتي تيس ، وينظر بالتياع شديد ٠ وقال :

ـ من رأيي ان نكسرها لنرى ٠٠ ٠ان النوم لم يعد يطرق جفوني ٠٠٠ ماذا لو كان فيها ماسة ؟

ونظرت الى الفتاة الشابة الجليلة بثدييها الصغيرين الناهدين ، المنفية هنا بين روائح البخور والآلهة المصلوبين الذين يلعنون الجسد والضحك والقبلة ٠

آه ! لو كنت استطيع انقاذها !

وتناول زوربا تمثال الغضار ، وجسّ جسد المرأة النحيف ، وتوقفت أصابعه مرتجة فوق الثديين المدببين الناهدين ٠ وقال :

ـ لكن ألا ترى ، ايها الراهب الطيب ، انها الشيطان ؟ انه هو بشخصه ، وليس هناك مجال للخطأ ٠ لا تهتم ، فأنا اعرفه جيداً ، هذا اللعين ٠ انظر الى صدرها ، ايها الاب ديميتيوس ، مستديراً ، ناهداً ، لدناً٠ هكذا هو صدر الشيطان ، انني اعرفشيئاً عن ذلك !

وظهر راهب شاب عند العتبة ٠ وأضاءت الشمس شعره الذهبي ووجهه المستدير المزغب ٠

وغمز الراهب ذو لسان الأفعى بعينه الأب المضيف ٠ وابتسم كلاهما ابتسامة خبيثة ٠ وقالا :

ـ ايها الأب ديميتيوس ، هوذا تلميذك ، غابرييل ٠

وامسك الراهب بالمرأة الصغيرة الغضارية واتجه نحو الباب ، وهو يتدحرج كبرميل ٠ وكان التلميذ الجميل يسير في المقدمة ، بصمت ، بخطا متوازنة ٠ واختفى الاثنان في الرواق الطويل شبه المتهدم ٠

وأشرت لزوربا وخرجنا ٠ كانت الحرارة عذبة ، وفي وسط الباحة تعبق شجرة برتقال مزهرة ، وبالقرب منها يتدفق الماء هادراً من فم كبش من الرخام القديم ٠ ووضعت رأسي تحت الفم ، وشعرت بنفسي قد عادت اليّ الرطوبة ٠ وقال زوربا باشمئزاز :

ـ قل اذن ، ما لهؤلاء الناس ؟ انهم ليسوا رجالا ، ولا نساء ، انما بغال ٠ افٍ ! احرى بهم ان يشنقوا انفسهم !

وغطس رأسه ايضاً في الماء البارد واخذ يضحك ، وكرر :

ـ أفٍ ! احرى بهم ان يشنقوا انفسهم ! ان الشيطان يسكنهم جميعاً ٠ أحدهم يريد امرأة ، والآخر سمكاً ، والآخر مالا ، والآخر صحفاً ٠٠٠ مجموعة من الحمّيات ! لماذا لا ينزلون الى العالم ، ليشبعوا من كل ذلك ، ويطهروا عقولهم ؟ !

وأشعل سيجارة وجلس على مقعد تحت شجرة البرتقال المزهرة ٠ وقال :

ـ انا ، عندما ارغب في شيء ما ، أتعرف ماذا أفعل ؟ انني آكل منه

حتى التقزز كي اتخلص منه ولا افكر به مطلقاً · او افكر بـــه باشمئزاز · عندما كنت طفلا ، كنت مجنوناً · لم يكن لدي مال كثيــر ، لهــذا كنت لا اشتري كثيراً منه دفعة واحدة ، وبعد ان آكل ما اشتريه ، تظل بي شهوةالى المزيد منه · كنت لا افكر ليل نهار الا بالكرز ، ويسيل له لعابي ، وأتألـــم حقاً ! لكنني ذات يوم غضبت بشدة ، اؤ بالاحرى خجلت ، لست أدري على الضبط ! لقد أحسست بأن الكرز يفعل بي ما يشاء وبــأن هـــذا يجعلني مضحكاً ، اذن ، فما الذي فعلت ؟ نهضت في الليل خلسة ، وبحثت في جيوب أبي ، ووجدت « مجيدية » من الفضة ، فأخذتها ، وفي الصباح الباكر ذهبت الى بقال · واشتريت سلة من الكرز ، وجلست في حفرة ، وأخذت بالأكل · وأكلت ، وأكلت ، حتى انتفخت بطني · وبعد فترة اخــذت بطني توجعني وتقيأت · وتقيأت ، وتقيأت ايها الرئيس ، ومنذ ذلــك الحين انتهت قصة الكرز · بل انني لم اعد أستطيع حتى ان أتصوره · لقــد تخلصت · صرت انظر اليه واقول : لست بحاجة اليك · وفعلت الشيء نفسه فيما بعد مــع الخمر والتبغ · انني لا أزال أدخن ، واشرب · لكن عندما اريد ان أكـف ، أكف · ان الرغبة لم تعد مسيطرة علي · والشيء نفسه ، بالنسبة للوطن لقد رغبت فيه ، فأكلت منه حتى الشبع ، وتقيأت ، وتخلصت منه ·

فسألته :

ــ والنساء ؟

ــ ان دورهن سيأتي أيضاً ، العاهرات ، سيأتي ! لكن عندمـا ابلـــغ السبعين ·

وفكر لحظة ، وبدا له ان ما قاله قليل ، فقال :

ــ بل الثمانين · ان هذا يضحكك ايها الرئيس ، لكن هيـــا ، فأنت تستطيع ان تضحك كثيراً ! ان الانسان يتحرر هكذا ، اصغ جيداً الى مــا أقول لك ، انه يتحرر هكذا ، بأن يشبع من كل شيء يخطر له ، لا بأن يزهد فيه · كيف تستطيع ، يا صديقي ، أن تتخلص من الشيطان ، اذا لم تصبح انت بنفسك شيطاناً ونصف شيطان ؟

وظهر ديميتيوس في الباحة دهشاً ، يتبعه الراهــب الشــاب الاشقر · فتمتم زوربا ، وهو يتأمل وحشيته ومهابة شبابه :

ــ انه لأشبه بملاك غاضب !

واقتربا من الدرج الحجري الذي يقود الى الصومعات العالية · والتفت ديميتيوس ، ونظر الى الراهب الصغير وقال له شيئاً ما · وهـــز الراهب الصغير برأسه ، وكأنه يرفض · لكنه سرعان ما انحنى بخضوع · وأحاط

خصر الراهب الهرم بذراعه وصعدا الدرج ببطء ٠

وسألني زوربا :

ــ أترى ؟ أترى ؟ سادوم وعامورة !

ومد راهبان رأسيهما ٠ وتغامزا بالعين ، وهمسا شيئاً ما ، وأخـــذا يضحكان ٠ ودمدم زوربا :

ــ يا للخبث ! ان الذئاب لا تأكل بعضها بعضاً ، أما الرهبــان ، فبلى ! انظر اليهم وهم يتعاضّون ، الواحدة تعض الاخرى ٠

فقلت ضاحكاً :

ــ الواحد يعض الآخر ٠

ــ لكن الشيء واحد ، هنا ، يا صديقي ، لا تتعب رأسك ! انني اقــول لك ، انهم بغال ، ايها الرئيس ! تستطيع ان تقول ، حسب مزاجك ، غابرييل أو غابرييلا ، ديميتيوس او ديميتيا ٠ هيا بنا ، ايها الرئيس ، لنوقع الاوراق بسرعة ، ولنذهب ٠ ان الامر سينتهي بنا هنا ، بشرفي ، الى ان نقرف مــن الرجال والنساء معاً ٠

وخفض صوته وقال :

ــ لدي ايضاً مشروع ٠٠٠

ــ أعمل جنوني آخر ، يا زوربا ؟ ألا ترى انك فعلت ما فيه الكفايـــة ؟ هيا ، قل لي مشروعك !

فرفع زوربا كتفيه وقال :

ــ كيف اقوله لك ، ايها الرئيس ٠ انـــك ، استمحيك عفواً ، رجـــل شجاع ، انسان يهتم بأصغر هموم الآخرين ٠ انك اذا وجدت قملة ألى جانب لحافك ، أيام الشتاء ، فانك تضعها تحته كي لا يصيبها برد ٠ كيف تستطيــع أن تفهم لصاً هرماً ، مثلي ؟ انني لو وجدت قملة لسحقتها ٠ ولو وجدت خروفاً لحززت عنقه ، ووضعته على السفود ، وتلذذت بأكله مع الرفاق ٠ قد تقــول لي : ان هذا الخروف ليس لك ٠ انني اعترف بذلك ٠ لكن دعنا ، ايها الأخ ، لنأكله في البدء ، وبعد ذلك نتحدث ونتناقش بكل هدوء عما هو « ملكك » وعما هو « ملكي » ٠ انك تستطيع أن تتكلم قدر ما تشاء بينما أكون انا منهمكاً في تنظيف اسناني بعود ثقاب ٠

ورنت الباحة بقهقهته ٠ وظهر زكريا ، مرتبعــاً ٠ ووضـــع اصبعاً على شفتيه واقترب على أطراف أصابعه ٠ وقال :

ــ صمتاً ! لا تضحكا ! انظرا ، هناك في الاعلى ، وراء النافذة المفتوحة ،

ان الاسقف يعمل • انها المكتبة • وهو يكتب • انه يكتب طوال اليوم ، هـذا الرجل القديس ، لا تصرخا !

فقال زوربا وهو يجر الراهب من ذراعه :

ـ ها أنت ، انني أود محادثتك ، ايها الأب يوسف ! هيا الى غرفتك ، لنتحدث قليلا •

وأضاف وهو يستدير نحوي :

ـ اذهب ، أنت ، اثناء ذلك ، لزيارة الكنيسة وتأمل الأيقونات القديمة • اما أنا فسأنتظر رئيس الدير ، انه لن يتأخر • وعلى الاخص لا تتدخل في أية قضية لأنك ستضر بنا ! دعني اعمل ، فلدي خطتي •

ومال على اذني :

ـ سنحصل على الغابة بنصف الثمن ••• لا تقل شيئاً •

ومضى بسرعة ، وذراعه في ذراع الراهب المجنون •

- ١٨ -

عبرت عتبة الكنيسة وغرقت في عتمتها الشفافة الرطبة العبقة ·

كانت الكنيسة مقفرة · شمعدنات البرونز ترسل نوراً شاحباً ، والهيكل المشغول بدقة يحتل آخر الكنيسة ، أشبه بدالية ذهبية محملة بالعناقيد · وكانت الجدران مغطاة ، من أعلاها الى أسفلها ، بزخارف نصف ممحوة تمثل نساكاً مخيفين أشبه بالهياكل العظمية ، وآبار الكنيسة ، ودرب آلام المسيح الطويل ، وملائكة أقوياء وغاضبين ، تحيط بشعورهم شرائط عديمة اللون ·

وفي الأعلى ، على القبة ، تقف « العذراء » ، ممدودة الذراعين ، ضارعة · وكان ثمة نور راجف ينبعث من قنديل ثقيل من الفضة يشتعل أمامها ، ويلعق ويداعب بكسل وجهها الطويل المعذب · انني لن أنسى أبداً عينيها المتألمتين ، وفمها المزموم المستدير ، وذقنها العنيدة · وقلت في نفسي : هي ذي «الأم» راضية تماماً ، سعيدة تماماً ، حتى في أصعب لحظاتها ألماً ، لأنها تحس بأنه قد خرج من أحشائها الفانية شيء ما خالد ·

عندما تجاوزت عتبة الكنيسة من جديد ، كانت الشمس آخذة بالغروب· فجلست تحت شجرة البرتقال ، سعيداً · كانت قبة السماء تتورد ، وكأن الفجر يشرق · ومضى الرهبان الى غرفهم ليستريحوا · انهم بحاجة الى هذه الراحة ، لأنهم لن يناموا الليل · فالمسيح سيبدأ ، هذا المساء ، بتسلق الجلجلة ، وعليهم ان يصعدوا معه · وكان ثمة خنزيرتان سوداوان ، أثداؤهما وردية ، تتناومان ، وهما مستلقتيان تحت شجرة خرنوب · والحمامات فوق الأسطحة ، تتزاوج ·

وقلت في نفسي : الى متى سأظل حياً ، قادراً على الاحساس بعذوبة الأرض ، والهواء ، والصمت ، ورائحة شجرة البرتقال المزهرة ؟ كان قلبي قد طفح بالسعادة عندما تأملت في الكنيسة أيقونة للقديس باخوس · وتجلى

أمامي من جديد كل ما يثير انفعالي بعمق : الاتحاد في الرغبة ، والاستمرار في الجهد • لتتبارك تلك الأيقونة الصغيرة الرائعة التي تمثـــل الفتى المسيحي بشعره المجعد المتساقط على جبهته كعناقيد سوداء • ان ديونيزوس اله الخمر والنشوة الجميل والقديس باخوس ، يمتزجان فيّ ، ويأخذان الوجه نفسه • تحت أوراق العنب وتحت ثوب الراهب ، كان يختلج نفس الراجف الـــذي حرقته الشمس : اليونان •

وعاد زوربا • وقال لي فوراً :

ـ لقد وصل رئيس الدير ، وتحدثنا قليلا ، لكنه أصم أذنيه ، فهـــو لا يريد أن يتخلى عن الغابة من أجل قطعة خبز ، كما قال ، ان المحتـــال يطلب اكثر من ذلك ، لكنني سأتغلب عليه •

ـ لماذا أصم أذنيه ؟ ألم نكن متفقين ؟

فقال زوربا ضارعاً :

ـ لا تتدخل في الأمر ، أيها الرئيس ، أرجوك • ستهدم كل شيء • وها أنت تتحدث عن الاتفاق القديم • لقد دفنّاه !لا تقطب حاجبيك ، انني أقول لك : لقد دفناه ! سنحصل على الغابة بنصف الثمن •

ـ لكن ما الذي تهيئه ايضاً ، يا زوربا ؟

ـ لا تهتم بذلك • انه شغلي • سأضع زيتـــاً على البكرة ، وستأخـذ بالدوران ، أتفهم ؟

ـ لكن لماذا ؟ انني لا أفهم •

ـ لأنني انفقت أكثر مما يجب في كاندي • لأن لولا قد اكلت مالي ، اعني انها اكلت كمية لا بأس بها من مالك • أتتصور أنني نسيت ؟ ان لي كبريائي ، فما الذي تظن ؟ لا أريد أن تلطخ سمعتي ! لقد انفقت ، وسأدفع • لقد قمت بالحساب : لقد كلفت لولا سبعة آلاف درهم ، وسأعوض عن المبلغ من الغابة • ان رئيس الدير ، والدير ، والقديسة العذراء ، هم الذين سيدفعون بدلا مـــن لولا • هذه هي خطتي ، أتعجبك ؟

ـ مطلقاً • ما مسؤولية العذراء القديسة عن هباتك السخية ؟

ـ انها مسؤولة بل وأكثر من مسؤولة • انها ولدت ابنها • وابنها هـــو الله • ولقد خلقني الله ، أنا ، زوربا ، وأعطاني الأدوات التي تعرفها • وهـــذه الآلات اللعينة تفقدني رشدي وتفتح كيس نقودي مـــا ان أصـــادف الجنس الانثوي • أتفهم ؟ اذن ، فقداستها مسؤولة واكثر من مسؤولة • عليهـــا أن تدفع •

ـ انني لا أحب هذا ، يا زوربا ٠
ـ تلك هي مسألة أخرى ، ايها الرئيس ٠ لننقذ اولا السبعة آلاف ليرة . ثم نتناقش بعد ذلك ٠ « قبلني ، يا صغيري ، ثم أرجع من جديد عمتك ٠٠٠»٠ أتعرف الاغنية ؟

وظهر الأب المضيف البدين وقال بلهجة رجال الكهنوت المرائية :

ـ تفضّلا بالدخول ، فقد أعدّ العشاء ٠

ونزلنا الى قاعة الطعام ، وهي عبارة عن غرفة كبيرة فيها مقاعد وموائد طويلة ضيقة ٠ كان الجو يعبق برائحة الزيت الدهنية الحادة ٠ وفي آخـــر القاعة زخرفة قديمة تمثل « العشاء الأخير » ٠ التلاميذ المخلصون الاحد عشر ، متجمعون كالخراف حول المسيح ، وفي مواجهتهم يقف يهوذا ، النعجة الجرباء، الأحمر الشعر ، المحدوب الجبهة ، الأقنى الانف ، بمفرده ، مديراً ظهره ٠ ولم يكن المسيح ينظر الا اليه ٠

وجلس الأب المضيف ، انا الى يمينه ، وزوربا الى شماله ٠ وقال :

ـ اننا صائمون ، ستعذروننا : لا زيت ولا خمر على الرغم من أنكمـــا مسافران ٠ اهلا بكما !

ورسمنا اشارة الصليب ، ورحنا نأكل بصمت زيتوناً وبصـلا أخضر ، وفولا طازجاً وحلوى ٠ كنا ثلاثتنا نمضغ ببطء كأرانب ٠ وقال المضيف :

ـ هذه هي الحياة هنا : صلب وصوم ٠ لكن صبراً ، يا اخوتي ، صبراً ، فها هو البعث قادم مع الحمل ، وها هو ملكوت السماوات آتٍ ٠

وسعلت ٠ وداس زوربا على قدمي كأنه يقول لي : « اصمت ! » ٠ وقال ليغير الموضوع :

ـ لقد رأيت الأب زكريا ٠٠٠

فانتفض الاب المضيف وسأل زوربا بقلق :

ـ هل قال ذلك الممسوس شيئاً ؟ ان فيه الشياطين السبعة ، لا تصغِ اليه ! ان روحه ملوثة وهو يرى الدنس في كل مكان ٠

وقرع الجرس ، بأسى ، بـــدء الاسبـــوع الحزيـــن ٠ فرســـم الأب المضيف اشارة الصليب ونهض قائلا :

ـ انني ذاهب ، فآلام المسيح قد بدأت ٠ هيا اذن نحمل الصليب معه ٠ تستطيعان ان تستريحا هذا المساء ، فأنتما متعبان بسبب الطريق ٠ لكن غداً في قداس منتصف الليل ٠٠٠

وما كاد الراهب يخرج حتى دمدم زوربا بين شفتيه :

ـ أشرار ! أشرار ! كذابون ! بغال ! بغال !

ـ ما بك ، يا زوربا ؟ هل قال لك زكريا شيئا ما ؟

ـ دعك من هذا ايهـــا الرئيس ، لكن لا تغضب اذا كانوا لا يريـــدون التوقيع ، سأريهم عن حق من انا !

وصعدنا الى الغرفة التي أعدت لنا • في احدى زواياها ، كانت هنـــاك ايقونة تمثل العذراء وهي تضع خدها على خد ابنها ، وعيناهـــا الكبيرتـــان مليئتان بالدموع •

وهزّ زوربا رأسه :

ـ أتعرف لماذا تبكي ، ايها الرئيس ؟

ـ كلا •

ـ لأنها ترى • لو كنت ، انا ، رسام ايقونات ، لرسمت العـــذراء دون عينين ، دون أذنين ، دون أنف • لأنني أشفق عليها •

وتمددنا على فراشينا القاسيين • كانت تفوح من العوارض رائحـــة السرو • ومن النافذة المفتوحة كانت تدخل أنفاس الربيـــع المحملة بأريـــج الزهور • ومن حين الى حين ، كانت الانغام الجنائزية تأتي من الباحة ، وكأنها نفحات ريح • وراح بلبل يغني قرب النافذة ، وتبعه آخر ، على مسافة أبعد قليلا ، وآخر ايضاً • كان الليل يطفح بالحب •

لم أستطع النوم • وامتزج نشيد بندب المسيح ، وحاولت ، انا ايضا ، ان أتسلق الجلجلة ، بين اشجار البرتقال المزهرة ، مستدلا بقطرات الـــدم الكبيرة • ولمحت ، في الليل الربيعي الأزرق ، عرق المسيح البارد يتــلألأ على جسده الشاحب المنهك • ورأيت يديه تمتدان راجفتين ، كأنه يتضرع ، كأنه يتسول • وكان اهل الجليل المساكين يسرعون في اثره ويهتفون : « هوسنا ! هوسنا ! » ، وهم يحملون سعف النخيل • ويفرشون معاطفهم تحت قدميه • وكان هو ينظر الى الذين يحبهم ، لكن لم يكن ثمة احد منهم يدرك يأسه • كان هو الوحيد الذي يعرف انه ذاهب الى الموت • وتحت النجوم ، راح يبـــكي بصمت ويعزي قلبه البشري المسكين المليء بالهلع : « انت ايضاً يا قلبي عليك، مثل حبة القمح ، ان تثوي تحت التــراب وتمـــوت • لا تخف • والا فكيف ستتحول الى سنبلة ؟ كيف ستستطيع ان تغذي البشر الذين يموتون جوعاً ؟»

لكن قلبه المرتعد كان ، على الرغم منه ، يرجف ولا يريد الموت •••

وسرعان ما طفحت الغابة ، حول الدّير ، بأناشيد البلابل التي تتصاعد

من أوراق الشجر الندية ، منسوجة من الحب والرغبة • وكان القلب الانساني المسكين يرجف ويبكي وينتفخ معها •

وشيئاً فشيئاً ، دون ان اشعر ، دخلت ، مع آلام المسيح ، ومع نشيد البلبل ، في النوم ، كما تدخل النفس الى الجنة •

* * *

لم يمضِ على نومي ساعة حتى استيقظت واثباً ، هلعاً ، وصحت :

ـ زوربا ، هل سمعت ؟ طلقة مسدس !

لكن زوربا كان جالساً في فراشه يدخن • وقال وهو يجهد في محاولة السيطرة على اعصابه :

ـ لا تهتم ، ايها الرئيس ، دعهم يسووا حساباتهم •

وسمعنا صراخاً في الممر ، وصوت نعال تجرجر ، وأبواباً تفتح وتغلق ، ومن بعيد أنين رجل جريح •

وقفزت من فراشي ، وفتحت الباب • وانتصب امامي شيخ معروق • ومد ذراعه كأنه يسد علي الطريق • كان يرتدي قبعة بيضاء مدببة ، وقميصاً أبيض يصل حتى ركبته •

ـ من انت ؟

فقال بصوت يرتعد :

ـ الاسقف •••

وكدت انفجر ضاحكاً • اسقف ؟ أين هي زينته : حلة القداس المذهبة ، والتاج ، والعكاز ، والجواهر الزائفة الملونة ••• انها المرة الأولى التي أرى فيها اسقفاً في قميص النوم •

ـ ما طلقة المسدس تلك ، يا مونسينيور ؟

فتمتم وهو يدفعني بلطف الى الغرفة :

ـ لست أدري ، لست ادري •••

وانفجر زوربا ، في فراشه ، ضاحكاً ، وقال :

ـ أأنت خائف ، أيها الأب الصغير ؟ ادخل ، هيا أيها الشيخ المسكين • اننا لسنا رهباناً ، فلا تخف •

فقلت بصوت خافت :

ـ زوربا ، تحدث باحترام أكبر • انه الاسقف •

ـ يا صديقي ، الانسان لا يكون اسقفاً ، عندما يكون في قميص النوم ! ادخل ، اقول لك •

ـ وهذه هي الآن نظريتي الثانية : كل فكرة لها تأثير حقيقي ، لها أيضاً وجود حقيقي • انها هنا • انها لا تجري في الهواء غير مرئية • ان لها جسداً حقيقياً : عينين ، وفماً ، وقدمين ، ومعدة • انها رجل أو امرأة ، وهي تتبع الرجال أو النساء • لهذا فان الانجيل يقول : « لقد تجسدت الكلمة ••• » •

ونظر الي من جديد بقلق • وقال بسرعة ، وهو لا يتحمل صمتي :

ـ نظريتي الثالثة هي هذه : هناك ابدية ، حتى في حياتنا الفانية ، لكن من الصعوبة علينا بمكان ان نكتشفها بمفردنا • ان الهموم اليومية تبعدنا عنها • ان البعض فقط ، النخبة ، يتوصلون الى ان يعيشوا الابدية ، حتى اثناء حياتهم الفانية • ولما كان الآخرون سيهلكون ، فقد اشفق الله عليهم وارسل اليهم الدين ، وهكذا أصبح بامكان الجماهير ان تعيش الابدية أيضاً •

لقد انتهى • وكان من الواضح انه ارتاح لأنه تكلم ورفع عينيه الصغيرتين اللتين بلا اهداب ، ونظر الي مبتسماً • وكأنه يقول « خذ ، انني اعطيك كل ما املك ، خذه ! » • وشعرت بنفسي تنفعل ، وانا أرى هذا الشيخ الضئيل يقدم لي هكذا ، بطيبة قلب ، وهو لم يتعرف الي بعد تماماً ، ثمار حياته كلها •

كانت الدموع قد ملأت عينيه • وسألني وهو يأخذ يدي بين يديه ويحدق فيّ ، وكأن جوابي سيكشف له عما اذا كانت حياته قد اجدت فتيلا ام لم تجد :

ـ ما رأيك في نظرياتي ؟

انني اعرف ان فوق الحقيقة يوجد واجب آخر اهم ، وأكثر انسانية ، لهذا اجبت :

ـ ان هذه النظريات يمكن ان تنقذ كثيراً من النفوس •

وتألق وجه الأسقف • لقد كان هذا تبريراً لحياته كلها •

وهمس وهو يشد على يدي بحنان :

ـ شكراً ، يا بني •

وقفز زوربا من زاويته ، وصاح :

ـ انا عندي نظرية رابعة !

ونظرت اليه بقلق • والتفت الاسقف نحوه :

ـ تكلم ، يا بني ، لتتبارك فكرتك ! أية نظرية ؟

فقال زوربا بجدية :

ـ ان اثنين واثنين يساويان أربعة !

ونظر اليه الاسقف فاغر الفم · وتابع زوربا :

ـ ونظرية خامسة أيضاً ، أيها الشيـخ الطيب : ان اثنين واثنيـن لا يساويان أربعة · اختر التي توافقك !

فتمتم الاسقف وهو يسألني بعينيه :

ـ انني لا افهم ·

فقال زوربا وهو ينفجر ضاحكاً :

ـ ولا أنا ·

والتفتُ نحو الشيخ الضئيل المضطرب وغيـرت موضـوع الحديث بسؤاله :

ـ ما الدراسات التي تكرس نفسك لها ، هنا ، في الدير ؟

ـ انني اعيد نسخ مخطوطات الدير القديمة ، يا بني ! وفي هذه الايـام اجمع كل الصفات التي تحدثت فيها كنيستنا عن « العذراء » ·

وتنهد قائلا :

ـ انني مسن ، لا استطيع ان أفعل شيئاً آخر · انني اهـدئ نفسي بجمع كل ألقاب العذراء ، وأنسى شقاء العالم ·

واستند الى الوسادة ، وأغلق عينيه · وأخذ يتمتم ، كأنه يهـذي : « الوردة التي لا تفنى ، الأرض الخصبة ، الكرمة ، العين ، النبع الذي ينشر المعجزات ، السلم الذي يصعد الى السماء ، طائر البحر ، مفتـاح الجنـة ، الفجر ، القنديل الأبدي ، العمود المتأجج ، البرج الثابت ، الحصن المنيـع ، العزاء ، الفرح ، نور العمي جميعاً ، أم اليتامى كافة ، المائدة ، الغذاء ، السلام ، الاطمئنان ، العسل واللبن ··· » ·

وقال زوربا بصوت خافت :

ـ انه يهذي ، هذا الساذج ··· سأغطيه حتى لا يصاب ببرد ···

ونهض والقى عليه بغطاء ، واصلح وضع الوسادة ، وقال :

ـ هناك سبعة وسبعون نوعاً من الجنون ، على ما سمعت ، لكن هذا هو النوع الثامن والسبعون ·

كان النهار يشرق · وسمعنا صوت مزهـر · وانحنيت من النافـذة الصغيرة · ولمحت ، على نور الفجر الأول ، راهباً نحيفاً ، وعلى رأسه غطـاء أسود طويل ، يدور في الباحة ببطء وهو يضرب بمطرقة صغيرة على لـوح صغير من الخشب يصدر الحاناً متناغمة رائعة · كان صوت المزهر ينتشر في الجو الصباحي ، مليئاً بالعذوبة والانسجام والنداء · وكان البلبل قد صمت ،

وبدأت العصافير الأولى تغرد ، بين الأشجار ·

ورحت أصغي ، مسحوراً ، الى لحن المزهر العـذب الموحي · وقلت في نفسي : ان ايقاعاً مرتفعاً لحياة يستطيع ، حتى في لحظة انحطاطه ، ان يحتفظ بشكله الخارجي كله ، آسراً مليئاً بالنبل ! ان الروح تهرب ، لكنهـا تترك مقامها سليماً ، هو الذي ظلت تشكله طوال قرون ، كالصـّدَفة ، رحباً ، معقداً ، لتقيم فيه مرتاحة ·

ان الكاتدرائيات الرائعة التي نصادفها في المدن الكبيرة الوثنية المليئـة بالضجيج ، لهي اشبه بصدفات فارغة · مسوخ من زمن ما قبل التاريخ لم يبق منها الا الهيكل العظمي الذي تأكلته الامطار والثلج ·

وقرع باب غرفتنا · وسمعنا صوت الأب المضيف الذي يتحدث مـن حلقه :

ــ هيا ، انهضا من أجل قداس الصباح ايها الأخوان !

فقفز زوربا ، وصرخ على الرغم منه :

ــ ماذا كانت طلقة المسدس تلك ؟

وانتظر قليلا · صمت مطبق · ومع ذلك فقد كان الراهب لا يزال وراء الباب ، لأننا كنا نحس بأنفاسه المبهورة · وضرب زوربـا برجله · وعـاد يسأل حانقاً :

ــ ماذا كانت طلقة المسدس تلك ؟

وسمعنا خطى تبتعد بسرعة · وبقفزة واحدة وصل زوربا الى البـاب وفتحه ، وقال وهو يبصق على الراهب الذي كان يهرب بنفسه :

ــ كومة حمقى ! ايها الكهنة ، والرهبان ، والراهبات ، والابرشيون ، والسكرستانيون ، انني ابصق عليكم ·

قلت :

ــ هيا بنا ، توجد رائحة دم هنا ·

فدمدم زوربا :

ــ لو كان دماً فقط ! ستذهب انت الى القداس ، اذا كنت راغباً · أمـا انا فذاهب لأنقب هناك لعلي اكتشف شيئاً ما ·

فقلت من جديد ، بانقباض :

ــ هيا بنا · وأرجو ، من فضلك ، ألا تدس أنفك فيما لا يعنيك ·

فصرخ زوربا :

ــ لكنني أريد أن ادسه هنا بالذات ، انفي !

وفكر لحظة ثم ابتسم بخبث قائلا :

ـ ان الشيطان ليقدم لنا خدمة رائعة ! اعتقد انه سيوصل الأمور الى الغاية المطلوبة • أتعرف ، ايها الرئيس ، كم يمكن ان تكلف الدير ، طلقة المسدس تلك ؟ سبعة آلاف ورقة !

ونزلنا الى الباحة • عبق الاشجار المزهرة ، وعذوبة الصباح ، والغبطة السماوية • وكان زكريا ينتظرنا • واسرع الى زوربا وامسك به من ذراعه • وتمتم وهو يرتعد :

ـ ايها الأخ كانافارو ، تعال ، هيا بنا من هنا !

ـ ماذا كانت طلقة المسدس تلك ؟ لقد قتل احد ؟ هيا ، ايها الراهب ، تكلم او اخنقك !

كانت ذقن الراهب ترتعد • ونظر حوله • كانت الباحة خالية ، والغرف مقفلة ، ومن الكنيسة المفتوحة تنساب الألحان متموجة • وتمتم :

ـ اتبعاني • سادوم وعمورة !

واجتزنا الباحة ، ونحن ننساب على طول الجدران ، وخرجنا من البستان • على بعة مئة متر تقريباً من الدير كانت تقع المقبرة • ودخلنا اليها •

وخطونا فوق القبور ، ودفع زكريا باب الكنيسة ودخلنا في اثره • في الوسط ، على بساط ، كان ثمة جسد ممدد ، مغطى بثوب راهب • والى جانب رأسه شمعة مشتعلة ، وعند قدميه شمعة أخرى •

فتمتمت وانا ارتعد :

ـ الراهب الصغير ! راهب الأب ديميتيوس الصغير الاشقر !

عند باب المعبد كان الملاك ميخائيل يقدح شرراً ، وقد فتح جناحيه ، واستل سيفه ، وانتعل نعلين احمرين •

وصرخ الراهب :

ـ ايها الملاك ميخائيل ! ارسل النار واللهيب ، واحرقهم جميعاً ! ايها الملاك ميخائيل ، أرفس رفسة ، واندفع خارج أيقونتك ! ارفع سيفك ، واضرب ! ألم تسمع طلقة المسدس ؟

ـ من الذي قتله ؟ من ؟ ديميتيوس ؟ تكلم ، يا ذا اللحية !

وانفلت الراهب من يدي زوربا وسقط على وجهه عند قدمي الملاك • ولبث فترة ساكناً ، منصوب الرأس ، جاحظ العينين ، فاغر الفم ، وكأنه يرقب شيئاً ما •

وفجأة نهض من جديد فرحاً ، وقال بلهجة حاسمة :

ـ سأحرقهم • لقد تحرك الملاك ، لقد رأيته ، لقد اشار اليَّ •

واقترب من الايقونة ، وألصق شفتيه الغليظتين على سيف الملاك ، وقال :

ـ ليتبارك الله ! لقد عاد الاطمئنان اليَّ •

وأمسك زوربا بالراهب من تحت ذراعيه من جديد وقال :

ـ تعالَ هنا ، يا زكريا ، هيَّا ، ستفعل ما سأقوله لك •

والتفت نحوي :

ـ أعطني المال ، أيها الرئيس ، سأوقع الاوراق بنفسي • ان جميعهم ، هناك في الداخل ، ذئاب ، أما أنت فحمل ، انهم سيلتهمونك • دعني أفعل • لا تغضب ، انهم بين يدي ، أولئك الغلاظ ! سنغادرهم عند الظهر ، والغابة في جيبنا • هيا يا صاحبي زكريا !

وانسابا خلسة نحو الدير • وذهبت أنا لأتنزه تحت شجر الصنوبر •

كانت الشمس قد علت ظهر السماء ، والندى يتلألأ على الاوراق • وطار شحرور أمامي ، وحط على غصن شجرة كمثرى برية ، وحرك ذنبه ، وفتح منقاره ، ونظر اليَّ وصفر مرتين او ثلاثاً بسخرية •

كنت ألمح الرهبان ، عبر أشجار الصنوبر ، في الباحة ، وهم يخرجون صفوفاً صفوفاً ، منحنين ، على أكتافهم براقع سود • كان القداس قد انتهى • وهم ذاهبون الآن الى قاعة الطعام •

وقلت في نفسي : « يا للخسارة أن يكون مثل هذا التقشف ، ومثل هذا النبل ، دون روح من الآن فصاعداً ! »

كنت متعباً ، لم أنم جيداً ، فتمددت على العشب • كانت ازهار البنفسج البرية ، والوزال ، والعبيشران ، والقويسة تعبق • والحشرات تطن ، جائعة ، وتنقضّ على الأزهار كالقراصنة وتمتص العسل • ومن بعيد كانت الجبال تقدح بالشرر ، شفافة ، هادئة ، مثل كتلة بخار متحركة في نور الشمس المحرق •

وأغلقت عيني ، بخدر • وتملكني فرح خفي ، غامض ، وكأن هذه المعجزة الخضراء التي تحيطني كلها هي الجنة ، وكأن هذه الرطوبة ، وهذه الخفة ، وهذه النشوة المعتدلة ، كلها هي الله • ان الله يبدل وجهه في كل لحظة • وسعيد من يستطيع ان يتعرفه تحت كل اقنعته ! فهو تارة قدح ماء بارد ، وتارة اخرى ابن يثب على ركبتيك ، أو امرأة ساحرة ، أو بكل بساطة نزهة صباحية صغيرة •

وشيئاً فشيئاً ، اصبح كل شيء حولي ، دون ان يبدل شكله ، حلماً ٠ كنت سعيداً ٠ ان الارض والجنة قد اتحدتا فاذا همـا كل واحد ٠ وبدت لي الحياة كزهرة حقل في قلبها قطرة عسل كبيرة ، وروحي كنحلة متوحشـة ترتشف الرحيق ٠

وفجأة خرجت بعنف من هذه الغبطة ، فقد سمعـت خلفي وقع أقـدام وهمسات ٠ وفي اللحظة نفسها تعالى صوت مرح :

ـ أيها الرئيس ، اننا ذاهبون !

ووقف زوربا أمامي ، وعيناه الصغيرتان تتألقان ببريق شيطاني ٠ وقلت باطمئنان :

ـ أذاهبون ؟ هل انتهى كل شيء ؟

فقال زوربا وهو يربت على جيب سترته الاعلى :

ـ كل شيء ! انها هنا ، تلك الغابة ، لتأتينا بالحظ ! وهي ذي السبعة آلاف ورقة التي أخذتها منا لولا !

وأخرج من جيبه الداخلي رزمة اوراق ٠ وقال :

ـ خذها ، انني أدفع ديوني ، ولن اشعر بالخجل امامك بعد الآن ٠ ان فيها ايضاً الجوارب ، والحقائب ، والعطور ومظلة السيدة بوبولينا ٠ وكذلك فستق الببغاء ! وبالاضافة الى ذلك ، الحلوى التي جئت بها اليك !

فقلت :

ـ انني اهديكها ، يا زوربا ، فاذهب واشعل شمعة بطولك للعذراء التي اهنتها ٠

واستدار زوربا ٠ كان الأب زكريا يتقـدم بقلنسوته المخضرة القذرة وحذائيه الباليين ٠ وكان يجر بغلين بالرسن ٠ وأشار زوربا اليه برزمة المال وقال :

ـ سنتقاسمها ، أيها الآب يوسف ، ستشتري مئة كيلو من السمـك المملح وتأكل منها ، يا صاحبي المسكين ، ستأكل منها حتى تنفجر بطنك ٠ حتى تتقيأ وتتخلص ! تعالَ ، افتح يدك ٠

وتلقف الراهب كدسة المال وخبأها في صدره ٠ وقال :

ـ سأشتري بترولا ٠

ـ يجب أن يكون الوقت ليلا ، والجميع نياماً ، والريح ناشطة ٠ ستصب على الجدران من الزوايا الاربع ٠ ليس عليك الا ان تغطس المزق ، والمسّاحات ، وقطع القماش ، وكل ما تجد ، في البترول وتضع فيها النار ٠ أفهمت ؟

كان الراهب يرتعد ٠

ـ لا ترتعد هكذا يا صاحبي ! لقد اصدر اليك الملاك الامر ؟ اذن عليك بالبترول ، كثير من البترول !٠٠٠ ولترافقك العافية !

وامتطينا الدابتين ٠ والقيت نظرة أخيرة على الدير ٠ وسألت :

ـ هل علمت شيئاً ، يا زوربا ؟

ـ بخصوص طلقة المسدس ؟ لا تهتم بالأمر ، ايها الرئيس ٠ ان زكريا على حق : سادوم وعمورة ! لقد قتل ديميتيوس الراهب الصغير الجميـل ٠ هذا هو الامر !

ـ ديميتيوس ؟ لماذا ؟

ـ دعك من الامر ، أقول لك ، ايها الرئيس ، انه ليس الا قذارات ونتن ٠

واستدار نحو الدير ٠ كان الرهبان يخرجون من قاعة الطعام ، محنيي الرؤوس ، متصالبي الأيدي ، ذاهبين الى غرفهـم ليسجنوا أنفسهـــم فيها ٠ وصاح :

ـ لعنتكم عليَّ ، ايها الآباء المقدسون !

- ١٩ -

كان أول شخص التقينا به ونحن نترجل عن دابتينا ، على شاطئنا ، بعد ان أرخى الليل سدوله ، هو بوبولينا ، وقد انكمشت على نفسها امام الكوخ • وعندما اشعلنا المصباح ورأيت وجهها ، ارتعدت فرائصي •

ـ ماذا بك ، أيتها السيدة هورتانس ؟ أأنت مريضة ؟

كانت جنيتنا العجوز قد فقدت كل اغرائها المشبوه الذي لا يمكن تحديده ، منذ اللحظة التي راحت فيها تداعب في صدرها الكبير ، الزواج • فقد راحت تجهد نفسها لمحو كل الماضي ولاطراح الريش الفاقع اللون الذي تزينت به والذي نزعته من الباشاوات ، والبكوات والاميرالية • انها لم تعد تطمح الا في أن تصبح زاغاً جاداً ومستقيماً • امرأة شريفة • انها لم تعد تتخضب ، ولا تتزين ، بل تركت نفسها على ما هي •

ولم يفتح زوربا فاه • بل راح يفتل بعصبية شاربه الذي لم يمضِ وقت طويل على صبغه • وانحنى ، واشعل الموقد ، ووضع ماء ليصنع منه قهوة •

وقال فجأة صوت المغنية العجوز الأبحّ :

ـ وحش !

ورفع زوربا رأسه ونظر اليها • وعادت عيناه الى عذوبتهما • كان من المستحيل عليه ان يسمع امرأة تخاطبه بصوت ممزق ، دون أن يتبدل تماماً • ان دمعة امرأة يمكن ان تغرقه •

لم يقل شيئاً ، بل وضع البن والسكر ، وحرّك الماء • وهدلت الجنية العجوز :

ـ لماذا تتركني انتظر طويلا قبل ان تتزوجني ؟ أنني لم اعد أجرؤ على الظهور في القرية • لقد فقدت شرفي ! سأنتحر !

كنتُ قد تمددت ، متعباً ، على سريري • ورحت ، وأنا مستند الى

الوسادة ، اتذوق هذا المشهد المضحك المثير للاعصاب ٠

ـ لماذا لم تأتِ بأكاليل الزواج ؟

وشعر زوربا بيد بوبولينا البدينة ترتعد على ركبته ٠ لقد كانت هذه الركبة ، آخر مكان ثابت في الارض تتشبث به هذه المخلوقة التي أغرقت ألف مرة ومرة ٠

ولا شك في ان زوربا قد فهم ذلك وان قلبه قد لان ٠ لكنه لم يقل شيئاً هذه المرة ايضاً ٠ وصب القهوة في ثلاثة فناجين ٠ وكررت بصوت راجف :

ـ لماذا لم تأتِ بالأكاليل ، يا عزيزي ؟

فأجاب زوربا بلهجة جافة :

ـ لا يوجد في كاندي أكاليل جميلة ٠

وقدم الى كل فنجانه وقبع في زاوية ، وأضاف :

ـ لقد كتبت الى أثينا ليرسلوا لنا أكاليل جميلة ، وأوصيت أيضاً على شموع بيضاء ، وملبس محشو بالشوكولا واللوز المحمَّص ٠

كان كلما اغرق في الكلام ، زاد خياله اشتعالا ٠ وكانت عيناه تقدحان شرراً ٠ وراح زوربا ، وهو اشبه بالشاعر في لحظة الخلق ، يحلق في الاجواء التي تمتزج فيها الرؤية والحقيقة وتصبحان كالأختين ٠ كان قابعاً ، يستريح٠ ويرتشف بصوت مسموع قهوته ، وأشعل سيجارة ثانية : فقد كان اليوم طيباً ، والغابة الآن في جيبه ، وقد دفع دينه ، فهو مسرور ٠

وانطلق قائلا :

ـ يجب انِ يثير زواجنا ضجة ، يا بوبولينتي الصغيرة ٠ سترين اي قبعة للعرس أوصيت لك بها ! ولهذا السبب بقيت طويلا في كاندي ! يا حبّي ٠ لقد استقدمت خياطتين من اثينا وقلت لهما : « ان المرأة التي سأتزوجها لا مثيل لها لا في الشرق ولا في الغرب ! لقد كانت ملكة الدول الاربع ! لكنها اليوم ارملة ، اذ ان الدول قد ماتت ، لذا فهي تقبلني زوجاً ٠ اذن اريد ان يكون ثوب عرسها لا مثيل له ، وهي ايضاً تريده هكذا : كله من حرير ، مزيناً باللآلىء وبالنجيمات الذهبية ! » ٠ فأطلقت الخياطتان صيحات عالية : « لكنه سيكون جميلا جداً ! ستبهر عيون جميع المدعوين ! » ٠ فقلت : « ليصبهم ما يصيبهم ٠ فما شأني بهم ؟ بشرط ان تكون محبوبتي مسرورة ! » ٠

كانت السيدة هورتانس تصغي ، مستندة الى الحائط ٠ وكان ثمة ابتسامة كثيفة ، مليئة ، قد ربضت على وجهها الصغير الجاف المتجعد ، وشريط عنقها الوردي يكاد ينقطع ٠ وهمست وهي ترمي زوربا بنظرة اتعبها

الانفعال :

ـ أريد أن اقول لك شيئاً في اذنك ٠

وغمزني زوربا بعينيه وانحنى ٠ واسرّت له العروس القادمة وهي تدس لسانها الصغير في الاذن الكبيرة المليئة بالشعر :

ـ لقد جئتك ، هذا المساء ، بشيء ما ٠

واخرجت من صدرها منديلا معقودة احدى زواياه وقدمته الى زوربا ٠

وتناول زوربا باصبعه المنديل الصغير ، ووضعه على ركبته اليمنى ، ثم استدار نحو الباب ، ونظر الى البحر ٠ وقالت :

ـ ألا تحل العقدة ، يا زوربا ؟ ارى انك لست مستعجلا !

فأجاب :

ـ دعيني اولا اشرب قهوتي وادخن سيجارتي ٠ لقد حللتها وانا أعرف ما فيها ٠

فتضرعت الجنية :

ـ حُلّ العقدة ، حل العقدة !

ـ سأدخن أولا سيجارتي ، لقد قلت ذلك !

ورماني بنظرة مثقلة بالتأنيب وكأنه يقول لي : « كل ذلـك ، بسبب غلطتك ! » ٠

كان يدخن السيجارة ببطء وينفث الدخـان من منخريه وهو ينظر الى البحر ٠ وقال :

ـ ستهبّ غداً ريح السموم ٠ لقد تبدل الطقس ٠ ستنتفخ الاشجـار ، وكذلك اثداء الصبايا ، ولن تحتمل بعد الآن مشدات الصدور ٠ ايها الربيع الخبيث ، اذهب ، فابليس هو الذي اخترعك !

وصمت ٠ وبعد مضي ثوانٍ قليلة :

ـ ان كل ما هو جميل في هذا العالم قد اخترعه الشيطان : النســاء الجميلات ، والربيع ، والخنزير المحمَّر ، والخمر ، كل هذا ، انما الشيطان هو الذي اوجده ٠ اما الاله الطيب فقد أوجد الرهبان ، والصوم ، ونقيع البابونج ، والنساء القبيحات ، اُفٍ !

والقى ، وهو يقول ذلك ، نظرة حادة على السيدة هورتانس المسكينـة التي كانت تصغي اليه ، قابعة في احدى الزوايا ٠ وكانت تتضرع اليه في كل لحظة :

ـ زوربا ! زوربا !

لكنه اشعل سيجارة جديدة وعاد يتأمل البحر من جديد • وقال :

ـ في الربيع ، انما يسود الشيطان • فترخى الاحزمة ، وتفكّ ازرار القمصان ، وتتنهد العجائز ••• ايه ، ايتها السيدة هورتانس ، ارفعي يديك •

فتضرعت المرأة المسكينة من جديد :

ـ زوربا ! زوربا !

وانحنت ، وأخذت المنديل الصغير ، ودسّته في يد زوربا ، الذي رمى سيجارته ، وتلقف العقدة وفكهـا • ان راحة يده مفتوحة الآن ، وهو يحدق فيها • ثم قال باشمئزاز :

ـ ما هذا ، ايتها السيدة بوبولينا ؟

فتمتمت الجنية العجوز وهي ترتعد :

ـ خاتمان ، خاتمان صغيران ، يا كنزي • خاتما الخطبة • ان الشـاهد هنا ، والليل جميل ، والاله الطيب ينظر الينا ••• فلنخطب •• يا زوربا !

كان زوربا ينظر الي تارة ، وتارة الى السيدة هورتانس ، وتارة ثالثة الى الخاتمين • كانت جمهرة من الشياطين تصطرع في داخله ، ولم يكن احدها ليتغلب على الاخرى • وكانت التعيسة تنظر اليه بذعر ، وتهدل :

ـ زوربا ! زوربا !•••

كنت قد انتصبت فوق فراشي ، ورحت انتظر • ترى اي طريق سيختار زوربا من جميع الطرق المفتوحة امامه ؟

وفجأة هز رأسه • لقد اتخذ قراره • واضاء وجهه • وصفق بيـــديه وانتصب قافزاً • وصاح :

ـ لنخرج ! لنذهب تحت النجوم ، كي يرانا الله ! ايها الرئيس ، خـذ الخاتمين • هل تعرف كيف تنشد ؟

فأجبت لاهياً :

ـ كلا • لكن لا بأس !

وقفزت من سريري ، وساعدت السيدة الطيبة على النهوض •

ـ انني اعرف ، انا • لقد نسيت ان أقول لك انني كنت من صبيـان الخورص • كنت اتبع الكاهن في حفلات العرس ، والعماد ، والدفن ، وتعلمت اناشيد الكنيسة عن ظهر قلب • تعالي ، يا بوبولينتي ، تعالي ، يا دجاجتي ، تعالي ، يا سفينتي الفرنسية • قفي الى يميني !

ان الشيطان الذي انتصر ، على كل شياطين زوربا ، كان ايضاً الشيطان المازح ذا القلب الطيب • لقد اشفق زوربا على المغنية العجوز ، وتمزق قلبه

عندما رأى نظرتها الذابلة تحدق فيه بقلق شديد ٠
وتمتم وهو يعزم :
ـ الى الشيطان ٠ انني لا أزال استطيع ان ادخل الفرح على قلب الجنس الانثوي ، هيا بنا !
واندفع على الشاطيء ، واخـــذ ذراع السيدة هورتانس ، واعطـــاني الخاتمين ، واستدار نحو البحر وبدأ ينشد : «ليتبارك سيدنا الى دهر الدهور ، آمين ! » ٠
والتفت نحوي :
ـ انتبه ، ايها الرئيس ٠ عندما اصيح : « هو هي ! هو هي ! » تلبسنا الخاتمين ٠
وأخذ ينشد بصوته الغليظ الشبيه بنهيق حمار :
« من اجل عبدالله ، الكسيس ، ومــن أجـــل أمة الله ، هورتـــانس ، المخطوبين احدهما للآخر ، ومن أجل سلامهما ، نتضرع الى السيد ! » ٠
وترنمت وانا اجهد في السيطرة على ضحكي ودموعي :
ـ كيرياليسون ! كيرياليسون (١) !
وقال زوربا :
ـ هناك ايضاً آيات أخرى ، لكن لتنصب مشنقتي اذا كنت اذكرها ! على كل ، لندخل في لب القضية !
وقفز في الهواء على شكل دائرة ، وصاح ، وهو يمدّ الي يده الضخمة :
ـ هو هي ! هو هي !
وقال لخطيبته
ـ مدّي يدك ، أنت ايضاً ، يا سيدة قلبي ٠
وامتدت اليه اليد البدينة ، التي خددتها كثرة الغسيل ، راجفة ٠
وألبستهما الخاتمين ، بينما كان زوربا ، يصرخ ، خارجاً عن نفسه ، مثل الدراويش :
ـ عبدالله ، الكسيس ، قد خطب الى امة الله ، هورتـــانس ، باسم الآب والابن والروح القدس ، آمين ! امة الله ، هورتانس ، قد خطبت الى عبدالله ، الكسيس ٠٠٠
ـ لقد تم الامر وانتهى ! تعالي هنا ، يا دجاجتي ، كي اقبلك اول قبلة شريفة في حياتك !

---

١ ـ تعني باليونانية « يا رب ، ارحم » ٠ « هـ٠م »

لكن السيدة هورتانس كانت قد انهارت ارضاً · وامسكت بساقي زوربا ، وراحت تبكي · وهز زوربا رأسه بشفقة ، وتمتم :

ـ يا للنساء المسكينات !

ونهضت السيدة هورتانس ، وسوّت بذلتها ، وفتحت ذراعيها · وهتف زوربا :

ـ هي ! هي ! انه الثلاثاء المقدس ، كوني عاقلة ! انه الصوم !

فتمتمت بانفعال :

ـ زوربا ···

ـ صبرا ، يا طيبتي ، انتظري حتى الفصح ، فنأكل اللحم · ونكسر البيض الاحمر · اما الآن فقد حان ان تعودي الى البيت · ما الذي سيقوله الناس لو رأوك تتسكعين خارجاً في مثل هذه الساعة ؟

وتضرعت اليه بوبولينا بعينيها · لكن زوربا قال :

ـ لا ! لا ! حتى الفصح ! تعالَ معنا ، ايها الرئيس ·

ومال على اذني ، وقال هامساً :

ـ لا تتركنا بمفردنا ، اكراماً لحب الله ! انني لست مستعداً مطلقاً ·

وسرنا في طريق القرية · كانت السماء تقدح شرراً ، وغمرتنا رائحة البحر ، بينما كانت طيور الليل تتنادى · وتركت الجنية العجوز زوربا ، المتشبثة بذراعه ، يجرها ، سعيدة وكئيبة ·

لقد دخلت أخيراً المرفأ الذي طالما تمنته · لقد غنت طوال حياتها ، وتعهرت ، وسخرت من النساء الشريفات ، لكنها لم تكن سعيدة قط · عندما كانت تمر ، معطرة ، مخضبة الوجه ، مرتدية ثياباً صارخة ، في شوارع الاسكندرية ، وبيروت ، والقسطنطينية ، وترى النساء يرضعن اطفالهن ، كان صدرها يتنمل ، وينتفخ ، وتنتصب حلمتاها ، تسألان ، هما أيضاً ، فماً طفولياً صغيراً · كانت تفكر طوال حياتها وهي تتنهد : « ان اتزوج ، اتزوج ، وان يكون لي طفل ··· » · لكنها لم تبح قط بآلامها الى أي انسان حي · والآن ، تبارك الله ! لقد فات الآوان قليلا ، لكن هذا افضل من ان يفوت نهائياً : وها هي تدخل ، مخلعة ، قد صفعتها الامواج ، الى المرفأ الذي طالما تمنته ·

كانت ترفع عينيها من حين لحين وتنظر مواربة الى ذلك الرجل المارد الضخم الذي يسير الى جانبها · وتفكر في نفسها : « انه ليس باشا غنياً ، يلبس طربوشاً ذا طرة ذهبية ، انه ليس ابناً جميلا لأحد البكوات ، لكنه افضل من لا شيء ، ليتبارك الله ! سيكون زوجي ، زوجي عن حق » ·

وكان زوربا يحس بها ترخي ثقلها عليه، فيجرها ، وهو يستعجل الوصول الى القرية والتخلص منها · وكانت المسكينة تتعثر فوق الحجارة ، واظافر قدميها تكاد تنقلع ، ودماملها توجعها ، لكنها لم تكن تقول شيئاً · ولمَ الكلام ؟ لمَ الشكوى ؟ ان كل شيء قد سار على ما يرام في النهاية !

كنا قد تجاوزنا تينة الآنسة وحديقة الارملة · وظهرت أولى بيوت القرية · وتوقفنا · وقالت الجنية العجوز ، بدلال ، وهي تنتصب على اطراف اصابعها لتصل الى فم خطيبها :

ـ ليلة سعيدة ، يا كنزي ·

لكن زوربا لم ينحنِ · فقالت المرأة وهي على اتم استعداد لان تركع أرضاً :

ـ أألقي بنفسي على قدميك لأقبلهما ، يا حبي ؟

فقال زوربا محتجاً ، منفعلا ، وهو يأخذها بين ذراعيه :

ـ كلا ! كلا ! بل انا الذي يجب ان يقبل قدميك ، يا قلبي ، انا ، لكنني متعب · ليلة سعيدة !

وتركناها ، وسرنا بصمت في طريق العودة ، ونحن نستنشق ملء صدرنا الهواء العبق · والتفت زوربا فجأة نحوي :

ـ ما الذي يجب ان أعمله ؟ أأضحك ؟ أأبكي ؟ انصحني ·

لم أجب · كنت ، انا ايضاً ، أحس بضيق في حلقي ، ولا أدري ما سببه : البكاء ؟ القهقهة ؟

وقال زوربا فجأة :

ـ ايها الرئيس ، كيف كان يدعى ذلك الاله القديم الشرير الذي لا يترك امرأة واحدة تتشكى ؟ لقد سمعت شيئاً ما عنه · هو ايضاً ، على ما يبدو ، كان يصبغ لحيته ، ويشم ذراعيه بالقلوب ، والسهام ، والجنيات ، ويتنكر ، ويصبح ثوراً ، أو بجعة ، أو كبشاً ، أو حماراً · قل لي اذن اسمه !

ـ اعتقد انك تتحدث عن زوس · كيف تذكرته ؟

فقال زوربا وهو يرفع ذراعيه الى السماء :

ـ لتكن الارض خفيفة الوطء عليه ! لقد قاسى كثيراً ، ولا شك ! وما الذي كان يستطيع ان يفعله ؟ انه لشهيد كبير ، حقاً ، تستطيع أن تصدقني ايها الرئيس ، فأنا اعرف شيئاً ما حول الموضوع ! انك تبتلع كل ما تقوله كتبك · لكن الذين يكتبونها ادعياء ! وما الذي يعرفونه حقاً عن النساء وعن الذين يجرون وراء النساء ؟ حمقى !

فقلت ساخراً :

ـ لماذا لا تكتب بنفسك ، يا زوربا ، لتشرح لنا أسرار العالم ؟

ـ لماذا ؟ لانني ، انا ، رأيت جميع الاسرار التي تتحدث عنها ، ولأنني لا أملك الوقت لكتابتها • احيانا الحرب ، واحياناً النساء ، واحياناً الخمر ، واحياناً السانتوري ، فأين اجد الوقت لآخذ تلك الريشة التي لا تخط الا كلاماً لا معنى له ؟ وهكذا ، فان القضية وقعت بين ايدي الكتاب الفارغين • ان جميع الذين يعيشون الاسرار ، كما ترى ، ليس لديهم وقت للكتابة ، وجميع الذين عندهم وقت ، لا يعيشون الاسرار • أتفهم ؟

ـ لنعد الى موضوعنا ! زوس ؟

فتنهد زوربا :

ـ آه ! المسكين ! انا فقط اعرف كم تألم • النساء ، لقد كان يحبهنّ ، بالتأكيد ، لكن ليس كما تتصورون ، انتم الكتّاب ! مطلقاً ! لقد كان يرثي لهن •، ويفهم ألمهن جميعاً ، ويضحي بنفسه من اجلهن • كان ، عندما يرى في بقعة من بقاع الارض عانساً عجوزا على وشك الانطفاء من الرغبة والندم ، أو امرأة صغيرة جميلة ـ بديني ، حتى لو لم تكن جميلة ، حتى لو كانت وحشاً ـ لا تجد سبيلا الى النوم لان زوجها غائب ، كان يرسم اشارة الصليب ، ذلك القلب الطيب ، ويبدل ثيابه ، ويأخذ شكل الوجه الموجود في رأس المرأة ، ويدخل الى غرفتها •

« كان مزاجه ، في أغلب الاحيان ، بعيداً عن الاهتمام بقصص الحب الصغيرة • وفي غالب الاحيان كان يفشل ، وهذا مفهوم : فكيف يكفي ذلك التيس المسكين لمثل هذا العدد من النعاج ؟ كان متعباً ، أكثر من مرة ، ليس على استعداد لشيء : هل رأيت تيساً بعد ان روى ظمأ عدة نعاج ؟ اللعاب يسيل من فمه ، وعيناه كدرتان ، متعبتان ، وهو يسعل ، ولا يكاد يستطيع الانتصاب على قدميه • وكان في غالب الاحيان في هذه الحالة التي يرثى لها ، المسكين زوس • وعند الفجر ، يعود الى منزله وهو يقول : « آه ! أيها الرحمن ! متى سأستطيع اخيراً أن أرقد وانام قدر ما اشاء • انني لم أعد أستطيع الوقوف ! » • ولا يتوقف عن مسح لعابه •

« لكن ، ها هوذا يسمع ، فجأة ، نحيباً : في الاسفل ، فوق الارض ، ثمة امرأة قد ألقت أغطية سريرها في الهواء ، وخرجت الى السطح ، شبه عارية ، وأطلقت تنهدة • وسرعان ما تأخذ الشفقة زوس • ويدمدم : « يا لشقائي ، يجب ان أهبط الى الارض من جديد ! ثمة أمرأة تندب نفسها • وسأذهب لأعزيها !

« وهكذا حتى افرغته النساء تماماً • وتحطم صلبه ، واخذ يتقيأ ، وأصبح مشلولا ، ومات • وعند ذاك جاء وريثه ، المسيح • ورأى حالة الهرم التي يرثى لها • فصاح : « احذروا النساء ! » •

وأعجبت بعذوبة روح زوربا ، ورحت أتقلب من الضحك •

ـ تستطيع ان تضحك ، ايها الرئيس ! لكن اذا جعل الاله ـ الشيطان أمورنا تمشي جيداً ـ وهذا يبدو لي مستحيلا ! ـ أتعرف ما الذي سأفتحه كدكان ؟ وكالة زواج ! وعندئذ ستنهال عليه جميع النساء المسكينات اللواتي لم يستطعن أن يوقعن في شباكهن زوجاً : العوانس ، والقبيحات ، والمشوهات الارجل ، والحولاوات ، والعرجاوات ، والحدباوات ، وسأستقبلهن أنا في صالون صغير ، جدرانه مغطاة بصور شبان جميلين ، وسأقول لهن : « اخترن ، يا سيداتي الجميلات ، من يعجبكن ، اخترن ، وسأقوم انا بالخطوات اللازمة ليصبح زوجاً لكنَّ » • وعند ذاك سأجد اي شاب يشبهه قليلا ، وسألبسه كما في الصورة ، واقدم له مالا واقول له : « الشارع الفلاني ، الرقم الفلاني ، اسأل عن فلانة ، وقدّم اليها نفسك • ولا تقرف ، فأنا الذي يدفع ، نم معها • قل لها كل العذوبات التي يقولها الرجال للنساء والتي لم تسمعها قط ، المخلوقة المسكينة • أقسم لها انك ستتزوجها • قدم لها قليلا من اللذة ، للتعيسة ، من تلك اللذة التي تعرفها النعاج ، بل حتى السلاحف وعشاريات الأرجل » •

« واذا جاءت أحيانا نعجة عجوز من نوع بوبولينتنا ، لا يرضى أي انسان بأن يعزيها ، حتى لو دُفع له ذهب العالم كله ، فانني سأرسم عند ذاك اشارة الصليب ، وسآخذ القضية على عاتقي شخصياً ، انا ، مدير الوكالة • وقد تسمع عندئذ الحمقى يقولون : « أنظروا الى هذا ! يا له من فاسق عجوز ! أليست له عينان ليرى ، ولا انف ليشم ؟ ـ نعم ، يا عصابة الحمير ، عندي عينان ! نعم ، يا من لا قلوب لكم ، عندي أنف ! لكن عندي ايضاً قلب ، وانني لأشفق عليها ! وعندما يكون للانسان قلب ، فقد تكون عنده كل العيون وكل الانوف التي يريد ، لكنه يلقي بها جميعاً أدراج الرياح !

« وعندما أصبح عاجزاً تماماً ، انا أيضاً ، بسبب جنون الشباب ، وألقي بسلاحي ، فان القديس بطرس حامل مفاتيح الجنة سيفتح لي الباب ويقول : « ادخل ، ايها المسكين زوربا ، ادخل ، أيها الشهيد الكبير زوربا ، اذهب لترقد جانب اخيك زوس ! استرح ، ايها الشجاع ، فقد تعبت فوق الارض كثيراً ، اليك بركتي ! » •

كان زوربا يتكلم ، وخياله ينصب أفخاخاً يقع فيها هو نفسه • وأخـذ يؤمن شيئاً فشيئاً بحكاياته ، لاهياً منفعلا • وعندما مررنا أمام تينة الآنسة ، تنهَّد ، وقال وهو يمد ذراعه كأنه يقسم قسماً :

ـ لا تهتمي ، يـــا بوبولينتي ، يا مركبي الهرم المعـــذب ! لا تهتمي ، فسأعزيك ! لقد تخلت عنك الدول الأربع الكبرى ، وتخلى عنك الاله الطيب ، اما انا ! ، زوربا ، فلن اتخلى عنك ! » •

كان منتصف الليل قد مضى عندما وصلنا الى شاطئنا • وهبت الريح • من هناك ، من افريقيا ، تأتي ريح الجنوب الحارة التي تنفخ الاشجار والكروم ، واثداء كريت • ان الجزيرة كلها ، وهي ممدة على البحر ، تتلقى راجفة نفحات الريح الدافئة التي تحرك النســغ • واختلط زوس وزوربا وريــح الجنوب ، ولمحت ، بوضوح كبير ، خلال العتمة ، وجهاً ثقيــلا ، لرجـل أسود اللحية ، أسود الشعر يلمع كالزيت، ينحني بشفتين حمراوين دافئتين على السيــدة هورتانس ، الارض •

- ٢٠ -

ما ان وصلنا حتى استلقينا في فراشينا . وفرك زوربا يديه مسروراً .

ـ لقد كان حسناً يومنا ، ايها الرئيس ! مليئاً تماماً . فكر قليلا : ففي هذا المصباح كنا عند الشيطان الأخضر ، في الدير ، ولعبنا على رئيسه ، لتحل لعنته علينا ! وبعد ذلك نزلنا من جديد ، ووجدنا السيدة بوبولينا ، وخطبنا . انظر هوذا الخاتم . من الذهب الممتاز . انها تقول انه لا يزال عندها ليرتان انجليزيتان من تلك الليرات التي قدمها لها الأميرال الانجليزي في نهاية القرن الماضي . انها تحتفظ بهما من أجل دفنها ، لكنها فضلت ان تقدمهما للصائغ كي يصنع منهما خاتمين . ان الانسان للغز غامض حقاً !

قلت :

ـ نم ، يا زوربا ، هدّىء من روعك ! هذا يكفي اليوم . غداً أمامنا احتفال كبير : سنغرس أول وتد من أوتاد المصعد . لقد طلبت من الأب اسطفان ان يأتي .

ـ حسناً فعلت ، ايها الرئيس ، فهذا مفيد ! ليأتِ الكاهن الذي تشبه لحيته لحية التيس ، وليأتِ ايضاً أعيان القرية ، بل سنوزع ايضاً شموعاً صغيرة وسيشعلونها . ان هذه المظاهر تخلق أثراً طيباً ، سيكون في مصلحة امورنا . يجب ألا ننظر الى ما أفعله أنا، لأن لي الهاً شخصياً وشيطاناً شخصياً لكن الناس ...

وأخذ يضحك . أنه لا يستطيع النوم ، ما دام عقله يغلي . وقال بعد فترة :

ـ هيا، يا جدي الشيخ، لتكن وطأة الارض خفيفة عليه ! لقد كان فاسقاً، هو ايضاً ، مثلي تماماً ، ومع ذلك فان الخبيث الهرم ذهب الى القبر المقدس ، وأصبح حاجاً ، والله يعلم لأي غرض ! وعندما عاد الى القرية ، قال له أحد

شركائه ، وكان انسانا يسرق النعاج ، لم يقم في حياته بأي عمـــل نظيف : « اذن ، أيها الشريك ، ألم تأتِ بقطعة من صليب القبر المقدس ؟ ـ وكيف لا آتي بها ! قل يا شريكي المحتال ، أتريدني أن انساك ، انت ؟ تعال هذا المساء الى المنزل ، وجيء معك بالكاهن ليمنح بركته وسأعطيك القطعة ٠ جيء ايضاً بخنزير صغير محمر ، وبخمر ، اننا سنحتفل ٠

« وعند المساء ، عاد جدّي الى بيته ٠ وقصّ من بابه ، الذي كان منخورا بالسوس ، قطعة صغيرة من الخشب في حجم حبة أرز ، وغلفها في قطعة مـن القطن ، وصب فوقها نقطة زيت ، وراح ينتظر ٠ وبعد فترة ، جاء الشريك مع الكاهن ، والخنزير الصغير والخمر ٠ وأخرج الكاهن مرشته ومنح بركتـه ٠ وأخذ الشريك قطعة الخشب الثمينة ، ثم ارتموا على الخنزير ٠ حسناً ، قـد تصدقني ، أيها الرئيس ، اذا شئت ! لقد خرّ الشريـك ساجداً أمـــام قطعة الخشب ، ثم علقها في عنقه ، ومنذ ذلك اليوم أصبح انساناً آخر ٠ لقـد تبدل كلية ٠ فمضى الى الجبل ، وانضم الى « الارماتوليين » و « الكلفتيين » ، وأحرق قرى الاتراك ٠ كان يخترق ، ببسالة ، سيل الرصـاص ٠ ولماذا يخاف ؟ ان معه قطعة من الصليب المقدس ، والرصاص لن يستطيع أن يخترقه » ٠

وانفجر زوربا ضاحكاً ، وقال :

ـ الفكرة هي كل شيء ٠ أعندك ايمان ؟ اذن فان قطعة من باب قديـــم تصبح رفاتاً مقدساً ٠ ليس لديك ايمان ؟ ان الصليب المقدس كله يصبح بابا قديماً ٠

انني أعجب بهذا الرجل الذي يعمل عقله بمثل هذا الوثوق وهذه الجرأة ، والذي تقدح نفسه شرراً ، من أي مكان تمس فيه ٠

ـ هل ذهبت احياناً الى الحرب ، يا زوربا ؟

فأجاب مقطباً :

ـ وهل اعرف ؟ انني لا اذكر ٠ اية حرب ؟

ـ حسناً ، اريد ان اقول هل ذهبت لتقاتل من اجل الوطن ؟

ـ ما رأيك لو تحدثنا عـن امور اخرى ؟ سخـافات ماضية ، سخـافات منسية ٠

ـ أتدعي ذلك سخافات، يا زوربا؟ ألا تخجل؟ أهكذا تتحدث عن الوطن؟

رفع زوربا رأسه ونظر الي ٠ كنت مستلقياً على فراشي ، ومصباح الزيت يشتعل فوقي ٠ وحدّق فيَّ ملياً بقسوة ، ثم قال أخيراً وهو يمسك شـاربيه بكلتا يديه :

ـ على الرغم من احترامي لك ، فانت ساذج ومدعٍ ايها الرئيس ٠٠٠ كل

ما أقوله لك ، تأخذه على سبيل المزاح ·

فقلت محتجاً :

ـ كيف ؟ انني افهم جيداً ، يا زوربا !

ـ نعم ، انك تفهم برأسك · انك تقول : « هذا عادل ، وهذا غير عادل · هذا هكذا ، أو هذا ليس هكذا · انت محق أو انت مخطىء » · لكن الى أين يؤدي بنا هذا ؟ انني ألاحظ ، عندما تتحدث ، ذراعيك وصدرك · ما الذي تفعله ؟ انها تظل صامتة · انها لا تقول شيئاً · وكأن ليس فيهـا نقطة دم واحدة · آذن ، فبمَ تريد ان تفهم ؟ برأسك ؟ بف !

فهتفت كي اثيره :

ـ هيا ، تكلم بوضوح، يا زوربا، لا تحاول التملص! اعتقد انك لا تشغل نفسك كثيراً من أجل الوطن ، أليس كذلك ، أيها الصعلوك !

فغضب ووجه الى الحائط ضربة بقدمه رنت لها صفائح التنك · وقـال بغيظ :

ـ لقد طرزت بشعري ، انا كما تراني ، كنيسة القديسة صوفيا فـوق قطعة قماش ، وحملتها ، معلقة في عنقي ، متدلية على صدري ، كذخيرة · لقد طرزتها ، يا صديقي ، بهاتين اليدين الغليظتين ، وبهذه الشعرات التي كانت هنا سوداء كالفحم · لقد كنت اتجول ، انا الذي يحدثك ، مع بافلو ميلاس (١) في جبال ماسيدونيا ـ وقد كنت مارداً تزيد قامتي على ارتفاع هذا الكوخ ـ بزيي القومي ، وطربوشي الاحمر ، وسلسلة ساعتي الفضية ، وذخائري ، وسيفي ، وحزام رصاصي ، وغداراتي · كنـت مغطى بالحديد ، والفضـة ، والمسامير ، وعندما امشي كان كل ذلك يحتك ببعضه بعضاً وكأن جيشاً كاملا يمر ! تطلع ، انظر ··· انظر ·

وفتح قميصه وفك بنطاله ، وقال بلهجة آمرة :

ـ جيء بالضوء ·

فقربت المصباح من الجسد النحيـف الاسمر : ندوب عميقة ، وآثار رصاص ، وضربات سيف ، لقد كان جسده مصفاة حقيقية ·

ـ انظر الآن من الجهة الاخرى !

واستدار وأراني ظهره :

ـ أترى ، من الخلف ، حتى ولا خدش · أتفهم ؟ والآن أبعد المصباح ·

---

١ ـ بافلو ميلاس : ضابط يوناني اشتهر في حربه ضد عصابات البلغار · (هـ·م)

وزمجر غاضباً :

ـ « سخافات ! عار ! يا صديقي ، متى سيصبح الانسان انساناً حقاً ؟ اننا نرتدي السراويل ، والياقات الانيقة ، والقبعات ، لكننا نظل بغالا ، ذئاباً ، ثعالب ، خنازير • اننا ، على ما يبدو ، على صورة الله ، مـن ؟ نحن ؟ يـــا للنكتة !

كان يتحدث وكأن ذكريات مرعبة تعود الى ذهنه ، فيستشيط غضباً ، ويتمتم من بين اسنانه المهتزة الجوفاء بكلمات غير مفهومة •

ونهض ، وتناول ابريق الماء ، وشرب جرعات كبيرة ، مما ادخل الرطوبة الى جسده ، فهدأ قليلا • وقال :

ـ أني لمستني ، صرخت • أنني لســـت الا جراحاً وحدبات ، وانت ، تحدثني عن النساء ! أنا ، عندما شعرت بأنني رجل عن حق ، كففــت عـــن الالتفات للنظر اليهن • انني ألمسهن لمدة دقيقة ، هكذا ، بشكل عابر ، مثــل ديك ، ثم امضي • انني أقول في نفسي : « يا للمحتالات القذرات ، انهـــن يردن ان يمتصصن كل قوتي ، أفٍ ! الأحرى بهن ان تعلق مشانقهن !

« اذن ، فقد حملت بندقيتي ومضيت ! ودخلت المقاومة كجندي متطوع غير نظامي • وذات يوم ، وصلت ، فجراً ، الى قرية بلغـاريا واختبـأت في اسطبل ، في منزل الكاهن البلغاري بالذات الذي كان ، هو ايضاً ، جنـــدياً شرساً من رجال العصابات ، وحشاً دموياً • كان ، في الليل ، يخلع بذلتــه الكهنوتية ، ويرتدي ثياب راعٍ ، ويأخذ سلاحه ويتغلغل في القرى اليونانية • وعند الصباح ، يعود قبل الفجر ، ملوثاً بالوحل والدم ، ثم يقوم بقدّاســه • وكان ، قبل بضعة ايام من وصولي ، قد قتل معلم مدرسة يونانياً في فراشه ، اثناء نومه • اذن ، لقد دخلت الى اسطبل الكاهن ، واستلقيت على ظهري فوق الروث ، وراء بقرتين ورحت انتظر • وعند المساء ، دخل الكاهن ليقدم علفـاً لبقرتيه • فألقيت بنفسي عليه وذبحته كخروف ، وقطعت أذنه ووضعتها في جيبي • فقد كنت أجمع الآذان البلغارية ، كما ترى ، ولهـذا قطعـــت أذني الكاهن وانسحبت •

« بعد عدة ايام ، عدت الى القرية نفسها ، في وهج الظهيرة ، متظـاهراً بأنني بائع جوال • كنت قد تركت سلاحي في الجبل ، ونزلت لأشتري خبزاً وملحاً وأحذية للرفاق • وامام احد المنازل ، رأيت خمسة أطفال ، في ثيـــاب سود ، عراة الأقدام ، يتمـاسكون بالأيدي ، وهـم يتسولون • ثلاث بنـات وصبيان • لم يكن أكبرهم ليجاوز العـاشرة ، واصغرهم كـــان لا يزال طفلا

رضيعاً • وكانت كبرى البنات تحمله بين ذراعيها ، تقبله وتلاطفه كي تمنعه عن البكاء • لست ادري كيف خطر لي ، ولا شك انه كان الهـاماً الهياً ، ان اقترب منهم •

وسألتهم بالبلغارية :

ـ أطفال من انتم ، يا صغاري ؟

فرفع أكبر الصبيان رأسه الصغير ، واجابني :

ـ أولاد الكاهن الذي ذبحوه منذ عدة أيام في الاسطبل •

واغرورقت عيناي بالدموع • وأخـــذت الارض تدور كرحى طاحون • فاستندت الى الجدار وتوقفت عن دورانها • وقلت :

ـ اقتربوا ، يا أطفال ، تعالوا قربي •

واخرجت كيس نقودي مـن حزامي ، وكان مليئاً بالليرات التركيـــة والمجيديات • وركعت على ركبتي وافرغته على الأرض • وصحت :

ـ هنا ، خذوا ! خذوا ! خذوا !

وارتمى الأطفال على الأرض وأخذوا يجمعون الليرات والمجيديات • وانا اصـــيح :

ـ انها لكم ، انها لكم ، ! خذوها جميعاً !

ثم تركت لهم سلتي مع كل ما معي من حاجات :

ـ كل هذا ايضاً ، انه لكم ، خذوا !

« وسرعان ما تمالكت نفسي ، وخرجت من القرية ، وفتحت قميصـــي ، ونزعت القديسة صوفيا التي طرزتها ، ومزقتها ارباً ، والقيت بها في الهـــواء ومضيت ••• « وانا لا أزال اجري ••• » •

واستند زوربا الى الحائط والتفت الي ، وقال :

ـ وهكذا تخلصت •••

ـ تخلصت من الوطن ؟

فأجاب بصوت حازم وهادىء :

ـ نعم ، من الوطن •

ثم بعد فترة :

ـ تخلصت من الوطن ، تخلصت من الكاهن ، تخلصت من المال • انني اغربل نفسي • كلما تقدم بي العمر ، غربلت نفسي اكثر • انني اتطهـــر • كيف اقول لك ؟ انني اتحرر ، انني اصبح انساناً •

كانت عينا زوربا تلمعان ، وفمه العريض يضحك من السرور • وبعـد

ان لبث لحظة صامتاً ، عاود الحديث ٠ كان قلبه يطفح ، ولـــم يعـد يملـك السيطرة عليه :

ـ مر وقت كنت اقول فيه : هذا تركي ، وهذا بلغاري ، وهذا يوناني ٠ لقد قمت، انا ، من اجل الوطن ، بأمور يقشعر لها شعر رأسك، ايها الرئيس٠ لقد ذبحت وسرقت ، واحرقت قرى ، واغتصبت نساء ، وأفنيـــت اسـراً ٠ لماذا ؟ بحجة انهم بلغار ، واتراك ٠ غالباً ما كنت أقول لنفسي وانا اشـتمها : اف ٍ ! اذهب الى الجحيم ، ايها النذل ! اذهب الى الجحيم ، ايها الأحمق ! اما الآن فانظر الى ما أقوله لنفسي : هذا رجل شجاع ، وذاك شخص قذر ٠ قـد يكون بلغارياً أو تركياً ، انني لا أميز بينهما ٠ هل هو طيب ؟ هل هو سيء ؟ هذا كل ما اطلبه اليوم ٠ وحتى هذا ، الآن بعدما شخت ، اقسم لـك بالخبز الذي آكله ، يبدو لي انني سأبدأ بعدم المطالبة به البتة يا صــديقي ، سواء أكانوا طيبين أم اشراراً ، فانني ارثي لهم جميعاً ٠ عندما أرى انسـاناً ، حتى ولو تظاهرت بعدم المبالاة ، فان قلبي يحن له ٠ اليك ما اقوله لنفســي : ان هذا المسكين أيضاً يأكل ، ويشرب ، ويحب ، ويخاف ، وهو أيضاً له إلهـه وشيطانه ، هو أيضاً سيلقي سلاحه ويرقد ، جثة متصلبـة ، تحت الأرض ، وسيلتهمه الدود ٠ يا للمسكين ! اننا جميعاً اخوة ٠ كلنا لحم للدود !

« واذا كانت امرأة ، آه ! انني اؤكد لك ، عندئذ ، ان الرغبة في البـكاء لتتملكني ٠ ان سيادتك لتسخر مني كل لحظة معيِّراً اياي بأنني احـــب النساء ٠ كيف تريدني ألا احبهن ، يا صاح ؟ انهن مخلوقـات ضــعيفة ، لا يعرفن ماذا يفعلن ، ويهبنك انفسهن بدون مقاومة بمجـرد ان تلمسهن مــن صدورهـن ٠

« ذات مرة ، دخلت أيضاً الى قرية بلغارية ٠ فرآني مختارهـــا ، وكان يونانياً ، نذلا ، فوشى بي ، فحاصروا المنزل الذي نزلت فيه ٠ واندفعـت الى السطح ، وانزلقت من سطح الى آخر ، وثباً ، مثل قطة ، مستهدياً بضـــوء القمر ٠ لكنهم لمحوا ظلي ، فتسلقوا الاسطحة واخذوا يطلقون الرصـــاص ٠ عندئذ ، ماذا فعلت ؟ ألقيت بنفسي في باحة ٠ فوجدت فيها بلغارية راقــدة ، بقميصها ٠فرأتني ، وفتحت فمها لتصرخ ، لكنني مددت ذراعـي هامســاً : الرحمة ! الرحمة ! أصمتي ! » وامسكت صدرها ٠ فشحبت المرأة وخـــارت عزيمتها ، وقالت لي بصوت شديد الخفوت :

ـ ادخل ، ادخل ، حتى لا يرونا ٠٠٠

« فدخلت ، وشدت على يدي قائلة : « أأنت يوناني ؟ ـ نعم ، يوناني ،

فلاتشي بي » • واخذتها من خصرها ، فلم تقل شيئاً • فنمت معهـــا ، وكان قلبي يرتعش من العذوبة ، وانا اقول لنفسي : « انظر ، انظـــر ، يـا زوربا اللعين ، انها امرأة ، انها مخلوق انساني ! من هي ، هذه ؟ بلغارية ، يونانية، افريقية ؟ لا فرق ، ايها العجوز ! انها مخلوق بشري ، مخلوق بشري له فم ، وثديان ، وهويحب • ألا تخجل من القتل ؟ ايها النذل !

« هذا ما كنت أقوله لنفسي ما دمت معها ، في حرارتها • لكن الوطـن لم يكن ليتركني في سلام • وعند الصباح مضيت بثياب قدمتها لي البلغارية ، التي كانت ارملة • لقد أخرجت من صندوق الأمتعة ثياب زوجها المرحـــــوم وقدمتها لي ، وقبلت ركبتي وهي تتضرع بأن اعود •

« نعم ، نعم ،في الليلة التالية ، عدت • كنت وطنياً ، أتفهم ، اي حيواناً متوحشاً ، عدت مع صفيحة بترول واشعلت النار في القرية • ولا بد انهـــا احترقت ، هي ايضاً ، المسكينة • كانت تدعى لودميلا » •

وتنهد زوربا وأشعل سيجارة ، واستنشق نفسين او ثلاثة ، ثم رماها •

ـ انك تقول : الوطن ••• أتصدق الهذر الذي ترويه كتبك ؟ عليك ان تصدقني أنا • ما دامت هناك أوطان ، فان الانسان سيبقى حيواناً ، حيوانـاً مفترساً ••• نعم ، ليتبارك الله ! لقد تخلصت ، وانتهى الأمر ! وانت ؟

لم اجب بشيء • انني احسد هذا الرجل الواقف هنا ، أمامي ، والـذي عاش مع اللحم والدم ـ وهو يحارب ، ويقتل ، ويقبل ـ كل ما كنت أحاول ، انا ، ان اعرفه مع الورق والحبر • ان كل المشاكل التي كنـت أحـــاول ان احلها ، عقدة عقدة ، في عزلتي وانا مسمر على مقعدي ، قد حلها هذا الرجل • وسط الجبال ، في الهواء الطلق ، بسيفه •

واغلقت عيني ، وقد استحال علي ان اجد لنفسي اي عزاء • وسـألني زوربا سئماً :

ـ أتنام ، ايها الرئيس ؟ وانا ، الأحمق ، اقف هنا لأحدثك !

وتمدد وهو يتمتم ، وبعد قليل ، سمعته يشخر •

ولم أستطع ، طوال الليل ، ان أغلق عيني • وملأ عزلتنا بلبل سـمعته للمرة الاولى هذا المساء ، بحزن لا يُحتمل ، وفجأة احسست بدموعي تنساب•

وضاقت أنفاسي • ونهضت ، عند الفجر ، وتأملت ، من الباب ، البحر والأرض • وبدا لي أن العالم قد تبدل خلال ليلة واحـدة • وامـــامي ، على الرمل ، كان ثمة شتلة صغيرة ، بالامس كانت ما تزال حقيرة وكئيبة ، قـد اكتست بزهيرات بيضاء صغيرة • وانتشر في الجو عبق عذب وبعيد لاشجار

الليمون والبرتقال المزهرة · وتقدمت ، وسرت بضع خطوات · ومـــا كنـت لأستطيع ان ارتوي من المعجزة التي تتجدد ابداً ·

وفجأة ، سمعت ورائي صيحة فرحة · والتفت · كان زوربا ، قد نهض، نصف عارٍ ، وقفز هو ايضاً الى الباب ، وراح ينظر ، باضطراب ، الى الربيـع الجديد · واندفع يقول مذهولا :

ــ ما هذا ؟ هذه المعجزة ، أيها الرئيس ، هذا الازرق الذي يتحرك هناك، كيف يدعى ؟ البحر ؟ البحر ؟ وهذا الذي يرتــدي مئزراً اخضـــر مزهراً ؟ الارض ؟ من هو الفنان الذي صنعهما ؟ انني اقسم لك ، ايها الرئيس ، انهـا المرة الاولى التي أرى فيها هذا ·

واغرورقت عيناه · وهتفت :

ــ ايه ! زوربا ! هل جننت ؟

ــ لم تضحك ؟ ألا ترى اذن ؟ انه السحر ، ايها الرئيس !

واندفع خارجاً ، وأخذ يرقص ، ويتدحـرج على العشـــب ، مثل مهر ربيعي ·

وظهرت الشمس · وبسطت راحتي كي تتدفآ · كانت الاغصان تتبرعم، والصدور تتنفخ ، والنفس تتفتح كشجرة ، والانســان يحس بأن الـروح والجسد قد عجنا من مادة واحدة ·

ونهض زوربا ، وقد امتلأ شعره بالندى والتراب ، وصاح بي :

ــ بسرعة ، ايها الرئيس ! سنلبس ونتزين · اليوم ، موعد البركة · لن يتأخر الكاهن والاعيان في القدوم · فاذا ما رأونا معفرين بالعشب ، فأي عار بالنسبة للشركة ! اذن فلنخرج الياقات الاصطناعية وربطات العنق ! لنخرج الاقنعة الجدية ! لا يهم ألا يكون للانسان رأس ، يكفي أن تكون عنده قبعة · ايها الرئيس ، ان العالم يستحق أن نبصق عليه ·

ولبسنا ، وجاء العمال ، وظهر الأعيان ·

ــ كن منطقياً ، ايها الرئيس ،تمالك نفسك عن الضحك ، يجب ألا نثير سخريتهم علينا ·

كان الكاهن اسطفان ، يسير في المقدمة ، بثوبه المتَّسخ ذي الجيـوب العميقة · انه يلقي في هذه الهاويات بكل ما يقدم اليه عندما يمنـح بركته في الدفن ، والزواج ، والعماد ، فتمتلىء بالزبيب ، والحلوى ، وفطائر الجبنة ، والقثاء ، وقطع اللحم ، والملبس ، وعند المساء تضع العجوز باباديا ، زوجته ، نظارتيها على انفها ، وتصنف كل نوع على حدة ، وهي تقضم ·

ووراء الكاهن اسطفان ، الاعيان : كوندومانوليو ، صاحب المقهى الـذي

يعرف العالم، لانه ذهب الى مدينة كانيه ورأى الأمير جورج، والعم انانيوستي، بقميصه الابيض الصارخ ، العريض الاكمام ، وبهدوئه وابتسامته • ثم المعلم بعصاه ، ووقاره وجديته ، واخيراً مافراندوني الذي كان يتقـــدم بمشـــيته البطيئة الثقيلة • وكان يرتدي قميصاً أسود ، وينتعل حذائـين أســودين ، ويعصب رأسه بمنديل اسود • وسلّم بطرف شفتيه ، بمرارة وعنف ، ووقف جانباً ، مسنداً ظهره الى الحائط •

وقال زوربا بلهجة احتفالية :

ـ باسم سيدنا يسوع المسيح !

وسار في رأس الموكب وتبعه الجميع في انقياد ديني •

ان ذكريات سحيقة القدم عن الاحتفالات السحرية تستيقظ في صـدور هؤلاء الفلاحين• ان أعينهم جميعاً تحدّق بالكاهن وكأنها تنتظر ان تراه يواجه قوى خفية ويطردها • لقد مرّ على ذلك آلاف السنين ، عندما كان الساحـر يرفع ذراعيه ، ويرش الهواءبالماء المقدس ويتمتم بكلمات غامضة وفائقة القوة، فتهرب الشياطين الخبيثة ، بينما تسرع الأرواح الطيبة ، وهي تخرج مـن المياه والارض والهواء ، لمساعدة الانسان •

ووصلنا الى الثقب الذي حفر قرب البحر ليغرس فيه أول وتد من اوتاد المصعد • ورفع العمال جذع صنوبرة ضخمة وغرسوها مستقيمة في الثقب • وارتدى الكاهن اسطفان بطرشيله ، وأخذ مرشته ، وبدأ وهـو ينظـر الى الوتد يترنم بالابتهالات : « ليثبت فوق صخرة متينة ، فلا تستطيع الريـــح والماء ان تزعزعاه ••• آمين ! » •

ودمدم زوربا وهو يرسم اشارة الصليب :

ـ آمــين !

وتمتم الأعيان :

ـ آمــين !

وقال العمال اخيراً :

ـ آمــين !

وقال الكاهن اسطفان متمنياً :

ـ ليبارك الله أعمالكم ، ويمنحكم خيرات ابراهيم واسحق !

ودسّ زوربا في يده ورقة مالية • وقال الكاهن مسروراً :

ـ لتحلُ عليك بركتي !

وعدنا الى الكوخ حيث قدّم زوربا خمراً ومقبلات الصـــوم : سـراطين مشوية ، وسبيدجاً مقلياً ، وفولا مغمساً ، وزيتوناً • وبعد ذلك عاد المحتفلون

الى بيوتهم ببطء ، على طول الشاطيء · ان الاحتفال السحري قد انتهى ·

وقال زوربا وهو يفرك يديه :

ـ لقد أحسنا التصرّف !

وخلع ثيابه ، وارتدى ملابس العمل ، وأخذ رفشاً ، وصاح بالعمال :

ـ هيا ، ايها الرفاق ! ارسموا اشارة الصليب ، والى الأمام !

وطوال النهار لم يرفع زوربا رأسه · اشتغل بحماسة شديدة · وراح العمال يحفرون ، كل خمسين متراً ، ثقوباً ، ويغرسون فيها الأوتاد ، متقدمين بخط مستقيم نحو قمة الجبل · وكان زوربا يقيس ، ويحسب ، ويصدر الأوامر · لم يأكل ، ولم يدخن ، ولم يفه بحرف واحد طوال النهار · كان منصرفاً بكليته الى العمل ·

كان يقول لي أحياناً :

ـ ان الانسان لا يستطيع ان يعبِّر الاّ عن نصف أفكاره فقط ، لأنه لا يعمل الا نصف عمله فقط · ان العالم موجود في هذه الحالة اليائسة ، لأن الانسان نصف فاضل ، او نصف شرّير · اذهب حتى النهاية ، ارمِ بعيداً ، ولا تخف، عندئذ تنتصر· ان الاله الطيِّب يكره نصف الشيطان مئة مرّة أكثر من كرهه من هو اكثر من شيطان !

ومساءً، عندما عاد من العمل ، استلقى على الرمل منهكاً من التعب، وقال:

ـ هنا سأنام ، وبانتظار ان يطلع النهار ونعود الى العمل ، سأضع فرقاً للعمل ليلا ·

ـ لكن لمَ هذه العجلة كلها ، يا زوربا ؟

فتردد قليلا وقال :

ـ لماذا ؟ حسناً ! اريد ان ارى اذا كنت قد وجدت الميل الضروري · لو اخطأت ، ايها الرئيس ، فاننا هالكون · كلما اسرعت في معرفته ، كانت الفائدة أكبر ·

وأكل بسرعة ، وشراهة ، وشيئاً فشيئاً ، أخذ الشاطيء يردد صدى شخيره · ولبثت ، انا ، مستيقظاً فترة طويلة ، أتتبَّع النجوم في السماء · كنت ارى السماء كلهاتنتقل ببطء مع كل بروجها ، وكانت جمجمتي تنتقل ، هي ايضاً ، وكأنها قبة مراقبة ، في الوقت نفسه الذي تنتقل فيه النجوم · « انظر الى سير الكواكب وكأنك تدور معها ··· » · ان هذه الجملة التي قالها « مارك ــ أوريل (١) » قد ملأت قلبي بالألحان المتناغمة ·

---

١ ــ مارك أوريل امبراطور روماني حكم بين عامي ١٦١ ــ ١٨٠ · كان يحب الفلسفة والأدب كثيرا · « هـ · م »

- ٢١ -

جاء يوم الفصح ، وتجمَّل زوربا · فارتدى جواربه الصوفية الغليظة التي بلون الباذنجان ، والتي حاكتها له ، كما يقول ، احدى صديقاته الماسيدونيات · وراح يذهب ويجيء ، قلقاً ، قرب الساحل ، ويضع يده فوق حاجبيه الكثيفين ليمنع عن عينيه الشمس ، ويتطلع بعيداً ، نحو القرية ·

ـ لقد تأخرت ، الفقمة العجوز ، لقد تأخرت ، القذرة ، لقد تأخرت ، الراية البالية الممزقة ···

وطارت فراشة وليدة ، وارادت ان تحط على شاربي زوربا · لكنه تدغدغ ، ونفخ من منخريه ، فطارت الفراشة بهدوء ، وضاعت في النور ·

كنا ننتظر السيدة هورتانس ، في ذلك اليوم ، لنحتفل بالفصح معها · وكنا قد شوينا حملا على السفود ، ومددنا سماطاً أبيض على الرمل ، وصبغنا بيضاً · لقد قررنا ، بشيء من المزاح وبشيء من الانفعال ، ان نعد لها ، في ذلك اليوم ، استقبالا حافلا · لقد كان لجنيتنا المترهلة ، المعطرة ، المتننة قليلا ، فوق هذا الشاطيء المنعزل ، جاذبية غريبة علينا · فعندما لا تكون معنا ، كان ينقصنا شيء ما : رائحة ماء الكولونيا ، لطخة حمراء ، اهتزاز متأرجح ، متبختر ، مثل اهتزاز بطة ، صوت مبحوح وعينان حادتان مغرورقتان ·

لقد قطعنا اذن اغصان الآس والغار ، ونصبنا قوس نصر لتمر تحته · وغرسنا فوق القوس أربعة أعلام ـ انجلترا ، فرنسا ، ايطاليا ، روسيا ـ وفي الوسط ، فوق كل شيء ، راية بيضاء طويلة لها عصائب زرق · بالطبع لم يكن عندنا مدفع ، لكننا قررنا ان نقف على التل ونطلق البنادق التي اعارونا اياها ، ما ان تتهادى فقمتنا بطلعتها المتبخترة على الشاطيء ، كي تبعث فوق هذا الشاطيء المنعزل امجادها الماضية ، كي تتوهم المسكينة ، هي

أيضاً ، قليلا ، وتتصور انها عادت امرأة شابة ، حمراء الشعر ، ناهدة الصدر ، في نعلين لامعين وجوارب حريرية • وماذا ستكون قيمة بعث المسيح اذا لم تكن اشارة لبعث الشباب والفرح فينا من جديد ؟ لعودة غانية عجوز الى سنيها العشرين ؟

كان زوربا يدمدم كل لحظة وهو يرفع جواربه الباذنجانية اللون التي كانت تتهدل :

ـ لقد تأخرت ، الفقمة العجوز ، لقد تأخرت ، القذرة ، لقد تأخرت الراية البالية الممزقة ••

ـ تعال ، اجلس ، يا زوربا ! تعالَ دخّن سيجارة تحت ظل شجرة الخرنوب • انها لن تتأخر في المجيء •

والقى نظرة أخيرة مليئة بالانتظار نحو طريق القرية وجاء ليجلس تحت شجرة الخرنوب • واقتربت الظهيرة ، وكان الجو حاراً • ومن بعيد كانت تسمع اجراس الفصح ، فرحة ، قوية • ومن حين لحين ، كانت الريح تحمل الينا الحان القيثارة الكريتية ، والقرية كلها تضج كخلية نحل في الربيع •

وهزّ زوربا رأسه • وقال :

ـ لقد انتهى ذلك الوقت الذي كانت فيه روحي تُبعث في كل عيد فصح مع بعث المسيح ، لقد انتهى • والآن ، ان جسدي هو الذي يبعث فقط ••• ثمة من يدفع لحفلة شرب ، ثم يأتي دور غيره ، ويقولون لي خذ هذه اللقمة الصغيرة ، وتلك أيضاً ، وعندئذ املأ نفسي بغذاء اوفر ، وألذ ، لا يتحول كله الى قاذورات • ثمة شيء يبقى ، شيء ينقذ ويصبح مزاجاً طيباً ، ورقصاً ، واغاني ، وخصاماً ، وهذا الشيء هو الذي أدعوه بعثاً •

ونهض ، وراقب الافق ، وقطّب حاجبيه ، وقال :

ـ ثمة غلام قادم راكضاً •

واندفع لملاقاة الرسول •

وانتصب الصبي على اطراف اصابعه ، وهمس بشيء ما في اذن زوربا الذي وثب ، غاضباً وزمجر :

ـ مريضة ؟ مريضة ؟ اغرب عن وجهي أو احطم وجهك !

والتفت نحوي :

ـ أيها الرئيس ، سأثب الى القرية لأرى ما الذي حدث لتلك الفقمة العجوز •• صبراً قليلا • اعطني بيضتين حمراوين ، فسنكسرهما معاً • سأعود !

ووضع البيضتين الحمراوين في جيبه ، ورفع جواربه الباذنجانيـــة ومضى ٠

نزلت من فوق التل ، وتمددت على الحصى الندي ٠ كان ثمة نسـيم خفيف يهب ، والبحر يتجعّد ، وحط نورسان على الأمواج الصغيرة وأخذا يتأرجحان ، وقد أمالا عنقيهما ، مستسلمين بلذة لايقاع البحر ٠

كنت أحس ، وأنا أحسدهما ، بغبطة بطنهما ونضارتـه ٠ وكنــت أفكر وانا انظر الى النورسين : « ذلك هو الطريق الواجب اتباعه ، ان تجـد الايقاع الأكبر وان تستسلم له ، بثقة » ٠

وبعد ساعة ، ظهر زوربا ، وهو يداعب شاربيه مسروراً :

ـ انهامصابة ببرد ، المسكينة ٠ امر غير ذي بال ٠ طوال الايام الاخيرة، اثناء الاسبوع المقدّس كله ، كانت تذهب الى صلوات الليل ، على شرفي كما تقول ، على الرغم من كونها فرنجية ٠ فأصيبت بالبرد ٠ لقد حجمتهـــا ، ودهنت ظهرها بزيت القنديل ، وقدمت لها قدحـاً صغيراً مـــن الروم ، وستغادر غداً الفراش ٠ يا لها من ضعيفة ، كم هـي مسلّية : لو سمعتهـــا وهي تهدل مثل حمامة عندما كنت أدلك ظهرها ، وكأنني أدغدغها !

وجلسنا الى المائدة وملأ زوربا الأقداح ، وقال بحنان :

ـ في صحتك ! وليتأخر الشيطان ، اكثر ما يمكن ، في أخذها !

وشربنا وأكلنا فترة لا بأس بها دون ان نتكلم ٠ كانت الريح تحمـل الينا ، مثل طنين النحلة ، أصوات القيثارة البعيدة المنفعلة ٠ ان المسيح يبعث على الشرفات ، وحمل الفصح وكعكه يتحولان الى أغاني حب ٠

وعندما أكل زوربا مريئاً ، وشرب هنيئاً ، ارهف اذنـــه الضخمـــة المليئة بالشعر وتمتم :

ـ القيثارة ٠٠٠ انهم يرقصون في القرية !

ونهض فجأة ٠ كانت الخمرة قد صعدت الى رأسه ، وصاح :

ـ قل ، ماذا نفعل هنا بمفردنا ، مثل العصافير ؟ هيّا نرقـــص ! ألا تشفق على الحمل ، انت ؟ اذن ، ستتركه يضيع هكذا ؟ هيـا ، تعـــالَ ! ليصبح رقصاً وأغاني ! ان زوربا قد بُعث !

ـ انتظر ، ايها اللعين زوربا ، هل جننت ؟

ـ بشرفي ، ان الامر سيان عندي ، ايها الرئيس ، لكنني اشـفقَ على الحمل ، أشفق على البيض الاحمر ، وعلى كعك الفصح ، وفطائر الجبنـة ! اقسم لك ، لو لم آكل سوى خبز وزيتون ، لقلت : ايه ! هيا الى النوم ،فهل

أنا محتاج لان احتفل ؟ » · انه مجرد زيتون وخبز ، أليس صحيحاً ؟ اذن فما الذي تنتظره منهما ؟ لكن الآن ، انه أمر يدعو للأسف ، أؤكد لك ، ان يضيع مثل هذا الغداء الدسم ! هيّا لنحتفل بالبعث ، أيها الرئيس !

ـ انني لست على ما يرام اليوم · اذهب ، وارقص عني ايضاً !

فأمسكني زوربا من ذراعي وأنهضني :

ـ لقد بعث المسيح ، يا صاح ! آه ! لو كان لي شبابك ! لكنت ألقيت بنفسي في كل مكان ، وعلى رأسي أولا ! في العمل ، والخمر ، والحب ، غير خائف الله أو الشيطان · هذا هو الشباب !

ـ انه الحمل الذي يتكلم في داخلك ، يا زوربا ! لقد اصبح متوحشاً ، لقد تحوّل الى ذئب !

ـ يا صاح ، لقد تحوّل الحمل الى زوربا ، وزوربا هو الذي يحدثك ، أؤكّد لك ! اصغ اليّ ! وستحكم عليّ فيما بعد · انا ، انني سندباد بحري · ليس ذلك لأنني جبت العالم ، ليس لذلك ، مطلقاً ! لكنني سرقت ، وقتلت ، وكذبت ، ونمت مع مجموعة من النساء ، وانتهكت كل الوصايا · كم وصيّة هناك ؟ عشر ؟ آه ! أودّ لو كان هناك عشرون ، خمسون ، مئة ، كي انتهكها جميعاً ! ومع ذلك ، لو ان الله موجود ، لما خفت مطلقاً ان امثل أمامه ، حين يجيء اليوم الموعود · لست ادري كيف اشرح لك كي تفهم · كل هذا ، اعتقد ان لا أهمية له · هل يتنازل الله ويعير اهتمامه دود الارض ويحاسبه ؟ ويغضب ، ويثور ، لاننا خطونا خطوة خاطئة · ودسنا على أنثى الدود من طرفها ؟ او لاننا أكلنا لقمة لحم ، يوم الجمعة المقدس ؟ أفٍ ! ما ادعاكم الى السخرية ، ايها الكهنة المليئون بالحساء !

فقلت له كي أثيره :

ـ حسناً ، يا وزربا ، حسناً · ان الله لا يسألك ماذا أكلت ، بل ماذا فعلت !

ـ حسناً ، وانا ، أقول لك انه لا يسأل ذلك ابداً ! قد تقول لي : وكيف تعرف ذلك ، ايها الجاهل زوربا ؟ انني اعرفه ، انني متأكد ، لأنه لو كان لديّ ، انا ، ابنان ، أحدهما عاقل ، رصين ، مقتصد ، تقي ، والآخر خبيث ، شره ، زير نساء ، خارج على القانون ، لقبلت بهما كليهما على مائدتي ، بالتأكيد ، لكنني ، لست أدري لماذا ، افضّل الثاني · لعلّ ذلك لأنه سيكون اشبه بي ؟ لكن من قال لك انني لا أشبه الله الرحيم اكثر من الكاهن اسطفان الذي يمضي ايامه ولياليه في الركوع وجمع القروش ؟

« ان الاله الرحيم ، يحتفل بالأعياد ، ثم يرتكب المظالم، ويقوم بالحب، ويشتغل ، ويحب الأشياء المستحيلة ، مثلي تماماً . انه يأكل ما يعجبه ، ويأخذ المرأة التي يريد ، انك ترى امرأة جميلة كالماء النمير ، تمر امامك ، فيهف قلبك ، لكن فجأة تنفتح الارض ، وتختفي. الى اين ذهبت؟ من اخذها؟ اذا كانت عاقلة يقال : لقد اخذها الاله الرحيم . واذا كانت خاطئة ، يقال : لقد اخذها الشيطان . لكنني انا ، ايها الرئيس ، اقول لك واكرر : ان الله والشيطان واحد ! » .

وصمت ، وعضضت على شفتي كأنني اريد ان امنع الكلمات من الخروج . الكلمات وصيحة كبيرة . وماذا كانت هذه الصيحة ستعني ؟ اللعنة ، الفرح ، اليأس ، الخلاص ؟ انني اجهل ذلك .

وتناول زوربا عصاه ، ووضع قبعته معوجة قليلا ، بخيلاء ، ونظر اليه مشفقا ، وتحركت شفتاه لحظة كأنه يريد ان يضيف شيئاً ما . لكنه لم يقل شيئاً واتجه بخطى سريعة ، مرفوع الرأس ، نحو القرية .

كنت ارى ، على ضوء بعد الظهر الآفل ، ظله المارد وهو يتحرك على الحصى ويهز عصاه . وانتعش كل الشاطىء عند مرور زوربا . وارهفت أذني ، ملياً ، اتلقّط وقع خطاه الذي كان يتلاشى شيئاً فشيئا . وفجأة ، ما ان أحسست نفسي بمفردي ، حتى قفزت واثباً . لماذا ؟ كي اذهب الى اين ؟ لم اكن ادري . لم يكن عقلي قد قرر شيئاً . بل ان جسدي هو الذي وثب . انه هو ، هو بمفرده ، الذي اتخذ قراراً دون ان يسألني .

وقال بقوة ، وكأنه يصدر امراً :

ـ الى الأمام !

وانطلقت نحو القرية بخطى حازمة سريعة . من حين الى حين ، كنت أتوقف واتنشق الربيع . كانت الارض تعبق بالأقحوان ، وكلما اقتربت من البساتين ، جاءتني نفحات من اريج أشجار الليمون والبرتقال ، والغار ، المزهرة . وفي الغرب ، كانت نجمة المساء قد اخذت ترقص فرحة .

كنت اتمتم على الرغم مني بكلمات زوربا وانا اسير : « البحر ، المرأة، الخمر ، العمل الشاق ! ان تلقي برأسك أولا في العمل ، والخمر ، والحب ، ولا تخاف الله ولا الشيطان ... هذا هو الشباب ! » . كنت اقول ذلك في نفسي واكرره وكأنني اريد ان اتشجع ، واتابع السير .

وفجأة ، توقفت على حين غرة وكأنني وصلت الى المكان الذي اريد . اين ؟ ونظرت . كنت واقفاً امام حديقة الارملة . وراء سياج القصب والتين

البري ، كان صوت أنثوي عذب يترنم • واقتربت ، وازحت اوراق الشجر ، تحت شجرة برتقال ، كانت تقف امرأة مرتدية السواد ، باستثناء عنقها ، تقطع الأغصان المزهرة وهي تغني • من خلال ظلمة الغسق ، كنت ألمح صدرها نصف المكشوف يتلألأ •

وانبهرت انفاسي • وقلت في نفسي : « انها حيوان مفترس ، انها حيوان مفترس ، وهي تعرف ذلك • يا للرجال من مخلوقات مسكينة ، مجنونة ، هاذرة ، بدون مقاومة ، عندما يقفون أمامها ! انها اشبه ببعض الحشرات ـ السرعوفة الراهبة ، او الجرادة ، او العنكبوت ـ النهمة التي لا تشبع ابداً ، والتي تلتهم الذكور عند الفجر •

هل أحسَّت الارملة اذن بوجودي ؟ لقد توقفت فجأة عن الغناء والتفتت • وتصالبت نظراتنا ، لمدة لا تتجاوز لمح البرق• وأحسست بركبتي تتخاذلان ، وكأنني رأيت ، وراء القصب ، نمرة •

وقالت بصوت مخنوق :

ـ من هناك ؟

وسحبت منديلها وغطت صدرها • وغام وجهها •

وكدت اذهب • لكن كلمات زوربا ملأت فجأة قلبي • وعادت الي قوتي: « البحر ، المرأة ، الخمر ••• » •

واجبت :

ـ انني انا • انا • افتحي لي•!

وما ان لفظتهذه الكلمات ، حتى تملكني الرعب • وكدت من جديد اهرب ، لكنني تمالكت نفسي ، خجلا •

ـ من أنت ؟

وخطت خطوة ، وببطء وحذر وصمت ، مدت عنقها ، واغلقت عينيها نصف اغلاقة كي ترى بوضوح أكثر ، وتقدمت خطوة اخرى ، محنية الى الامام ، مترصدة •

وفجأة اضاء وجهها • وأخرجت طرف لسانها ولعقت شفتيها •

وقالت بصوت أكثر عذوبة :

ـ الرئيس ؟

وتقدمت خطوة أخرى ، متجمعة على نفسها ، مستعدة للقفز •

وسألت من جديد بصوت مكتوم :

ـ الرئيس ؟

ـ نعم ٠
ـ تعالَ ٠

* * *

كان النهار قد طلع ٠ وكان زوربا قد عاد ، وجلس يدخن ، أمام الكوخ ، وهو ينظر الى البحر ٠ وكأنه ينتظرني ٠

وما ان ظهرت ، حتى رفع رأسه ورمقني ٠ واختلج منخراه كما يختلج منخرا الارنب البري ٠ ومد عنقه ، وتنشق بقوة ، وكأنه يستروحني ٠ ودفعة واحدة تهلّل وجهه وكأنه استنشق فيَّ رائحة الارملة ٠

ونهض ببطء ، وابتسم بكل جسده ، ومدَّ ذراعيه وقال :

ـ بركتي عليك ٠

واستلقيت ، وأغمضت عيني وسمعت البحـــر يتنفس بهدوء ، بايقاع متناوم ، واحسست بنفسي تصعد وتهبط مثل نورس ٠ وغرقت في النوم وأنا اهتز هكذا ورأيت حلما : لمحت زنجية ماردة جالسة على الارض متربعة ، وخيل الي انها معبد يوناني قديم من الغرانيت الاسود ٠ ورحت ادور حولها قلقاً لأجد المدخل ٠ انني لم اكن أطول من اصبع قدمها الصغيرة ٠ وفجأة ، وبينما انا ادور حول كعبها ، رأيت باباً أسود ، يشبه مغـــارة ٠ وسمعت صوتاً خشناً يقول آمراً : « أدخل ! » ٠ ودخلت ٠

عند الظهر ، استيقظت ٠ كانت الشمس ، التي دخلت من النافذة ، تغرق الاغطية وترسل اشعتها بقوة شديدة على مرآة صغيرة معلقة على الحائط حتى لتكاد تحطمها الى الف قطعة ٠

وعاد حلم الزنجية المارد الى خاطري ، وكان البحر يتمتم ، فأغلقت عيني وخيل الي انني سعيد ٠ كان جسدي خفيفاً مرتوياً ، مثل حيوان يلعق نفسه ، وهو مستلقٍ تحت الشمس ، بعد ان التهم فريسته ٠ وكان فكري ، هو أيضاً مثل جسد ، يستريح شبعاً ٠ وكأنه قد وجد للمسائل الممزقة التي كانت تقلقه حلا بسيطاً للغاية ٠

كان فرح الليلة الماضية كله ينبجس من داخلي ، ويتضاعف ، ويروي بغزارة التراب الذي أنا مصنوع منه ٠ وخيل الي ، وانا مستلقٍ هكذا ، مغلق العينين ، ان كياني يطقطق ويتسع في تلك الليلة ، شعرت بوضوح ، للمـرة الأولى ، ان الروح ، هي أيضا ، جسد ، وقد تكون أكثر حركة ، وأكثر شفافية، وأكثر حرية ، لكنها جسد ٠ وان الجسد هو روح ، متناومة قليلا ، اضنتها طرق طويلة وأنهكها ارث ثقيل ٠

وشعرت بظل يسقط فوقي • ففتحت عيني ولمحت زوربا يقف على العتبة ينظر الي مسروراً •

وقال لي بعذوبة وبحنان والدي :

ـ لا تستيقظ ، يا صغيري ! لا تستيقظ ••• اننا لا نزال اليوم أيضاً في عيد ، نم !

فقلت وأنا انهض :

ـ لقد نمت بما فيه الكفاية •

فقال زوربا مبتسماً :

ـ سأعدّ لك بيضة ، تعيد اليك قواك •

ودون ان اجيب ، اسرعت الى الشاطىء ، وغطست في البحر ، وجففت نفسي تحت الشمس • ولكنني كنت لا ازال اشم رائحة عذبة نافذة في منخري ، وعلى شفتي ، وفي اطراف اصابعي ، رائحة ماء زهر البرتقال ، أو زيت الغار ، الذي تدهن به نساء كريت شعورهن •

لقد قطعت بالامس حزمة من ازهار البرتقال لتحملها هذا المساء الى المسيح ، في اللحظة التي يرقص فيها القرويون في الساحة تحت اشجار الصفصاف البيضاء والتي تكون فيها الكنيسة مقفرة • وكانت الايقونة ، فوق سريرها ، محملة بأزهار الليمون ، وبين الازهار ، تظهر العذراء حزينة ، بعينيها اللوزيتين الكبيرتين •

وجاء زوربا ليضع قربي الفنجان الذي فقأ فيه البيضة ، وبرتقالتين كبيرتين ، وقطعة صغيرة من كعك الفصح • وقدمها لي بصمت ، سعيداً ، كما تعتني الأم بولد لها عائد من الحرب • ونظر الي بمداعبة وانصرف •

وقال :

ـ سأغرس بضعة اوتاد •

رحت امضغ بهدوء تحت الشمس ، وشعرت بسعادة مادية عميقة ، وكأنني اطوف فوق بحر رطب أخضر • لم أكن أسمح لعقلي بأن يسرق هذه النشوة الجسدية ليعجنها في معجنه ويحيلها الى فكر • لقد تركت جسدي كله يتمتع من قدميه الى رأسه ، مثل حيوان • وكنت أحياناً ، أنظر بوجد ، حولي ، وفي داخلي الى معجزة العالم ، وأقول في نفسي : « ما الذي يجري ؟ كيف أمكن ان يصبح العالم متلائماً الى هذا الحد مع اقدامنا ، وايدينا ، ومعدتنا ؟ » • ومن جديد ، اغلق عيني ، وأصمت •

وفجأة ، نهضت ، ودخلت الى الكوخ ، وأخذت مخطوط « بوذا » وفتحته•

لقد وصلت الى نهايته · لقد رفع بوذا ، وهو مستلقٍ تحت الشجرة المزهرة ، يده وأمر العناصر الخمسة التي تكونها ــ التراب ، والماء ، والنار ، والهواء ، والفكر ــ بأن تنحلّ ·

انني لم أعد بحاجة الى وجه قلقي هذا · لقد تجاوزته ، وانهيت خدمتي بالقرب من بوذا · ورفعت يدي ، أنا أيضاً ، وأمرت بوذا ان ينحل فيّ ·

وبسرعة كبيرة ، بمعونة الابتهالات الفائقة القدرة ، بمعـــونة الكلمة ، غزوت جسده ، وروحه ، وفكره · وبدون شفقة ، كتبت الكلمـــات الأخيرة ، واطلقت الصيحة الأخيرة، وخططت اسمي بقلم أحمر كبير · لقد انتهى الأمر·

وأخذت خيطاً غليظاً وربطت المخطوط بحزم · كنت احس بفرح غريب ، وكأنما يربط يدي ورجلي عدو مخيف ، أو كالمتوحشين عندما يقيدون امواتهم الاعزاء كي لا يستطيعوا الخروج من قبورهم والتحول الى اشباح ·

وجاءت فتاة صغيرة ، عارية القدمين ، راكضـــة · كانت ترتدي ثوباً اصفر، وتمسك بين يديها بقوة، ببيضة حمراء · وتوقفت ونظرت الي خائفة·

فسألتها مبتسماً ، كي أشجعها :

ــ ماذا ؟ أتريدين شيئاً ؟

فشهقت واجابتني بصوت ضعيف لاهث :

ــ ارسلتني السيدة لأقول لك ان تأتي · انها في فراشها · أأنت زوربا ؟

ــ حسناً ، انني قادم ·

ونهضت وبدأت في السير · وراحت جلبة القرية تقترب شيئاً فشيئاً : عذوبة قيثارتها ، وصراخها ، وطلقة بنادقها ، واغانيها المرحـــة · وعندمـا اشرفت على الساحة ، كان الصبيان والفتيات قد تجمعوا تحت أشجار الصفصاف التي جددت أوراقها وراحوا يستعدون للرقص · وكان الشيوخ جالسين حولهم، على المقاعد، مسندين ذقونهم بعصيهم، ينظرون· والعجائز واقفات في المؤخرة· ووسط الراقصين ، كان يتربع عازف القيثارة المشهور ، فانوريو ، وقد وضع وردة من ورود نيسان خلف اذنه · وكان يمسك بيده اليسرى قيثارته منصوبة على ركبته ، وبيده اليمنى يجرب اوتاره الرنانة ·

وصرخت وأنا اعبر :

ــ المسيح قام !

فأجابتني جلبة فرحة :

ــ حقاً قام !

وألقيت نظرة سريعة · صـــبيان أشدّاء ، نحـــاف ، يرتدون قمصـــاناً

فضفاضة ، يعصبون رؤوسهم بمناديل تنسبل اطرافها على جباههم وأصداغهم مثل خصلات مجعَّدة · والصبايا بالاطواق الذهبية حول أعناقهن ، وبمناديلهن البيضاء المطرزة ، وبأعينهن المسبلة ، يختلجن انتظاراً ·

وسألتني بعض الأصوات :

ـ ألا تتنازل للبقاء معنا ، ايها الرئيس ؟

لكني كنت قدمضيت ·

كانت السيدة هورتانس مستلقية على سريرها الكبير ، وهو قطعة الأثاث لوحيدة التي بقت لها · وكانت وجنتاها ملتهبتين من الحمى ، وهي تسعل ·

وما ان رأتني حتى تنهَّدت باكية :

ـ وزوربا ، ايها الشريك ، وزوربا ؟···

ـ انه على غير ما يرام · من اليوم الذي مرضت فيه ، مرض هو أيضاً · انه يمسك بصورتك وينظر اليها بتنهُّد ·

فتمتمت الجنية العجوز وهي تغمض عينيها سعيدة :

ـ تابع ··· تابع ···

ـ لقد ارسلني أسألك ان كنت ترغبين في شيء ما · وقد قال لي : انه سيأتي بنفسه هذا المساء ، على الرغم من أنه لا يكاد يستطيع المشي · انه لا يطيق فراقك ·

ـ تابع ، تابع ، تابع أيضاً ···

ـ لقد تلقَّى برقية من أثينا · ان ثياب العرس قد اصبحت جاهزة ، وكذلك الأكاليل ، وهي الآن في البحر ، في طريقها الينا ··· مع الشموع البيض المحاطة بشرائط ورديَّة ···

ـ تابع ، تابع ···

كان النعاس قد تمكَّن منها ، وتبدَّل تنفسها ، وأخذت تهذي · وكانت الغرفة تعبق برائحة ماء الكولونيا ، والأمونياك ، والعرق · ومن النافذة المفتوحة ، كانت تنفذ رائحة الدجاج وأرانب الباحة ، الحادَّة ·

ونهضت ، وانسللت خارج الغرفة · وعند الباب اصطدمت بميميتو · كان يرتدي ، في هذا اليوم ، قميصاً وحذاء جديدين · وقد وضع خلف أذنه غصن ريحان ·

وقلت له :

ـ ميميتو ، اسرع الى قرية كالو ، وجيء بالطبيب !

وكان ميميتو قد خاع حذائيه كي لا يمزقهما في الطريق ، وتأبَّطهما تحت

ذراعه .

ـ اذهب لرؤية الطبيب ، وحيّه من طرفي ، وقل له ان يمتطي بغلته وأن يأتي دون تأخير . ان السيدة مريضة جداً . وقل له هذا . لقد أصيبت بالبرد، المسكينة ، انها محمومة ، انها تموت . قل له هذا . اجرِ !

ـ هوب ! هوب ! انني ذاهب .

وبصق في يديه ، وصفّق بهما بفرح ، لكنه لم يتحرك . وراح ينظر اليّ بغبطة .

ـ اجرِ ، أقول لك !

لكنه ظلّ ساكناً . وغمزني بعينه ، وابتسم ابتسامة شيطانية . وقال :

ـ أيها الرئيس ، لقد جئتك بزجاجة ماء زهر البرتقال كهدية .

وتوقف لحظة . كان ينتظر ان اسأله من أرسلها ، لكنني بقيت صامتاً . فقال :

ـ حسناً ، ألا تسأل من أرسلها لك ، ايها الرئيس ؟ انها تقول : انها من أجل ان تضع منها على شعرك كي تطيب رائحته !

ـ اجرِ ، بسرعة ! اصمت !

وضحك ، وبصق من جديد في يديه ، وصاح مرة اخرى :

ـ هوب ! هوب ! لقد بُعث المسيح !

واختفى .

- ٢٢ -

تحت أشجار الصفصاف كان الرقص الفصحي يبلغ ذروته · يقوده شاب قوي أسمر في العشرين ، وجنتاه المكسوَّتان بزغب كثيف تجهلان بعد موسى الحلاقة · وقميصه ينفتح على صدره ، عن بقعة سوداء مليئة بالشعر المجعد · وكان رأسه ملقى الى الخلف ، وقدماه ترفَّان على الأرض كجناحين ، ومن حين الى حين يرمي احدى الصبايا بنظرة ، فيتلألأ بياض عينيه ، ساكناً ، قلقاً في سواد وجهه ·

وانتشيت مرتعداً · انني عائد من لـدن السيدة هورتانس · وكنت قد استدعيت امرأة لتعتني بها ، وها أنا امضي الآن ، مطمئناً لأشاهد الكريتيين يرقصون · واقتربت من العم انانيوستي وجلست قربه على المقعد ·

وسألته هامساً في أذنه :

ــ من هو هذا الفتى الذي يقود الرقص ؟

فأخذ العم انانيوستي يضحك ، وقال باعجاب :

ــ انه كالملاك الذي يأخذ النفوس ، هذا الخبيث · حسناً ! انه سيفاكاس، الراعي · طوال العام يحرسقطيعه في الجبال ، وينزل فقــط في عيد الفصح ليرى الناس ويرقص ·

وتنهد متمتماً :

ــ آه ! لو كان لي شبابه ! لو كان لي شبابه ، اقسم لك بشرفي ، لكنت قدت الهجوم على القسطنطينية ·

وهز الفتى رأسه ، وأطلق صيحة ، وحشية ، غير انسانية ، مثل الكبش عندما يلمح الأنثى ، وصرخ :

ــ اعزف ، يا فانوريو ، اعزف حتى يموت الموت !

كان الموت يموت في كل لحظة ، ويولد من جديد في كل لحظة ، منذ

آلاف السنين ، والشبان والصبايا يرقصون تحت الاشجار ذات الأوراق الحانية ـ الصفصاف ، والصنوبر ، والسنديان ، والدفلى ، والنخيل الرشيق ـ وسيرقصون أيضاً الوف السنين ، والشهوة تتأكل وجوههم . ان الاوجه تتبدل ، وتتغير وتعود الى الارض ، لكن وجوهاً أخرى تخرج منها وتحل مكانها. ليس هناك سوى راقص واحد ، ذي اقنعة لا تحصى ، لا يفنى ، في العشرين من العمر دوماً .

ورفع الشاب يده ليفتل شاربيه ، لكنه كان امرد . وصرخ من جديد :

ـ اعزف ! اعزف ! يا فانوريو ، يا رفيقي ، والا انفجرت !

وهز عازف القيثارة ذراعه ، ورنّت القيثارة ، وحميت الاوتار ، وقفز الفتى ، وصفق برجليه ثلاث مرات في الهواء ، على ارتفاع مترين ، وأمسك بطرف حذائيه المنديل الابيض على رأس جاره ، حارس الغابة مانولاكاس .

وتعالت الاصوات :

ـ مرحى ، يا سيفاكاس !

وارتعدت الصبايا وغضضن ابصارهن .

لكن الفتى ، بصمت ، دون ان ينظر الى أحد ، وبحركة وحشية منتظمة ، وضع يده اليسرى مقلوبة على خصره النحيف القوي ، وراح يرقص ، وعيناه تحدقان الى الأرض خجلا .

وفجأة ، توقف الرقص ، وجاء القواس العجوز ، اندروليو ، راكضاً ، رافعاً ذراعيه الى السماء . وصاح وهو يلهث متدلي اللسان :

ـ الارملة ! الارملة ! الارملة !

وكان حارس الغابة مانولاكاس أول من اندفع ، مخترقاً حلقة الراقصين. من الساحة كانت تلمح الكنيسة ، في الوادي ، وهي لا تزال مـزدانة بالآس والغار . وتوقف الراقصون ، وقد تصاعد الدم الى رؤوسهم ونهض الشيوخ عن مقاعدهم . وأراح فانوريو القيثارة على ركبتيه ، وأخذ من خلف أذنه وردة نيسان واستنشقها .

وصرخ الجميع ، وهم يغلون غضباً :

ـ أين ، أيها الشيخ اندروليو ؟ أين هي ؟

ـ في الكنيسة ، هناك لقد دخلت اليها اللعينة ، وهي تحمل باقة من زهر الليمون .

وصاح حارس الغابة وهو يشق الطريق :

ـ هيا ، أيها الرفاق !

وفي تلك اللحظة ، ظهرت الارملة على عتبة الكنيسة ، وقد عقدت رأسها بمنديل أسود • ورسمت اشارة الصليب •

وهتفت أصوات من الساحة :

ـ شقية ! قذرة ! مجرمة ! ان لها الجرأة على الظهور أيضاً ! هي التـــي جلبت العار للقرية !

واسرع البعض نحو الكنيسة في اثر حارس الغـــابة ، وأخذ آخرون يرمونها بالحجارة ، من اعلى • واصابتها احدى القذائف في كتفها • واطلقت صرخة ، ووضعت يديها على وجهها ، واندفعت ، وجسدها منحنٍ الى الامام ، محاولة الهرب • لكن الشبان كانوا قد وصلوا الى باب الكنيسة ، وانتضـى مانولاكاس سكينه •

وتراجعت الارملة ، وهي تطلق صرخات صغيرة حادة ، وثنت جسمها ، وجرت متعثرة لتحتمي في الكنيسة • ولكن ، هناك ، عند العتبة ، كان يقف العجوز مافراندوني ، متصالب الذراعين ، وهو يمسك بمصراعي الباب •

وقفزت الارملة الى اليسار قفزة وتشبثت بشـــجرة السرو الموجودة في الساحة وصفر حجر في الهواء ، وأصابها في وجهها ، وأطاح بمنديلها • وانحل شعرها وانسبل على كتفيها •

وراحت تصرخ وهي تزداد تشبثا بالشجرة :

ـ اكراماً لله ! اكراماً لله !

كانت الصبايا يقفن ، في الأعلى صفاً واحـــداً ، يعضضن على مناديلهن البيضاء ، ويتطلعن بشراهة • والعجائز يصرخن وهن متشبثات بالأسيجة •

ـ اقتلوها ، هيا ! اقتلوها !

وهجم عليها شابان، وأمسكاها، وتمزق قميصها الأسود، وتلألأ صدرها أبيض كالثلج • ان الدم يتدفق الآن من أعلى رأسها على جبينها وخديهـــا وعنقها •

وكانت تصرخ لاهثة :

ـ اكراماً لله ! اكراماً لله !

ان الدم الذي يتدفق ، والصدر الذي يتلألأ ، قد أهاجا الشبان • وخرجت السكاكين من الأحزمة •

وصاح مانولاكاس :

ـ توقفوا ! انها لي !

ورفع مافراندوني ، الذي كان لا يزال منتصباً على عتبة الكنيسة ، يده •

وتوقف الجميع ٠ وقال بصوت جليل :
ـ مانولاكاس ، ان دم ابن عمك يصرخ ٠ امنحه الراحة !
واندفعت من السياج حيث كنت متسلقاً ، وانقضضت نحو الكنيسة ، لكن رجلي تعثرت بحجر وسقطت على وجهي ٠
وفي تلك اللحظة ، مر سيفاكاس ٠ فانحنى ، وأمسكني من جلد ظهري كما تلتقط القطط وانهضني على قدمي ٠ وقال :
ـ ما الذي تحاوله ، انت ، ايها الارستقراطي السخيف ؟ اغرب من هنا ٠
فقلت له :
ـ ألا تشفق عليها ، يا سيفاكوس ؟ ارحمها !
فأخذ الجبلي يضحك بوحشية وقال :
ـ انني لست امرأة حتى تتملكني الشفقة ! انني رجل !
وبقفزة وصل الى باحة الكنيسة حيث تبعته ٠
كان الجميع يحيطون الآن بالأرملة ٠ صمت ثقيل ٠ لا يسمع فيه الا لهاث انفاس الضحية المخنوقة ٠
ورسم مانولاكاس اشارة الصليب ، وتقدم خطوة ، ورفع سكينه ٠ كانت العجائز ، هناك في الاعلى ، يصرخن فرحاً ٠ وخفضت الصبايا مناديلهن وغطين وجوههن ٠
ورفعت الارملة عينيها ، ورأت السكين فوقها ، وأنَّت كثور ٠ وانهارت على أسفل الشجرة وأدخلت رأسها بين كتفيها ٠ ولعق شعرها الارض ، ولمعت رقبتها البيضاء الناصعة ٠
وصاح العجوز مافراندوني وهو يرسم اشارة الصليب :
ـ انني اطلب عدالة الله !
ولكن في تلك اللحظة بالضبط ، تعالى صوت خشن وراءنا :
ـ انزل سكينك ، أيها القاتل !
والتفت الجميع مذهولين ٠ ورفع مانولاكاس رأسه ٠ كان زوربا واقفاً أمامه ، يؤرجح ذراعيه ، غاضباً ٠ وصاح :
ـ قل اذن ، الا تخجل ؟ يا للشجاعة ! قريـــة بأكملها لقتل امـــرأة ! ستجلبون العار لكريت كلها ، احذروا !
فزمجر مافراندوني :
ـ اهتم بقضاياك ، يا زوربا ! ولا تتدخل في امورنا !
واضاف وهو يلتفت الى ابن أخيه :
ـ مانولاكاس ، باسم المسيح والعذراء ، اضرب !

ووثب مانولاكاس • وأمسك بالارملة ، والقاها أرضاً ، وجثا بركبته على بطنها ورفع سكينه • ولكن زوربا أمسك ، في مشـــــل لمح البصر ، بذراع مانولاكاس ، وراح يحاول، بيده التي لفها بمنديل كبير ، ان ينزع السكين •

وركعت الارملة على ركبتيها ، وبحثت حولها عن سبيل تفر منه ، لكن القرويين كانوا قد سدوا الباب واصطفوا بشـــكل دائري حول الباحة وعلى المقاعد ، وعندما تبينوا انها تحاول الافلات ، تقدموا خطوة وضاقت الدائرة •

كان زوربا يصارع ، بصمت ، وخفة وحزم وبرودة قلب • ورحت اتتبع المعركة بقلق،وأنا واقف قرب الباب•ان وجه مانولاكاس قد ازرق من الغضب• واقترب سيفاكاس وفتى آخر ضخم الجثة ليساعداه • لكن مانولاكاس حرك عينيه يميناً وشمالا بسرعة ، وصاح :

ــالى الوراء ! الى الوراء ! لا يقترب أي انسان !

وهجم من جديد بغيظ على زوربا ونطحه برأسه كثور •

وعض زوربا على شفتيه دون ان يقول شيئاً • لكنه ظل يشد بقوة على ذراع حارس الغابة ، ويتلوى يميناً وشمالا كي يتفادى نطح رأسه • واندفع مانولاكاس ، وقد تملكه غضب جنوني ، وعض بأسنانه على اذن زوربا ، وشدها بكل قواه وأخذ الدم ينسال•

وصحت مذعوراً ، وأنا اندفع لانقاذه :

ــ زوربا !

فصاح بي :

ــ ابتعد ، أيها الرئيس ! لا تتدخل في الأمر !

وشد على قبضته ووجه لكمة هائلة الى اسفل معدة مانولاكاس • فتهاوى الحيوان المتوحش دفعة واحدة • وارتخت اسنانه ، وحررت أذن زوربا نصف المقطوعة ، وشحب وجهه المزرق • وبضربة مفاجئة ، أرســـله زوربا أرضاً ، وانتزع منه السكين وكسرها الى نصفين •

وراح بمنديله يمسح الدم الذي كان ينساب من إذنه ، ثم جفف به وجهه الذي كان يسيل عرقاً ، فتلطخ كله بالدم • وانتصب ، والقى نظرة حوله ، من عينيه اللتين انتفختاواحمرّتا • وصاح بالارملة :

ــ انهضي ، تعالي معي !

واتجه نحو باب الباحة •

ونهضت الارملة ، وجمعت كل قواها ، واستعدّت لشق طريقها • لكن الوقت لم يتح لها • اذ هجم عليها مافراندوني كما ينقضّ الصقر ، ورماها

أرضاً ، ولف شعرها الاسود الطويل ثلاث مرات حول ذراعه ، وبضربة سكين واحدة ، أطاح برأسها · وصاح :

ـ انني آخذ الخطيئة على حسابي !

ورمى رأس الضحية على عتبة الكنيسة · ثم رسم اشارة الصليب ·

واستدار زوربا · ومن شدة حنقه ، افتلع قبضة من شعر شـــاربيه · واقتربت وشددت على ذراعه · فانحنى وحدق فيّ · كان ثمة دمعتان كبيرتان معلقتان على حافة أهدابه · وقال لي بصوت مخنوق :

ـ هيا بنا ، أيها الرئيس !

وفي ذلك المساء ، لم يشأ زوربا ان يتناول شيئاً · كان يقول : « انحلقي مخنوق ، لا يمر منه شيء » · وغسل اذنه بالماء البارد ، وبلل قطعة قطن في العرق ، وضمد جرحه · وجلس على فراشه ، وراح يفكر ، ورأسه بين يديه ·

وتمددت على الأرض ، مستنداً الى الحائط ، وأحسست بالدموع تنساب ، بطيئة حارة ، على خدي · لم يكن عقلي يعمل ، ولم أكن افكر بشيء · كنت كمن سيطر عليه حزن طفولي عميق ، وكنت أبكي ·

وفجأة ، رفع زوربا رأسه ، وانفجر · أخذ يصرخ ، متابعاً بصوت عالٍ مونولوجه الداخلي الوحشي :

ـ لقد قلت لك ، أيها الرئيس ، ان كل ما يجري فوق هذه الأرض ، غير عادل ، غير عادل ، غير عادل ! أنا ، دودة الأرض ، زوربا الحلزون ، لا اوافق على ذلك ! لماذا يجب ان يموت الشباب ، وان تبقـــى الانقاض الهرمة ؟ لماذا يموت الأطفال الصغار ؟ كان لي انا صبي ، صغيري ديمتري ، وفقدته وهو في الثالثة ، وابداً ، أبداً ، أتسمعني ، لن اسامح الله على ذلك ! يوم أموت ، اذا كان يجرؤ على الظهور امامي ، واذا كان الهاً عن حق ، فسوف يخجل ! نعم ، نعم ! سوف يخجل أمامي ، أنا زوربا الحلزون !

وكشر عن اسنانه كأنه اصيب بألم مفاجيء · وعاد الدم ينساب من جرحه وعض على شفتيه كي لا يصرخ ·

وقلت :

ـ انتظر ، يا زوربا ! سأبدل ضمادك ·

وغسلت اذنه من جديد بالعرق ، وأخذت ماء زهر البرتقال الذي ارسلته لي الارملة والذي وجدته على سريري ، وبللت قطعة القطن ·

فقال وزربا وهو يستنشق بشراهة :

ـ ماء زهر البرتقال ؟ ماء زهر البرتقال ؟ ضع منه على شعري ، هكذا ،

حسناً جداً ! وفي يدي ، صبّه ، هيا !

لقد عاد الى الحياة · ونظرت اليه مذهولا · وقال :

– يخيل الي انني ادخل حديقة الارملة ·

وعاد الى الندب متمتماً :

– كم من سنوات ، كم من سنوات ، اقتضت الارض حتى تنجح في صنع جسد كذاك ! ان من كان ينظر اليها كان يقول في نفسه : « ان أكـــون في العشرين ، وان أبقى بمفردي معها على الأرض وننجب الأطفال معاً ، لنعمـــر العالم ! لا ، ليس اطفالا ، بل آلهة حقيقيين ! » · في حين ، الآن ···

ووثب على قدميه · وانتفخت عيناه بالدموع ، وقال :

– لا استطيع ، ايها الرئيس · يجب أن اسير ، يجب ان أصعد وأهبط الجبل مرتين او ثلاثا حتى أتعب ، واهدأ قليلا ··· ايتها الأرملة اللعينة ! ان الرغبة لتأخذني في أن انشد قصيدة لك !

واندفع خارجاً ، وسار في اتجاه الجبل ، وضاع في الظلمة ·

وتمددت على سريري ، وأطفأت المصباح ، ورحت مرة اخرى ، حسب عادتي الحقيرة اللاانسانية ، أعدل الواقع ، واسحب منه دمـــه ، ولحمه ، وعظامه · واحيله الى فكرة مجردة ، وأربطه بقوانين عامـة حتى أصــــل الى الاستنتاج الفظيع بأن كل ما حدث كان ضرورياً · وتوصلت اخيراً الى هذا العزاء النهائي الكريه : بأن من العدل ان يجري ما جرى ·

ودخل ذبح الأرملة الى عقلي ، الى تلك الخلية التي كان كل سمٍّ فيهـا يتحول ، منذ عدة سنوات ، الى عسل ، وأقلقه · لكن سرعان ما امسكت فلسفتي بهذا الانذار الفظيع ، وغلفته بالصور والأحابيل ، وجعلته عاجزاً عن الحركة · هكذا تغلف النحلات بالشمع الدبور الجائع الذي يأتي لسلب عسلها ·

بعد عدة ساعات ، كانت الأرملة ترقد في ذاكرتي ، هادئة ، مبتسمة ، قد تحولت الى رمز · لقد كانت أصلا في قلبي مغلفة بالشمع ، لا تستطيع ان تبعث فيّ الرعب وتسلبني عقلي · ان حدثاً فظيعاً جرى ذات يوم ، كان يتسع، ويمتد في الزمان والمكان ، ويتحد بالحضارات الكبيرة الآفلة ، والحضارات تتحد بمصير الأرض ، والارض بمصير الكون ، وهكذا عندما عدت الى الأرملة، وجدتها خاضعة للقوانين الكبرى ، قد تصالحت مع قتلتها ، ساكنة هادئة ·

لقد عاد الزمن ووجد فيّ من جديد معناه الحقيقي : لقد ماتت الأرملة قبل آلاف السنين ، في ايام حضارة بحر ايجه ، وماتت صبايا « كنوسوس (١) » ،

---

١ – كنوسوس : عاصمة كريت القديمة ، بلغت أوج ازدهارها في القرن الواحد والعشرين قبل الميلاد · « هـ · م »

المجعدات الشعر ، هذا الصباح ، على ساحل هذا البحر الضاحك ٠

وتملكني النعاس كما سيتملكني الموت ذات يوم ـ ليس ثمة شيء أكيد أكثر من هذا ـ وغصت في الظلمات على مهل ٠ لم ادر متى عاد زوربا ولا متى دخل عند الصباح ، وجدته على الجبل ، يصرخ ويزمجر بالعمال ٠

لم يعجبه أي شيء مما فعلوه ٠ فطرد ثلاثة عمال عاندوه ، وأخذ المعول بنفسه وبدأ يشق الطريق الذي خططه من أجل الأوتاد وسط الشوك والصخور٠ وتسلق الجبل ، ووجد الحطابين الذين كانوا يقطعون الصنوبر وأخذ يصرخ بهم ٠ فضحك احدهم وتمتم شيئا ما ٠ فهجم زوربا عليه ٠

عند المساء ، عاد منهكاً ، ممزق الثياب ، وجلس قربي على الشاطىء ٠ ووجد صعوبة في أن يفتح فمه ، وعندما تكلم أخيراً ، تكلم عن خشب البناء ، والحبال واللينيت ، مثل مقاول حريص ، يستعجل اجتياح المكان ، واستخلاص اكبر فائدة ممكنة ، ثم الانصراف ٠

وكدت في احدى اللحظات ، وأنا في حالة العزاء التي وصلت اليها ، ان أتحدث عن الأرملة ، لكن زوربا مد يده الغليظة وأغلق فمي ٠ وقال بصوت أصم:

ـ أصمت !

وصمتٌ ، خجلا ٠ وقلت في نفسي وأنا أحسد زوربا على ألمه : هذا هو الانسان الحقيقي ٠ انسان حارّة دماؤه ، متينة عظامه ، يترك دموعاً كبيرة حقيقية تنساب حين يتألم ، ولا يضيع فرحه بامـــراره في غربال الميتافيزيك الدقيق ، حين يكون سعيداً ٠

ومضت ثلاثة أو اربعة أيام على هذه الحال ٠ كان زوربا يعمل ، دون توقف ، دون تنهد ، دون طعام ، ودون شراب ٠ كان يذوب ٠ وذات مساء قلت له ان السيدة بوبولينا لا تزال مريضة ، وان الطبيب لم يأت ، وانها تهذي وهي تلفظ اسمه ٠

فشد على قبضتيه وقال :

ـ هذا حسن ٠

وفي فجر اليوم التالي ، ذهب الى القرية وعاد وشيكاً ٠ فسألته :

ـ أرأيتها ؟ كيف حالها ؟

فقال :

ـ ليس بها شيء ، سوف تموت ٠

وتوجه بخطا كبيرة نحو الجبل ٠

وفي ذلك المساء نفسه أخذ عصاه وخرج دون ان يتناول طعام العشاء ٠

سألته :

ـ الى أين أنت ذاهب ، يا زوربا ؟ أالى القرية ؟

ـ كلا • سأقوم بجولة صغيرة ، ثم أعود •

وسار في اتجاه القرية بخطا عريضة حازمة •

كنت متعباً ، فتمددت • وأخذ فكري من جديد يستعيد صورة الارض كلها ، وصعدت اليه ذكريات ، وعادت احزان ، وحوّم عقلي فوق أبعد الأفكار ، ثم عاد ليحط فوق زوربا •

قلت في نفسي : « لو صادف ، في الطريق ، مانولاكاس ، فان هذا المارد الكريتي المجنون الغاضب سيلقي بنفسه عليه • يبدو انه طيلة هذه الايام قد ظل محبوساً في منزله يئن • انه يخجل من الظهور في القرية ، ولا يكف عن التأكيد بأنه اذا أمسك بزوربا « فسوف يمزقه كسمكة سردين » • بالأمس ايضاً ، ليلا ، رآه أحد العمال يحوم ، حول الكوخ ، مسلحاً • اذا التقيا هذا المساء ، فستكون هناك مجزرة » •

ونهضت واثباً ، وارتديت ثيابي ، وانطلقت بسرعة في طريق القرية • كان الليل العذب ، الرطب ، يعبق برائحة القرنفل البري • وبعد فترة ، لمحت زوربا ، خلال العتمة ، وهو يتقدم ببطء ، كأنه متعب • كان من حين الى حين يتوقف ، ويحدق بالنجوم ، ثم يمضي بسرعة أكبر ، فأسمع وقع عصاه فوق الحجارة •

واقترب من حديقة الارملة • كان الجو يعبق برائحة الليمون وزهر العسل • وفي تلك اللحظة ، انبجس ، من خلال اشجار برتقال الحديقة ، غناء ممزق لبلبل ، كخرير ماء • كان يغني ، ويغني في الظلمات ، وتلهث أنفاس من يسمعه • وتوقف زوربا فجأة ، لاهثاً ، هو ايضاً ، بسبب هذه العذوبة الكثيرة •

وعلى حين غرة تحرك قصب السياج ، وصدر عن اوراقها القاطعة صوت به نصال من الفولاذ •

وقال صوت غليظ وحشي :

ـ ايه ، يا صاح ! ايه ايها الشيخ الخرف وجدتك اخيراً !

وجمدت في مكاني • لقد عرفت الصوت •

وتقدم زوربا خطوة ، ورفع عصاه ، ثم توقف من جديد • وعلى ضوء النجوم الشاحب ، كنت أميز كل حركة من حركاته •

وبقفزة واحدة ، اندفع فتى ضخم الجثة بعيداً عن القصب • وصرخ

زوربا وهو يمد عنقه :
ـ من هناك ؟
ـ انا ، مانولاكاس ٠
ـ تابع طريقك ، اذهب !
ـ لقد لوثت شرفي ، يا زوربا !
ـ لست أنا الذي لوث شرفك ، يا مانولاكاس ، اذهب اقول لك ٠ انك فتى قوي ، لكن الحظ هو الذي شاء الامر هكذا ، انه اعمى ، ألا تدري ذلك ؟
فقال مانولاكاس (وسمعت أسنانه تصر) :
ـ حظ او غير حظ ، اعمى أو لا ، الا انني اصر على ان أغسل عاري ٠ هذا المساء بالذات ٠ أمعك سكين ؟
فأجاب زوربا :
ـ كلا ٠ ليس معي الا هراوة ٠
ـ اذهب وجيء بسكينك ٠ انني أنتظرك هنا ٠ هيا !
فلم يتحرك زوربا ٠ وتعالى صوت مانولاكاس هازئاً :
ـ أخائف ؟ هيا ، اقول لك !
فقال زوربا وقد بدأ يغضب :
ـ ماذا أفعل بالسكين ، يا صديقي ؟ ماذا افعل بها ، قل ؟ أتذكر ، في الكنيسة ، انت كان معك سكين ، وأنا لم يكن معي ، أليس كذلك ؟ ومع ذلك يبدو لي انني تدبرت امري جيداً ٠
فزمجر مانولاكاس :
ـ أوتسخر مني علاوة على ذلك ؟ لقد أخترت وقتك ، لأنني مسلح وانت غير مسلح ٠ جيء بسكينك ايها الماسيدوني القذر ، سنرى من منا أقوى ٠
فأجاب زوربا ، بصوت يرتعد غضباً :
ـ الق سكينك ، وسألقي انا هراوتي ، ثم نرى من هو اقوى ! هيا ، ارمها ، ايها الكريتي القذر !
ورفع زوربا ذراعه ، والقى الهراوة ، وسمعتها تسقط فوق القصب ٠
وصاح زوربا من جديد :
ـ ارم سكينك !
واقتربت على أطراف اصابعي ، بهدوء كبير ٠ وعلى ضوء النجوم ، استطعت أن ألمح بريق السكين عندما سقطت هي ايضاً فوق القصب ٠
وبصق زوربا في يديه ، وصاح وهو يقفز :

ـ تشجّع !

لكن قبل أن يتمكن الاثنان من الالتحام ، اندفعت بينهما · وصرخت :

ـ توقّفا ! تعالَ هنا ، يا مانولاكاس ، وتعالَ ، أنت أيضاً ، يا زوربا · ألا تخجلان ؟

واقترب الخصمان بخطى بطيئة · وامسكت اليد اليمنى لكليهما وقلت :

ـ تصافحا ! انكما ، كلاكما ، فتيان طيبان وشجاعان ، تصالحا ·

فقال مانولاكاس وهو يحاول ان يسحب يده :

ـ لقد لطخ شرفي ···

فقلت :

ـ لا يمكن تلطيخ شرفك بمثل هذه السهولة ، يا مانولاكاس ! القرية كلها تعرف بسالتك · لا تلقِ بالا الى ما حدث بالامس في الكنيسة · لقد كانت ساعة مشؤومة · والآن ، لقد انقضى الامر وانتهى ! ثم ، لا تنس ذلك ، ان زوربا غريب ، ماسيدوني ، وانه لعار كبير علينا ، نحن الكريتيين ، ان نرفع اليد على ضيف جاء الى بلادنا ··· هيا ، هات يدك ، فهذه هي البسالة الحقيقية، وهيا بنا الى الكوخ ، سنشرب كأساً من الخمر ونشوي متراً من المقانق ، لنعزز الصداقة ، يا مانولاكاس !

واخذت مانولاكاس من خصره ، وسحبته بعيداً قليلا · وهمست في أذنه :

ـ انه هرم . هذا الرجل المسكين · لا يجوز ان يتحامل عليه فتى شاب وقوي مثلك !

وهدأ مانولاكاس ، وقال :

ـ حسناً ، من اجل مرضاتك !

وتقدم خطوة نحو زوربا ، ومدَّ يده الضخمة الثقيلة ، وقال :

ـ هيا ، ايها الصديق زوربا · قضايا قديمة ، قضايا منسية · هات يدك !

فقال زوربا :

ـ لقد قطعت اذني ، خذ ، هذي يدي !

وتصافحا ، طويلا ، وبقوة · وشدا على أيديهما بقوة اكثر فأكثر ، وراحا ينظران الى بعضهما بعضاً · وخشيت ان يتلاحما من جديد ·

وقال زوربا :

ـ انك تشد بقوة ، انت فتى متين ، يا مانولاكاس !

ـ وانت ايضاً تشد بقوة · شدَّ أكثر حتى نرى ، اذا كنت تستطيع !

فصرخت :

ـ هذا يكفي · هيا بنا لنروي صداقتنا ·

ووقفت بينهما ، زوربا الى يميني ، ومانولاكاس الى يساري ، واستدرنا عائدين الى شاطئنا ·

وقلت كي أبدل موضوع الحديث :

ـ ان الغلال ستكون وفيرة هذه السنة ··· فقد امطرت كثيراً ·

لكن لم يجب أحد على عبارتي هذه · ان الغيظ لا يزال يكظم صدريهما · واملي كله الآن في الخمر · وصلنا الى الكوخ ·

وقلت :

ـ اهلا بك تحت سقفنا ، يا مانولاكاس ! زوربا ، شِ لنا النقانق ، واملأ ثلاث كؤوس ·

وقلت وانا أرفع كأسي :

ـ في صحتكما ! في صحتك ، مانولاكاس ! في صحتك ، زوربا ، اقرعا الكؤوس !

وقرعا الكؤوس · وصبّ مانولاكاس بضع قطرات من الخمر على الارض ، وقال بلهجة وقور :

ـ ليجرِ دمي مثل هذا الخمر ، ليجرِ دمي مثل هذا الخمر ، اذا رفعت يدي عليك ، يا زوربا ·

ـ ليجرِ دمي انا ايضاً مثل هذا الخمر ، اذا لم أكن نسيت الاذن التي قطعتها لي ، يا مانولاكاس !

- ٢٣ -

عندما طلع الفجر ، جلس زوربا على سريره وايقظني :

ـ الا تزال نائماً ، ايها الرئيس ؟

ـ ما هناك يا زوربا ؟

ـ لقد حلمت حلماً غريباً • اعتقد اننا لن نتأخر عن القيـــام بسفرة • اسمع ، ستضحك • كان هنا ، في المرفأ ، مركب كبير كأنه مدينة • وكـان يصفر ، مستعداً للرحيل • وجئت انا راكضاً من القرية لألحـق به ، وكنـت امسك ببغاء بيدي • ووصلت ، وتسلقت المركب ، لكن القبطان قدم مسرعاً • وصاح بي : « بطاقة ! » فسألته وانا اخرج رزمة من الأوراق المالية من جيبي : « كم ؟ » • قال : « الف درهم » • فقلت له : « قل ، من فضلك ، الا يكفي ثمانمئة ؟ » • فأجاب : « الف ، ولا درهم أقـل ! والا ، فانزل بسرعة ! » عندئذ غضبت وقلت له : « اسمع ، خذ ، من اجل مصلحتك ، الثمانمئة التي اعطيكها ، والا فسوف استيقظ ، يا شيخي المسكين ، وتخسر الكل ! » •

وانفجر زوربا ضاحكاً ، وقال مذهولا :

ـ يا للانسان من آلة مضحكة ! انك تملأها بالخبز ، والخمر ، والسمك ، والفجل ، فيخرج منها تنهدات ، وضحك وأحلام • انه مصنع ! اعتقد ان في رؤوسنا سينما صوتية كتلك الافلام الناطقة •

وفجأة وثب زوربا خارج سريره ، وصاح قلقاً :

ـ لكن لماذا الببغاء ؟ ماذا يعني ان يذهب هذا الببغاء معي ؟ آه ! اخشى ان • • •

ولم يتح له الوقت لينهي عبارته • فقد دخل الكوخ رسول ، قصير أحمر الشعر ، ابليس حقيقي ، وهو يلهث •

ـ اكراماً لله ! ان السيدة المسكينة تصرخ بأن ننذر الطبيب ! انها تقول

انها على وشك الموت ، وستثقل على ضميركما •

وشعرت بالخجل • لقد نسينا تماماً ، في هذه الفوضى التي القتنا فيها الارملة ، صديقتنا العجوز •

وتابع ذو الشعر الاحمر بكلمات مرحة :

ـ انها مريضة ، انها تسعل بقوة تهز فندقها كله ! نعم ، نعم ، يا صاح ، سعال حمار حقيقي ! جوهْ ! جوهْ ! ان القرية كلها تهتز !

فصحت به :

ـ لا تضحك ، اصمت !

واخذت ورقة وكتبت •

ـ اسرع ، خذ هذه الورقة الى الطبيب ولا تعد قبل ان تراه بعينيك يركب بغلته • أتسمع ، اسرع !

وأخذ الرسالة ، ودسّها في حزامه ، واختفى •

كان زوربا قد نهض • ولبس ثيابه بسرعة كبيرة ، دون ان يقول شيئا • فقلت له :

ـ انتظر ، سآتي معك •

فقال :

ـ انني مستعجل •

وانطلق •

بعد لحظات ، كنت بدوري اسير نحو القرية • كانت حديقةالأرملة تعبق مقفرة • وكان ميميتو جالساً امامها ، قابعاً ، مستوحشاً ، ككلب منهك • لقد نحف ، وغارت عيناه في محجريهما ، والتهبتا • والتفت ، ورآني ، وتنـــاول حجراً •

فسألته وانا أرمي الحديقة بنظرة حزينة :

ـ ماذا تفعل هنا ؟

واجتاحتني ذكرى ذراعين دافئتين قويتين ••• وطاف في الجو اريـج زهر الليمون وزيت الغـار ، ولمحـــت ، في العتمة ، عيني الارملة الجميلتيْن السوداوين ، وقد أججتهما الشهوة ، واسنانها الحـادة البيضاء اللامعة التي فركتها بورق الجوز •

ودمدم ميميتو :

ـ لماذا تسألني هذا ؟ هيا ، انصرف الى أعمالك •

ـ أتريد سيجارة ؟

ـ انني لم اعد ادخن · انكم جميعاً انذال · جميعاً ! جميعاً ! جميعاً !

وسكت ، لاهثاً ، وكأنه يبحث عن كلمات لم يجدها ···

انذال ·· حقيرون ·· كذبة ·· قتلة ··

وضرب بيديه وكأنه وجد الكلمة التي كان يبحث عنها وبدا عليه الاطمئنان· وصاح بصوت حاد :

قتلة ! قتلة ! قتلة !

وأخذ يضحك ·

وانقبض قلبي · وتمتمت وانا ابتعد بخطى سريعة :

ـ معك حق ، يا ميميتو ، معك حق ·

عند مدخل القرية رأيت الشيخ انانيوستي ، منحنياً على عصاه ، ينظر بانتباه ، وكله سرور ، الى فراشتين صفراويـن كانتا تتلاحقان في العشـب الربيعي · انه الآن ، وقد اصبح هرماً ، لا يهتم مطلقاً بحقله ، او بامرأته أو بأولاده ، يستطيع ان يجد الوقت لينقل طرفه بلا مبالاة على العالم · ورأى ظلي على الارض ورفع رأسه ، وقال لي :

ـ اية ريح اتت بك في مثل هذه الساعة المبكرة ؟

لكنه رأى وجهي القلق ولا بد ، لانه قال دون ان ينتظر جواباً :

ـ اسرع ، يا بني · لسـت ادري ان كنـت ستجدها حيّة ·· ايه ، المسكينة !

ان السرير العريض الذي خدم كثيراً ، والذي كان اخلص رفيق للسيدة هورتانس ، قد ازيح الى وسط الغرفة الصغيرة فملأها كلها · وفوقه كان يتدلى الغراب ، المستشار الخاص المخلص ، متأملا قلقاً ، بذراعيه الخضراوين ، وقبعته الصفراء ، وعينيه المستديرتين الخبيثتين · كان ينظر الى سيدته الممددة تحته وهي تئن ، ويحني رأسه شبه الانساني معوجاً قليلا لكي يصغي ·

لا ، لا ، انها ليست تنهدات فرح الحب التي يعرفها جيداً ، ولا هديل الحمامة الحنون ، ولا الضحكات المدغدغة · العرق الذي يسيل بشكل قطرات باردة فوق وجه سيدته ، والشعر الذي يشبه الصوف المنفوش ، غير المغسول ، غير الممشط ، الملتصق بالصدغين ، وهذه التقلبات التشنجية في الفراش ، ان الببغاء ليرى هـذا كله للمرة الاولى ، وقلقـه يزداد ، وقد اراد أن يصيـح كانافارو ! كانافارو ! لكن الصوت لم يخرج من حنقه ·

كانت سيدته التعيسة تئن وذراعاها الذابلتان النحيفتـان ترتفعـان وتسقطان فوق الاغطية · انها تختنق · ان رائحة العرق الحادة واللحم الذي

بدأ يتفسخ تفوح منها ، ووجهها غير مخضب ، وشعرها اشعث • وكان نعلاها الباليان المشوهان يخرجان من تحت السرير ، فينقبض القلب لمرآهما • ان هذين النعلين ليبعثان فيك الحزن أكثر مما تبعثه صاحبتهما بالذات •

كان زوربا جالساً عند رأس المريضة ، ينظر الى الحذائين ، لا يستطيع أن يشيح عنهما الطرف • وكان يشد على شفتيه كي يمسك دموعه • ودخلت ، ووقفت وراءه ، لكنه لم يسمعني •

كانت المسكينة تجد صعوبة في التنفس • انها تختنق • وتناول زوربا قبعة مزينة بوردات من القماش ليروّح عنها • كان يهز يده الضخمة بسرعة كبيرة ، وبشكل اخرق ، وكأنه ينفخ فوق فحم رطب علّه يجعله يشتعل •

وفتحت عينيها ، مذعورة ، ونظرت حولها • كل شيء كان مظلماً ، وما كانت لتميز أي شخص ، حتى زوربا الذي كان يمسك بالقبعة ذات الازهار •

كان كل شيء مقلقاً وقاتماً حولها ، وابخرة زرقاء تتصاعد من الثرى وتبدل شكلها وتصبح افواهاً مقهقهة ، وأقداماً ملتفة ، واجنحة سوداء •

وغرزت اظافرها في الوسادة ، الملطخة بالدموع ، واللعاب ، والعرق ، واطلقت صرخة عالية :

ـ لا اريد ان اموت ! لا اريد !

لكن نوّاحتي القرية كانتا قد سمعتا بحالها ، فجاءتا • وانسابتا الى الغرفة وجلستا على الارض ، مسندتين ظهريهما الى الحائط •

ولمحهما الببغاء بعينه المستديرة ، فغضب ، ومد عنقه ، وصاح : « كاناڤ•• » ،لكن زوربا مد يده الى القفص ، مغضباً ، وعاد الطائر الى هدوئه •

ومن جديد تعالت الصرخة اليائسة :

ـ لا أريد ان اموت ! لا أريد !

ومد شابان أمردان اسمران رأسيهما من الباب ، ونظرا بانتباه الى المريضة ، وتبادلا بينهما اشارة تفاهم ورضى ، واختفيا •

وسرعان ما سمعنا في الباحة نقيقاً مذعوراً وخفق اجنحة : لقد كان هناك من يطارد الدجاج •

والتفتت النواحة الاولى ، العجوز مالاماتينيا ، نحو رفيقتها :

ـ أرأيتهم ، ايتها الخالة لينيو ، أرأيتهم ؟ انهم مستعجلون ، وكأنهم يموتون جوعاً ، وسيدقون أعناق الدجاجات ويلتهمونها • ان كل صعاليك القرية قد تجمعوا في الباحة ولن يتأخروا عن الغزو !

ثم تمتمت ، وقد نفد صبرها ، وهي تلتفت نحو فراش المحتضرة :

ـ موتي ، أيتها العجوز ، اسرعي ، اسرعي حتى يتاح لنا الوقت لأخـذ شيء ما ، نحن أيضاً ٠

فقالت الخالة لينيو وهي تزم فمها الصغير الذي تساقطت أسنانه :

« كي أقول لك الحقيقة الحقة ، ايتهـــا الام مالاماتينيا ، كي أقول لك الحقيقة الحقة ، فانهم غير مخطئين ٠٠٠ « اذا كنـت تريديـــن ان تأكلي ، فخذي ، واذا كنت تريدين ان تملكي ، فاسرقي ! » هذا ما كانت تنصحني به امي المرحومة ٠ ليس علينا الا ان نعجل بالندب ، لنلحق بقبضة من الارز ، وقليل من السكر ، وابريق ، ثم نبارك ذكراها ٠ لم يكن لها لا أطفال ولا أهل ، اذن ، فمن الذي سيأكل الدجاج والارانب ؟ من سيشرب خمرها ؟ من سيرث مكباتها كلها ، ، وامشاطها ، وسكاكرهـــا ؟ ايه ! اعترف لك ، ايتهـــا الام مالاماتينيا ، وليسامحني الله ، انني ارغب كل لحظة في ان آخذ ما أستطيعه !

فقالت الام مالاماتينيا وهي تمسك صديقتها من ذراعها :

ـ انتظري ، يا طيبتي ، لا تستعجلي كثيراً ! انا ايضاً ، اقسـم لك ، تراودني الفكرة نفسها ، لكن دعيها تسلم الروح اولا ٠

في تلك الاثناء ، كانت المحتضرة تنقب بعصبية تحت وسادتها ٠ لقـد اخرجت من سبتها ، عندما احست بالخطر ، صليباً من العظم الابيض ، اللامع ، واخذته معها الى فراشها ٠ لقد نسيته تماماً ، سنوات طويلة ، بين قمصـانها الممزقة وأسمالها المخملية ، في اسفل سبتها ، وكأن المسيح ليس الا دواء لا يؤخذ الا في حالة المرض المخطر ٠ وكأن لا فائدة منه ، ما دام الانسان يعيش حياة طيبة ، يأكل ، ويشرب ، ويحب ٠

ووجدت اخيراً المصلوب ، وهي تتلمسه لمساً وضغطته على صدرها المبلل بالعرق ٠ وراحت تتمتم بشوق وهي تعانق عشيقها الاخير :

ـ يا صغيري يسوع ، يا عزيزي الصغير يسو ٠٠٠

وسمعها الببغاء ٠ وشعر بأن لهجة الصوت قد تبدلت ، وتذكر ليـالي الماضي البيضاء ، وانتصب فرحاً ، وصاح بصوت أبح ، وكأنه ديك ينـادي الشمس :

ـ كانافارو ! كانافارو !

ولم يتحرك زوربا ، هذه المرة ، ليدخل صوته الى حلقه ٠ بل نظر الى المرأة التي كانت تبكي وتقبل الاله المصلوب ، في حيـن انتشرت عذوبة غير متوقعة على وجهها المنهك ٠

وانفتح الباب ، ودخل الشيخ انانيوستي بهدوء كبير ، وقبعته في يده ٠

واقترب من المريضة ، وانحنى ، وركع على ركبتيه ، وقال لها :

ـ سامحيني ، يا سيدتي الطيبة ، وسوف يسامحك الله • سامحيني اذا كنت قد وجهت اليك ، ذات مرة ، كلمة قاسية • اننا لسنا قديسين •

لكن السيدة الطيبة كانت الآن ممدة ، ساكنة ، غارقة في استسلام لا يُقهر ، ولم تسمع الشيخ انانيوستي • ان آلامها كلها قد امحت ، الشيخوخة البائسة ، والمهازيء ، والكلمات القاسية ، والليالي الحزينة التي كانت تجلس فيها على عتبة بابها المقفرة تحيك جوارب للفلاحين ، كأية امرأة عادية طيبة وشريفة ، وهي الباريسية الانيقة ، ملكة الاغراء التي لا تقاوم ، والتي جعلت الدول الاربع الكبرى تثب على ركبتيها ، والتي حيَّتها أربعة اساطيل كبرى !

كان البحر ازرق بلون اللازورد ، والامواج تزبد ، والحصون العائمة ترقص ، والأعلام من مختلف الالوان تخفق فوق نواصيها • وتفوح رائحة الحجلان المشوية والسمك المقلي ، و'تحمل الفواكه المبردة في آنية من البلور المنقوش ، وتطير سدادة الشمبانيا حتى سقف المدمرة الحديدي •

لحى سوداء ، وكستنائية ، ورمادية ، وشقراء ، وعطور من اربعة انواع ، ماء الكولونيا ، والبنفسج ، والمسك ، والعنبر ، وتغلق أبواب المقصورة المعدنية ، وتسدل الستائر الثقيلة ، وتضاء الانوار • وتغلق السيدة هورتانس عينيها • ان حياتها الغرامية كلها ، وحياتها القلقة كلها ، آه ! ايتها السيدة ! لم تدم سوى ثانية واحدة •••

وتنتقل من ركب الى ركب ، وتضم ذراعيها على ازياء موشاة بالذهب ، وتدس اصابعها في لحى معطرة كثة • اما الاسماء ، فهي لم تعد تذكرها • انها ، كببغائها ، لا تذكر الا اسم كانافارو ، لانه كان أصغرهم ولأن اسمه هو الوحيد الذي استطاع الببغاء ان يلفظه • اما اسماء الآخرين فكانت معقدة ، صعبة ، ولهذا تبخرت •

وتنهدت السيدة هورتانس بعمق وشدت على المصلوب بقوة • واخذت تتمتم ، هاذية ، وهي تضغطه على ثدييها الذابلين :

ـ يا كانافارو ، يا صغيري كانافارو •••

وتمتمت الخالة لينيو :

ـ لقد بدأت تجهل ما تقوله ••• لا بد انها رأت ملاكها الحارس ، فخافت ••• لنرفع منديلنا ، ولنقترب •

فقالت الام مالاماتينيا :

ـ ألا تخشين الله اذن ؟ هل تريدين ان نبدأ بندبها وهي لا تزال على قيد الحياة ؟

فدمدمت الخالة لينيو بصوت أصم :

ـ ايه ! أيتها الام مالاماتينيا ، بدلا من التفكير بصناديقها وثيابها ، وببضاعة الدكان ، وبالدجاج والارانب ، تحدثينني بأنه يجب أن تسلم الروح اولا ! اسرقي ما امكنك !

وما ان قالت ذلك حتى انتصبت ، وتبعتها الاخرى غاضبة · ورفعتا منديليهما السوداوين ، وشعثتا شعرهما القليل الابيض ، وتشبثتا بأطراف السرير · واعطت الخالة لينيو الاشارة وهي تطلق صرخة طويلة حادة ، تبعث الرعدة :

ـ ولي ·· ي ·· ي ·· ي ·· !

وأسرع زوربا ، وأمسك بالعجوزين من شعرهما وألقى بهما الى الوراء ، وصاح :

ـ اصمتا ، ايتها العجوزان المهذارتان ! ألا تريان انها ما تزال على قيد الحياة ؟ فدمدمت الام مالاماتينيا وهي تعيد عقد منديلها :

ـ يا للشيخ الأحمق ! من اين سقط علينا ايضاً ، هذا الشخص المزعج !

وسمعت السيدة هورتانس ، الجنية العجوز التي قاست كثيراً ، الصرخة الحادة ، فتبخرت الرؤية اللذيذة ، وهوت السفينة القائدة ، واختفى اللحم المحمر والشمبانيا واللحى المعطرة ، وسقطت من جديد فوق سريرها الذي تفوح منه رائحة الموت ، وهي في آخر نفس · وأبدت حركة لتنهض ، وكأنها تريد الافلات ، لكنها سقطت ، ومن جديد هتفت ، بهدوء ، بلهجة مؤسية :

ـ لا أريد أن اموت ! لا أريد !

وانحنى زوربا عليها ، ولمس بيده الضخمة المعروقة جبينها الملتهب ، وأزاح شعرها عن وجهها ، وامتلأت عيناه الصغيرتان بالدموع ، وتمتم :

ـ اصمتي ، اصمتي ، يا طيبتي ، أنا هنا ، زوربا ، لا تخافي !

وها هي الرؤية تعود فجأة ، كفراشة كبيرة لونها بلون البحر ، وغطّت السرير كله · وأمسكت المحتضرة بيد زوربا الضخمة ، ومدت ببطء ذراعها ، ولفتها حول عنقه المحنية · وتحركت شفتاها :

ـ يا كانافارو ، يا صغيري كانافارو ···

وتدحرج المصلوب من فوق الوسادة ، وسقط على الارض وتحطم · وتعالى صوت رجل من الباحة :

ـ ايه ! ايها الصديق ، ضع الدجاجة ، ان الماء يغلي !

كنت جالساً في زاوية الغرفة ، وكانت عيناي ، من حين الى آخر ،

تغرورقان بالدموع • وقلت في نفسي : هذه هي الحيـــاة ، مشوشة ، غير منسجمة ، لا مبالية ، منحطة • بـلا شفقة • ان هـؤلاء الفلاحين الكريتيين البدائيين يحيطون بالمغنية العجوز التي جاءت من أقصى العـــالم ، وينظرون اليها ، وهي تموت ، بفرح وحشـــي ، وكأنهـــا لم تكن ، هي ايضاً ، مخلوقاً بشرياً • وكأن طائراً كبيراً اسطورياً ، مزخرف الالوان ، قد سقط ، كسيــر الجناحين ، على شاطئهم ، فاجتمعوا حوله ليتأملوه • طاووس هرم ، قطـــة عجوز طويلة الشعر ، فقمة مريضة •••

وازاح زوربا بلطف ذراع السيدة هورتانس عن عنقه • ونهض ، شاحباً• ومسح دموعه بظهر يده • ونظر الى المريضة ، لكنه لم يميز شيئاً • لم يكن يرى • ومسح من جديد عينيه ، ورآهـــا عندئذ تحرك قدميهـــا الرخوتيـــن المنتفختين ، وتلوي فمها بذعر • وارتجفت مرة ، واثنتين ، وانسابت الاغطية على الارض ، فبدت ، نصف عارية ، يبللها العرق ، منتفخة ، لونهـــا اصفر مخضر • واطلقت صرخة صغيرة حادة ، ثاقبة ، وكأنها دجاجة تذبح ، ثم رقدت بلا حراك ، عيناها جاحظتان ، مرعوبتان ، مطفأتان •

وقفز الببغاء الى طابق القفص السفلي ، وتشبث بالقضبان ، وتطلع • ورأى زوربا يمد يده الضخمة نحو سيدته ، وبحنان لا نهائي ، يطبق جفنيها •

وهدلت النواحتان وهما تتجهان الى السرير :

هيا ، انتم الآخرين ، ساعدونا قليلا بسرعة ! لقد أسلمت •••

واطلقتا صرخة طويلة ، وهما تهزان رأسيهمـــا من الامام الى الوراء ، وتشدان على قبضاتهما ، وتقرعان صدريهما • وشيئاً فشيئاً ، احدث فيهمـــا هذا الاهتزاز الرتيب الكئيب حالة من حالات الانخطاف الخفيف ، ففزتهمـــا احزان سحيقة القدم كالسم ، وانفجرت قشرة القلب ، وتدفق الندب •

« ليس من اللائق بك ، انت ، ان تمددي تحت التراب ••• » •

وخرج زوربا الى الباحة • كان يريد أن يبكي ، لكنه خجل أمام المرأتين • اذكر انه قال لي ذات يوم : « لست اخجل من البكاء ، كلا ، لكن فقط أمـــام الرجال • لا داعٍ للخجل عندما نكون بين رجال ، أليس صحيحاً ؟ البكاء أمامهم ليس عاراً • لكن أمام النساء ، يجب أن نبدو دوماً شجعاناً•لاننا لو بدأنا نبكي، نحن ايضاً ، فالام تصير اليه هذه التعيسات ؟ ستكون نهاية العالم » •

وغسلوها بالخمر ، وفتحت المكفنة العجوز السبت ، واخرجت منه ثياباً نظيفة ، وبدلتها ، وصبت عليها زجاجة صغيرة من ماء الكولونيا • وجاء مـــن البساتين المجاورة ذباب الموت ووضع بيوضه في منخريها ، وحول عينيهـــا ،

وعند طرفي شفتيها ٠

كان الغسق قد بدأ ينشر ظلمته ، والسماء ، عند المغرب ، قد اكتسبت بعذوبة رائعة ٠ وراحت غيمات صغيرات حمراء متناثرة ، موشاة بالذهب ، تطوف ببطء في بنفسج المساء القاتم ، وتتحول دون انقطاع الى سفن وبجعات ، ووحوش اسطورية مصنوعة من القطن والحرير المزركش ٠ وكان البحر يُرى ، من خلال قصب الباحة ، وهو يقدح الشرر ، هائجاً ٠

وطار غرابان سمينان من فوق شجرة تين وأخذا يذرعان بلاط الباحة ٠ وغضب زوربا ، فأخذ حجراً ، وطردهما ٠

كان صعاليك القرية ، في الزاوية الاخرى من الباحة ، قد بدأوا حفلتهم ، وأخذوا يحطموا كل شيء ٠ لقد اخرجوا مائدة المطبخ الكبيرة ، ونقبوا في كل مكان ، ووجدوا خبزاً ، وصحوناً ، وملاعق ، وجـاءوا من القبو بدن نبيذ ، وطبخوا الدجاجات ، وراحوا ، وقد تملكهم الجوع والمرح ، يأكلون ويشربون ويقرعون كؤوسهم ٠

ـ ليرحمها الله ! وليغفر لها كل ما فعلته !

ـ وليصبح كل عشاقها ، ايها الرفاق ، ملائكة ليحملوا روحها !

وقال مانولاكاس :

ـ انظروا ، ان زوربا الهرم يرمي الغربان بالحجارة ! ها هو الآن ارمل ، لندعه ، لتناول كأس على ذكرى دجاجته ! ايه ، أيها الرفيق زوربا ، ايه أيها المواطن !

والتفت زوربا ٠ ورأى المائدة قد اُعدَّت ، والدجاج في الصحون تتصاعد منه الابخرة ، والخمر في الكؤوس يتلألأ ، وحول المائدة شبان اقوياء لوحتهم الشمس ، عاصبين بالمناديل رؤوسهم ، وقد بانت عليهم اللامبالاة والشباب ٠ وتمتم :

ـ زوربا ! زوربا ! كن رابط الجأش ٠ فهاهنا انتظرك !

واقترب ، وجرع قدح خمر ، ثم قدحاً ثانياً ، وثالثاً ، دفعة واحـدة ، وأكل فخذ دجاجة ٠ كانوا يحدثونه ، لكنه لم يكن ليجيب ٠ كان يأكل ويشرب بعجلة ، وشراهة ، بلقم كبيرة ، وبجرعات طويلة ، صامتاً ٠ وتطلع نحو الغرفة التي ترقد فيها ، بلا حراك ، صديقته العجوز ، واصغى الى الندب الذي كان يأتي من النافذة المفتوحة ٠ ومن حين الى حين ، كان اللحن الجنائزي يتوقف ، وتُسمع صرخات ، كأنها أصوات قتال ، وأبواب خزائن تفتح وتغلق ، ووقع خطى ثقيلة وسريعة ٠ وكأن ثمة من يتخاصم ٠ ومن جديد يعود الندب ، رتيباً ،

يائساً ، عذباً ، كطنين نحلة ٠

كانت النواحتان تجريان ، هنا ، وهناك ، في غرفة الموت ، تنشـــدان رثاءهما وهما تنقبان بعجلة ٠ وفتحتا خزانــة صغيرة ، ووجدتـا فيها خمس ملاعق أو ستاً ، وقليلا مـــن السكر ، وعلبة قهوة ، وعلبة حلوى ٠ وانقضَّت الخالة لينيو ، وأخذت القهوة والحلوى ، وأخذت العجـوز مالاماتينيا السكر والملاعق ٠ وقفزت ، وتلقفت أيضاً قطعتين من الحلوى ، ودستهما في فمها ، وخرج ندبها هذه المرة مخنوقاً ، ذبيحاً ، من خلال المعجنات الحلوة ٠

« لتمطر عليك الازهار ، والتفاح في مئزرك ٠٠٠ »

ودلفت عجوزان الى الغرفة ، واتجهتا نحو السبت ، ومدتا اذرعهمـــا ، وتلقفتا بضعة مناديل صغيرة ، ومنشفتين أو ثلاثاً ، وثلاثة أزواج من الجوارب، ورافعة كلسات ، ودستاها في صدريهما ، واستدارتا نحو الميتة ، ورسمتـــا اشارة الصليب ٠

وشاهدت الام مالاماتينيا العجوزين تنهبان السبت فغضبت ٠ وصرخت بالخالة لينيو :

ــ استمري ، يا عجوزي ، استمري ، انني قادمة !

ودست هي الاخرى رأسها في السبت ٠

أسمال من الاطلس ، وثوب باذنجاني عتيق ، ونعال حمراء صغيرة بالية ، ومروحة مكسورة ، ومظلة قرمزية جديدة ، وفي اسفل السبت قبعـة اميرال مثلثة قديمة ، قدمت لها ذات يوم هدية ، فكانت تضعهـــا ، عنـــدما تكون بمفردها ، وتقف امام المرآة وتتأمل نفسها معجبة برصانة وكآبة ٠

واقترب احدهم من الباب ٠ وانسحبت العجوزان ، وتشبثت الخالة لينيو من جديد بسرير الميتة ، وشرعت تضرب على صدرهـــا صـــارخة : « وازهار القرنفل القرمزية حول عنقك ٠٠٠ » ٠

ودخل زوربا ، ونظر الى الميتة ، الهادئة ، الساكنة ، المصفرة ، المغطـاة بالذباب ، الراقدة متصالبة اليدين ، وحول عنقها شريط المخمـل الصغير ٠ وفكر في نفسه :

« حفنة من التراب ، حفنة من التراب كانت تجوع ، وتضحك ، وتعانق ٠ جبلة من طين كانت تبكي ٠ والآن ؟ أي شيطان يأتي بنـــا الى الارض ، وأي شيطان يأخذنا عنها ! »

وبصق وجلس ٠

في الخارج ، كان الشبان قد تجمعوا في الباحة للرقص ٠ ووصل عازف

القيثارة البارع ، فانوريو ، فأبعدوا الطاولة ، وصفائح البترول ، والبرميل الصغير ، وسلة الغسيل ، وافسحوا مكاناً ، وشرعوا يرقصون ٠

وظهر الاعيان ، العم انانيوستي بعصاه الطويلة المعقوفة وقميصه الابيض العريض ، وكوندومانوليو البدين المكور ، والمعلم ، وقد وضع محبرة ضخمة من النحاس في حزامه ومساكة ريشة خلف اذنه ٠ ولم يكن الشيخ مافراندوني موجودا ٠ لقد ذهب الى الجبال ، واصبح طريد العدالة ٠

وقال الاب انانيوستي وهو يرفع يده :

ـ مسرور برؤيتكم ، ايها الاولاد ! مسرور لانكم تلهون ! كلوا واشربوا ، ليباركم الله ! لكن لا تصرخوا ! يجب الا تفعلوا ذلك ٠ ان الميت يسمع ، يسمع ، أتعلمون !

وشرح كوندومانوليو :

ـ لقد جئنا للكشف عن املاك المرحومة ، لنوزعها على فقراء القرية ٠ لقد أكلتم وشربتم كثيرا ، هذا يكفي ! لا تنهبوا كل شيء ، ايها الاشقياء ، والا ٠٠٠ انظروا الى هؤلاء !

قال ذلك ، وحرك هراوته مهدداً ٠

وظهر ، وراء الاعيان الثلاثة ، حوالي عشر نساء ، شعورهن مشعثة ، اقدامهن عارية ، في الاسمال ٠ وكانت كل واحدة منهن تحمل كيساً فارغاً تحت ذراعها وسلة على ظهرها ٠ وكن يقتربن ، خلسة ، خطوة خطوة ، بصمت ٠

واستدار الاب انانيوستي ، ورآهن ، وانفجر صارخاً :

ـ ايه ! ايتها الهجينات ، الى الوراء ! ماذا ؟ أجئتن للنهب ؟ سوف نسجل هنا جميع الاشياء ، واحداً واحداً ، على ورقة ، ثم سنوزعها بنظام وعدالة بين الفقراء ٠ الى الوراء ! اقول لكن ٠

واخرج المعلم من حزامه محبرته النحاسية الطويلة ، ونشر ورقة كبيرة ، واتجه نحو الدكان الصغير ليبدأ الكشف ٠

لكن في تلك اللحظة سمعت ضجة صماء ، وكأن ثمة احداً يقرع على علب من حديد ، وكأن مكبات تتدحرج ، وفناجين تتصادم وتتحطم ٠ وصدرت من المطبخ جلبة صاخبة من الاباريق والصحون والشوكات ٠

واسرع العجوز كوندومانوليو وهو يهز هراوته ٠ لكن من اين يبدأ ؟ كانت النساء العجائز ، والرجال ، والاطفال ، يمرون من الابواب بلمح البصر ، ويقفزون من النوافذ ، ومن فوق الأسيجة ، ويسقطون على الارض ، وكل يحمل ما استطاع ان يسرقه : مقلايات ، واباريق ، ووسائد ، وارانب ٠٠٠ وكان البعض

قد جرد الابواب والنوافذ من مصاريعها وحملها على ظهره • بل ان ميميتو بالذات ، قد حمل نعلين من نعال المرحومة ، وربطهما بحبل مرره من عنقه ، حتى لكأن السيدة هورتانس تمتطي كتفيه ، فلا يظهر منها سوى حذائيها ••

وقطب المعلم حاجبيه ، واعاد المحبرة الى حزامه ، وطوى الورقة العذراء ، وبدون ان يفوه بكلمة ، وكأن كرامته قد اهينت ، عبر العتبة ومضى •

كان الاب انانيوستي المسكين يصرخ ، ويتضرع ، ويهز عصاه :

ـ انه لعار ، آنه لعار ، كفى ، ان الميتة تسمعكم !

وقال ميميتو :

ـ أيجب ان اذهب لاستدعاء الكاهن ؟

فقال كوندومانوليو غاضباً :

ـ أي كاهن ؟ ايها الاحمق ! انها فرنسية ، ألم ترَ كيف كانت ترسم اشارة الصليب ؟ بأربعة أصابع ، تلك المارقة (١) ! هيا ، لندفنها تحت التراب ، قبل ان تبدأ بالانتان وافساد هواء القرية ! •

وقال ميميتو وهو يرسم اشارة الصليب :

ـ لقد اخذت جثتها تمتلىء بالدود ، انظروا ، اقسم لكم !

وهز الاب انانيوستي رأسه النحيف الذي يبدو عليه مظهر السيد القروي الكبير •

ـ أهذا يبدو لك غريباً ؟ ايها الابله ! في الحقيقة ، ان الانسان مليء بالديدان منذ ان يولد ، لكننا لا نراها • وعندما تتبين ان الجسد بدأ بالانتان ، تخرج من ثقوبها ، بيضاء تماماً ، بيضاء تماماً كدود الجبنة !

وظهرت النجوم الاولى ، وبقيت معلقة في الجو ، مرتعدة ، كأنها اجراس صغيرة من الفضة • ورن الليل كله •

ونزع زوربا قفص الببغاء من فوق سرير الميتة • كان الطير اليتيم قد قبع في احدى الزوايا ، مذعوراً • وراح ينظر بكلتا عينيه ، لكنه لم يكن يفهم • ووضع رأسه تحت جناحيه وتقوقع على نفسه •

عندما انزل زوربا القفص ، انتصب الببغاء • وأراد ان يتكلم ، لكن زوربا مد يده نحوه • وتمتم بصوت ملاطف :

ـ اصمت ، اصمت ، تعالَ معي •

وانحنى زوربا ونظر الى الميتة • نظر اليها طويلا ، وأنفاسه مخنوقة •

---

١ ـ يقصد انها كاثوليكية • (م • م)

وكاد ينحني ويقبلها ، الا انه تمالك نفسه • وتمتم :
ــ أذهبي ، في رحمة الله !
وأخذ القفص وخرج الى الباحة • ورآني واقترب منـي ، وقال بصوت خافت وهو يأخذني من ذراعي :
ــ هيا بنا •••
كان يبدو هادئاً ، لكن شفتيه كانتا ترتجفان • وقلت لأعزّيه :
ــ سنسير جميعاً في الطريق نفسه •••
فقال ساخراً :
ــ يا للعزاء الجميل ! هيا بنا •
قلت :
انتظر ، سوف يأخذونها • انتظر لنرى ••• الا تستطيع ان تثبت الى النهاية ؟
فأجاب بصوت ذبيح :
ــ سأثبت
ووضع القفص على الارض وصلّب ذراعيه •
وخرج من غرفة الميتة ، الأب انانيوستي ، وكوندومانوليـــو ، حاسري الرأس ، ورسما اشارة الصليب • وكان وراءهما ، اربعة مـــن الراقصين ، وردة نيسان ما تزال خلف آذانهم ، نصف سكارى ، يبدو عليهم المرح ، يمسك كل منهم بزاوية من الباب الذي مددت عليه الميتة • وفي الخلف ، يجيء عازف القيثارة مـع آلته ، وعشرة من الرجـال ، شعورهم مشعثة قليلا ، لا يزالون يمضغون ، وخمس نساء او ست ، تحمل كل منهن ابريقاً او مقعداً • وكـان الأخير ميميتو وهو يحمل النعلين الباليين المتدليين من عنقه • وكان يصيـح مازحاً :
ــ القتلة ! القتلة ! القتلة !
كانت ثمة ريح حارة ورطبة تهب ، وغضب البحر • ورفع عازف القيثارة معزفه ، وتدفق صوته غضاً ، مرحاً ، هازئاً ، في الليل الدافيء :
« لماذا ، واشمساه ، قد عجلت بالاختفاء بمثل هذه السرعة ••• » ؟
وقال زوربا :
ــ كفى ! لقد انتهى الامر •••

- ٢٤ -

كنا نسير ، صامتين ، عبر ازقة القرية الضيقة • كانت المنازل المعتمة تبدو كلطخة سوداء ، وفي مكان ما كان ثمة كلب ينبح ، وبقرة تخور • وكانت تصلنا من بعيد ، مع فحيح الريح ، اصوات القيثارة المرحـــة ، وهي تتدفق كمياه عابثة •

وقلت كي احطم جدار الصمت الثقيل :

ــ زوربا ، ما هذه الريح ؟ أريح الجنوب ؟

لكن زوربا كان يمشي في المقدمة ، ممسكاً بقفص الببغاء وكأنه يمســك بفانوس ، ولم يجب • وعندما وصلنا الى الشاطيء ، استدار ، وسألني :

ــ أجائع ، ايها الرئيس ؟

ــ لا ، لست جائعاً ، يا زوربا •

ــ أنعسان ؟

ــ لا •

ــ ولا انا • لنجلس قليلا فوق الحصى • ولدي ما اريد ان اسألك عنه •

كنا ، كلانا ، متعبين ، لكننا لم نكن نريد ان ننام • لم نكن نريـــد أن نفقد سمّ ذلك النهار • ان النوم يبدو لنا وكأنه هرب في ساعة الخطر • وكنا خجلين من الذهاب للنوم •

وجلسنا عند شاطيء البحر • ووضع زوربــا القفص بين ركبتيه وظلّ صامتاً فترة طويلة • وظهرت ، وراء الجبل ، مجموعة قلقة من النجوم ، وكأنها مسخ اسطوري له الف عين ، ذنبه حلزوني الشكل • ومـــن حين الى حين كانت احدى النجوم تنفصل وتهوي •

وتطلع زوربا الى السماء واجداً ، فاغر الفم ، وكأنه يراها للمرة الاولى • وتمتم :

ـ ما الذي يمكن ان يجري هناك عالياً ؟

وبعد لحظة ، قرر ان يتكلم ، وقال بصوت رصين منفعل ، رن في الليل الدافيء :

. هل يمكنك ان تقول لي ، ايها الرئيس ، ماذا تعني هذه الاشياء كلها ؟ من الذي صنعها ؟ لماذا صنعها ؟ وعلى الأخص (وارتجف صوت زوربا غضباً وخوفاً) : لماذا نموت ؟

فأجبت خجلا ، وكأنني أسأل عن أبسط شيء ضروري ، ومع ذلك يستحيل علي ان افسره :

ـ لست ادري ، ، زوربا !

فقال زوربا :

ـ لست تدري !

واستدارت عيناه ، تماماً كما استدارتا في تلك الليلة الاخرى التي اعترفت له فيها انني لا اعرف الرقص .

وظلّ صامتاً لحظة ، ثم انفجر فجأة :

ـ اذن ، فكل تلك الكتب القذرة التي تقرأها ، ماذا تنفع ، قل لي ؟ لماذا تقرأها ؟ واذا كانت لا تجيب عن ذلك ، فماذا تقول اذن ؟

ـ انها تتحدث عن حيرة الانسان الذيلا يستطيع ان يجيب عما يسأل ،يا زوربا .

فصرخ غاضباً وهو يضرب الأرض برجله :

ـ الى الشيطان بحيرتها !

وعند هذه الصرخات المفاجئة ،.قفز الببغاء ، وصاح كأنه يستغيث :

ـ كانافارو ! كانافارو !

فصاح زوربا وهو يضرب القفص بقبضته :

ـ اطبق فمك ، انت !

والتفت نحوي :

ـ انا ، اريد ان تقول لي من اين نأتي والى اين نذهب ؟ لا بد انك بعد هذه السنوات الطويلة التي امضيتها وانت تستهلك نفسك في الكتب ، قد عصرت الفين او ثلاثة آلاف كيلو من الورق ، فأي عصير استخلصته منها ؟

لقد كان صوته قلقاً جداً الى حد ان انفاسي تلاحقت ولهثت . آه ! كم وددت لو أستطيع اجابته !

كنت احس احساساً عميقاً بأنأعلى ذروة يمكن ان يبلغها الانسان ، ليست هي المعرفة ، ولا الفضيلة ، ولا الطيبة ، ولا النصر ، بل شيء اكبر ، واكثر

بطولة ، واشد يأساً : الرعب المقدس ·

وقال زوربا بقلق :

ـ الا تجيب ؟

وحاولت ان أفهم صديقي ما هو الرعب المقدس :

ـ زوربا ، اننا ديدان صغيرة ، ديدان صغيرة جداً تقف على ورقة صغيرة من اوراق شجرة هائلة · وهذه الورقة الصغيرة هي أرضنا · والاوراق الأخرى هي النجوم التي تراها تضطرب في الليل · اننا نسير فوق ورقتنا الصغيرة ونحن نتفحصها بقلق · اننا نشمها ، فتفوح منها رائحة طيبة أو كريهة · نذوقها فنجد فيها الغذاء · نفقز فوقها ، فترن وتصرخ وكأنها كائن حي ·

« بعض البشر ، ممن هم اشجعهم ، يصلون الى حافة الورقة · ومن هناك ، ننحني ، واعيننا جاحظة ، وآذاننا ممدودة ، لمحو الفراغ · ونرتعد · اننا نخزر تحتنا الهوة المرعبة ، ونسمع من بعيد أكثر فأكثر حفيف اوراق الشجرة الهائلة الأخرى ، ونحس بالنسغ يصعد من جذور الشجرة ، وينتفخ قلبنا · وهكذا ، ونحن منحنون على الهاوية ، نأخذ بالارتعاد ، بكل جسدنا ، وبكل روحنا ، رعباً · وبدءاً من تلك اللحظة يبدأ ··· » ·

وتوقفت · كنت أريد ان اقول : بدءاً من تلك اللحظة يبدأ الشعر ، لكن زوربا كان لن يفهم · وصمت ·

وسأل صوت زوربا القلق :

ـ ما الذي يبدأ ؟ لماذا توقفت ؟

ـ ··· يبدأ الخطر الأكبر ، يا زوربا · يصيب الدوار البعض فيهذون ، وآخرون يخافون ، ويجهدون في ايجاد جواب يثبت قلوبهم ، ويقولون : «الله» · وآخرون أيضاً ، ينظرون ، من طرف الورقة ، الى الهوة ، بهدوء وشجاعة ، ويقولون : « انها تعجبني » ·

وفكر زوربا ملياً · كان من الصعب عليه ان يتمكن من الفهم · واخيراً قال :

ـ انا ، انظر كل لحظة الى الموت · انظر اليه ولا اخاف · ومع ذلك فانني لا اقول ابداً ، ابداً : « انه يعجبني » · كلا · انه لا يعجبني مطلقاً ! انني لست موافقاً على ذلك !

وصمت ، لكنه سرعان ما انفجر :

ـ لا ، لست انا الذي سيمد عنقه للموت كخروف ، قائلا له : « اقطع

رأسي ، كي اذهب مباشرة الى الجنة ! » ٠

كنت اصغي الى زوربا ، حائراً ٠ من كان ذلك الحكيم الذي حاول ان يعلم تلاميذه ان ينفذوا عن طواعية ما يأمر به القانون ؟ ان يقولوا « نعم » للضرورة ، ان يحولوا ما لا بد منه الى ارادة حرة ؟ ـ لعل هذا الطريق هو الطريق الانساني الوحيد نحو الخلاص ٠ انه يستدعي الرثاء ، لكن ليس هناك غيره ٠

لكن التمرد ، اذن ؟ قفزة الانسان الدونكيشوتية لقهر الضرورة ، لاخضاع القانون الخارجي لقانون روحه الداخلي ، لنفي كل ما هو كائن ، ولخق عالم جديد ، افضل ، واكثر نقاء واخلاقية ، لخلقه حسب قوانين قلبه ، التي هي نقيض قوانين الطبيعة غير الانسانية ؟

ونظر الي زوربا ، ورأى انه ليس عندي ما اقوله له ٠ وتناول القفص بلطف كي لا يوقظ الببغاء ، ووضعه قرب رأسه ، وتمدّد ٠ وقال :

ـ ليلة سعيدة ، أيها الرئيس ! هذا يكفي ٠

كانت ريح جنوبية حارة تهبّ ، تأتي من هناك ، من افريقيا ٠ ريح تنضج خضار كريت ، وثمارها ، وصدورها ٠ كنت احس بها تمر على جبيني ، وشفتي ، وعنقي ، وكان عقلي يطقطق وينتفخ وكأنه ثمرة ٠

لم اكن استطيع ، ولا اريد النوم ٠ ولم اكن افكر بشيء ٠ كنت احس فقط ، في هذه الليلة الدافئة ، بشيء ما ، بانسان ما ، ينضج فيّ ٠ كنت اعيش بوضوح هذا المنظر المدهش : انني ارى نفسي تتبدل ٠ ان كل ما يجري عادة في اظلم سراديب احشائنا ، كان يجري هذه المرة في وضح النهار ، مكشوفاً ، امام عيني ٠ ورحت وانا جالس على شاطيء البحر ، اراقب المعجزة٠

وكبت النجوم ، وراق اديم السماء ، وفوق هذه الخلفية من النور ، ظهرت الجبال ، والاشجار ، وطيور النورس ، وكأنها رسمت بالريشة باتقان ٠

كان النهار يشرق ٠

* * *

مضت عدة ايام ٠ ان السنابل قد نضجت وحنت رؤوسها الثقيلة بالحب ٠ والزيز ، على اشجار الزيتون ، يشق الهواء ، والحشرات المضيئة تطن في النور المحموم ٠ ومن البحر يتصاعد البخار ٠

كان زوربا يمضي منذ الفجر الى الجبل صامتاً ٠ ان انشاء المصعد يكاد ينتهي ٠ لقد وضعت الاوتاد في مكانها ، ومدت الحبال ، وعلقت البكرات ٠

وكان زوربا يعود عند هبوط الليل ، منهكاً • فيشعل النار ، ويعد الطعام ، ونتعشى • كنا نتفادى ان نوقظ شياطيننا الداخلية المرعبة : الحب ، والموت ، والخوف • ولم نكن لنتحدث عن الارملة ، او السيدة هورتانس ، او الله • كنا ننظر ، صامتين ، الى البحر ، من بعيد •

امام صمت زوربا ، كانت الأصوات الازلية اللامجدية ترتفع في داخلي • ومن جديد امتلأ صدري بالقلق • انني اسأل نفسي باستمرار : ما هذا العالم ؟ ما هدفه وما الذي تستطيع حياتنا الفانية ان تفعله لتبلغه ؟ يزعم زوربا ان هدف الانسان هو ان يفرح بالمادة ، وآخرون يقولون : بالفكر ، وهذا سواء اذا نظر اليه من صعيد آخر • لكن لماذا ؟ من أجل ماذا ؟ وعندما ينحلّ الجسد ، هل يبقى منه شيء مما نسميه روحاً ؟ ام انه لا يبقى منه شي ء، وعندما يكون ظمأنا ، الذي لا يروى له غليل ، الى الخلود ، ناتجاً لا عن كوننا خالدين ، بل عن اننا ، اثناء اللحظة القصيرة التي نتنفس فيها ، نخدم شيئاً ما خالداً ؟

استيقظت ذات يوم واغتسلت • وخيل الي ان الأرض ايضاً قد استيقظت واغتسلت • كانت تتألق وكلها جدة • وسرت في طريق القرية ، الى يساري ، كان البحر الازرق اللازوردي ساكناً ، والى يميني ، من بعيد ، تنتصب حقول القمح ، وكأنها جيوش مسلحة بحراب ذهبية • وتجاوزت تينة الآنسة ، المغطاة بالاوراق الخضر وبتينات صغيرة جداً ، وعبرت بسرعة ، دون ان التفت ، حديقة الارملة ، ودخلت القرية • ان الفندق الصغير مهجور الآن ، مقفر • الابواب والنوافذ تنقصه ، وفي الباحة كلاب تدخل وتخرج ، والغرف فارغة • لم يعد هناك وجود ، في غرفة الميتة ، لسرير ، او سبت ، او مقاعد • لم يبقَ في احدى الزوايا الا شبشب بالٍ ، ممزق ، له طرة حمراء • شبشب مخلص لا يزال يحتفظ بشكل قدم سيدته • ان هذا الشبشب الحقير ، الاكثر شفقة من الروح البشرية ، لم ينس بعد القدم الحبيبة التي طالما تعذبت •

وتأخرت في العودة • كان زوربا قد اشعل النار واخذ يستعد لطبخ الطعام • وما ان رفع رأسه ، حتى أدرك من اين انا قادم • وقطب حاجبيه • وبعد تلك الايام الطويلة من الصمت ، ازاح المصراع عن قلبه في هذه الليلة ، وبدأ يتكلم • وقال كأنه يريد ان يبرر نفسه :

ـ ان الاحزان كلها ، ايها الرئيس ، تشطر قلبي الى قطعتين • لكنه هذا المليء بالندوب ، المثخن بالجراح ، سرعان ما يلتصق على نفسه ، ولا يعود للجرح وجود • انني مليء بالجراح التي تحولت الى مجرد ندوب ، ولهذا

فانني استطيع ان أتحمل الضربات ٠

فقلت بصوت خرج ، على الرغم مني ، قاسياً :

ـ لقد نسيتها بسرعة تلك المسكينة بوبولينا ٠

لكن زوربا غضب ورفع صوته ، وصاح :

ـ طريق جديد ، مشاريع جديدة ! لقد كففت عن التفكير بما جـرى بالامس ، كففت عن التساؤل عما سيجري غداً ٠ ما يجري اليوم ، في هـذه اللحظة ، هذا ما اهتم به ٠ انني : « ماذا تفعل في هذه اللحظة ، يا زوربـا ؟
ـ انني انام ـ اذن ، نم جيداً ! ـ ماذا تفعل في هذه اللحظة ، يـا زوربـا ؟
ـ انني اشتغل ـ اذن ، اشتغل جيداً ! ـ ماذا تفعل في هذه اللحظة ، يا زوربا ؟
ـ انني اعانق امرأة ـ اذن ، عانقها جيداً ، يا زوربـا ، وانس كل الباقي ، فليس في العالم شيء آخر ، ليس فيه الا هي وانت ، هيا ! » ٠

وبعد لحظة :

ـ ان اي كانافارو آخر لم يمنح بوبولينتنا من السعادة ما منحتها انـا الذي يحدثك ، انا زوربا العجوز ، الهرم ٠ ستقول لي لماذا ؟ لان كل امثـال كانافارو في العالم كانوا يفكرون ، في اللحظة التي يعانقونها فيها ، بأسطولهم ، بكريت ، بملكهم ، برتبهم او بامرأتهم ٠ لكنني انـا ، كنت انسى كل شيء ، كل شيء ، وكانت هي ، العاهرة ، تفهم ذلك جيداً ٠ اعلم هذا ، ايها العلامة ، ليس في العالم ما يسعد المرأة اكثر من ذلك ٠ ان المرأة الحقيقية ، استمع الى هذا لتعرف كيف تتصرف ، تتمتع باللذة التي تمنحها اكثر مـن تمتعها باللذة التي تأخذها من الرجل ٠

وانحنى كي يلقم النار حطباً ، وصمت ٠

كنت انظر اليه ، وكان فرحي عظيماً ٠ انني احس ان هـذه الدقائق ، فوق هذا الساحل المقفر ، غنية بسيطة ، ذات قيمة انسانية عميقة ٠ ان عشاء كل ليلة يشبه ذلك الطعام الذي يعده البحارة عندما ينزلون الى شاطيء مقفر ـ من السمك ، والمحار ، والصدف ـ وهو ألذ من أي طعـام آخر وليس لـه مثيل كغذاء لروح الانسان ٠ هنا ، عند نهاية العالم ، كنا نحن ايضاً كفريقين ٠

قلت :

ـ أتذكر ، يا زوربا ، اي طعم ألقيتـه لي في مقهى البيريـه كي أعض الصنارة ؟ ادعيت انك تحسن صنع أشهر انواع الحساء ، وقد شاء حظك ان يكون الحساء ألذ طعام عندي ٠ كيف فهمت ذلك ؟

فهز زوربا رأسه بشيء من الاحتقار :

ــ لست ادري ايها الرئيس ! لقد خطر لي ذلك هكذا • مـــن الشــكل الذي رأيتك جالساً به في زاوية المقهى ، مطمئناً ، متحفظاً ، ومحنياً على كتاب صغير مذهب من جوانبه ــ لست ادري ، قلت في نفسي انك تحب الحساء • لقد خطر هذا هكذا ، أؤكد لك ، وليس من الواجب ان تبحث عن السبب !

وصمت ، واصاخ السمع ، وقال :

ــ اصمت ، هناك شخص قادم !

وسمعنا خطوات مستعجلة ، ولهاث انسان يجري • وفجأة برز أمامنا ، على ضوء النار ، راهب ممزق الثياب ، حاسر الرأس ، بلحية محترقة ، ونصف شارب •

وكانت تفوح منه رائحة بترول نفاذة •

وصرخ زوربا :

ــ ايه ! أهلا بك ، ايها الأب زكريا ! من الذي جعلك على هذه الحالة ؟

وانهار الراهب أرضاً ، قرب النار • كانت ذقنه ترتعد •

وانحنى زوربا عليه وغمز بعينه ، فأجاب الراهب :

ــ نعم •

فصاح زوربا :

ــ مرحى ، ايها الراهب ! من المؤكد الآن انك ستذهب الى الجنة ، حاملا صفيحة الوقود بيدك ، دون ان تلتفت يميناً او شمالا •

فتمتم الراهب وهو يرسم اشارة الصليب :

ــ آمين !

ــ كيف جرى الأمر ؟ متى ؟ حدثني !

ــ رأيت الملاك ميخائيل ، أيها الأخ كانافارو • واصدر الي امراً • اسمع وانظر • كنت بمفردي في المطبخ ، والباب مغلق ، وانـــا اقشر الفاصولـــياء الخضراء • وكان الآباء يصلون صلاة العصر ، وكـــل شيء هادئـــاً ، وسمعت العصافير تغرد وخيل الي انها ملائكة • كنت مطمئناً جداً ، وقد هيـــأت كل شيء ، ورحت انتظر • وقد اشتريت صفيحة من البترول ، وخبأتها في كنيسة المقبرة ، تحت المائدة المقدسة ، كي يباركها الملاك ميخائيل •

« اذن ، البارحة ، بعد الظهر ، كنت اقشر الفاصولياء الخضراء ، ورأسي عامر بالجنة ، وكنت اقول في نفسي : « ايها السيد يسوع ، اجعلني ، انـــا

أيضاً ، استحق ملكوت السماوات ، فأقبل بتقشير الخضار حتى الابـــد في مطابخ الجنة ! » · هذا ما كنت افكر فيه ، ودموعي تنساب · وفجأة سمعت ، فوقي ، خفق أجنحة : « زكريا ، ارفع عينيك ، لا تخـــف ! » · لكنني كنت ارتعد ، وسقطت أرضاً · وقال الصوت من جديد : « ارفع عينيك ، يا زكريا ! » ورفعت عيني ورأيت : كان الباب مفتوحاً ، والملاك ميخائيل واقفاً على العتبة ، كما هو مرسوم على باب المعبد تماماً : بجناحين أسودين ، ونعلين أحمرين ، وخوذة ذهبية · لكنه كان يمسك بمشعل ملتهب بدلا من السيف · وقال لي : « السلام ، يا زكريا ! » · فأجبت : « انني خادم الله ، وانا رهن اوامرك !» · قال : « خذ المشعل وليكن السيد معك ! » · ومددت يدي واحسست براحتي تحترق لكن الملاك كان قد اختفى · ورأيت فقط من الباب لسان نار في السماء، وكأنه نجمة هاوية » ·

وجفف الراهب العرق عن وجهه · لقد شحب لونه · وكانت اسنانـــه تصطك وكأنه محموم ·

وقال زوربا :

ـ ثم ؟ تشجع ، ايها الراهب !

ـ في تلك الاثناء ، أخذ الآباء يخرجون من الكنيسة ويدخلون الى قاعـة الطعام · وبينما كان رئيس الدير ماراً من امامي رفسني برجله وكأنني كلب · واندفع الآباء يضحكون · وبقيت ، انا ، صامتاً · كان الجـو ، منـــذ مرور الملاك ، تفوح منه رائحة اشبه برائحة الكبريت ، لكن لم ينتبه اليها احـــد · وجلسوا الى المائدة · وقال لي المشرف على الطعام : « زكريـــا ، ألا تـــأتي لتأكل ؟ » · لكن فمي ظل مطبقاً ·

« وقال دوميتيوس اللوطي : « خبز الملائكة يكفيه ! » · وضحك الآبـاء ثانية · عندئذ نهضت واتجهت نحو المقبرة · وانكفأت على وجهي عنـد قدمي الملاك · واحسست ، طوال ساعات ، بقدمـه تدوس فـوق رقبتي · ومضى الوقت كالبرق · هكذا تمضي الساعات والعصور في الجنة · وجـاء منتصـف الليل · كان كل شيء هادئاً · وذهب الرهبان للنوم · ونهضت · ورسمـت اشارة الصليب وقبلت قدم الملاك · وقلت « لتكن مشيئتك ! » · وامســكت بصفيحة البترول وفتحتها · كنت قد حشوت ثيابي بالخرق · وخرجـت ·

« كانت الظلمة شديدة · ولم يكن القمر قد أشرق بعد · وكان الديـــر اسود تماماً ، كأنه جهنم · ودخلت الى الباحة ، وصعدت الدرج ، ووصلت الى غرفة رئيس الدير ، وصببت بترولا على الباب ، والنوافذ ، والجـــدران ·

واسرعت الى غرفة دوميتيوس • ومن هناك رحت أبلل الغرف والممر الخشبي الطويل ، تماماً كما بينت لي • ثم دخلت الى الكنيسة ، واشعلت شمعة من قنديل المسيح ، وأضرمت النار » •

وصمت الراهب لاهثاً • واشتعلت عيناه • وزمجر وهو يرسم اشارة الصليب :

« ليتمجد اسم الرب ! ليتمجد اسم الرب ! فقد التهب الدير دفعة واحدة وصرخت : « الى نار جهنم ! » ، وركضت هارباً • كنت اجري بكل قواي ، واسمع الاجراس تقرع ، والرهبان يصرخون •••

« وطلع النهار • واختبأت في الغابة • كانت اسناني تصطك • واشرقت الشمس ، وسمعت الرهبان ينقبون بين الاشجار بحثاً عني • لكن الاله الرحيم القى ضباباً عليّ فلم يروني • وعند الغسق سمعت صوتاً : « انزل حتى البحر ، وانجُ بنفسك ! » فهتفت : « أيها الملاك قدني ! » ، وتابعت السير • لم اكن ادري أين اذهب ، بل كان الملاك هو الذي يقودني ، مرة في شكل برق ، ومرة في شكل طير اسود بين الاشجار ، أو أيضاً في شكل درب نازل • وكنت اجري ما استطعت في اثره ، وثقة كبيرة تغمر قلبي • وهأنذا ، آه يا لطيبة قلبه ! لقد وجدتك ، أيها العزيز كانافارو • لقد نجوت » •

لم يكن زوربا ليتكلم ، لكن انتشرت على طول وجهه ضحكة عريضة ، آسرة ، صامتة ، تذهب من اطراف فمه الى اذنيه الطويلتين المليئتين بالشعر • وسأل :

ــ زكريا ، ما هو « خبز الملائكة » ذاك ؟

فأجاب الراهب وهو يرسم اشارة الصليب :

ــ الروح •

ــ الروح ؟ تعني الهواء ؟ انها لا تغني من جوع ، يا صاح ، تعالَ كلْ خبزاً ، وحساء ، وسمكاً ، وقطعة من اللحم لتشد من عزيمتك • لقد اشتغلت جيداً ، اذن ، كلْ !

فقال الراهب :

ــ لست جائعاً •

ــ زكريا ليس جائعاً ، لكن يوسف ؟

فقال الراهب بصوت خفيض ، وكأنه يكشف عن سر كبير :

ــ يوسف ، اللعين ، قد احترق ، ليتمجد اسم الرب !

فصاح زوربا ضاحكاً :

ـ احترق ! كيف ؟ متى ؟ أرأيته ؟

ـ ايها الاخ كانافارو ، لقد إحترق في اللحظة التي كنت اشعل فيها الشمعة من قنديل المسيح • رأيته بأم عيني يخرج من فمي ، كشريط بأحرف من نار • لقد سقط لهيب الشمعة عليه ، فتلوى كثعبان واستحال الى رماد • يا للراحة ! يخيل الي انني قد دخلت الجنة !

ونهض من قرب النار حيث كان قابعاً •

ـ سأذهب لأنام قرب البحر ، فهذا هو الأمر الذي تلقيته •

وخطا عدة خطوات على الشاطيء ، ثم اختفى •

وقلت :

ـ انك مسؤول عنه ، يا زوربا ، واذا ما وجده الرهبان ، فهو هالك •

ـ لن يجدوه ، لا تهتم ، ايها الرئيس • انني اعرف هذا النوع من قطاع الطريق • غداً صباحاً سألحق به ، واعطيه ثياباً بشرية ، وأركبه البحر • لا تهتم له ، فالأمر لا يستحق ذلك • هل الحساء طيب ؟ كلْ بشهية جيدة خبز البشر ولا تقلق •

وتعشى زوربا بشهية ، وشرب ، ومسح شاربه • انه يرغب الآن في الكلام • قال :

ـ أرأيت ، ان شيطانه قد مات • وها هو الآن فارغ ، فارغ تماماً ، التعيس ، انه هالك ! لقد أصبح الآن كالآخرين •

وفكر لحظة ثم قال فجأة :

ـ أتعتقد ، ايها الرئيس ، ان هذا الشيطان كان •••

فأجبت :

ـ بالتأكيد • لقد سيطرت عليه فكرة حرق الدير ، فأحرقه ، وهدأت نفسه • تلك الفكرة كانت تريد ان تأكل اللحم ، وتشرب الخمر وتنمو ، وتصبح عملا • ولم يكن زكريا الآخر بحاجة الى اللحم او الخمر • فهو قد نما بالصوم •

وقلب زوربا هذا الكلام في رأسه مرة واثنتين •

ـ بحق السماء ! اعتقد انك على حق ، ايها الرئيس ، يخيل الي أن فيَّ خمسة شياطين او ستة !

ـ كلنا فينا شياطين ، يا زوربا ، لا تخف • وكلما كان فينا عدد اكبر ،

كان الامر احسن · يكفي ان يتجهوا جميعاً نحو الهدف نفسه بطرق مختلفة ·

واثارت هذه الكلمات زوربا · فخبأ رأسه الضخم بين ركبتيه ، وراح يفكر · وسألني اخيراً وهو يرفع عينيه :

ـ اي هدف ؟

ـ لست ادري يا زوربا ! انك تسألني اموراً صعبة جداً ، فكيف اشرح لك ؟

ـ قل ذلك ببساطة ، فأفهم · لقد تركت ، انا ، كل شياطيني حرة حتى الآن في ان تفعل ما تريد ، وتسير في الطريق التي يعجبها · ولهذا يدعوني البعض غير شريف ، وغيرهم شريفاً ، وغيرهم مجنوناً ، وغيرهم سليمان الحكيم · انني هذا كله واشياء أخرى ايضاً · صلَة روسية حقيقية · اذن ، أضيء عقلي قليلا اذا كنت تستطيع ، اي هدف ؟

ـ اعتقد يا زوربا ، لكنني قد اكون مخطئاً ، ان هناك ثلاثة انواع من البشر : الذين يحددون هدفاً لهم ان يعيشوا حياتهم ، كما يقولون ، ويأكلوا ، ويشربوا ، ويحبوا ، ويغتنوا ، ويصبحوا مشاهير · ثم ، الذين يحددون هدفاً لهم ، لا لأجل حياتهم الخاصة ، بل حياة جميع البشر · انهم يشعرون ان جميع البشر ليسوا الا واحداً ، ويجهدون في محاولة تفتيح عقولهم ، وحبهم بقدر ما يستطيعون ، ويحسنون اليهم · واخيراً هناك الذين هدفهم ان يعيشوا حياة الكون اجمع : اننا كلنا ، من بشر ، وحيوانات ، ونباتات ، وكواكب ، لسنا الا كلا واحداً ، لسنا الا من جوهر واحد يشن المعركة الرهيبة نفسها · اية معركة ؟ تحويل المادة الى روح ·

وحكّ زوربا رأسه :

ـ ان جمجمتي قاسية ، انني لا أفهم بسهولة ··· آه ! ايها الرئيس ، لو كنت تستطيع ان ترقص كل ما تقوله ، كي افهم !

وعضضت على شفتي مذهولا · لو كنت استطيع ان ارقص كل هذه الافكار اليائسة ! لكنني عاجز عن ذلك ، لقد أسأت استخدام حياتي ·

ـ او لو كنت تستطيع ، آيها الرئيس ، ان تقول لي كل هذا كحكاية · كما كان يفعل حسين آغا · كان تركياً هرماً ، جارنا هرماً جداً ، فقيراً جداً ، بلا زوجة ولا اطفال ، وحيداً تماماً · كانت ثيابه بالية ، لكنها كانت تتألق نظافة · وكان هو الذي يغسلها ، ويطبخ وينظف ارض الغرفة · وعند المساء ، كان يأتي الى بيتنا ، ويجلس في الباحة مع جدتي وعجائز غيرها ، ويحيك الجوارب ·

« لقد كان حسين آغا هذا رجلا قديساً • وذات يوم أخذني على ركبتيه ووضع يده على رأسي كأنه يمنحني بركته ، وقال لي : « الكسيس ، سأسر لك بأمر • انك اصغر من ان تفهم ، لكنك ستفهم عندما تكبر • اصغِ الي ، يا بني : ان الاله الرحيم ، كما ترى ، لا تستطيع طبقات السماء السبع وطبقات الأرض السبع ان تسعه • لكن قلب الانسان يسعه • اذن ، إحذر ، يا ألكسيس ، من ان تجرح ذات يوم قلب الانسان ! » •

كنت اصغي الى زوربا بصمت ، واقول في نفسي : ليتني استطيع ألا افتح فمي الا عندما تبلغ الفكرة المجردة أعلى ذروة لها ، عندما تصبح حكاية ! لكن هذا لا يستطيعه الا شاعر كبير ، أو شعب ، بعد عدة عصور من النضج الصامت •

ونهض زوربا •

ـ سأذهب لأرى ما يصنعه راهبنا الحارق ، وارمي له ببطانية كي لا يصاب ببرد • وسآخذ مقصاً ، فقد يفيده •

وأخذ هذه الاشياء ، وانطلق ضاحكاً ، على طول البحر • كا القمر قد تربع السماء • وراح ينشر فوق الأرض لوناً شاحباً ، مريضاً •

كنت ازن ، وانا بمفردي قرب النار المنطفئة ، كلمات زوربا ، الغنية بالمعنى والفائحة منها رائحة أرض حارة • وكأنها تصعد من اعمق احشائه ، وهي لا تزال محتفظة بالحرارة الانسانية • اما كلماتي ، انا، فكانت من ورق • انها تنزل من رأسي ، لا تكاد تلطخها نقطة دم واحدة • ولو كانت لها قيمة ما ، فانما هي مدينة بها لنقطة الدم هذه بالذات •

كنت ، وانا ممدد على بطني ، انقب في الرماد الحار عندما عاد زوربا فجأة ، متدلي الذراعين ، ذاهلا •

ـ أيها الرئيس ، لا تذهل •••

ونهضت قافزاً • فقال :

ـ لقد مات الراهب •

ـ مات ؟

ـ وجدته ممدداً على الصخرة • كان القمر يضيئه • فركعت وبدأت أقص لحيته وما تبقى من شاربه • كنت اقص ، وافصل ، لكنه لم يتحرك • بل انني وصلت الى الجلد وانا مندفع في عملي • لا بد انني قصصت نصف كيلو من الشعر • عندئذ ، عندما رأيته هكذا ، حليقاً كخروف ، انفجرت ضاحكاً • وصرخت به وانا اهزه : « قل اذن ، أيها السيد زكريا ، استيقظ كي ترى

معجزة العذراء ! » · لكنه لم يتحرك · وهززته مرة أخرى ، لا شيء ! وقلت في نفسي : انه ما كان ليموت ، في مرات سابقة · وفتحت رداءه ، وكشفت عن صدره ، ووضعت يدي على قلبه : لكن ليس هناك تاك تاك ! لا شيء مطلقاً ! ان الآلة قد كفت عن الدوران ·

كان زوربا كلما تكلم ، ازداد مرحاً · لقد خضَّه الموت للحظة ، لكنه سرعان ما اعاده الى مكانه ·

ـ والآن ، ماذا سنفعل ، أيها الرئيس ؟ انا ، من رأيي ان نشعل فيه النار · من يقتل بالبترول ، بالبترول يقتل ، أليس هذا ما يقوله الانجيل ؟ أو تعرف ، تعرف انه بثيابه المتصلبة من الدهن والمبللة بالبترول بالاضافة إلى ذلك ، سيشتعل جيداً مثل يهوذا يوم الخميس المقدس !

قلت مستاء :

ـ افعل ما يحلو لك ·

وغرق زوربا في تأمل عميق ، وأخيراً قال :

ـ انه لأمر مزعج جداً ··· لو وضعت فيه النار ، لالتهبت ثيابه كمشعل ، لكن هو ، المسكين ، ليس لديه سوى الجلد والعظام ! انه سيستغرق زمناً طويلا ، بسبب نحافته ، الى ان يتحول الى رماد · بل ليس فيه اقة شحم واحدة حتى يساعد النار ·

واضاف وهو يهز رأسه :

ـ لو كان الاله الرحيم موجوداً ، الا تعتقد انه كان توقَّع كل هذا ، وخلقه بديناً ، فيه كثير من الشحم ، حتى ينقذنا من هذه الورطة ؟ ما رأيك ؟

ـ لا تزجَّ بي في هذه القصة ، اقول لك · افعل ما يحلو لك ، لكن بسرعة ·

ـ الافضل هو ان تخرج معجزة من كل هذا ! لا بد ان الرهبان سيعتقدون ان الاله الرحيم قد اختار ان يكون حلاقاً ، وانه بعد ان حلق له شعره قتله ليجازيه لكونه أضر بالدير ·

وحك جمجمته :

ـ لكن اية معجزة ؟ اية معجزة ؟ ها هنا أنتظرك ، يا زوربا !

كان الهلال ، وهو على وشك المغيب ، وقد اصبح الآن عند طرف الافق ، ذهبياً ارجوانياً ، كقطعة من معدن حمرتها النار

وذهبت لأنام ، متعباً · وحين استيقظت عند الفجر ، رأيت زوربا

بقربي وهو يعد القهوة • كان شاحباً ، وعينـــاه حمراوين ومنتفختين بسبب سهره طول الليل • لكن شفتيه الغليظتين الشبيهتين بشفتي تيس كانتـــا تبتسمان بخبث •

– لم انم الليل ، أيها الرئيس ، فقد كان عندي شغل •

– أي شغل ، أيها السافل ؟

– كنت اقوم بالمعجزة •

وضحك ووضع اصبعاً على شفتيه :

– لن اقول لك ! غداً سيدشن المصعـــد • سيأتي الكهنـــة المترهلون ليمنحوا البركة ، وعندئذ سيعلم الناس بالمعجزة الجديدة لسيدة الانتقام •

وقدم لي القهوة • وتابع :

– يا صاح ، انني صالح لأن أرأس ديراً • لو فتحت ديراً ، فانني اراهنك على انني سأضطر جميع الاديرة الأخرى الى الاغلاق وسآخذ منها كل زبائنها • أهي الدموع التي تريد ؟ اسفنجة صغيرة ندية وراء الايقونات ، ويأخذ جميـــع قديسيَّ بالبكاء ، أأصوات رعد ؟ سأدسّ تحت المائدة المقدسة آلة ميكانيكيـــة تفرقع • أأشباح ؟ اثنان من رهباني الاوفياء سيطوفون ليلا على اسطحة الدير، متلفحين بالبطانيات • وكل سنة ، سأهيء ، بمناسبة عيد نعمتها ، موكباً من العرجان والعميان والمشلولين يحصلون على النور من جديد ، وينتصبون على اقدامهم ليرقصوا •

« لماذا تهزأ ، أيها الرئيس ؟ لقد وجد عمّ لي بغلا هرمـــاً على وشـــك الموت • كانوا قد تركوه على الجبل ليفطس • فأخذه • وشرع ، كل صباح ، يقوده الى المرعى ، وعند المساء ، يعود بـــه الى بيته ، وكان أهل القريـــة يصيحون به : « ايه ، أيها الأب هارالامبوس ، ماذا تريد ان تفعل بهذا البغل المسن الذي لا حيلة له؟» وكان عمي يجيب: «انني استخدمه كمصنع للروث!»• حسناً ! ايها الرئيس ، انني سأستخدم الدير كمصنع للمعجزات » •

- ٢٥ -

انني لن انسى في حياتي ابداً عشية الاول من أيار تلك . كان المصعد قد أعدّ والأوتاد ، والحبال ، والبكرات ، تلمع تحت شمس الصباح . وجذوع ضخمة من الصنوبر مكومة في قمة الجبل ، وعمال ينتظرون هنــاك عالياً ، اللحظة التي يعلقونها فيها بالحبال ويتركونها تتدحرج نحو البحر .

كان علم يوناني كبير يخفق في أعلى وتد الانطلاق ، فوق الجبل ، وعلم آخر في اعلى وتد الوصول ، على الساحل . وكان زوربا قد وضع أمام الكوخ برميلا صغيراً من الخمر . وكان يقف الى جانبه احد العمال وهو يشوي على السفود خروفاً سميناً ، وكان على المدعوين ، بعــد البركــة والتدشين ، ان يتناولوا كأس خمر ليتمنوا لنا الازدهار .

وكان زوربا قد انزل ايضاً قفص الببغاء ، ووضعه على صخرة الى جانب اول وتد .

وتمتم وهو ينظر اليه بحنان :

ـ كأنني ارى سيدته مكانه .

واخرج من جيبه قبضة من الفستق وقدمها له .

كان يرتدي ثياب العيد : قميصاً ابيض مفكوك الأزرار ، وسترة خضراء ، وبنطالا رمادياً ، وحذائيه المطاطيين الجميلين . وكان ، بالاضافة الى ذلك ، قد طلى شاربه الذي بدأ لونه يبهت .

واسرع يستقبل ، كسيد كبير ، سادة كباراً آخرين ، الاعيان الذيــن كانوا يقدمون ، فيشرح لهم ما هو المصعد ، وما سيستفيد منه البلــد ، وان العذراء القديسة هي التي الهمته فكرة هذا العمل الرائع .

كان يقول :

ـ انه عمل هام . وكان لا بد من أن اجد الميل اللازم . قضية علميــة

تماماً ! واجهدت مخي خلال شهور ، لكن بلا فائدة · ان عقل الانسان ليس كافياً ، للأعمال الكبرى ، ولا بد فيها من معونة الهية · عند ذاك رأتني العذراء القديسة جداً وأنا اكدّ واجهد ، فأشفقت علي ، وقالت ان هذا المسكين ، زوربا ، شخص شجاع طيب ، انه يفعل ذلك لخير القرية ، سأساعده قليلا · ويا للمعجزة !

وتوقف زوربا ورسم اشارة الصليب ثلاث مرات :

ـ يا للمعجزة ! حضرت امامي ، ذات ليلة ، وانا نائم ، امرأة في ثياب سود : كانت العذراء القديسة · وكانت تمسك بيدها سكة حديدية هوائية صغيرة ، ليست اكبر من ذلك · وقالت لي : « زوربا ، انني احمل اليك التصميم · خذ ، اتبع هذا الميل ، ولك بركتي ! » · وما ان قالت ذلك ، حتى اختفت · عندئذ استيقظت واثباً · واسرعت الى حيث كنت اجري تجاربي ، وماذا رأيت ؟ كان السلك قد أخذ من نفسه الميل اللازم ! وكانت تفوح منه رائحة اللبان ، دليلا على ان يد العذراء قد لمسته !

وفتح كوندومانوليو فاه ليطرح سؤالا ، عندما ظهر ، عند أقصى الدرب الوعر ، خمسة رهبان يمتطون بغالا · وكان راهب سادس ، يحمل صليباً كبيراً من الخشب على كتفه ، يركض امامهم وهو يصرخ · ماذا كان يصرخ ؟ لم نكن نستطيع بعد ان نميز ·

وسمعنا تراتيل ، وكان الرهبان يهزون ايديهم ، ويرسمون اشارة الصليب ، والحجارة تقدح شرراً ·

ووصل الراهب الذي كان يسير راجلا الى مقربة منا ، والعرق يسيل منه ·

ورفع صوته عالياً ، صارخاً :

ـ ايها المسيحيون ، المعجزة ! المعجزة ! ايها المسيحيون ، المعجزة ! الآباء يحملون العذراء القديسة جداً · اركعوا على ركبكم ، واعبدوها !

واسرع القرويون منفعلين ـ الاعيان والعمال ـ واحاطوا بالراهب وهم يرسمون اشارة الصليب · ووقفت انا جانباً · ورماني زوربا بنظرة سريعة تقدح شرراً · وقال لي :

ـ اقترب ، انت ايضاً ، ايها الرئيس ، اذهب لسماع العذراء القديسة جداً !

واخذ الراهب يتحدث بعجلة لاهثاً :

ـ اركعوا على ركبكم ، ايها المسيحيون ، استمعوا الى المعجزة ، الآلهية !

استمعوا اليها ، ايها المسيحيون ! لقد أسر ابليس روح زكريا اللعين ، ودفعه ، يوم أمس الأول ، الى رش الدير المقدس بالبترول · وعند منتصف الليل ، شاهدنا ألسنة النار · ونهضنا بسرعة كبيرة · كانت الكنيسة ، والممر ، والغرف ، تلتهب · وقرعنا الاجراس ونحن نصرخ : « النجدة ، يا سيدة الانتقام ! » ، واسرعنا بالجرار والدلاء · وعند الفجر كانت النار قد اطفئت ·

« وذهبنا الى الكنيسة التي تتصدرها ايقونتها العجائبية وركعنا أمامها صارخين : « يا عذراء الانتقام ، استلي رمحك واضربي المجرم ! » · ثم تجمعنا في الباحة ولاحظنا غياب زكريا ، يهوذا الدير · ورحنا نصرخ : « انه هو الذي أحرقنا ، هو ! » وانطلقنا نبحث عنه · وفتشنا طيلة النهار ، ولم نجده ، وفتشنا طيلة الليل ، ولم نجده · واليوم ، عند طلوع النهار ، وذهبنا من جديد الى الكنيسة ، فماذا رأينا ، يا اخوتي ؟ معجزة رهيبة ! كان زكريا ممدداً ، ميتاً ، عند قدمي الايقونة المقدسة ، ورأس رمح العذراء لا يزال ملطخاً بقطرة دم كبيرة ! » ·

وأخذ القرويون المرعوبون يتمتمون :

ـ يا الهي ، ارحمنا !

وتابع الراهب وهو يبلع لعابه :

ـ واليكم ما هو رهيب ايضاً ! عندما انحنينا لنرفع زكريا اللعين ، وقفنا فاغري الافواه : لقد حلقت العذراء شعره ، شاربه ولحيته ـ مثل كاهن كاثوليكي !

والتفتُّ نحو زوربا ، وانا لا أكاد استطيع امساك نفسي عن الضحك ، وقلت له بصوت خافت :

ـ ايها اللص !

لكنه كان ينظر الى الراهب ، جاحظ العينين ، ويرسم اشارات الصليب بندم ، دون توقف ، دلالة على الذهول المطلق · وكان يتمتم :

ـ انك كبير ، ايها السيد ، انك كبير ايها السيد ! ورائعة هي أعمالك ، واثناء ذلك وصل سائر الرهبان ، وحطوا رحالهم ارضاً · كان الأب المضيف يمسك بالايقونة بين ذراعيه · وتسلق صخرة ، واسرع الجميع وهم يتزاحمون ، ليسجدوا أمام العذراء العجائبية · وفي الخلف كان الاب دوميتيوس الضخم ، يلم الصدقات في صينية ، ويرش ماء الورد على جباه الفلاحين الغليظة · وكان ثلاثة رهبان ملتفين حوله ، وقد عقدوا ايديهم المليئة بالشعر على بطونهم ، وقطرات كبيرة من العرق تنسال منهم ، وهم ينشدون التراتيل ·

وقال دوميتيوس الضخم :

ـ سنذهب للقيام بجولة في قرى كريت ، حتى يسجد المؤمنون امـــام « نعمتها » ويأتوا بعطاياهم • اننا بحاجة للمال ، لكثير من المال كي نرمم الدير المقدس •••

فدمدم زوربا : « يا لذوي البطون الضخمة ! انهم سيخرجون من القضية رابحين ايضاً • »

واقترب من رئيس الدير :

ـ ايها الرئيس المقدس ، ان كل شيء معدّ للاحتفال • لتبارك العـذراء القديسة عملنا !

كانت الشمس قد اصبحت عالية ، والجو حاراً جداً ، لا تهبّ فيه نسمة هواء ، واجتمع الرهبـان حـول الوتد المرفوع عليه العلم • وجففـوا جباههم بأكمامهم العريضة وشرعوا ينشدون صلاة « تأسيس المنزل » :

« ايها السيد ، ايها السيد ، ابنِ هذه الآلة على صخرة قوية ، بحيث لا يؤثر بها المطر أو الريح ••• » •

وغمسوا مرشة الماء المقدس في الاناء النحاسيّ ورشوا الاشياء والنـاس ، والوتد ، والحبـــل ، والبكرات ، وزوربا ، وأنا ، ثم الفلاحين ، والعمال ، والبحـر •

وبعد ذلك رفعوا الايقونة ، بحذر شديد كأنهم يرفعون امرأة مريضة ، ووضعوها قرب الببغاء وصنعوا دائرة حولها • ومن الجهــة الاخرى وقـف الاعيان ، وفي الوسط زوربا • اما انا فانسحبت الى مقربة من البحر ، ورحت انتظر •

كانت التجربة ستجري بثلاثة اشجار ، كرمز للثالوث الاقدس • ثـم سيضاف اليها شجرة رابعة دلالة على الاعتراف بالجميل تجاه سيدة الانتقام •

ورسم الرهبان ، والقرويون ، والعمال ، اشارة الصليب ، وتمتموا :

ـ باسم الثالوث الاقدس والعذراء !

وبخطوة واحدة ، كان زوربا قد اصبح قرب الوتد الاول • وسحب الحبل وانزل العلم • وكانت هذه هي الاشارة التي ينتظرها العمال ، هناك في أعلى الجبل • وتراجع جميع الحضور وثبتوا أعينهم على قمة الجبل •

هتف رئيس الدير :

ـ باسم الآب !

يستحيل ان أصف ما جرى بعد ذلك • لقد انفجرت الكارثة كصاعقة •

ولم يكن بين الحضور وبين الهلاك الا ثانية واحدة • فقد ارتج المصعد كله • واندفعت شجرة الصنوبر التي كان العمال قد ربطوها بالحبل بسرعة شيطانية• وقدح الشرر ، وتطايرت قطع من الخشب في الهواء • وعندما وصلت الشجرة الى الاسفل بعد عدة ثوانٍ ، كانت قد استحالت حطبة نصف محترقة •

ورماني زوربا بنظرة كلب تلهبه السياط • وتراجع الرهبان والقرويون الى الوراء بحذر • واخذت البغال المربوطة تلبط • وانهار دوميتيوس الضخم لاهثاً ، وراح يتمتم مذعوراً :

ـ ايها السيد ، ارحمنا !

ورفع زوربا ذراعه ، وقال باطمئنان :

ـ ليس الامر بذي بال • هكذا يحدث دوماً بالنسبة للجذع الاول • اما الآن فان الآلة قد اعتادت ، انظروا !

وأعاد رفع العلم ، واعطى الاشارة من جديد ، وابتعد راكضاً • وصاح رئيس الدير بصوت يرتعد قليلا :

ـ والابن !

ودفع الجذع الثاني • وارتجّت الاوتاد ، وانطلق الجذع • وراح يثب مثل درفيل ، وينقضُّ نحونا انقضاضاً • لكنه لم يذهب بعيداً جداً ، اذ انسحق عند منتصف الجبل •

فدمدم زوربا وهو يعضّ على شاربيه :

ـ ليأخذه الشيطان ! ان هذا الميل اللعين ليس دقيقاً كما يجب !

ووثب نحو الوتد ، وبحركة حانقة ، انزل العلم اشارة الى انزال الجذع الثالث • ورسم الرهبان ، الذين احتموا وراء بغالهم ، اشارة الصليب • وكان الاعيان ينتظرون ، رجلا في الهواء ورجلا على الأرض ، استعداداً للهرب • وتمتم رئيس الدير ، وهو يشمر ثوبه :

ـ والروح القدس !

كان الجذع الثالث ضخماً • وما ان دُفع حتى تعالى هدير مخيف • وزعق زوربا وهو يهرب :

ـ انبطحوا أرضاً ، ايها الاشقياء !

وسقط الرهبان على وجوههم ، وهرب القرويون •

وقفز الجذع قفزة ، ثم سقط على الحبل ، واطلق حزمة من الشرر • وقبل ان يتاح لنا الوقت لنرى اي شيء ، تجاوز الجبل والشاطيء وغاص

بعيداً في البحر ، تاركاً خلفه زبداً عالياً ·

كانت الأوتاد تهتز بشكل يدعو للقلق · ومال كثير منها وقطعت البغال حبالها واطلقت عنانها هرباً ·

وصرخ زوربا بغيظ :

ـ لا شيء ! لا شيء ! لقد تدربت الآلة الآن · الى الامام !

ورفع العلم مرة أخرى وكان واضحاً عليه انــه يائس يستعجل ان يرى كل ذلك منتهياً ·

وتمتم رئيس الدير وهو يطلق ساقيه للريح :

ـ وسيدة الانتقام !

واندفع الجذع الرابع · وتعالت طقطقة مخيفــة ، وتبعتهــا أخرى ، وانهارت كل الاوتاد ، الواحد تلو الآخر ، كقصر من ورق اللعب ·

وهتف العمال والقرويون والرهبان وهم يهربون في كل الاتجاهات :

ـ ايها السيد ، ارحمنا !

واصابت شظية دوميتيوس في ساقه · وكادت شظية أخرى ان تفقأ عين رئيس الدير ، وتوارى القرويون · كانت العذراء بمفردها فقــط لا تزال منتصبة فوق صخرتها ، رمحها في يدها ، تنظر الى الرجال بعينيها الحادتين · والى جانبها ، كان الببغاء المسكين يرتعد ، ميتاً أكثر منه حياً ، وقــد ازبأر ريشه الأخضر ·

واخذ الرهبان العذراء ، وشدوا عليها بين اذرعهم ، ورفعوا دوميتيوس الذي كا ن يئن من الألم ، وجمعوا البغال ، وامتطوها ، وســاروا القهقرى · وكان العامل الذي يشرف على عملية الشواء ، قد ترك ، في لحظــة ذعره ، الخروف الذي أخذ يحترق ·

وصرخ زوربا قلقاً وهو ينقض نحوه ليديره :

ـ ان الخروف سيتحول الى فحم !

وجلست قربه · كان الشاطيء قد اقفر من الجميع ، وبقينا بمفردنـا · واستدار نحوي وحدجني بنظرة قلقة ، مترددة · لم يكن يعرف كيف يواجـه هذه الكارثة ولا كيف ينهي هذه المغامرة ·

وتناول سكيناً ، وانحنى من جديد على الخروف ، واقتطع منه قطعة ، وذاقها ، ثم سحب الحيوان من فوق النار وأسنده منتصباً على ســفوده الى جذع شجرة · وقال :

ـ لقد شوي كما ينبغي ، كما ينبغي أيها الرئيس ! هـــل تريد قطعة صغيرة ؟

فأجبــت :

ـ جيء أيضاً بالخمر والخبز ، فأنا جائع ٠

واندفع زوربا بخفة ، ودحرج الدن الى مقربة من الخـروف ، وجـــاء بقرص خبز ابيض وكأسين ٠

واخذ كل منا سكيناً ، وقطع شريحتين من اللحم ، وقطعاً كبيرة مـــن الخبز ، وأخذ يأكل بشره ٠

ـ أترى كم هو لذيذ ، ايها الرئيس ؟ انه يذوب في الفم ! فهنا ، كمـا ترى ، لا توجد مراعٍ خصبة ، والحيوانات تكلأ العشب الجاف ، لذلك فـان للحمها هذا الطعم اللذيذ ٠ انني لم آكل في حياتي من مثل هذا اللحم اللذيذ الا مرة واحدة٠ اذكر ان ذلك كان في الايام التي طرزت فيها بشعري ايقونة لصوفيا المقدسة ، كنت احملها كتعويذة ٠ لقد رويتها لك ، انها قصة قديمة !

ـ اروها ! اروها !

ـ قصص قديمة ، اقول لك ، أيها الرئيس ! هوس يوناني ، هـــوس جنونـــي !

ـ هيا ، اروِ ، يا زوربا ٠ هذا يعجبني !

ــاذن في ذلك المساء ، طوقنا البلغاريون ٠ كنا نراهم حولنا مـــن كل الجهات على منحدرات الجبل وهم يشعلون النيران ٠ وراحوا ، كي يخيفونا ، يضربون على الصنوج ويعوون كالذئاب ٠ كان عددهم ثلاثمئة ، ولا شك ٠ اما نحن فكنا ثمانية وعشرين ، بالاضافة الى الكابتن « روفاس » ـ ليرحـــم الله نفسه ، ان نفسه ،ان كان قد توفي ، فقد كان فتى جسوراً ! ـ قائدنا ٠ وقال لي : ايه ! زوربا ، ضع الخروف على السفود ! » فقلت : « ان طعمه سيكون ألذ اذا شويناه في حفرة ، أيها الكابتن » ٠ فقال : « افعل كما تشاء ، لـــكن بسرعة ، فنحن جائعون ! » ٠ وحفرنا حفرة ،وملأتها بجلـــد الخـــروف ، ووضعنا طبقة سميكة من الفحم فوقها ، واخرجنا الخبز من زوادتنا ، وجلسنا حول النار ٠ وقال الكابتن روفاس : « لعله آخر خروف نأكله ! هل ثمة مـــن هو خائف هنا ! » ٠ فبدأ الجميع يضحكون ولم يتنازل أي شخص للاجابة ٠ وتناولنا ابريق الماء « في صحتك ، أيها الكابتن ! » ٠ وشربنا جرعة ، وشربنا جرعتين ، واخرجنا الخروفمن الحفرة ٠ آه ! يا صاح ، يا له من خـــروف ،

أيها الرئيس ! ان اللعاب يتصاعد الى فمي ، عندما افكر به ! يذوب في الفم ذوباناً ، كالحلوى ! وارتمينا عليه بأفواه جائعة • وقال الكابتن : « في حياتي لم اذق قط ألذ من هذا اللحم ! ليحمنا الله ! » • ثم جرع كأسه دفعة واحدة ، وهو الذي لم يكن يشرب أبداً • وأمر : « انشدوا انشودة كليفتية ، أيها الأولاد ! انهم يعودون ، هناك ، كذئاب ، اما نحن ، فسوف ننشد كرجال • انشدوا « ديموس الشيخ » ! • وبلعنا بسرعة ، وشربنا أيضاً جرعة أخرى • وارتفع النشيد ، وتعاظم ، يردده صدى الوديان : « لقد هرمت أيها الرفاق ، منذ اربعين سنة وانا كليفتي ••• جذل يحطم كل شيء • وقال الكابتن : « ايه ! ايه ! يا للمرح ! آه لو يدوم ! قل ، الكسيس ، انظر قليلا الى ظهر الخروف ••• ماذا يقول ؟ » • وشرعت اسلخ بالموسى ظهر الخروف ، واقتربت من النار كي أرى بشكل اوضح • وهتفت : « انني لا ارى قبوراً ، أيها الكابتن ، انني لا ارى امواتاً• سننجو بأنفسنا مرة أخرى ايها الرفاق !»• فقال قائدنا الذي تزوج حديثاً : « يسمعك الله • لأتمكن على الاقل من انجاب ولد ، وبعد ذلك ، ليحدث ما سيحدث ! » •

وقطع زوربا شريحة كبيرة من صلب الخروف ، وقال :

ـ لقد كان طيباً ذلك الخروف ، لكن هذا المسكين الصغير ، لا يدين له بشيء !

قلت :

ـ هات لنشرب ، زوربا • املأ الكأسين حتى تطفحا ولنفرغهما !

وبعد ان قرعنا الكأسين ، ذقنا خمرنا ، خمراً كريتياً لذيذاً ، قاني اللون كدم الارنب البري• ان المرء يشعر عندما يشربه، انه يتناول دم الأرض، وانه يصبح غولا • ان الاوردة تطفح بالقوة ، والقلب بالطيبة • والحمل يتحول الى اسد • وتُنسى صغائر الحياة ، وتطقطق الاطارات الضيقة • اننا اصبحنا كلاً واحداً مع الكون ، اذ اتحدنا بالبشر ، بالحيوانات ، بالله • وقلت :

ـ لنرَ نحن أيضاً ما يقوله ظهر الخروف • اذهب ، هيا ، يا زوربا !

وسلخ الظهر بعناية ، وكشطه بسكينه ، وقربه من النور ، وحدق فيه بانتباه • وقال :

ـ كل شيء على ما يرام • سنعيش الف سنة ، ايها الرئيس ، وبقلب كالفولاذ !

وانحنى ، وشرع يفحص من جديد ، وقال •

ـ أرى سفراً ، سفراً كبيراً كبيراً ، وأرى في نهاية السفر منزلا كبيراً ، له أبواب

كثيرة . انها ولا شك عاصمة مملكة ما ، أيها الرئيس . أو بالاحرى الـــدير الذي سأصبح بوابه ، حيث اقوم بقطع الطريق ، كما قلنا .

ـ صبَّ لنا لنشرب ، يا زوربا ، ودع التنبؤات . سأقول لك ، انا ، ما هو هذا المنزل الكبير ذو الأبواب العديدة : انها الأرض بقبورها ، يا زوربا . تلك هي نهاية السفر . في صحتك ، أيها اللص !

ـ في صحتك ، أيها الرئيس ! يبدو لي ان الحظ اعمى . لا يعرف أيـن يذهب ، فيصطدم بالمارة ، ومن يسقط عليه ، يدعونه محظوظاً . الى الشيطان بمثل هذا الحظ ، فنحن لا نريده ، أيها الرئيس ، أليس كذلك ؟

ـ اننا لا نريده ، يا زوربا ، في صحتك !

وشربنا ، واكلنا باقي الخروف . كان العالم يخف وزنه ، والبحـــر يضحك ، والأرض ترتجُ كجسر سفينة ، وطائران من طيور النورس يمشيان على الحصى ، وهما يتحدثان كالبشر .

ونهضت هاتفاً :

ـ تعالَ ، يا زوربا ، علّمني الرقص !

وقفز زوربا ، وقدح وجهه شرراً . وقال

ـ الرقص ، ايها الرئيس ؟ الرقص ؟ هيا ! تعالَ !

ـ هيا بنا ، يا زوربا ، لقد تبدلت حياتي ، تشجَّع !

ـ في البدء ،سأعلمك رقصة زيمبيكيكو . رقصة وحشية ، حربية ، كنا، نحن المتطوعين ، نرقصها قبل المعركة .

وخلع نعليه ، وجوربيه الباذنجانيين ، ولم يحتفظ الا بقميصه . لكنــه كان يضايقه ، فخلعه أيضاً . وأمرني :

ـ انظر الى قدمي ، أيها الرئيس انتبه !

ومد قدمه ، ومس الأرض بخفة ، ومد القدم الأخــرى . واشـــــتبكت الخطا بعنف ، ومرح ، ورنت الأرض .

وشدني من كتفي ، وقال :

ـ هيا ، يا بني ،كلانا معاً !

واندفعنا في الرقص . كان زوربا يصلح اخطائي ، بجديـــة ، وصبر ، وحنان . وتشجعت ، وشعرت كأن أجنحة تنمو في قدمي الثقيلتين .

وصرخ زوربا وهو يصفق بيديه ضبطاً للايقاع :

ـ مرحى ! مرحى يا بني ! الى الشيطان بالقرطاس والمحابر! الى الشيطان

بالاملاك والمصالح ! الآن وقد اصبحت ترقص وتعلمت لغتي ، فما الذي لا نستطيع ان نتفاهم حوله !

ودق الحصى بقدميه ، وصفق بيديه ، وهتف :

ـ أيها الرئيس ، لديّ اشياء كثيرة اقولها لك ، انني لم احب في حياتي شخصاً كما احببتك ، لديّ اشياء كثيرة اقولها لك ، لكن لساني قاصر عن ذلك · اذن فسأرقصها لك ! قف جانباً حتى لا اصدمك ! الى الامام ، هوب ! هوب !

وقفز ، واصبحت قدماه ويداه أجنحة · كان يشبه ، وهو يندفع هكذا ، مستقيماً ، فوق الأرض ، على هذه الخلفية من السماء والبحر ، ملاكاً مسناً متمرداً · اذ ان هذه الرقصة الزوربوية كانت كلها تحدياً ، وعناداً ، وتمرداً · وكأنه يصرخ : « ماذا تستطيع ان تفعل معي ، أيها الفائق القوة ؟ انك لا تستطيع شيئاً ، اللهم الاقتلي · اقتلني ، فأنا غير مبالٍ · لقد افرغت غضبي، وقلت كل ما اردت قوله : لقد اتيح لي الوقت للرقص ، ولم اعد بحاجة اليك ! » ·

وبينما انا انظر الى زوربا يرقص ، فهمت لأول مرة جهد الانسان الخيالي ليقهر الثقالة · لقد اعجبت بتجلده ، وخفته ، وكبريائه · كانت خطى زوربا المحمومة الرشيقة ، ترسم ، على الحصى ، تاريخ الانسان الشيطاني ·

وتوقف ، وتأمل المصعد المنهار الذي تحول الى سلسلة اكداس · كانت الشمس تميل نحو المغيب، والظلال تتمدد·وجحظ زوربا عينيه كأنه تذكر فجأة شيئاً ما · واستدار نحوي ، وبحركة تعوّد عليها ، غطى فمه براحته · وقال :

ـ آه ! آه ! أيها الرئيس ، ما الذي كان يقدحه كالشرر ، هذا اللعين ؟ وانفجرنا ضاحكين ·

والقى زوربا بنفسه علي ، واخذني بين ذراعيه ، وراح يقبلني · وصاح بي بحنان :

ـ أتمزح ، أنت أيضاً ؟ أتمزح ، انت أيضاً ، أيها الرئيس ، مرحى ، يا غلامي !

وبينما نحن نغرب في الضحك ، رحنا نتصارع فترة طويلة ، لاعبين فوق الحصى · ثم تهالكنا أرضاً كلانا معاً ، وتمددنا على الحصباء ، ونمنا ، متعانقين ·

* * *

عند الفجر ، ، نهضت وسرت بسرعة ، على طول الشاطيء ، نحو القرية٠ كان قلبي يثب وثباً ، فقلما شعرت بمثل هذا الفرح في حياتي ٠ بل لم يكن الفرح ، انما غبطة رائعة ، عبثية ، لا تبرير لها ٠ ليس فقط لا تبرير لها ، بل مناقضة لكل تبرير ٠ لقد خسرت هذه المرة مالي كله ، والعمال ، والمصاعد ، والعربات ٠ لقد انشأنا مرفأ صغيراً لتصدير الفحم ، والآن لم يعد عندنا شيء نصدره ٠ كل شيء ضاع ٠

الا انني في تلك اللحظة بالذات شعرت بذلك الاحساس بالخلاص غير المتوقع ، وكأنني اكتشفت بين ثنايا الضرورة القاسية الشكسة ، الحرية لاهيةً في احدى الزوايا ٠ وقد رحت ألهو معها ٠

أي فرح يتملك الانسان ، عندما يسير كل شيء عكساً ، فيعرض روحه للامتحان ليرى اذا كان لها احتمال وقيمة ! وكأن عدواً غير مرئي وفائق القوة ـ البعض يسمونه الله والبعض ابليساً ـ يندفع ليصرعنا ، لكننا نظل واقفين٠ وفي كل مرة ينتصر فيها الانسان الحقيقي داخلياً ، في حين يقهر قهراً تاماً من الناحية الخارجية ، يشعر بكبرياء وفرح لا يمكن التعبير عنهما ٠

انني اتذكر ما رواه زوربا الي ذات مساء : « ذات ليلة ، فوق جبل في ماسيدونيا ، مغطى بالثلج ، هبت ريح مخيفة٠ كانت تهز الكوخ الصغير الذي اختبأت فيه ، تريد ان تقلبه ٠ لكني كنت قد دعمته جيداً ٠ وجلست بمفردي امام المدفأة حيث كانت النار تشتعل ٠ ورحت اضحك واتحدى الريح صارخاً : « لن تدخلي كوخي ، لن افتح لك الباب ، لن تطفئي ناري ، لن تستطيعي قهري ! » ٠

لقد فهمت ، اذ تذكرت كلمات زوربا هذه ، كيف يجب على الانسان ان يتصرف ، واية لغة يجب ان يخاطب بها الضرورة الغاشمة العمياء ٠

كنت اسير بسرعة على الشاطيء واتحدث أنا أيضاً مع العدو غير المرئي ، واصيح : « لن تدخل الى روحي ، لن افتح لك الباب ، لن تطفيء ناري ، لن تستطيع قهري ! » ٠

لم تكن الشمس قد تربعت بعد قمة الجبال ، وكانت الألوان تلهو في السماء وعلى البحر ، ألوان زرقاء ، وخضراء ، ووردية ، ولؤلؤية ، والعصافير الصغيرة تستيقظ ، على اشجار الزيتون ، مغردة ، قد اسكرها النور ٠

كنت أسير بحذاء الماء لأودع هذا الشاطيء المنعزل ، واحفره في ذهني ، واحمله معي ٠

لقد عرفت افراحاً عديدة على هذا الساحل ، وزادت الحياة مع زوربا قلبي اتساعاً ، وحملت بعض كلماته الهدوء الى نفسي · كان هذا الانسان ، بغريزته المعصومة ، وبنظراته البدائية الكاسرة ، يسلك اقصر الطرق وآمنها ، ويصل ، دون ان تلهث انفاسه ، الى ذروة الجهد ، الى ما هو أعلى من الجهد ·

ومرت مجموعة ، من الرجال والنساء ، تحمل سلالا مليئة ، وقناني خمر كبيرة · كانوا ذاهبين الى البساتين ليحتفلوا بالأول من ايار · وتدفق صوت صبية كفوارة ماء وغنى · ومرت بي فتاة صغيرة ، نهد صدرها قبل الاوان ، لاهثة ، والتجأت الى صخرة عالية · وكان يطاردها رجل اسود اللحية ، شاحب ، غاضب · وراح يصرخ بها بصوت أبح :

ــ انزلي ··· انزلي ···

لكن الصغيرة ، الملتهبة الخدين ، رفعت ذراعيها، وصلبتهما وراء رأسها، وراحت تتابع أغنيتها ، وهي تهز جسدها الخضل على مهل :

قله لي مازحاً ، قله لي متدللا ·

قل لي انك لا تحبني ، فأنا لا أهتم بذلك مطلقاً ·

وكان الرجل الملتحي يصيح بها وصوته المبحوح يتضرع ويهدد :

ــ انزلي ··· انزلي ···

وعلى حين غرة ، وثب ، وأمسك بقدمها ، وضغط عليها بعنف ، وانفجرت الفتاة باكية ، وكأنها لم تكن تنتظر الا هذه البادرة الفظة حتى تفرج عن كربها ·

ومضيت بخطى سريعة · كانت هذه الافراح كلها تهيج قلبي · وبرزت الجنية العجوز في ذاكرتي ، بدينة ، معطرة ، قد ارتوت من القبل ، ممددة على الأرض · لا شك في انها قد انتفخت واخضرت ، وتفسخت ، وسالت منها الأخلاط ، وظهرت الديدان ·

وهززت رأسي بقرف · ان الأرض تصبح احياناً شفافة، فنلمح الرئيس الكبير ، الدود ، يعمل ليل نهار في ورشاته تحت الأرض · لكننا نسرع في اشاحة بصرنا ، لأن الانسان يستطيع تحمل كل شيء ، باستثناء مرأى الدود الصغير الأبيض ·

عند مدخل القرية ، صادفت ساعي البريد الذي كان يهم بالنفخ في بوقه · فصاح بي وهو يمد الي بغلاف أزق :

ــ رسالة ، ايها الرئيس !

وانتفضت ، مغتبطاً ، وانا أتعرف الخط الناعم • واجتـــزت القرية بسرعة ، وانتهيت الى غابة الزيتون ، وفتحت الرسالة بنفاد صبر • كانـــت مختصرة ، موجزة ، وقرأتها دفعة واحدة :

« لقد بلغنا حدود جورجيا ، وافلتنا من الاكراد ، وكـــل شـــيء على ما يرام • انني اعرف اخيراً ما هي السعادة • انني الآن فقط استطيع ان افهـــم الحكمة القديمة جداً : السعادة هي ان تؤدي واجبك ، وكلما كان الواجـــب أصعب ، كانت السعادة أعظم ، لأنني أعيشها •

« بعد عدة ايام، ستصل هذه المخلوقات المطارَدة المحتضرة الى «باطوم» ، وقد تلقيت تواً برقية : « لقد ظهرت المراكب الاولى ! » •

« ان هذه الالوف من اليونانيين الاذكياء النشيطين ، مـــع نسائهـــم العظيمات الكشح ، واولادهم الملتهبي العيون ، سوف ينقلـون قريبـــاً الى ماسيدونيا وتراسيا • سوف نحقن اوردة اليونان العجوز بدم جديد قوي •

« لقد تعبت قليلا ، وأنا اعترف بذلك ، لكن ما الضرر ! لقد قاتلنـــا ، ايها المعلم ، ولقد انتصرنا ، فأنا سعيد » •

اخفيت الرسالة ، وحثثت الخطى • كنت سعيداً ، انا ايضاً • وسـرت في درب الجبل الوعر ، وانا أهصر بين اصابعي غصن صعتر مزهراً عبقـــاً • كان الظهر يقترب ، والظل يتكاثف عند قدمي ، أسود ، وحلق صقر عالياً جداً، وكان جناحاه يخفقان بسرعة شديدة حتى انه ليبدو ساكناً • وسمع حجـــل وقع اقدامي ، فاندفع خارج الشوك ورن صوت جناحيه في الهواء •

كنت سعيداً • ولو استطعت ، لغنيت لأعيد الهدوء الى نفسي ، لكني لم أتمكن الا من اطلاق صرخات مبهمة • وسألت نفسي هازئاً : « ماذا بك ؟ هل انت وطني متحمس جداً دون ان تعرف ؟ ام هل تحب صديقك الى هذا الحد ؟ ألا تخجل ؟ تمالك نفسك ، وابق هادئاً » •

لكني تابعت السير في الدرب ، وانا أعوي ، وقد حلـــق بي الفـــرح • وتعالى صوت جلاجل ، وظهرت على الصخور عنزات سود ، سمر ، رمادية ، تسبح في العرق ، بسبب الشمس • وكان يسير ، في مقدمتها ، التيس ، وقد تصلبت رقبته • وملأت الجو رائحته النتنة •

وقفز راعٍ على صخرة وناداني وهو يصفر بأصابعه :

ــ ايه ! ايها الصديق ! أين انت ذاهب ؟ تجري وراء من ؟

فأجبت وانا اتابع الصعود :

ـ عندي عمـــل ٠

فصرخ الراعي من جديد ، وهو يقفز من صخرة الى صخرة :

ـ قف ، تعالَ اشرب شيئاً من اللبن لترطب حلقك !

فصرخت ثانية ، اذ لم اكن اريد ان افقد فرحي ، بالحديث :

ـ عندي عمـــل ٠

فقال الراعي بخيبة :

ـ ايه ! انت تحتقر لبني ! اذن ، رحلة موفقة ، على رسلك !

ووضع أصابعه في فمه ، وصفر لقطيعه ، وبعد لحظات ، اختفى الجميع، العنزات والكلاب والراعي ، وراء الصخور ٠

وبعد قليل بلغت قمة الجبل ٠ وسرعان ما هدأت نفسي ، وكأن هـــذه القمة كانت هدفي ٠ وتمددت على صخرة ، في الظل ، ونظرت الى الســـهل والبحر بعيداً ٠ ورحت استنشق عميقاً الهواء العبق برائحـــة القويســـة والصعتر ٠

نهضت ، وقطفت حزمة قويسة ، وصنعت منها وسادة ، ورقدت ٠ كنت متعباً ، فأغلقت عيني ٠

وطار فكري ، لحظة ، هناك ، نحو الهضاب العالية المغطاة بالثلـــج ٠ وبذلت جهدي لأتصور قطيع الرجال ، والنساء ، والابقار ، المتجـــه نحـو الشمال ، وصديقي يسير في المقدمة ، كالكبش الذي يقود القطيـــع ٠ لـــكن سرعان ما اظلم عقلي ، وشعرت برغبة في النوم لا تقهر ٠

اردت ان اقاوم ، وأن لا أغوص في النعاس ، وفتحت عيني ٠ كان ثمـة غراب قد حط امامي على الصخرة ، فوق قمة الجبل تماماً ٠ كان ريشـــــه الأسود الأزرق يلمع تحت الشمس ، وتبينت بوضوح منقاره الاصفر الكبير ٠ وتملكني الغضب ، فقد تشاءمت من هذا الغراب ٠ واخذت حجراً ورميته به ٠ ونشر الطائر جناحيه ، بهدوء وبطء ٠

واغلقت عيني من جديد ، بعد ان لم اعد استطيع مقاومـــة ، وغلبني النعاس ، دفعة واحدة ، كالصاعقة ٠

ـ لم يكن نومي قد استغرق ثواني ، عندما اطلقت صرخة وانتصبت مرة واحدة ٠ كان الغراب في تلك اللحظة يمر فوق رأسي ٠ واستندت الى الصخرة، وانا ارتعد ٠ ثمة حلم عنيف قد اخترق فكري كضربة سيف ٠

رأيت نفسي في أثينا ، اصعد شارع هرمس ، بمفردي ، كانت الشمس

تتلظى ، والشارع مقفراً ، والمخازن مغلقة ، والعزلة كاملة. وعندما مررت امام كنيسة كابنيكاريا ، رأيت من ساحة « الدستور » ، صديقي يجري ، شاحباً ، لاهثاً . وكان يتبع رجلا فارع الطول ، بالغ النحافة ، يسير بخطى واسعة كخطى مارد . وكان صديقي يرتدي زيه الدبلوماسي الفخم ، ورآني وصاح بي من بعيد ، لاهثاً :

– ايْ ، يا معلم ، كيف حالك ؟ ، منذ قرن لم اشاهدك . تعال هذا المساء ، فسوف نتحدث .

فصحت انا ايضاً ، بقوة عظيمة ، وكأن صديقي بعيد جداً ، وكأن علي ان ارفع صوتي الى اقصى ما استطيع حتى يسمعني :

– الى اين ؟

– الى ساحة الكونكورد ، هذا المساء ، في الساعة السادسة . في مقهى « نبع الفردوس » .

فأجبت :

– حسناً سآتي .

فقال بلهجة فيها تأنيب :

– انت تقول هذا ، انت تقول هذا ، لكنك لن تأتي .

فصحت :

سآتي بالتأكيد ! أعطني يدك !

– انني مستعجل .

– لماذا انت مستعجل ؟ أعطني يدك .

ومد ذراعه ، لكنها انفصلت فجأة عن كتفه ، وجاءت ، مخترقة الفضاء ، لتمسك بيدي .

وذعرت لهذا الاحتكاك البارد ، واطلقت صرخة ، واستيقظت منتفضاً .

وفاجأت آنذاك الغراب محلقاً فوق رأسي . وكانت شفتاي تقطران سماً .

واستدرت نحو الشرق ، وسرحت عيني في الآفق ، وكأنني اريد ان اثقب المدى وأرى ... كان صديقي ، انا واثق من ذلك ، في خطر . وهتفت ثلاث مرات باسمه :

– ستافريداكي ! ستافريداكي !

وكأنني اريد ان ابثه الشجاعة ٠ لكن صوتي ضاع على بعد عدة امتار امامي وتبخر في الهواء ٠

وعدت أدراجي ٠ كنت اتدحرج من الجبل محاولا ، بشدة التعب ، ان ابدل مكان الالم ٠ كان عقلي يحاول عبثاً ان يفك رموز الرسائل الغامضة التي تنجح احياناً في اختراق الجسد وبلوغ الروح ٠ في اعماق كياني ، كان يقين بدائي ، اعمق من العقل ، حيواني يمتلىء بالرعب ، اليقين نفسه الذي تشعر به بعض الحيوانات ، كالخرفان والجرذان ، قبل ان ينفجر زلزال الأرض ٠ واستيقظت في داخلي روح البشر الأوائل كما كانت قبل ان تنفصل نهائيا عن الكون، عندما كانت تحس، مباشرة، ودون تدخل العقل المشوه، بالحقيقة ٠ وتمتمت :

ــ انه في خطر ! انه في خطر ٠٠٠ سوف يموت ٠ لعله نفسه لا يدري ذلك بعد ٠ لكني، انا ، اعرف ، انني واثق ٠٠٠

كنت اهبط الجبل راكضاً ، وتعثرت بكومة حجارة وتدحرجت ، مدحرجاً معي الحصى ٠ ونهضت ، ويداي وساقاي دامية ، كلها خدوش ٠ كان قميصي قد تمزق ، لكني شعرت بنوع من الاطمئنان ٠

كنت اقول في نفسي وانفاسي تختنق : «سوف يموت ! سوف يموت!»٠

يزعم الانسان ، التعيس ، انه قد بنى حول وجوده المسكين الصغير ، حصناً عالياً لا يمكن اقتحامه ، فهو يلتجيء اليه ويحاول أن يجد فيه بعض النظام والأمن ، بعض السعادة ٠ وكل شيء فيه يجب ان يسير في الطرق المعبدة ، حسب الروتين الأقدس ، ويخضع لقوانين بسيطة ومضمونة ٠ وفي هذا المكان المسور المحصن ضد غارات السر العنيفة ، تجرجر القينات الصغيرة ذوات الالف رجل نفسها ، بثقة ٠ وليس ثمة الا عدو واحد رهيب ، يخشاه الانسان ويكرهه حتى الموت ، هو : اليقين الاكبر ٠ وها هو هذا اليقين الاكبر قد اجتاز الآن الجدران العالية وانقضّ على روحي ٠

عندما بلغت شاطئي ، لهثت قليلا ٠ وفكرت : « هذه الرسائل كلها تولد من قلقنا الخاص وتبدو لنا في نومنافي زي الرمز اللامع ٠ ولكن انما نحن الذين نخلقها ٠٠٠ » ٠ واطمأننت قليلا ٠ لقد رد العقل النظام الى قلبي ، وقطع اجنحه الخفاش الغريب ، وشذّبه وقلّمه ، الى ان جعل منه فأرة اليفة ٠

عندما وصلت الى الكوخ ، كنت ابتسم من سذاجتي ٠ كنت خجلاً من ان يكون عقلي قد وقع بمثل هذه السرعة في حبائل الرعب ٠ وسقطت ثانية في

الواقع الروتيني ، فشعرت بالجوع ، والعطش ، واحسست بنفسي منهكاً . وكانت الجروح التي سببتها لي الصخور تحرقني ٠ لكنني كنت اشعر ، على الاخص ، باطمأنان كبير : فالعدو المخيف الذي اجتاز الجدران قد تراجع امام الخط المحصن الثاني لروحي ٠

لقد انتهى الأمر · جمع زوربا الجبال ، والادوات، والعجلات ،والحدائد، وخشب البناء ، وكومها على الشاطيء بانتظار ان يأتي المركب ليحملها ، وقلت :

ـ انني اهديكها ، يا زوربا ، انها لك ، حظ طيب !

وضغط زوربا على حنجرته ، كأنه يريد ان يكبت نحيباً · وتمتم :

ـ أمفترقان ؟ الى أين ستذهب ، أيها الرئيس ؟

ـ انني راحل الى الخارج ، يا زوربا · ان العنزة التي في داخلي لا يزال لديها الكثير من الورق لتقضمه ·

ـ ألم تصلح نفسك بعد ، أيها الرئيس ؟

ـ بلى ، يا زوربا ، بفضلك ، لكنني اسير في الطريق نفسه الذي تسير فيه انت · سأفعل بالكتب ما فعلته انت بالكرز · سآكل الكثير من الورق الى ان اصاب بالقرف ، وعندئذ سأتقيأ واكون قد تحررت ·

ـ وماذا سيحدث لي انا ، بدون رفقتك ، أيها الرئيس ؟

ـ لا تحزن ، يا زوربا ، سنلتقي أيضاً ، ومن يدري ، ان قوة الانسان رهيبة ! سنحقق ذات يوم مشروعنا الأكبر · سنبني ديراً لنا ، دون إله ، دون ابليس ، مع رجال احرار · وستكون ، انت يا زوربا ، على الباب ، ممسكاً بالمفاتيح الضخمة ، مثل القديس بطرس ، لتفتح وتغلق ···

كان زوربا ، وهو جالس أرضاً ، مسنداً ظهره الى الكوخ ، يملأ كأسه ويشرب دون توقف ، ولا يقول شيئاً ·

كان الليل قد ارخى سدوله ، وكان عشاؤنا قد انتهى ، ونحن نتحادث حديثنا الأخير ونشرب · وغداً ، في الصباح الباكر ، سنفترق ·

كان زوربا يقول وهو يشدّ شاربه ويشرب :

– نعم ، نعم ... نعم ، نعم ...

كانت السماء مليئة بالنجوم ، والليل فوقنا يرشح ، شديد الزرقة . وكان قلبنا ، في داخلنا ، يريد ان يندمل ، لكنه كان يتمالك نفسه .

كنت افكر « ودّعه وداعك الأخير ، انظر اليه جيداً ، فعيناك لن تريا زوربا بعد الآن ، مطلقاً ، مطلقاً ! » .

وكدت القي بنفسي على الصدر الهرم وآخذ بالبكاء ، لكني خجلت . وحاولت ان اضحك لأخفي انفعالي ، لكني لم استطع . كان حلقي مخنوقاً .

ونظرت الى زوربا يمد رقبته الشبيهة برقبة طير كاسر ، ويشرب بصمت . كنت انظر اليه وعيناي تغرورقان . ما هو اذن هذا السر الفظ : الحياة؟ان البشر يتلاقون ويفترقون كأوراق الاشجار التي تطردها الريح . وعبثاً يحاول النظر ان يحتفظ بوجه المخلوق الحبيب ، وجسده ، وحركاته . فبعد عدة سنوات لن يذكر ابداً ما اذا كانت عيناه زرقاوين أو سوداوين .

وهتفت في داخلي : « كان يجب ان تكون من البرونز ، كان يجب ان تكون من الفولاذ ، لا من الهواء ، النفس الانسانية ! » .

كان زوربا يشرب ، ورأسه الضخم منتصب مستقيماً ، ساكناً . وكأنه يصغي في الليل الى وقع خطى تقترب او خطى تبتعد في أعماق كيانه .

– بمَّ تفكر ، يا زوربا ؟

– بمَّ تريدني ان افكر ، ايها الرئيس ؟ بلا شيء . بلا شيء ، أقول لك ! انني لا افكر بشيء .

وبعد لحظات ، اضاف ، وهو يملأ كأسه من جديد :

– في صحتك ، أيها الرئيس !

وقرعنا كأسينا . كنا نشعر كلانا ان مثل هذه الكآبة الحادة لا يمكن ان تدوم اطول من ذلك . كان علينا اما ان ننفجر بكاء أو نسكر ، أو نرقص رقصاً جنونياً . واقترحت :

– اعزف ، يا زوربا !

– ان السانتوري ، لقد قلت هذا سابقاً ، ايها الرئيس ، ان السانتوري يريد قلباً سعيداً . لعلي سأعزف بعد ، بعد شهرين ، بعد سنتين ، لست ادري ! سأغني آنذاك كيف يفترق انسانان فراقاً أبدياً .

فصرخت مذعوراً :

– ابدياً !

كنت اردّدها في داخلي ، هذه الكلمة التي لا دواء لها ، لكني لم اكن اتوقع ان اسمعها تُلفظ • فخفت • وكرر زوربا وهو يبلع لعابه بصعوبة :

ـ ابدياً ! نعم ، أبدياً • ان ما تقوله لي الآن ، من اننا سنلتقي ثانية ، وسنبني ديراً ، ليس الا عزاء فظيعاً • انني لا اقبله ! لا اريده ! ماذا ؟ هل نحن نساء لنحتاج الى العزاء ؟ نعم ، ابدياً !

فقلت ، وقد اخافني حنان زوربا المستفرس :

ـ لعلي سأبقى معك ، هنا ••• لعلي أيضاً سآتي معك • انني حر !

فهز زوربا رأسه ، وقال :

ـ كلا ، لست حراً • أن الحبل الذي ربطت به نفسك اطول قليلا من حبل الآخرين • هذا كل شيء • ان لديك ، ايها الرئيس ، حبلا طويلا ، فأنت تذهب، وتأتي ، وتعتقد انك حر ، لكنك لا تقطع الحبل • وعنـــدما يقطع الانسان الحبل •••

فقلت بتحدٍ ، لأن كلمات زوربا قد لمست فيّ جرحاً مفتوحاً ، فتوجعت :

سأقطعه ذات يوم !

ـ هذا صعب ، ايها الرئيس ، صعب جداً • لا بدّ لذلك من شيء من الجنون • الجنون ، أتسمعني ؟ ان تجازف بكل شيء ! لكنّ لك ، انت ، عقلا متيناً ، وسوف يتغلب عليك • ان العقل عطار ، لديه سجلات : دفعت كذا ، ووفرت كذا ، هي ذي ارباحي ، هي ذي خسائري ! انه صاحب دكان صغير حذر • انه لا يقامر بكل شيء ، بل يحتفظ دوماً باحتياطي • انه لا يقطع الخيط، كلا ! انه يمسكه بقوة في يده ، الصعلوك • واذا ما أفلت منه ، فقد هلك ، هلك المسكين ! لكن اذا لم تقطع الخيط ، قل لي ، أية لـــــذة يمكن ان تكون للحياة ؟ ستكون كطعم البابونج ، البابونج الذابل ! وليس كطعم الروم الذي يجعلك ترى الدنيا بالمقلوب !

وصمت ، وصبّ ليشرب ، لكنه بدل رأيه • وقال :

ـ يجب ان تعذرني ، ايها الرئيس ، انني فـــظ • ان الكلمات تلتصق بأسناني التصاق الوحل بالاقدام • انني لا استطيع ان اؤلف جملا حلوة واتصنع المجاملات • لا استطيع • لكنك ، انت ، تفهم •

وافرغ كأسه ونظر الي • وصاح ، وكأن الغضب تملكه فجأة :

ـ انت تفهم ! انت تفهم وهذا ما سيضيعك ! لو كنت لا تفهم ، لكنت سعيداً • ماالذي ينقصك ؟ انت شاب ، ذكي ، عندك مال ، وصحة جيدة ،

وانت فتى شجاع ، لا ينقصك شيء ، بحق الشيطان ! لا ينقصك الا شيء واحد : الجنون · وعندما يكون هذا ناقصاً ، ايها الرئيس ···

وهز رأسه الضخم وصمت من جديد ·

لم يكن بيني وبين البكاء الا بضع ثوان · كان كل ما يقوله زوربا صحيحاً · فعندما كنت طفلا ، كنت كلي اندفاعات مجنونة ، رغبات تتجاوز الانسان ، وكان العالم لا يستطيع ان يحتويني ·

وشيئاً فشيئاً ، مع مر الزمن ، ازددت حكمة · فكنت اضع حدوداً ، وأفصل الممكن عن المستحيل ، والانساني عن الالهي ، وامسك بطيارتي بقوة حتى لا تفلت مني ·

وشقت نجمة ضخمة هاوية كبدء السماء ، فانتفض زوربا ، وجحظ عينيه وكأنه يرى للمرة الاولى نجمة تهوي · وقال لي :

ـ أرأيت النجمة ؟

ـ نعم ·

وصمتنا ·

وفجأة ، نصب زوربا عالياً جداً عنقه النحيفة ، ونفخ صدره وأطلق صرخة وحشية يائسة · وسرعان ما تحولت الصرخة الى كلمات انسانية ، وصعد من احشاء زوربا لحن تركي قديم رتيب ، كله كآبة ووحدة · وتمزق قلب الأرض ، وانتشر السم الشرقي الكثير العذوبة · وشعرت في داخلي بجميع الخيوط التي كانت لا تزال تربطني الى الفضيلة والرجاء تتقطع ·

كان حجلان يغنيان على تل ·

لا تغن ، ايها الحجل ، فألمي وحده يكفيني ، آمان ! آمان ! الصحراء ، الرمل الناعم على مد النظر ، الهواء يرجف ، وردياً ، وأزرق ، وأصفر ، الاصداغ قد تفتحت ، والنفس تطلق صرخة مجنونة وتتهلل لأنه ما من صرخة أخرى تجيبها · وامتلأت عيناي بالدموع ·

وصمت زوربا · وبحركة عنيفة مسح عرق جبينه باصبعه · وانحنى وحدق الى الارض · وسألته بعد برهة طويلة :

ـ ما هذه الأغنية التركية يا زوربا ؟

ـ اغنية الجمال · الاغنية التي ينشدها الحادي في الصحراء · منذ سنوات لم اتذكرها مرة · وهذا المساء ···

ورفع رأسه ونظر الي ، كان صوته جافاً ، وحنجرته يابسة · وقال :

ـ ايها الرئيس ، قد حان ان تذهب لتنام • غداً ، ستستيقظ عند الفجر لتذهب الى كاندي لتستقل المركب • ليلة سعيدة !

فأجبت :

ـ لا أشعر بنعاس • سأبقى معك • انها الليلة الأخيرة التي نقضيها معاً•

فصاح :

ـ لكن لهذا السبب بالذات يجب ان ننتهي منها بسرعة •

وقلب كأسه الفارغة ، اشارة الى انه لا يريد الشرب اكثر من ذلك • هكذا ، هكذا يفعل الرجال الحقيقيون عندما يكفّون دفعة واحدة ، وبشجاعة ، عن تعاطي التبغ ، أو الخمر ، أو القمار •

ـ « يجب ان تعلم هذا : كان والدي شجاعاً ، ليس ثمة من يوازيه شجاعة قط • لا تنظر الي ، فأنا لست جباناً ، ولا اصل الى كعبه • لقد كان ، هو ، من اولئك اليونانيين ايام زمان ••• اذا ما شدّ على يدك هرس عظامك • انا ، استطيع الكلام من حين لآخر ، لكن ابي كان يزمجر ، ويصهل ، ويغني • لم تكن تخرج من فمه كلمة انسانية حقاً الا نادراً •

« حسناً ، كان ، هو ، يعرف جميع الاهـــواء ، لكنه كان يقطعها بضربة سيف • فمثلا ، كان يدخن كمدفأة • وذات صباح ، نهض وذهب الى حقلـــه ليحرث • ووصل ، واستند الى سياج الاشجار ودس يده بحركة محمومة الى حزامه ليخرج كيس تبغه ويلف سيجارة قبل أن يبدأ عمله • وسحب كيس التبغ ••• فوجده فارغاً • لقد نسي ان يملأه في البيت •

« راح يزبد غضباً ويزمجر ، وفجأة ، بقفزة واحدة ، اخذ يجري نحو القرية ، كان الهوس مسيطراً عليه ، كما ترى • لكن اذا به يتوقف فجأة بينما كان يركض ــ الانسان سر ، اقول لك ــ وكله خجل ، وأخذ كيس تبغه ومزقه الى ألف قطعة بأسنانه • وداس عليه ، وبصق فوقه ، وهو يشتم :

« القذرة ! القذرة ! العاهرة

ومنذ تلك اللحظة ، الى آخر ايامه ، لم يضع قط سيجارة واحدة في فمه•

« هكذا يفعل الرجال الحقيقيون ، ايها الرئيس ، ليلة سعيدة » •

ونهض ، واجتاز الفسحة بخطوات عريضة • بل انه لم يستدر • وبلغ أقصى شط للبحر وتمدد على صخرة •

ولم أره ثانية قط • وقبل صياح الديك ، جاء المكار • وامتطيت صهوة البغل ومضيت • انني اشك ولعلي مخطيء ، انه كان ، في ذلك الصباح ،

مختبئاً في مكان ما ينظر الي ارحل ٠ لأنه لم يكن موجوداً على الصخرة ، الا انه لم يركض ليوجه لي كلمات الوداع المعتادة ، كي تتفطر قلوبنا وننوح ، ونلوح بأيدينا وبالمناديل ، ونتبادل الأيمان ٠

لقد افترقنا بضربة سيف ٠

في كاندي ، سلموني برقية ٠ اخذتها ونظرت اليها ملياً ، ويدي ترتعد ٠ كنت أعلم محتواها ، وارى بيقين مرعب عدد ما فيها من كلمات ، ومن احرف ٠

وأخذتني الرغبة في ان امزقها دون ان افتحها ٠ فلمَ أقرأها ، ما دمت اعلم ؟ لكن ليس لنا ثقة بعد ، مع الاسف ، في روحنا ٠ ان العقل ذاك العطار ، يسخر من الروح كما نسخر نحن من البصارات العجائز والساحرات ٠ فتحت اذن البرقية ٠ انها مرسلة من تفليس ٠ ورقصت الحروف ، اللحظة ، أمام عيني ، فلم اميز شيئاً ٠ لكنها ، شيئاً فشيئاً ، سكنت ، وقرأت :

« البارحة ، بعد الظهر ، على إثر التهاب رئوي ، مات ستافريداكي » ٠

* * *

مضت خمس سنين ، خمس سنين طويلة رهيبة ، جرى الزمن فيهـــــا جامحاً ٠ ودخلت الحدود الجغرافية في الرقصة ، وكانت الدول تتباعد وتتلاحم كالأكورديونات ٠ وتملكنا ، لبعض الوقت ، أنا وزوربا ، الغضب ٠ وكنت ، من حين لآخر ، في السنوات الثلاث الاولى ، أتلقى بطاقة موجزة منه ٠

مرة من جبل آتوس ــ بطاقة العذراء ، حارسة الباب ، بعينيها الكبيرتين الحزينتين وذقنها القوية العنيدة ٠ وكان زوربا قد كتب لي ، تحت العذراء ، بريشته الثقيلة الضخمة التي تمزق الورق : « هنا ، لا مجال للقيام بمشاريع الرهبان ، هنا ، يقيدون حتى البرأغيث ٠ سوف أرحل ! » ٠ وبعد عدة أيام ، وصلتني بطاقة أخرى : « لا أستطيع أن اتنقل بين الاديرة ، وأنا احمل بيدي الببغاء كبائع متنقل ، لهذا اهديته الى راهب ظريف علّم شـــحروره أن ينشد كيرياليسون ٠ انه ينشد ، كراهب حقيقي ، اللعين ٠ هذا لا يُصدَّق ! اذن ، فهو سيعلم ايضاً الانشاد لببغائنا المسكين ٠ آه ! كم شــــاهد في حياته ، الظريف ! وها هو الآن قد أصبـح الأب ببغـــاء ! انني اقبلك بمودة ٠ الأب الكسيوس ، الناسك القديس » ٠

بعد ستة او سبعة أشهر ، تلقيت من رومانيا بطاقة تمثل امرأة مليئـــة عارية الكتفين : « انني ما أزال أحيا ، وآكل من الماماليغا ، وأشرب البيرة ، وأعمل في آبار البترول القذر ، المنتن كجرذ بالوعة ٠ لكن ماذا يهم ! انك لتجد

هنا بوفرة كل ما يمكن أن يشتهيه قلب الانسان ومعدته · جنة حقيقية للبحارة الطاعنين في السن أمثالي · أتفهمني ، أيها الرئيس : الحيـــاة الطيبـة ، الدجاجة وبالاضافة اليها الانثى ، ليتمجد الرب ! انني اقبلك بمودة ، الكسيس زوربيسكو ، جرذ بالوعة » ·

ومضت سنتان · وتلقيت بطاقة اخرى ، من الصرب هذه المرة : « انني ما أزال أعيش ، الطقس بارد الى حد مخيف ، ولهذا فقد اضطررت الى الزواج · انظر خلفي لأرى خطمي ، امرأة صغيرة جميلة · بطنها منتفخة قليلا ، لأنها ، كما تعلم تهيء ليزوربا صغيراً · وأنا ، الى جانبها ، أرتدي الثياب التي اهديتنيها والخاتم الذي تراه في يدي ، هو خاتم المسكينة بوبولينا ـ كل شيء يفيد ! لترقد في سلام ! ـ وهي تدعى ليوبا · المعطف ذو فروة الثعلب الذي أرتديه ، هو مهر زوجتي · ولقد أتتني أيضاً بفرس وسبعة خنازير ، من نوع غريب · وبطفلين من زوجها الأول ، لأنني نسيت أن أقول لك ذلك ، فهي أرمل · لقد وجدت في جبل ، قريب من هنا ، مقلع حجارة بيضاء · ولقـــد أغريت أيضاً رأسمالياً · وأنا التهم امواله بهدوء ، مثل باشا · انني اقبلك بمودة ، الكسيس زوربيتش ، الأرمل السابق » ·

وعلى ظهر البطاقة ، صورة لزوربا ، نضراً ، في ثياب عريس جديد ، مع قبعته التي من الفرو ، وعصا صغيرة صمغية ومعطف طويل جديد · وتتعلق بذراعه ، سلافية جميلة في الخامسة والعشرين على الأكثر ، فرس وحشيـــة كريمة الردف ، مثيرة ، عنيدة ، تحتذي جزمتين طويلتين ، ناهدة الصدر · والى الأسفل ، أحرف زوربا الغليظة من جديد ، المكتـــوبة بضربات كضربات المنجل :

« أنا ، زوربا ، والقضية التي لا تنتهي ، المرأة· هذه المرة ، تدعى ليوبا »·

طوال هذه السنوات ، كنت أسافر في الخارج · وكانت لي أنا قضيتي التي لا تنتهي · لكن لم يكن لها صدر ناهـــد ، ولا معطف تعطيني اياه ، ولا خنازير ·

ذات يوم ، في برلين ، تلقيت برقية : « وجدت حجارة خضراء عظيمة ، تعال فوراً · زوربا » ·

كان ذلك في أيام المجاعة الكبيرة في المانيا · كان المارك قد تدنى كثيرا الى حد أن شراء أبسط الاشياء ـ طابع بريد ـ كان يتطلب نقـــل الملايين في حقائب مليئة · المجاعة ، والبرد ، والثياب الممزقة ، والأحذية المهترئة ، والخدود

الالمانية القرمزية التي شحبت • كانت الريح تهب ، وكان الرجال يتساقطون في الشوارع ، كأوراق اشجار • وكان الرضعاء يعطون قطعة مطاط ليمضغوها فلا يبكوا • وفي الليل ، كانت الشرطة تحرس الجسور كي لا تلقي الامهات بأنفسهن منها مع اطفالهن لينتهين من الشقاء •

كان الشتاء ، وكانت تثلج • وفي الغرفة الملاصقة لغرفتي ، كان استاذ الماني ، مستشرق ، يحاول ، كي يتدفأ ، أن يعيد نسخ بعض قصائد صينية قديمة او عبارة لكونفوشيوس ، بواسطة ريشة طويلة ، حسب طريقة الشرق الاقصى الصعبة • كان رأس الريشة ، والمرفق المرتفع ، وقلب العالم تشكل مثلثاً ، وكان يقول لي مسروراً :

– بعد عدة دقائق ، يرشح العرق من تحت ابطي ، وبهذه الطريقة ، أتدفأ•

في أوج أيام المرارة هذه تلقيت برقية زوربا• وفي البدء ، غضبت • بينما كان ملايين الرجال يذلون ويتهاوون لأنهم لا يملكون قطعة خبز واحدة ليسندوا عظامهم وأرواحهم ، كنت اتلقى برقيات تدعوني الى قطع آلاف الكيلومترات لرؤية حجارة خضراء جميلة ! الى ابليس ، بالجمال ! هتفت بذلك، لأن الجمال بلا قلب ، لا يبالي بالألم البشري •

لكني سرعان ما ذعرت : فبعد ان هدأ غضبي ، تبينت باشمئزاز ان على نداء زوربا اللاانساني ذاك ، كان يجيب في داخلي نداء آخر لاانساني • كنت مسكوناً من قِبَل طائر وحشي يخفق اجنحته كي ينطلق •

ومع ذلك ، لم أذهب • لم أصغ الى الصيحة الالهية المفترسة التي كانت تعلو في داخلي ، ولم أتم بعمل مجاني ولامعقول ، واصغيت الى صوت المنطق ، المعتدل ، البارد ، الانساني • فأخذت اذن ريشتي وكتبت لأشرح له •

وأجابني :

« أنت ، مع احترامي لك ، كاتب سفسساف • كنت تستطيع ، انت ايضاً ، ايها الشقي ، أن ترى مرة في حياتك حجارة خضراء جميلة ولم ترها • وبديني، لقد اتفق لي ، عندما لا يكون عندي عمل ، ان أتساءل : « أهناك او ليس هناك جحيم ؟ » • ولكن بالأمس ، عندما استلمت رسالتك ، قلت : « لا بد ان يكون هناك بالتأكيد جحيم ، لبعض الكتاب السفسافين ، أمثالك » •

ومنذ ذلك الحين لم يكتب لي ثانية•ومن جديد ، فصلتنا احداث رهيبة، وتابع العالم ترنحه كجريح، كرجل سكران ، وأضمحلت الصداقات والهموم الشخصية •

كنت غالباً ما أحدث اصدقائي عن تلك النفس الكبيرة · وكنا نعجب بالمشية المتكبرة الواثقة ، فيما وراء العقل ، لذلك الرجل غير المصقول · كانت القمم الروحية التي نحتاج الى سنوات من النضال الشاق لتسلقها ، يبلغها زوربا بقفزة واحدة · وكنا نقول آنذاك : « زوربا نفس كبيرة » · أو كان يتجاوز هذه القمم فنقول : « زوربا مجنون » ·

وهكذا كان يمضي الوقت ، مسموماً بعذوبة بالذكريات · وكان الظل الآخر ، ظل صديقي ، يثقل ايضاً على روحي · ولم يكن يتركني لأنني انا الذي لا يريد تركه ·

لكن عن هذا الظل لم أكن أحدث انساناً · كنت اخاطبه خلسة ، وبفضله، تصالحت مع الموت · كان جسري السري الى الضفة الاخرى · وعندما كانت روح صديقي تعبره ، كنت اشعر بها منهكة شاحبة ، لم يعد فيها قوة لمصافحة يدي ·

احياناً كنت أفكر في ذعر : لعل صديقي لم يتح له الوقت على هذه الارض ليسمو بعبودية جسده الى حرية ، لينشيء روحه ويؤكدها ، كي لا تؤخذ ، في اللحظة النهائية الفاصلة ، برعب الموت وتفنى · كنت أفكر : لعل الوقت لم يتح له ليخلد ما كان فيه قابلا للخلود ·

لكنه كان بين الحين والآخر يتمالك قواه ــ أو لعلي انا الذي كان يذكره فجأة بحنان اعظم ؟ ــ فيأتي عندئذ وقد عاد اليه شبابه وتطلبه ، بل كان يخيل اليّ أنني أسمع وقع خطاه على الدرج ·

لقد قمت ، في هذا الشتاء ، بمفردي بحج الى جبال آنغاوين العالية ، حيث كنا امضينا ، أنا وصديقي ، مع امرأة نحبها ، ساعات لذيذة ·

كنت راقداً في الفندق نفسه الذي نزلنا فيه آنذاك · وكنت نائماً · وكان القمر يتسلل من النافذة المفتوحة ، فأشعر في عقلي النائم بجبال تدخل ، وبصنوبرات مكللة بالثلج ، وبالليل الازرق العذب ·

وأحسست بغبطة لا توصف ، وكأن النوم بحر عميق ، هاديء وشفاف ، وكأنني ممدد في حضنه ، ساكناً سعيداً · وكانت حساسيتي شديدة الى حد ان مركباً ماراً على سطح الماء ، على علو آلاف الامتار فوقي ، كان باستطاعته ان يحز جسدي ·

وفجأة سقط ظل علي . وأدركت من هو . ورنّ صوته ، مليئاً بالتأنيب :

ـ أتنام ؟

فأجبت باللهجة نفسها :

ـ لقد اطلت انتظاري لك . فمنذ شهور لم أسمع جرس صوتك . أين كنت تتسكع ؟

ـ أنا دائماً الى قربك ، لكنك انت الذي ينساني . أنني لا املك دوماً القوة على النداء ، وانت تسعى الى هجراني . ضوء القمر ، هذا شيء رائع ، وكذلك الأشجار المكللة بالثلج ، والحياة على الارض . لكنك ، ارجوك ، لا تنسني !

ـ أنا لا أنساك مطلقاً ، وانت تعلم ذلك حق العلم . في الايام الاولى من تركك لي ، كنت أجتاز الجبال الوعرة ، وأنهك جسدي ، وأمضي الليالي دون نوم وأنا أفكر بك . بل لقد قرضت اشعاراً كي لا اختنق . لكنها كانت اشعاراً حقيرة لا تخلصني من ألمي . وثمة قصيدة منها تبدأ هكذا :

« بينما كنت تسير الى جانب الموت ، كنت أعجب بقامتك وبمرونتكما كليكما على الدرب الوعر .

كرفيقين يستيقظان عند الفجر ويذهبان . »

« وفي قصيدة اخرى ، غير منتهية هي أيضاً ، أصيح بك :

« شد على أسنانك ، واحبيباه ، كي لا تطير روحك ! »

وابتسم بمرارة . وأمال وجهه علي وارتعدت اذ تبينت شحوبه .

ونظر اليّ ملياً بمحجريه الاجوفين اللذين لم تعد فيهما عينان . بل مجرد كرتين صغيرتين من التراب . وتمتمت :

ـ بمَ تفكر ؟ لمَ لا تتكلم ؟

ومن جديد رن صوته كتنهدة بعيدة :

ـ آه ! ماذا يبقى لنفس كان العالم بالنسبة لها صغيراً جداً ! بضعة أشعار لشخص آخر ، متفرقة ومبتورة ، لا تشكل حتى رباعية كاملة ! انني اتسكع على الأرض ، وازور الذين كانوا اعزاء علي ، لكن قلبهم قد انغلق على نفسه . من اين ادخل ؟ كيف اعيد الحياة لنفسي ؟ انني ادور في حلقة مفرغة ككلب حول منزل موصد الابواب . آه ! لو كنت استطيع ان اعيش حراً ، دون ان اتشبث ، كغريق ، بأجسادكم الحارة الحية !

وانبجست الدموع من عينيه ، واستحالت الأرض الى طين من كثرتها .

لكن سرعان ما عاد صوته واثقاً من نفسه ، وقال :

ـ اعظم فرح وهبتني اياه ، كان ذلك ذات مرة ، يوم عيدي ، في زوريخ ، أتذكر ؟ عندما رفعت كأسك لتشرب نخب صحتي · أتذكر ؟ كان هناك شخص آخر معنا ···

فأجبت :

ـ انني اذكر ، الشخص الذي كنا ندعوه سيدتنا ···

وسكتنا · كم من قرون مرت منذ ذلك الحين ! في زوريخ ، وكانت تثلج في الخارج ، وأزهار على المائدة ، وكنا ثلاثة · وسأل الشبح في سخرية خفيفة:

ـ بمَ تفكر ، أيها المعلم العزيز ؟

ـ بأشياء ، كثيرة ، بكل ···

ـ اما أنا ، فأفكر بكلماتك الأخيرة · لقد رفعت كأسك ولفظت هذه الكلمات ، بصوت مرتعد : « صديقي ، عندما كنت طفلا رضيعاً ، كان جدك الهرم يضعك على احدى ركبتيه ، وعلى الأخرى كان يضع القيثارة الكريتية ويعزف الحاناً يونانية قديمة · انني أشرب هذا المساء نخب صحتك : ليعمل القدر على ان تكون دوماً جالساً على هذا النحو على ركبتي الله ! »

ـ لقد استجاب الله بسرعة كبيرة لصلاتك !

فهتفت :

ـ ماذا يهم ! ان الحب أقوى من الموت ·

وابتسم ، بمرارة ، لكنه لم يقل شيئاً · كنت أشعر بجسده ينحلُ في الظلمة ، ويصبح نحيباً ، وتنهداً ، وسخرية ·

وطوال أيام ظل طعم الموت على شفتي · لكن قلبي قد اطمأنّ · فقد دخل الموت الى حياتي بوجه معروف حبيب ، كصديق جاء ليأخذنا ، ينتظر في زاوية ان ننهي عملنا ،دون ان يفقد الصبر ·

لكن ظلَّ زوربا كان يجول حولي دوما ، في غيرة ·

وذات ليلة ، كنت بمفردي في المنزل على شاطيء البحر ، في جزيرة ايجين · وكنت أشعر انني سعيد · وكانت النافذة المطلة على البحر مفتوحة على مصراعيها ، والقمر يدلف منها ، والبحر يتنهد ، سعيداً هو أيضاً · وكان جسدي الذي تملكه التعب اللذيذ من كثرة السباحة ، ينام نوماً عميقاً ·

وها هو زوربا ، وسط هذهالسعادة العظيمة ، يبرز في حلمي عند الفجر ٠ انني لا أذكر ما قاله ، ولا لماذا جاء ٠ لكن عند يقظتي ، كان قلبي على وشك الانفجار ٠ ودون أن ادري السبب ، امتلأت عيناي بالدموع وسرعان ما تملكتني رغبة لا تُدفع في ان 'أعيد تكوين الحياة التي عشناها معاً على الساحل الكريتي، وأن 'أرغم ذاكرتي على التـذكر ، وعلى جمـع كل الكلمـات ، والصيحـات ، والحركات ، والضحكات ، والدموع ، والرقصات التي قام بها زوربا لانقاذها ٠

وكانت هذه الرغبة عنيفة جداً الى حد انني خفت ان أرى فيها اشارة الى ان زوربا في مكان ما على الأرض ، في هذه الأيام ، يحتضر ٠ ذلك انني كنت اشعر بروحي متحدة بروحه بقوة ، الى حد كان يبدو لي معه ان من المستحيل ان تموت واحدة منهما دون ان تهتز الأخرى وتصرخ ألماً ٠

وترددت لحظة في جمع كل الذكريات التي تركها زوربا ، وفي صياغتها في كلمات ٠ واستولى علي خوف طفولي ٠ كنت أقول في نفسي : « اذا فعلت ذلك ، فهذا معناه ان زوربا يواجه حقاً خطر الموت ٠ يجب ان اقاوم اليد التي تدفع يدي » ٠

وقاومت يومين ، وثلاثة ، واسبوعاً ٠ وغرقت في كتابات اخرى ، وقمت برحلات ، وقرأت كثيراً ٠ وبمثل هذه الحيل ، كنت احاول خـداع الحضـور اللامرئي ٠ لكن عقلي بأكمله كان يتركز في قلق ثقيل على زوربا ٠

وذات يوم ، كنت جالساً على سطح منزلي ، فوق البحر ٠ وكان الوقت ظهراً ، والشمس تحترق ، وانا أنظر امامي الى سفوح سالامين العارية الأنيقة ٠ وفجأة ، تناولت ، مدفوعاً باليد اللامرئية ، ورقاً ، وتمددت على بلاط السطح المحرق وبدأت اسجل أفعال زوربا وحركاته ٠

كنت اكتب بحدة ، واحيي الماضي بسرعة ، واحاول ان اتذكر وابعث زوربا كله ٠ وكأنني اعتبر انه ، اذا ما اختفى زوربا ، فأنا المسؤول ٠ كنت اعمل اذن ليل نهار لأثبت وجهه كما هو ٠

وفي بضعة اسابيع كانت أسطورة زوربا الذهبية قد اكتملت ٠

في ذلك اليوم ، كنت ما ازال جالساً ، عند نهاية بعـــد الظهر ، على

السطح ، انظر الى البحر · وكان المخطوط المنتهي على ركبتي ، وكنت أشعر بالفرح والطمأنينة ، كأن حملا ثقيلا قد ازيح عن كاهلي · كنت اشبه بامرأة وضعت مؤخراً ، تمسك بطفلها الوليد بين ذراعيها ·

وراء جبال البيلوبونيز ، كانت الشمس تأفل ، حمراء · وصعدت سولا ، وهي فلاحة صغيرة تحمل الي البريد من المدينة ، الى السطح · وناولتني رسالة وانصرفت راكضة · وفهمت أو خيِّل الي ، على الاقل، انني فهمت، لانني عندما فتحت الرسالة وقرأتها ، لم انتصب لأطلق صرخة ، ولم يذهلني الخوف · كنت واثقاً · وكنت أعلم انني ، في تلك الدقيقة المحددة التي وضعت فيها على ركبتي المخطوط المنتهي ورحت انظر الى البحر ، كنت في سبيلي الى استلام هـــذه الرسالة ·

وبهدوء ، ودون عجلة ، قرأتها · انها قادمة من قرية قرب سكوبليج ، في الصرب ، ومكتوبة بلغة ألمانيه ركيكة · وها انا أترجمها :

« انني معلم القرية ، واكتب لك لأعلمك بالنبأ المحزن ، وهو ان الكسيس زوربا ، الذي كان يملك هنا مقلعاً للحجارة البيضاء ، قد توفي يوم الاحـــد الماضي ، في الساعة السادسة بعد الظهر · واثناء احتضاره ناداني وقال لي :

« ــ تعال هنا ، يا معلم المدرسة · لي صديق فلان ، في اليونان · عندما أموت ، أكتب له أنني حتى اللحظة الاخيرة كنت محتفظاً بكامل عقلي ، وأفكر به ، وانني لا آسف البتة على ما فعلته ، وليعش في صحة جيدة · وليعلم انه قد حان الوقت بالنسبة له ليصبح منطقياً ·

« ــ اسمع ايضاً · أذا جاء كاهن ليعرِّفني ويناولني القربان المقدس ، فقل له ان يهرب بسرعة وان يمنحني لعنته ! لقد فعلت اشياء واشياء في حياتي، واعتقد ان ما فعلته ليس بكافٍ · ان الرجال امثالي يجب ان يعيشوا ألف سنة · ليلة سعيدة !

« وكانت هذه آخر كلماته · وبعد ذلك ، اتكأ على وسادته ، ورمـــى اللحاف ، واراد ان ينهض · وركضنا لنسنده ، ليوبا زوجته ، وأنا ، وبعض الجيران الاقوياء · لكنه أبعدنا فجأة ، وقفز من السرير ، وذهب حتى النافذة · وهناك ، تشبث بالفرجة ، ونظر بعيداً نحو الجبال ، وجحظ عينيه وأخـــذ يضحك ، ثم يصهل كجواد · وهكذا ، وهو واقف ، واظـــافره مغروزة في

النافذة ، اسلم الروح ٠

« زوجته ، ليوبا ، كلفتني بأن اكتب اليك بأنها تحييك ، وان المرحوم كان يحدثها غالباً عنك ، وانه أمر باعطائك السانتوري ، كذكرى ، بعد وفاته٠

« فالارملة ترجوك اذن ، عندما تتاح لك فرصة المرور بقريتنا ، ان تتكلف مشقة المجيء لتمضية الليل في بيتها ، وفي الصباح ، عند ذهابك ، ان تأخذ السانتوري » ٠

انتهت

هذا الكتاب

على أحـــد شواطىء كريت ، يلتقي رجلان لاستثمار منجم لليتنيت . ويحاول أحدهما ، وهو الراوي ، ان يفرّ من عـــالم المعرفة المحموم المخيّب . وقد التقى رفيقاً هو الماسيدوني الكسي زوربا ، وهو انسان مدهش ، مغامر ، سندباد بحري ، فعهد اليه في ادارة الأعمال . وسرعان مـــا انعقدت أواصر صداقة عميقة بين ذلك المتحضّر الممتلئة نفسه بالفلسفة الشرقية ، وهذا المتوحّش الرائع الذي تقوده غرائز قوية ، والذي يعيش الحياة بكـــل امتلائها وزخمها ، ويحب الطبيعة والمـــرأة ، ويروي مغامراته الغرامية بحيوية نادرة المثال ، وينطق بالحكمة اروع مما ينطق بها فيلسوف .

وقد انتهى استثمار المنجم باخفاق؛ ولكن القصة التي يعيشها القارىء مـــع هذين البطلين والابطال الآخرين ، ولا سيما تلك المرأة المغامرة التي وقعت في غرام زوربا ، تظلّ احدى الروائع الكبرى في الأدب الحديث . وقد أخرجت حديثاً في فيلم ممتاز تولى دور زوربا فيه الممثل انطوني كوين ، الى جانب ايرين باباس التي مثلت دور تلك الارملة التي ضحت بنفسها لمجد القرية .

رواية مدهشة ، ستظل في طليعة الروايات العالمية .

الثمن : ١٣ ل.ل. أو ما يعادلها